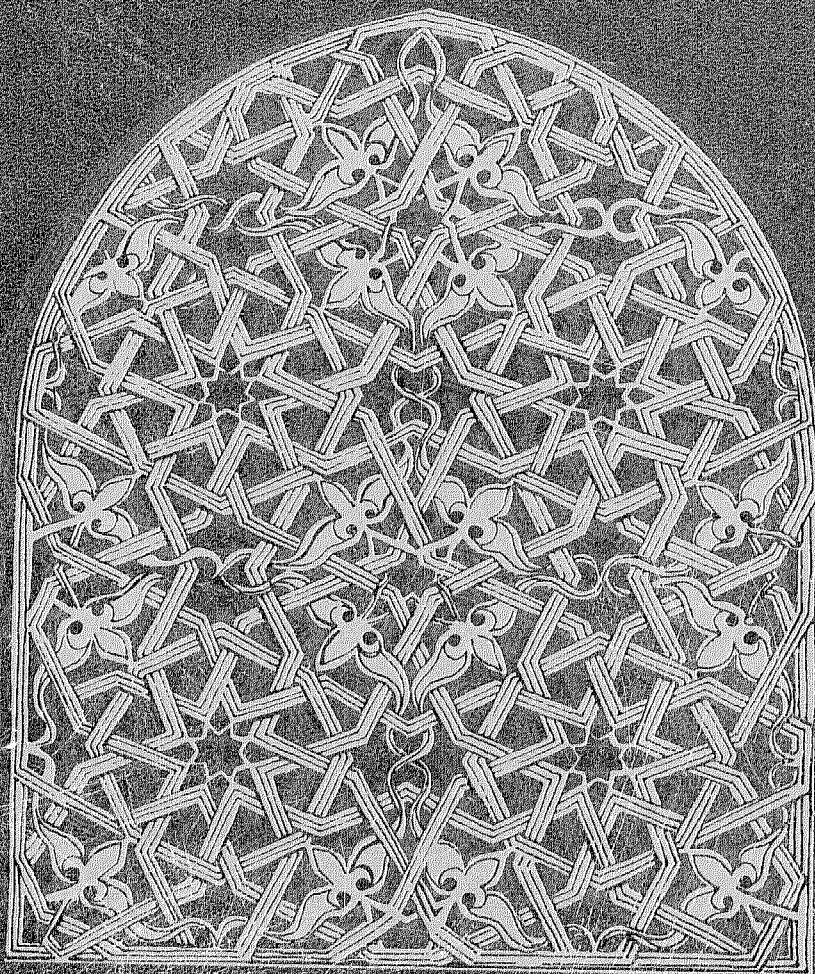


# ابن بطوطة و رحلاته

تحقيق و دراسة و تحليل



د. حسين مؤنس



٢٠٠٣ اهداوات

أسرة المرحوم الاستاذ/ محمد سعيد البسيوني  
الإسكندرية

# ابن بطوطة ورثة الله

## تحقيق ودراسة وتحليل





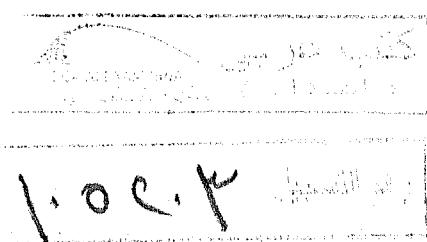
# ابن بطوطة ورحلة

تحقيق ودراسة وتحليل

تأليف

د. حسين مؤنس

أستاذ التاريخ الإسلامي  
كلية الآداب - جامعة القاهرة



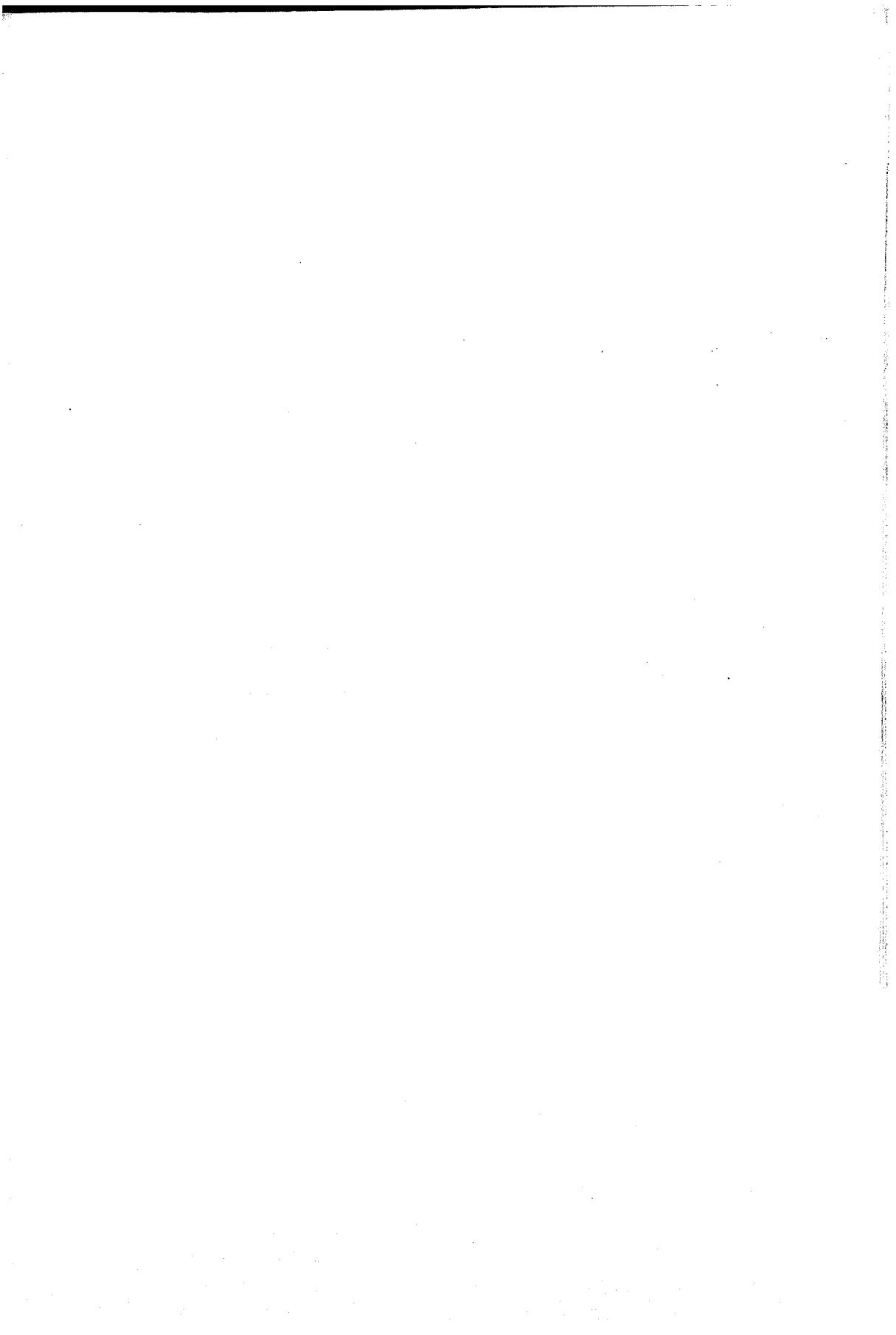
دار المعرف

١٠٠٣

الناشر : دار المعارف - ١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

ایران

# إلى أخني أنيس منصور رحالة العرب في العصر الحديث أهدى حديث رحالة الإسلام في العصر الوسيط ..



## بين يدي الكتاب

باسم الله أبتدئ وبمحوله أستعين ، له الفضل والمنة سبحانه .  
سبقي إلى الكتابة عن ابن بطوطة ورحلاته علماء أجلاء كثيرون ، وقد قرأت ما كتبوا وأفدت منه ، ولكنني أحسست كلاماً قرأته «الرحلة» أو «الرحلات» أنها مازالت تحتاج بالنسبة للقارئ العربي خاصة - إلى تحقيق ودراسة : تحقيق أعلام الأشخاص وأعلام الأماكن والطرق التي سلكها الرحالة في البر والبحر ، والdroob التي سار فيها في رحلاته الفرعية أو الجانبيّة ، وهي كثيرة جداً ، ثم دراسة الرحلة كلها وإظهار قدرها كوثيقة تاريخية واجتماعية ذات قيمة كبيرة ، فهذا رجل حمل نفسه مهمة لا تستطع بمثلها إلا جمعية علمية كبيرة ذات مال وافر ، وهي مهمة استطلاع العالم الإسلامي كله في عصره استطلاعاً مباشراً يقوم على المشاهدة والمعاينة والمعاناة وكتابه «تقرير» واف قدر الإمكان عن ذلك العالم الإسلامي الذي ذرعه بالطول والعرض ، وشقه بشجاعة وإقدام وصبر ومحبة .

وهذا على وجه التحديد هو الوصف الدقيق لهذه الرحلة : إنها «تقرير» عن أحوال الأمة الإسلامية خلال القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ، وهذا التقرير تعود القارئ العربي أن يقرأه على أنه قصة ممتعة ، أو رحلة سندبادية حافلة بالغرائب ، وبلغ الأمر أن بعضهم عمل للرحلة مختصرات تسمى «المتنق» .. حيناً و«المهدب» حيناً آخر ، وهذا في تصورى أسوأ ما يمكن أن يعامل به هذا التقرير العظيم القيمة ، وهل هناك مسأة يمكن أن تتحقق برحالة كهذه أكثر من أن يقوم رجل مثل محمد بن فتح الله ابن محمد البيلوبي ، فيستخرج من الرحلة مختصرًا يسميه «المتنق» ؟ وما الذي انتقام هذا الفاضل ؟ وما الذي تركه ؟ وعلى أي أساس كان الانتقام ؟ فهذه رحلة تتحدث عن بلاد وعباد ، وليس هناك فيما نرى بلد أفضل من بلد حتى تنتقم منه دون غيره ، أو عباد هُم أحق بالدراسة من غيرهم ، فنصطفي الحديث عنهم وترك الباقي !

وهل هناك أدل على الجهل بقيمة الرحلة من أن تمسخ في صورة «مهذب» يستعمل كتاب مطالعة لطلاب المدارس؟ كما فعل المشرفون على التعليم في مصر في العشرينات من هذا القرن ، عندما عمدوا إلى اثنين من مفتاشي اللغة العربية هما الشيخان أحمد العوامري و محمد أحمد جاد المولى في عمل تلك المسخة التي تسمى بهذب رحلة ابن بطوطة ! ولا ندري كيف يمكن أن يهذب وصف رحلة بهذه القيمة ؟ وما الأجزاء التي ينبغي استبعادها حتى تكون الرحلة مهذبة ؟

ولكن رب ضارة نافعة ! فقد ضمت وزارة المعارف إذ ذاك إلى الشيخين الجليلين شيئاً جديراً بأن تُدار عليه دراسة ، وهو الشيخ محمد فخر الدين المدرس آن ذاك بدار العلوم ، وكان خرائطياً موهوباً ، فرسم خرائط لبعض مراحل الرحلة ، تعتبر الشفيع الوحيد لهذا المهدب السخيف ! وقد انتفعت بهذه الخرائط في عمل خريطة الرحلة ، كما انتفعت بالخرائط التي أدرجها هامتون جيب وهنري يول وخراتشسكيو جابريللي ضمن ما ترجموه ، ونشروه في لغاتهم من الرحلة ، وما قاموا به هم وغيرهم من دراسات لبعض أجزائها .

وأحسن ما قرأت في العربية من أعمال علمية خاصة بهذه الرحلة كتاب «رحلة مع ابن بطوطة» للأستاذ محمود الشرقاوى (القاهرة ١٩٦٨) ، و «رحلة ابن بطوطة» للدكتور شاكر حبيب الأستاذ بجامعة بغداد (بغداد ١٩٧٢) وهما عملان جيدان انتفعت بهما أحسن انتفاع ، وشكرت لصاحبيها ما بذلا من جهد مشكور.

وبقي بعد ذلك تحقيق الرحلة ووضعها في إطارها الجغرافي والتاريخي من بدايتها ل نهايتها ، ثم دراستها جملة واحدة ، وإظهار قيمتها كصورة صادقة إلى حد بعيد لعلم الإسلام في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي .

وهذا هو الذي ندبته نفسي للقيام به في هذا الكتاب ، وقد بدأت الدراسة بمقومات عن الرجل نفسه ، وكيف قام برحلته تلك التي دامت نحو خمسة وعشرين عاماً دون أن ينفق من عنده مالاً ، فقد خرج من بلده طنجة ، وليس معه إلا بضعة دنانير ، ومع ذلك فلم يَشْكُ هذا الرجل العوز أو الضيافة أو الحاجة يوماً واحداً ! لأن الأمة الإسلامية هي التي قامت بنفقات رحلته ، وتولت كل شئونه بفضل ترابط هذه

الأمة واهتمامها بأبناء السبيل الذين أوصى بهم في القرآن الكريم مرة بعد مرة : فعلى طول الرحلة كان الرجل يتزل في الروايا والمدارس المنتشرة في جميع نواحي العالم الإسلامي ، وكان هناك دائماً أهل الخير أو أهل الطرق الصوفية الذين يعنون بأمر هذه الروايا والمدارس والنازلين فيها ، ولم يقتصر الأمر على مجرد تقديم الزاد الضروري والمأوى الخشن لأبناء السبيل ، بل تعدى ذلك إلى الطعام الطيب الوافر المتنوع ، والمأوى المؤثر الوثير ، وفي أحيان كثيرة كان القائمون بأمر هذه الروايا يعطون ابن السبيل شيئاً من المال والكسوة .

ثم إن الأمة كانت مقسمة اجتماعياً إلى « مراتب » وأصناف بحسب العمل والحرفة ، وكان أهل كل مرتبة وأهل كل حرفة يعنون بابن حرفهم الغريب المار بيلدهم ، وكان رئيس العشيرة نفسه يعني بذلك ، ويرى كيف أن الغريب من أهل مرتبته أو صنعته يستضيف ثلاثة أيام على الأقل ؟

وقد حرصت على أن أسترعى النظر إلى هذه الناحية الاجتماعية وكثير غيرها في هذه الدراسة مؤيداً بذلك بشواهد من رحلة ابن بطوطة وكلامه ، واجهت في أن أعرض صورة هذه الأمة المتربطة عرضاً يعين على فهمنا لتاريخ تلك العصور .

\* \* \*

ثم مضيت مع الرجل مرحلة مرحلة ، وكلما دخل بلدًا شرحت الظروف السياسية وقت دخوله ، وعرفت بالحكام أو الملوك أو الأمراء وحققت ما احتاج إلى تحقيق من أسماء الأماكن وأسماء المشاهد والمزارع ، واسترعى النظر إلى ما يذكر ابن بطوطة من صناعات وزراعات ومايطعم من مأكل ومايشرب من مشروب ، وما يتحدث عنه من ملبس ، ومايركب من سفين ومايسير فيه من طريق ، وينزلت في ذلك أقصى ما استطعت في ذلك الحيز الضيق الذي قدرته لهذا الكتاب .

ثم زودت الكتاب بخريطة دقيقة لمسار رحلات ابن بطوطة الثلاث ، وأتيت بأسماء الأماكن محررة صحيحة على الخريطة .

وفي الفهرس الأبيجدي في آخر الكتاب أتيت بأسماء كل ما عرضت به من أسماء

أشجار ونباتات ومعادن وصناعات وفاكهه وخضر وأصناف مأكولة أو مشروب أو آلة بيت أو أداة صناعة .

ولم أقسم الفهرس أقساماً كما يفعل الكثيرون ، بل جعلته فهرساً عاماً ، ووضعت إلى جانب كل لفظ تعريفاً بنوعه قبل ذكر الصفحات .

وقد قسمت الكتاب إلى فصول قصار هي مراحل الرحلات حتى تسهل على القارئ المراجعة ، ولم أخالف هذه القاعدة إلا في الفصول التي تحدث فيها عن تغييرات حاسمة في حياة ابن بطوطة نفسه .

وأختم هذه المقدمة بسؤال الله سبحانه وتعالى أن يسع في جنان رحمته لأنني ومعنى في معظم أعمال العلمية مصطفى عبد الجيد صالح الذي اختاره الله إلى جواره سنة ١٩٧٧ ، فقد كان رحمه الله يقرأ ما أكتب ، ويعيده بخطه الجميل ، ثم يقف على تجاذب الطبع ، وكان مثالاً في خلقه وعمله ، وهذا الكتاب هو آخر ما يَضْعِه لي بخطه .

والحمد لله في البداية والنهاية ، له سبحانه الفضل وهو من وراء كل توفيق .

د . حسين مؤنس

## مدخل

خلال هذه الصفحات ستقوم برحالة ممتعة في عالم الإسلام في أثناء القرن الثامن الهجري - الرابع عشر الميلادي.

وسيكون رفيقنا ودليلنا في هذه الرحلة رجلاً فريداً في بابه في تاريخ الحضارة الإسلامية والحضارة الإنسانية جميماً ، وهو الرحالة الأشهر أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إبراهيم اللواتي الطنجي رحالة الإسلام دون منازع . وهو واحد من أولئك الأفذاذ الذين فطّرهم الله على السعي الدائب نحو المعرفة والكشف عن ستر المحجوب وتحمّل المشاق وركوب الأخطار في سبيل المعرفة ، ولا هدف لهم من وراء النصب إلا إشباع ذلك الشوق النبيل إلى العلم وإطفاء الغلة إلى توسيع الأفق ، ومعرفة البلاد والعباد .

وقد سمعنا جميماً عن ابن بطوطة ولكن القليلين منا اهتموا بأن يعرفوا عنه أكثر من الاسم ، وأنه صاحب رحلات وأسفار وأحاديث مستغربة ، وأعتقد أنه لا عذر للناس في ذلك : فرحالة ابن بطوطة معروفة متداولة بأيدي الناس ، وهي قصة جميلة تُقرأ في اللذة واستمتاع ، لأنها في صميمها مغامرة طويلة حافلة بالمعلومات الصادقة الدقيقة بالإضافة إلى ما فيها من الغرائب والطرف ، وراوتها رجل صدوق لا يتكلف شيئاً في أحاديثه ، بل كان هو نفسه لا يفكّر في تسجيل رحلته لو لا أن الناس ألحوا عليه في ذلك ، ولو لا أن سلطان بلده - أبا عفان فارس المتوكل وهو الحادى عشر من سلاطين بنى مرين ( ٧٤٩ - ١٣٥٨ ) طلب إليه تدوين الرحلة بناء على

إشارة الوزير أبي عبد الله الوطاسي ، فقضى ابن بطوطة يكتب .

ويبدو أنه كان لا يملك أسلوباً طيباً في الترسّل ، فعهد السلطان إلى وزير من وزرائه من أهل الأدب والاهتمام بأدب الرحلات وهو أبو عبد الله بن جزى ، وكلفه أن يعيد

صوغ ما يكتبه ابن بطوطة من حديث رحلته ، فجعل ابن بطوطة يكتب وابن جزى ينفع ويصوغ ، ثم عاد ابن جزى على ما كتب فنقّحه ، وربط بين أجزائه ، وأضاف إليه بعض ما لديه من حديث عن البلاد ، وخاصة بلاد الحجاز والأراضي المقدسة والشام .

وعلى الرغم من أن ابن بطوطة قد عَرَف هذه الأرض المقدسة كما لم يعرفها أحد من الرحالة الذين كتبوا عنها فقد زارها وحج ست مرات ، فإن ابن جزى لم يرض عن حديث ابن بطوطة عن الحجاز ومكة المكرمة والمدينة المنورة وموسم الحج ، فرفعه ووضع مكانه صفحات من رحلة أبي الحسين أحمد بن جبير الأندلسي الغناطي الذي قام بثلاث رحلات من وطنه الأندلس إلى الحجاز والشرق قبل قيام ابن بطوطة برحلته بقرن كامل ، وكتب وصف رحلاته في كتاب ممتع معروف .

ومع أن ابن جبير عاش في القرن السابع المجري الثالث عشر الميلادي : أي قبل ابن بطوطة بقرن كامل ، فإن ابن جزى أجاز لنفسه هذا العمل ، وكاد يفسد الكثير من صفحات رحلة ابن بطوطة بتدخلاته تلك التي تحمل أسلوب فقيه متأنب يريد أن يعرض للناس شيئاً من علمه ومحفوظه ، ولكن لحسن الحظ لم يضف شيئاً أو يعدل شيئاً إلا قرر ذلك صراحة بقوله : « قال ابن جزى ». ومن حسن الحظ أيضاً أن تدخلاته قليلة ، ولا صعوبة في التعرف على إضافاته ونسبتها إلى أصحابها . ومعنى ذلك أن رحلة ابن جبير في مجموعها أصيلة وسليمة إلى حد كبير .

ونسأل الآن : ما السبب في غزو الناس في بلادنا عن دراسة رحلة ابن بطوطة دراسة تحقيق وتحقيق؟ والجواب أن تلك الدراسة تتطلب من صاحبها اطلاعاً واسعاً على الأدب الجغرافي الإسلامي : أي العربي والإيراني والتركي ، حتى يستطيع الدرس تحقيق أسماء الأماكنة والتعرف على الأشخاص : ذلك أن أكثر من نصف رحلة ابن بطوطة يدور خارج نطاق البلاد العربية .

وإذا كنا نستطيع دون كبير جهد تحقيق الأعلام الجغرافية والشخصية في بلاد العروبة فإن ذلك عسير خارجها ، وخاصة في بلاد الترك والبلغر – أي البلغار – وكانوا في ذلك العصر يسكنون شمال البحر الأسود ، ولم يستقروا بعد في وطنهم المعروف

صورية دراسة  
الرحالة دراسة  
علمية

صعوبات  
تحقيق الأعلام  
المجغافية

باسمهم اليوم ، وهم في الأصل ترك مسلمون في غالبيتهم ، ثم تحولوا إلى النصرانية في مسیرهم نحو بلادهم الحالية .

وتزداد هذه الصعوبة في فصول الرحلة عن بلاد الهند والصين وما يعرف اليوم بجنوب شرق آسيا وجزر الفلبين ، وقد زارها كلها هذا الرجل الطلعنة الذي لا يكل ، وهو يذكر أسماء المواقع كما كانت تعرف في أيامه ، وقد تغير معظم هذه الأسماء اليوم ، والتعرف عليها يحتاج إلى درس وبحث طويلين حتى نعرف عم يتكلم ؟ ثم إنه كان يرسم الأسماء كما كان يسمعها ، ولم يكن هذا السماع دائمًا صحيحةً ، فيتطلب الأمر البحث عن النطق الصحيح ، وهذا أمر في غاية العسر ، بل إن زياراته البعض بلاد العرب مثل عمان وظفار - حافلة بأسماء أماكن وأعلام وقرى صغيرة دَّرَّت ، ولم يعد لها وجود ، فلا تزال تبحث عنها وتتنبأ حتى تهتدى إلى حقائقها إذا يسر الله لك ذلك .

ولهذا فإن القارئ العابر لا يلبث أن يمل ويسامم القراءة عن بلاد لا يعرفها ، وقد تجشمت عناء هذا البحث والتحقيق ما وسعني مستعيناً في ذلك بكتب المغرافية العربية ، وما تيسر من المؤلفات عن البلاد غير العربية في عصر ابن بطوطة ، واستعنلت في ذلك بما كتبه الإنجليز والفرنسيون والإيطاليون من دراسات لأجزاء من رحلة ابن بطوطة وما ترجموه إلى لغاتهم منها .

وإنه لما تجدر بنا ملاحظته ولو قمنا فيه أن أولئك الأجانب بذلك أضعاف ما بذلنا من الجهد في دراسة أعمال هذا الرحالة العربي المجيد ، وقد آن لنا أن نرجو قومنا أن يتکلفوا في البحث والدرس جهداً أكبر مما يتحملونه اليوم ، وأن يعبروا عن حبهم لبلادهم وحضارتها بالانصراف عن السهل الميسور وإنفاق الجهد الحاد فيما يبدو لهم عسيراً ، لأنهم لم يکلفوا أنفسهم عناء تيسير عُسره وفتح مغاليقه .

وتجدر هنا أن نذكر أن هذا الرجل تجشم هذا الجهد كله ، لكنه يرى بعينيه عالم الإسلام من أوله إلى آخره ، ولو أنه قام بهذه الرحلات في أيامنا هذه ووسائل المواصلات ميسرة والرحلات قصيرة الأوقات لا يکاد الإنسان يحرم نفسه في أثناءها متعةً - وكانت رحلة طولها مائة وأربعون ألف كيلومتر ، تنقل الإنسان عبر المعور مرة ،

بعد مرة ، ولكن مشقة كبيرة ! فما بالنا وقد قام بها هذا الرجل في عصور كانت وسائل الانتقال فيها لا تخرج عن المسير أو على ظهور الدواب أو متون سفن يرهب الإنسان منظرها فضلاً عن ركوبها !

فما قولك مثلاً في السفن التي كان الناس يعبرون بها البحر الأحمر من عيذاب على ساحل التوبية الحالية إلى جدة ؟ كانت تبني لرحلة واحدة تتحطم بعدها ، فكان صاحب السفينة يجتهد في استيفاء ثمنها قبل إفلاتها ، ولا عليه بعد ذلك إن غرق ، فقد استوفى ماله !

وما قولك وقد ركب ابن بطوطة هذه السفن مرة بعد مرة غير هياب ؟ بل ركبها مرة من جدة فحملتهم الرياح إلى رأس دوائر شمال ميناء سواكن في السودان ، فنزل الرجل على شاطئ السودان وزار قطعة طيبة من سواحله ، ثم ركب السفن نفسها مرة أخرى إلى الصومال ، فلم يجد الرجل ضجرًا ولا ندأ منه شكوى ، وإنما أقبل يتفرج على الأرض التي حملته الأقدار إليها في لذة السائح المشغوف بها ، وأتنا من خبرها بكل متع ومفيد وطريف !

ولقد خرج ابن بطوطة لرحلاته وهو بعده في الحادية والعشرين من عمره لم تكتمل دراسته بعد ، فاستكملها على الطريق ، وخرج خاوي الوفاض لا يملك إلا بضعة دنانير ، فلم يحفل الشاب لذلك ولا ضجر ، وإنما أقبل على السير في شجاعنة تستوقف النظر ، وأحسن تدبير أمره فلم يشك طول رحلة زادت على ربع القرن مساغة ، ولا هو اضطر إلى التصلعك أو الكدية ، بل سار على سنته شيئاً كريماً على نفسه وعلى الناس ، قانعاً بالمبني في الزوايا وبما يقدمه القوم عليها من طعام بسيط أكثره التrid وشيء من القر.

وهذا كله يضفي على هذه الرحلات متعة وجهاً ، بالإضافة إلى الفائدة التي لا شك فيها .

لهذا أقدر أننا سنسعد بهذه الأحاديث ، وسنندع أنفسنا تمضى مع الرياح في رفقة هذا الرجل الطرفة الفريد في بابه الذي يصدق فيه قول ابن زريق البغدادي في قصيده التي يبدأها بقوله :

عذليه فإن العدل يلعله قد قلت حَتّاً ولكن ليس يسمعه !  
لك حيث يقول :

أب من سفر إلا وأزعجه شوق إلى سفر بالغم يتبعه !  
نا هو في حل ومرتحل موكل بقضاء الله يذرعه !  
الزمان أتاه بالرحيل غدا ولو إلى السد<sup>(١)</sup> أضحي وهو يزمعه !

---

(١) المراد : سد يأجوج وأرجوج .

## ابن بطوطة ودراوشه إلى الوجهة

قدمت في مدخل هذا الكتاب فكرة عامة عن رحلات ابن بطوطة ، وألقيت نظرة جامعة عليها وعلى قدرها كعمل جليل يعتبر علماً من معالم التاريخ الحضاري العربي . وكان ينبغي أن أخصص هذا الحديث الثاني عن الرجل نفسه وما نعرف من أحداث حياته وخصائصه المميزة ، وسأكتفي هنا بالقدر الضروري من المعلومات عنه تاركاً بقية التفاصيل للرحلة نفسها ؛ فإن ابن بطوطة يتحدث في ثياتها عن نفسه وما وقع له ، ويعرض لنا أفكاره وآراءه وأنظاره في الدنيا والناس ، ولهذا فإني أثر أن نوجز هنا ما لا بد من معرفته عنه قبل قيامه بالرحلة تاركين القارئ يستبين خصائص الرجل وفلسفته في الحياة من خلال التفاصيل التي يذكرها في سياق أوصاف رحلته .

ومن أسف أن معلوماتنا عن شأة ابن بطوطة وبنته قليلة جداً ؛ لأن أحداً من أصحاب كتب التراجم لم يقدم لنا شيئاً شافياً عنه ، وكل ما نستطيع قوله هو أنه ولد بحسب ما ذكره ابن جزى في مدينة طنجة في يوم الاثنين السابع عشر من شهر رجب سنة ٧٠٣ هجرية/الرابع والعشرين من فبراير سنة ١٣٠٤ ميلادية لأب من أوساط الناس يسمى عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواني الطنجي في درب صغير يحمل الآن اسمه في تلك المدينة الجميلة طنجة ، وهي جوهرة من جواهر بلاد الإسلام جمالاً وإشراقاً .

مولده ابن  
بطوطة ونشاته

ولكن النفس تخزن عندما تقع العين على ضريح أبي عبد الله محمد بن عبد الله ابن بطوطة في طنجة ؛ فهو ضريح يقام في زاوية - أي مسجد صغير - قد لونوا قبته وشيئاً من مثذنته باللون الأخضر .

ولقد زرته أكثر من مرة قرب سوق أحْرَضَان في طنجة ، وصلت في زاويته ، ودعوت الله أن تناح لي فرصة القيام بمحنه . وقد كنا قد شرعنا بالفعل في تنظيم ندوة

علمية في بلده هذا سنة ١٩٦٩ ، ووافقت الحكومة المغربية على ذلك ، ولكن الظروف لم تؤذن في تحقيق هذا الأمل .

ويقول ابن بطوطة نفسه في سياق حديثه : إنه ينحدر من بيت فقهاء تولى الكثير من أفراده القضاة ، ويدرك في أثناء رحلته في الأندلس أنه لقي في مدينة رُندة أحد أعمامه وكان قاضياً : فهو إذن ينحدر من أسرة من مساتير أهل العلم والفقه ، ولا يجد من حديثه أن أباه كان من الميسير ، وعلى أي حال فقد كان أفراد أوساط الفقهاء يعيشون في سعة ، ويتمتعون بتقدير كبير من الناس في عالم الإسلام كله في تلك العصور .

أما اسم « ابن بطوطة » فليس جزءاً من اسمه وإنما هو شهرته ، وما زال ذلك الاسم معروفاً إلى اليوم في المغرب .

ولا بد أن أبا عبد الله محمد ابن بطوطة قد درس على طريقة أمثاله من الشبان في ذلك العصر : حفظ القرآن ، وبدأ يدرس على الشيخ لكي يكون فقيهاً كائلاً وبقية النابحين من أهل بيته ، ولكنه لم يتم دراسته ، لأن سن الحادية والعشرين التي خرج فيها للرحلة تدل على أنه لم يتضمن حتى يستكمل دراسة الفقه ، وكانت هذه الدراسة وقتها تطول فلا يفرغ الشاب من دراسته لها إلا في حدود الثلاثين .

والواضح أن رغبته في السفر والجولان أوجعله عن إتمام الدراسة ، وهو يشبه في ذلك الشريف الإدريسي الذي ولد في سبعة المحاور لطنجة ، فهو الآخر لم يتضمن حتى يكمل دراسته في بلده ، بل خرج للرحلة وهو في الثانية والعشرين من عمره ، وكلاهما أكمل دراسته على الطريق ، وقد كان الكثيرون من طلبة العلم يفعلون ذلك ، ولكن الفارق بين الشريف الإدريسي وابن بطوطة من ناحية ، وبقية طلبة العلم التقليديين من ناحية أخرى هو أن كلا الرجلين - الجغرافي والرحالة - لم يخروا للدراسة على شيوخ بعيدين : أى لم يتها دراستهما على طريقة منهجية : أى أنهما لم يحاورا الشيخ لإتمام سماع أصول الفقه وعلوم الدين ؛ ليحصلان على الإجازات الدراسية ؛ وإنما سمعا ما تيسر لها سمعاه دون حرص كبير على إتمام الدراسة ؛ لأنهما في الحقيقة لم يريدان أن يكونا فقيهين ، بل كانت لهما في الحياة مطالب واهتمامات أخرى .

فإذا كان مطلب ابن بطوطة؟ وماذا كانت اهتماماته؟ إنه يحدثنا عن ذلك في مطلع رحلته فيقول: «وكان خروجي من طنجة مسقط رأسى في يوم الخميس الثاني من شهر الله ربى الفرد عام خمسة وعشرين وسبعيناً معتدلاً حجج بيت الله وزيارة قبر الرسول ، عليه أفضل الصلاة والسلام ، منفرداً عن رفيق آنس بصحبته ، وركب أكون في جملته لباعث على النفس شديد العزائم ، وشوق إلى تلك المعاهد الشريفة كامن في الحيازم ، فحزمت أمري على هجر الأحباب من الإناث والذكور ، وفارقت وطنى مفارقة الطيور للوكور ، وكان والدai بقيـd الحـيـa ، فـتـحـمـلـتـ لـعـدهـاـ وـصـبـاـ ، ولـقـيـتـ كـمـاـ لـقـيـاـ مـنـ الفـرـاقـ نـصـبـاـ ، وـسـىـ يـوـمـئـذـ ثـنـاثـ وـعـشـرـونـ سـنـةـ».

وإذن فقد كان دافعه إلى الخروج هو الرغبة في أداء فريضة الحج ، وهذا صحيح ، ولكن ما الذي جعله يتوجه على هذا النحو دون أن يتظر موعد خروج الركب لكي يسيراً في جملته؟

لقد كانت عادة الخارجين للحج في تلك العصور أن يخروا في قوافل خاصة بالحج منظمة تنظيمًا دقيقًا ، وفيها ناس متخصصون في كل ما يتصل بالحج من معرفة بالطريق ومراحله وأوقاته ، ومزودة بكل مطالب الحجاج ، وكان هذا الركب يسمى في المغرب باسم ركب الحاج المغربي .

ولدينا قصيدة مشهورة عن ذلك الركب منظومة على طريقة الألفيات تتضمن كل ما لابد للحجاج منه من مال وطعام وزاد وآنية ، حتى الإبرة والخيط لها ذكر في هذه القصيدة الطريفة . وكانت السلطات تزود ركب الحاج بالكتب والتوصيات والحراس على طول الطريق ، فما الذي جعل هذا الشاب يتوجه إلى ذلك الركب؟ ولا يتذكر موعد خروج ركب الحاج المغربي؟

لا تعليل إلا أن دافعه إلى ذلك كان هذا الشوق إلى رؤية الدنيا والناس : فقد ولد هذا الرجل رحلة بطبيعة ، ومع أنه يقول - إن دافعه للرحلة هو الحج - فإننا نضيف إلى ذلك أنه كان وراء هذا الدافع شوق آخر شديد إلى المعرفة . وستلاحظ ذلك على طول رحلته . وهذه الظاهرة ، ظاهرة الشوق إلى رؤية الدنيا والناس تجدها عند كبار الرحالة في أدبنا الجغرافي الفنى : فالمقدسى أيضًا يقول في فاتحة كتابه : إنه خلق مولعاً

الشوق إلى  
رؤيه الدنيا  
والناس

الدافع الأول  
لابن بطوطة  
على الخروج  
للرحلة

بالتنتقل والمعامرة والتجربة ومعرفة أحوال الدنيا ؛ وكذلك المسعودي في تقاديمه لمروج الذهب ، وأبو حامد الغناطي في حديثه في تحفة الألباب .

ولكنا لا ينبغي أن نحسب أنه خرج للرحلة وحده : أى منفرداً بنفسه كما يظن بعض الناس ؛ فإن ذلك كان مستحيلاً في تلك العصور ، قوله : إنه خرج منفرداً عن رفيق يأنس بصحبته وركب يكون في جملته - معناه أنه لم يكن له في الجمع الذي سافر معه رفيق من معارفه وأهل بلده أو قرابته ؛ فقد كانت تلك هي عادة الناس . أما ابن بطوطة فقد خرج مع ناس لا يعرفهم ، ولم يخرج في ركب الحاج ، ولكنه خرج في رفقة أى جماعة مسافرين ، ولقد التحق وهو في الطريق بركب الحاج التونسي ، وبدل رفقةه مرة بعد مرة ؛ لأن اهتمامه برؤية الناس والغرائب كان يضطره إلى التخلف عن ركبه أو رفقةه ؛ ليقضى ، مأربه ثم يلحق بأى رفقة أخرى ويقضي في سبيله .

وفي بعض الأحيان نجده يغير اتجاهه تماماً ، ويتجه إلى ناحية أخرى غير التي كان يقصد إليها ؛ لأن المدف الرئيسي عنده كان الرحلة في ذاتها ، وكل البلاد عنده سواء : فإذا كان قاصداً مصر مثلاً اتجه به المسير إلى الشام - لم يأسف لذلك أو يفقد دافعه إلى المسير ، بل نجده سعيداً بهذا التغيير مقبلًا على رؤية معاهد الشام دون أن يفارقه الشوق أو الابتهاج . . !

قوة بدنك واحتاله  
ولقد أuan ابن بطوطة على القيام بهذه الرحلات بدن قوى يتحمل المتاعب ، ويقاوم الأمراض بصورة تدعو إلى العجب : فقد كان يأكل أى طعام - عدا المحرمات - دون أن يشكو مرة سوء هضم أو تعب ، ما عدا مرة واحدة ، وكان لا يتخير طعاماً بل يأكل ما يجد ، وفي أحيان كثيرة نجده يصوم عن الطعام أياماً ، ليصلح بدنه إذا ألم به سقم ، وقد مرض أكثر من مرة في أثناء رحلاته ، وأصابته الحمى مرة بعد مرة ، وآذاه دوار البحر حتى كاد يهلك ، ولكنه كان يخرج من هذه المتاعب سليماً بفضل ما آتاه الله من صحة وقوه بنيان ، وهو يحدثنا عن كثير من أصحابه ماتوا من الأمراض أو الطعام الفاسد ، ونجا هو من الموت برغم مشاركتهم في أكل هذا الطعام ؛ لأنه كان قوى البدن ، وقد رزقه الله مناعة يسرت له النجاة من المهالك أكثر من مرة .

وكانت له بعض المعرفة بالطب والأعشاب التي كان الناس يتداون بها من الأمراض الشائعة ، فكان شديد الحرص على أن يكون له زاد منها ، وكان يداوى نفسه بنفسه ، وربما داوى غيره .

وخلالصة القول في هذا المجال أن الرجل كان مهيناً نفسياً وجسدياً للمطلب العسير الذي أراده ، وأعانه الله عليه فاستمتع بما أراد ، وأمتعنا معه .

ومن لطائف حديثه في رحلته أنه كان يذكر كل شيء حتى الصداع الذي يلم به أو المغص الذي يصيبه أو الرمد الذي يشكووه ، فيزيدنا ذلك استمتاعاً بقراءته ، فتحن معحدث بارع وحديثه كله مفيد ، حتى حديثه عن أمراضه وأوجاعه عظيم الفائدة ، فهو يعطينا فكرة عن الأدوية وأساليب التداوى في أيامه ، ويكشف لنا عن حقيقة أكبر ، وهي أن مستوى العلاج لم يكن منخفضاً كما نظن ، فقد كان للناس معارف طبية كثيرة جداً ، وكانت أدويتهم على بساطتها - نافعة ناجعة ، وهذا جانب من جوانب الحضارة الإسلامية عظيم .

## كيف قام برحلاته كلها دون مال؟

قلنا : إن ابن بطوطة علل خروجه للرحلة برغبته في أداء فريضة الحج ، وقلنا : إن ذلك كان مجرد تعلة سرت عن عينيه شوقة الشديد إلى السفر والتنقل في البلاد ، لأن السفر وتجشم متاعب الرحلة لغير غاية واضحة يعرف بها المجتمع لم يكن شيئاً مفهوماً في ذلك العصور ، ولعل الرجل لو قال - كما نقول نحن اليوم - إنني مسافر للتزهّة أو الفرجة أو الترويح عن النفس لاستقلوا عقله ورموه بالحمق وسوء التصرف ! لأن السفر في تلك العصور لم يكن متعة ولا راحة ولا نزهة ، إنما كان مغامرة بالنفس والمال ، فاكانت هناك طرق مواصلات مأمونة ، ولا كانت هناك وسائل للراحة !

ومن أهم ما تنبغي ملاحظته أن الحكومات في تلك الأعصر كانت شديدة الوطأة على المسافرين : فكانت تتفرض عليهم الضرائب والمغارم والرشا على الدخول والخروج ومعابر الأنبار ، ومع هذا فلم تكن تضمن لهم السلامة ، لأن القبائل كانت في حاجة إلى مرور القوافل بأراضيها ، فتجلب لها ما تحتاج إليه من سلاح وما عون وسرج ولجم للخيل لا يتوجونها في الصحراء ولا يستغنون عنها ، وتحمل عنهم مازاد من إنتاجهم المتواضع من الصوف والجلد والملح وما يكون في أرضهم من شيء نافع كالشّب والكلس أو العشب النافع للعلاج وما إلى ذلك ، وهذا كان شيخ القبائل يحصون على سلامة القوافل ورجالها ، ويصحبونهم في سيرهم في أراضيهم حتى يسلموهم لحياة من يليهم وهكذا .

وقد ذكرنا أن ابن بطوطة خرج لرحلته بمال قليل ، فكيف استطاع أن يقوم بهذه الرحلات الطويلة وهو لم يكن بتاجر ، يبيع ويشترى ويسد نفقات الرحلة على الطريق ؟ الجواب على هذا السؤال يكشف عن ناحية من أجمل نواحي الحضارة الإسلامية ، وهي ناحية ترابط الأمة وتأخيها وتعاون أفرادها بعضهم مع بعض ،

وأجتهدتهم في المحافظة على وحدة أمتهم وسلامة دار الإسلام .

ذلك أنه كان هناك دائماً عالماً إسلامياً : عالم السياسة ، وكله خلافات وحروب ومكاييد ، وعالم الأمة نفسها ، وهي وحدة مترابطة كما ذكرنا . ورحلة ابن بطوطة - مثالها في ذلك مثل كل كتب أدب الرحلات العربية - توضح لنا هذه الحقيقة بأجل بياني : فهذا الرجل قطع العالم الإسلامي كله من المغرب إلى إندونيسيا - التي يسميها بلاد جاوة أو سُمَطْرَة وجزر الفلبين التي يسميها بلاد طوالسي والجاليات الإسلامية في مدن السواحل الشرقية والجنوبية في الصين وتمادي في الرحلة حتى دخل بكين ، هذا الرجل قطع هذه المسافات الطويلة دون أن يشعر أنه خرج من بلده أو فارق أهله ، ووجد في كل مكان من يستقبله ويويوه ويقدم إليه الطعام ، لا على سبيل التكريم والتفضل ، بل لأنه كان هناك تنظيم حكم وضعته الأمة وقادت على رعايته وتنفيذها دون تدخل الدولة :

ذلك هو نظام الروايا والمدارس والرُّبُط - جمع رباط ، وهي دور ضيافة ينشئها رجال الطرق الصوفية أو بعض أهل الخير أو كبراء أهل الدولة من ملهم الخاص ، وقد تنشأها الجماعة نفسها ، وتتولى أمرها ورعايتها النازلين بها من أموال تجمع لهذا الغرض .

وقد فعلت الأمة ذلك تنفيذاً لما نص عليه القرآن الكريم مرة بعد مرة من رعاية ابن السبيل وإكرامه وإطعامه . وابن السبيل هو المسلم الغريب عن وطنه المسافر على الطريق الذي يحتاج - إلى جانب الطعام والمأوى - إلى أن يشعر بأنه بين أهله وإن كانوا في أي ركن من أركان عالم الإسلام كان ، وقد أحصيت ست آيات على الأقل في القرآن الكريم أوصى الله سبحانه فيها المسلمين بابن السبيل ، وجعل له نصيباً في أموال الناس .

ففي الآية ٢١٥ من سورة البقرة مثلاً تقرأ : ( يسألونك ماذا ينفقون ، قل ما أنفقتم من خير لله الدين والأقربين واليتمى والمساكين وابن السبيل ، وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم ) ، وفي الآية ٤١ من سورة الأنفال : ( واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن الله خمسه ولرسول ولذى القربي واليتمى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان ، يوم التقى الجمعان ، والله على كل شيء قادر ) ، وفي الآية ٦٠ من سورة التوبة : ( إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم )

حقيقة تاريخية

تزيدها رحلة

ابن بطوطة :

وحدة عالم

الإسلام

شبكة الروايا

والمدارس

والرُّبُط تغطي

عالم الإسلام

وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل ، فريضة من الله ، والله عالم حكيم ) ويذكر النص على حق ابن السبيل في الآية السادسة والعشرين من سورة الإسراء ، والثانية والثلاثين من سورة الروم ، والسادسة من سورة الحشر وموضع آخرى من الكتاب الكريم .

لهذا حرصت الأمة - وهى القيمة الحقيقية على الدين - على تنفيذ هذا التوجيه **الإسلام وابن السبيل والزوايا** القرآن العظيم ، فأقامت الزوايا والرُّبُط دور الصيافة في كل مكان . ورحلة ابن بطوطة أكبر دليل على ذلك : فهذا الرجل لا ينزل بلداً إلا آوى إلى الزاوية أو الرباط ، ووجد فيه ما يتيسر من الإكرام : ففي بعض الأحيان لا يظفر إلا بالنوم وشيء من الزاد ، وفي أحيان أخرى يجد الطعام الطيب والمبيت المريح والحلوى ، ولكنه لا يترك في العراء أبداً ، وسنعطي أمثلة كثيرة على ذلك في سياق هذه الدراسة .

وتجدر باللحظة أن هذه الزوايا كانت أغنى وأحسن حالاً في آسيا الصغرى وكل نواحي وسط آسيا من إيران إلى الهند ، لأن البلاد أغنى وعهد الناس بالإسلام فيها قريب ، ثم إن سكان هذه البلاد من أتراء ومخول وهنود كانوا يرحبون أشد الترحب بمن يزورهم من العرب ، وخاصة إذا كان الزائر من أهل الفقه والدين ، هنا يتجلب فضل الإسلام على الناس في صورة باهرة ، فإن أولئك الناس كانوا يحرصون على إكرام العربي ، لأن العرب قوم الرسول صلى الله عليه وسلم ، والصحابة رضوان الله عليهم منهم ، والقرآن عربي ، فما يقاد الناس يرون فقيهاً عريباً حتى يقبلوا عليه ويتنافسوا في إكرامه .

وجانب آخر من جوانب التنظيم الاجتماعي الذي قامت به الأمة من تلقاء نفسها تكشف لنا عنه رحلة ابن بطوطة ، وهو أن الناس كانوا ينقسمون إلى مراتب وأصناف :

فأما « المراتب » فهم أصحاب الوظائف الفكرية والدينية ومن في مستواهم من كبار رجال الدولة والتجار وأهل الأموال ، وأما « الأصناف » فهم أهل الحرف اليدوية على اختلاف أنواعها من بناتين ونجارين وحدادين ونساجين وصغر التجار والتواية ، وهم عمال البحر ومن إليهم . وقد تحدث مؤرخونا عن هذه المراتب وتلك الأصناف ،

وذكروا أن أهل كل مرتبة وكل حرف كانوا يكتبون فيها بينهم شبه نقابة أو رابطة ، فيتعاونون فيما بينهم ، ويكرم بعضهم بعضاً بدافع ذلك الرباط . وكانت أصناف أهل الحرف أكثر ترابطاً ، لأنهم في العادة - كانوا يتبعون إلى الطرق الصوفية الكثيرة : من شاذلة وتيجانية ورفاعية وقدرية وجُزُولية ، وكانت العادة أن يتبع أبناء الحرف الواحدة إلى طريقة بعينها ، وكانوا يسمون أنفسهم « العشيرة » ، وكان شيخ العشيرة في كل بلد أشبه بأبٍ لأهل الحرف ورئيس مطاع لهم ، يلتجئون إليه في حل مشاكلهم حتى الخاصة منها ، فيصلح بين الأزواج ، ويعنى بترويج اليتيمات ، ويراقب الأوصياء على اليتامي ، وكان سلطانه على أفراد عشيرته أقوى من سلطان الدولة .

وفي رحلة ابن بطوطة نرى براهين ذلك واضحة متعددة : فهو نفسه سلك نفسه في سلك القضاة ، لأنـه - كما يقول - من بيت قضاء ، ثم إنه تولى القضاء أول مرة بعد خروجه من تونس مع الركب ، فأصبح يعد نفسه قاضياً ، وصار لا ينزل إلا على القضاة ، فإذا نزل بلداً ولم يجد فيه زاوية أو رباطاً سأـل عن القاضـى ، ونزل عليه ، فإذا لم يجد كان نزولـه على الفقيـه ، فيجـد الإـكـرام الذى يـريـد .

ونلاحظ طوال الرحلة كيف كان الناس يكرمون بعضـهم بعضاً بروابط العمل والحرفـية دون أن نلاحظ وجود طبقـات اجتماعية ، وليس معنى ذلك أن الناس كانوا سواسـية أو أن عالم الإسلام كـما نراه عند ابن بـطـوطـة - كان مـديـنة فـاضـلـة أو أـوتـوبـية ، فقد كان هناك فقراء وأـغـيـاء ، وأـقـويـاء وـضـعـفـاء ، ولكن الأمـة كانت تجـهدـ في إـزـالـة هـذـهـ الفوارـقـ وـتحـقـيقـ المـثـلـ الأـعـلـىـ الإـسـلامـيـ بـطـرـيقـةـ تـلـقـائـيـةـ وـدونـ تـكـلـفـ .

وهـذاـ هوـ عـالـمـ الإـسـلامـ الـآـخـرـ الـذـيـ تـكـشـفـ رـحـلـةـ ابنـ بـطـوطـةـ النقـابـ عـنـهـ ، عـالـمـ أـمـةـ الإـسـلامـ .

أما عالم الإسلام الأول فهو عالم السياسة وال الحرب والصراع الذي تحدثنا عنه كتب التاريخ ، وهو عالم بغيض لا ترتاح إليه النفس ، ويشعر الإنسان وهو يقرأ أخباره أن أمـةـ الإـسـلامـ تـسـيرـ فيـ طـرـيقـ مـخـوفـ ، وـعـنـدـمـاـ تـقـرـأـ رـحـلـةـ ابنـ بـطـوطـةـ وـرـحـلـاتـ غـيـرـهـ فإنـا نـجـدـ أـنـفـسـنـاـ فيـ عـالـمـ وـاسـعـ تـسـكـنـهـ أـمـةـ وـاحـدـةـ يـرـبـطـ بـيـنـ أـفـرـادـهـ رـبـاطـ الإـسـلامـ وـالـمـوـدـةـ وـالـإـنسـانـيةـ

وهذه فضيلة أكبر من فضائل هذه الرحلة فهي في الحقيقة رحلة في عالم أمة الإسلام ، رحلة في صميم المجتمع الإسلامي نراه من خلالها على حقيقته ، وهي حقيقة تسعد الإنسان ، وتشعره بأن الدنيا بخير ما دام الإسلام بخير.

وجدير باللحظة أن ابن بطوطة قام برحلته تلك بعد انتصارات قرابة القرن والنصف على زوال خطرى الصليبيين والمغول اللذين كادا يوقفان مسيرة الحضارة في مساحات واسعة من عالم الإسلام ، ونحن إذ نمضى معه في عالم الإسلام الذي أفلح في بناء نفسه من جديد نجد أن جراح أمة الإسلام قد اندملت وأننا أمام عالم إسلامي جديد ولد بعد الكارثة وبنى نفسه ، وأقام السلام والأمان على أرضه . وكل ذلك بفضل الإسلام الذي جمع أمهه وأنزل عليها السكينة بعد طول روع وتدور . والكثير من أمم الإسلام التي سيجدها ابن بطوطة مستطلة بظل الإسلام كانت حفدة أولئك المغول الذين أرادوا أن يطفئوا نور الله ، فطواهم نور الله وهداهم ، وأدخلتهم الإسلام وجعلهم من خدامه والعاملين على رفعته .

## عصر ابن بطوطة

على طول رحلة ابن بطوطة نلاحظ اهتمامه الشديد بلقاء الأولياء وشيوخ الصوفية والزهاد وأصحاب الكرامات ، ويبلغ اهتمامه بهذا الأمر أن يتخلّف عن الركب ، ويضيّ لزيارة عابد زاهد منفرد بنفسه في مكان بعيد ، ليسأله الدعاء والبركة . وهو يؤمن إيماناً شديداً بأولئك الأولياء ، ويعطينا الأدلة على صدق ولايةهم ، واستجابة الله سبحانه وتعالى لشفاعتهم ، وما يتوجّهون به إليه من رجاء . وفي وقت من الأوقات نجد ابن بطوطة على وشك أن يترك الرحالة ، وينقطع خدمة واحد من أولئك الأولياء ، ولكن حب الرحلة غلب عليه ، فترك الفكرة ومضى .

وهذه الناحية عند ابن بطوطة تعطينا جانباً هاماً من جوانب ملامح العصر الذي عاش فيه ، وهو القرن الثامن الهجري - الرابع عشر الميلادي ، لأن هذا العصر في عالم الإسلام كله كان عصر الأولياء وأصحاب الكرامات والطرق الصوفية وشيوخها .

وهذه الظاهرة طبيعية ومنطقية من الناحية التاريخية والنفسية في عالم الإسلام في الشرق والغرب على السواء : فقد ابتل العالم الإسلامي كله خلال القرنين السادس والسابع الهجريين بنكبات متواتلة يرجع السبب في معظمها إلى تدهور نظم الحكم وفسادها وضياع هيتها ويأس الناس منها : فقد نزلت به جائحة الصليبيات ، وتحول العدون الصليبي في الأندلس وبلاد الشام من غارات وغزوات إلى احتلال أراضٍ وإدخالها في الأرض النصرانية ، كما حدث في الأندلس ، وإنشاء إمارات وممالك نصرانية على أرض إسلامية كما حدث في الشام والعراق .

وإذاء ذلك العدون المستمر الخطر وقفت دول الإسلام في المغرب والمشرق عاجزة لا تستطيع القيام بشيء يحمي دار الإسلام ، ويصون أنفس المسلمين وأموالهم : ففي الأندلس انتشرت الوحدة ، وضاعت دولة بني أمية ، وتفرقت بلادها فيما يعرف بـملك

الطوائف ، وأخذت دول إسبانيا النصرانية تقطع أراضي المسلمين جزءاً جزءاً دون أن تنقض لإيقافها إحدى هذه الدوليات .

وعندما سقطت طليطلة في يد ألفونسو السادس ملك قشتالة وليون سنة ١٠٨٥ ميلادية ضاع الأمل تماماً في إنقاذ الأندلس على أيدي أمرائه ، لأن أولئك الأمراء لم يكتفوا بخيانة الوطن العربي الإسلامي ، بل وضع معظمهم نفسه في حمامة النصارى ، وأدوا إليهم الإتاوات مما أیّس الناس جميعاً من الدول والحكومات ، ولو لا تدخل المرابطين في أعقاب نكبة طليطلة لضاعت بقية الأندلس قبل نهاية القرن الخامس المجري .

وأما في الشرق فقد ضاع الحزم جملة ، ووقف السلاجقة المتأخرن أمام العدون الصليبي موقف العاجز ، وهبط أمر الخلافة العباسية حتى لم يعد لها في العالم السياسي أي وزن ! أما الفاطميون فلم يدركواحقيقة الغزو الصليبي إلا في وقت متاخر ، وعندما استولى الصليبيون على عسقلان آخر معاقلهم في الشام خرجوا من ميدان الصراع الصليبي جملة ، ودخلت دولتهم دور الاختصار الأخير .

في هذه الظروف أحست أمّة الإسلام كلها أنها تقف عزلاً مكسوفة أمام أعداء لا يرحمون ، فاتجهت القلوب والآنفوس إلى الله سبحانه وتعالى تستنهضه القوة على مواجهة هذه الشدائـد ، وتسأله الغوث للإسلام وأهله ، وتتلفت العيون والقلوب نحو طوائف الصوفية وشيوخهم والزهاد والعباد ومن تسمّهم بالأولياء : أى أولياء الله . ولقد كانت هذه الطوائف موجودة منذ زمن طويل ، ولكن ظروف اليأس الشامل زادتهم أهمية ظهرت في المجتمع وكثّرت أعدادهم وتنوعت أشكالهم ، وأصبحوا يمثلون قوة روحية كبيرة أفاد منها الناس كثيراً . ونحن في العادة نقول :

إذا عجز الطيب ظهر الولى .

في ذلك العصر - وهو القرن الثامن المجري / الرابع عشر الميلادي - نجد لكل مدينة عدداً من الأولياء يحتلون مراكز روحية ، ولم يُعترف به حتى ل تستطيع أن تقول : إنهم كانوا أصحاب وظائف رسمية ، يعترف بها الناس ، بل يعترف بها أصحاب السلطان . والناس يرون أن هؤلاء الأولياء هم السلاطين بالفعل ، لأن

دعواتهم - فيما يحسب الناس - مستجابة من الله سبحانه ، ومازالت نسمى في مصر مساجد بعضهم مساجد سلاطين ، فنقول : مسجد السلطان الحنفي ومسجد السلطان أبي العلا . وكان لهم ترتيب محكم ، فنهم الأبدال ، وهم اثنا عشر ولها كثيراً منتشرة في نواحي العالم الإسلامي ، وكلها توفى منهم واحداً استبدل الله سبحانه به غيره . ولهذا فهم الأبدال ، وسلطانهم واسع وجاههم عظيم ، وهم على اتصال مباشر بالخضر عليه السلام ، فهو العَبْد الصالح الخالد . ولهم الأبدال الأقطاب ثم الأولياء ، وهكذا وَفَقْ نظام مقرر تجده مفصلاً في كتب طبقات الصوفية .

ولكن أحداً لا يصور لنا هؤلاء القوم دورهم السياسي والاجتماعي العظيم مثل ابن بطوطة : فهذا الرجل مشغوف بهم لا يكاد يمر بواحد منهم إلا زاره ، وهو يفعل ذلك في حرص شديد كأنه يقوم بواجب ديني ، وهم يتحدثون إليه عن سلطان حقيقي يملكونه . وبعضهم يعطيه توصيات لكي يبلغها زملاءهم في أقطار نائية : فقد لقي قطباً مصرياً في دمنهور من بلاد مصر . فأعطاه توصية إلى صاحب له في الهند وآخر في الصين ! وابن بطوطة يؤمن بما يقولون له إيماناً لا يرقى إليه الشك ، وهو لا يزال يخدثنا عن أفضالهم عليه . وكيف كانت دعواتهم من أسباب نجاته من المهالك أكثر من مرة ؟ ولن أعطي هنا أمثلة . لأننا سنصادفها في الطريق ، وسنلم بما كان بينه وبين أولئك الناس في كل بلد زاره .

وقد عاش ابن بطوطة وقام برحلاته في عصر تراخت فيه الأخطر على أمّة الإسلام ، فقد انكسرت موجة الصلبيات في المشرق بعد العمل العظيم الذي قام به رجال اليقظة الدينية القومية في العراق والشام ومصر، تلك اليقظة التي بلغت ذروتها أيام صلاح الدين ، ثم جاء الماليك فأكملوا عمل صلاح الدين . واطمأن المشرق الإسلامي بعض الشيء . فنصر الشام للثان عرفها هذا الرجل كانتا في عصر سلاطين الماليك البحريين من أيام ركن الدين بيبرس الجاشنكير ثم قلاؤون ثم أولاده وحفدته . وهذا هو العصر الذهبي للمماليلك . ولهذا فإننا نجد ابن بطوطة يتحدث عن رحاء البلاد وهذه أحوالها ويعطينا صورة مشرقة لبلاد مصر والشام .

وإذا كان المسلمين قد خسروا حتى هذا العصر معظم الأندلس . فلم تبق منه

عصر ابن  
بطوطة عصر  
الشعاعش :  
سياسي ورخاص  
عمراني

إلا مملكة غرناطة ، فقد عوض الإسلام هذه الخسارة بالتقدم الكبير الذي حققه في آسيا الصغرى على يد إمارات الغزا من سلاجقة الروم ثم طلائع التقدم العثماني في بلاد الدولة البيزنطية . ولقد زار ابن بطوطة هذه الإمارات ، ورأى من قوة رجالها وإيمانهم بالإسلام ما يشرح صدر المسلم ويعوضه الكثير من الألم الذي يُثقل عليه عندما يذكر الأندلس وما كان يجري فيها .

كذلك كان الإسلام يتقدم حديثاً في الهند وشرق آسيا وجنوبها : أى أن الرجل جال في عالم الإسلام في عصر إشراق وأمل ، وفي القرن الذي تلا رحلاته وهو القرن الخامس عشر - يدخل الإسلام في عصر زاهر من القوة ، عصر الدول العظمى الإسلامية الأخيرة : سلطنة مغول الهند ، ثم أواخر التوربين ، وطلائع الصنوفيين في إيران ، ثم سلطنة مصر والشام المملوكية ، وطلائع الأتراك العثمانيين ، ثم يلي ذلك غرباً أواخر الحفصيين ثم أمراء بنى زيان في تلمسان ، وتنتهي غرباً بدولة آل مرين في المغرب الأقصى .

هذه كلها كانت دولًا كبيرة قوية ، وبعضها كان تمهدًا لدول أعظم منها كما نرى في إيران حيث حل الصنوفيون محل بقايا التوربين والإيلخانات ، وفي آسيا الصغرى والبلقان حيث قامت سلطنة آل عثمان سلاطين الحفصيين في أفريقيا وجزء من المغرب الأوسط ، ثم سلاطين الشرفاء السعديين الذين حلو محل بنى مرين وبنى وطاس وبنى زيان .

كان العالم الإسلامي أيام ابن بطوطة - إذن - عالماً آخرناً بأسباب القوة ، سائراً في طريق الصعود ، ولكن خلف الوجهة الضخمة المخادعة كان يمكن الداء ، بل الأدواء ؛ فإن البناء الإداري والسياسي لدول الإسلام في العصور الوسطى المتأخرة كان قد تأكل وفسدت نظمه وقواعد، وتحولت الدول - فيحقيقة الأمر - إلى استبدادات طاغية ، لا هم لها إلا جمع الأموال من الناس وإنفاقها على جندها ، إلا شيئاً يسيراً كانت تنفقه في مصالح البلاد والعباد .

وسيتجلى ذلك بكل وضوح في انهيار الدولة المملوكية لأول صدمة جادة من الأتراك العثمانيين ، وفي انهيار الدولة الحفصية أمام هجمات الإسبان ، ثم انهيار دولة

بني وطاس تحت وطأة المجوم البرتغالي الذي لم يوقفه إلا مجىء الشرفاء السعديين . ولكن ابن بطوطة - على أى حال - طاف بنواحي عالم إسلامي مستقر الأحوال قائم النظم ، وإذا كانت الأطر السياسية قد تدهورت فإن الأطر الاجتماعية والأخلاقية ما زالت قائمة . ومن خلال أحاديث ابن بطوطة لا نرى دولاً عظيمة بالمعنى الصحيح ، ولا نظماً سياسية سليمة جديرة بالتقدير ، ولا سلاطين أو أمراء عظاماً يستحب للإنسان الوقوف عندهم ، ولكننا نلقى نظاماً اجتماعياً وأخلاقياً سليماً ، ونطوف معه في بلاد جماعة إسلامية آمنة محافظة على أطراها وقواعدها وأخلاقياتها .

وهذا هو الذي يضفي على هذه الرحلة متعة وجهاً ، ويجعل قراءتها راحة للنفس والقلب . إنها رحلة في عالم الإسلام الآخر ، عالم الأمة الإسلامية المستقرة الآمنة المطمئنة الفياضة بالخير .

ولم أجده فيها قرأت من كتب التراث عندنا ما يصور ترابط أمة الإسلام واستقرار قواعدها ؛ كما وجدت عند ابن بطوطة ، فيبينا نجد الكتب الأخرى تحدثنا عن الحروب والصراعات والغلوات والمجاعات أو تصرفنا عن عالم الواقع صرفاً تماماً نجد ابن بطوطة يعرض لنا صورة عالم إسلامي مستقر آمن . والسبب في ذلك أن الرجل قد قام بهذه الرحلة في عالم أمة الإسلام الواسع دون أن يتأثر كثيراً بما كان يجرى بين الرؤساء في عصره من حروب ؛ لأن أمة الإسلام كانت قد أخرجت نفسها من نزاعات السياسة داخل نطاقها ، وعاشت بعيداً عن منازعات الرؤساء ، آمنة في ظل العقيدة الواحدة ، عقيدة التوحيد والسلام .

## الطريق من طنجة إلى تونس - إقامته قاضياً

بعد أن ألمتنا بهذه المعلومات عن الإطار العام الذي تمت فيه رحلة أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم الواقي الطنجي المعروف بابن بطوطة - نبدأ في السير معه خلال هذه الرحلة الطويلة مرحلة مرحلة ، منبهين في كل مرحلة إلى ما يستوقف النظر ، وفهم المطلع إلى أحوال دار الإسلام والدنيا في أيامه من الحفائق التاريخية والظواهر الاجتماعية ، وما عسى أن يطرف الإنسان من الغرائب والعجائب من أحوال الناس في هذه الدنيا .

ونحن إذ نفعل هذا إنما نقوم مع ابن بطوطة بدراسة شاملة ، أو استطلاع - إذا شئت - لأحوال أمّة الإسلام خلال القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي : خرج ابن بطوطة لرحلته يوم الخميس الثاني من شهر رجب سنة ٧٢٥/الخامس من يونيو ١٣٢٦ ، وكانت سنه إذ ذاك اثنين وعشرين سنة هجرية تقضي خمسة عشر يوماً . وقد ذكرنا أنه خرج في رحلته تلك مع رفقة مسافرين لا مع ركب الحاج ، وكانت أولى المراحل التي وقف عندها مدينة تلمسان ، وكانت إذ ذاك عاصمة إمارة زناتية تحكمها أسرة بنى زيان أو بنى عبد الواد وهي أسرة زناتية عريقة تكانت من السيطرة على الجزء الغربي من المغرب الأوسط من نهر المولوية إلى مدينة وهران ، واستمرت تحكمه ما بين سعود ونحوه ثلاثة قرون ونيفاً ، من ١٢٣٦ حتى ١٥٥٠ . وكان أميرها إذ ذاك أباً شفيف عبد الرحمن بن موسى بن عثمان بن أبي يحيى يعمرا سن بن زيان ، وهو أمير جرىء واسع الشاطط لا يغفر التاريخ له أنه دبر مصرع أخيه موسى ورأه يقتل بين يديه ، وصعد إلى العرش على هذا النحو ، واجتهد في تبرير فعلته بالاجتهد في تقريب الفقهاء والعلماء وإنشاء المدارس والرُّبُط ، واستقدام أهل العلم والفن من الأندلس وأفريقيا والمغرب الأقصى . وقد عنى كذلك بمسجد تلمسان

تلمسان  
وإمارة  
بني زيان

الجامع ، فوسعه وزينه ، وجعله في الصورة التي نراها عليها اليوم ، وهذا المسجد من منشآت يوسف بن تاشفين .

وكانت تلمسان في أيامه إماراة غنية بفضل ما ساد ربوعها من أمن أزهرت في ظلاله التجارة ، وتواجد عليها من مهاجرة أهل الأندلس الكثيرون من التجار بأموالهم ، فتحولت تلمسان إلى مركز تجاري كبير ، لأن التجارة كانت تخرب من موانئها مثل وهران وأرشنقول وقليله ، ثم تمضي إلى سِجَّلاسَة ، ومن هذه الأخيرة تتفرع طرق التجارة إلى نواحي السُّوس في جنوب المغرب الأقصى ، وإلى تِمْبُكتُو العاصمة التجارية لأفريقيا الإسلامية المدارية على نهر النيل ، وإلى أدار وتاوريرت من مراكز القوافل في الصحراء الكبرى .

وكانت هذه القوافل تجلب إلى تلمسان قدرًا عظيمًا من التبر الذي يجمع من مياه أنهار Africaine المدارية ، وجلاود اللّمط ، وهو نوع من الوعول غليظ الجلد تصنع منه الدروع وسرج الخيل وقرايس الركوب وقد تبطن به السفن ، فكان الطلب عليه شديداً ، وكانت تجلب كذلك سن الفيل وريش النعام والخشب الصلب والملح ، وكل هذا كان التجار يصدرونها إلى أوروبا من المواني التي ذكرناها ويستوردون بدها بضائع كثيرة أهمها السيوف والآلة الحرب وال الحديد وبعض النسيج والورق وما إليها .

ولا يخدثنا ابن بطوطه بشيء من ذلك ، وإنما هو يعطينا صورة مشتركة لتلمسان كما رأها بنفسه ، فهي - على هذا - وثيقة تاريخية ؛ ثم يذكر كيف أن الظروف شاعت أن يفد على تلمسان رسولان من قبل أبي يحيى بن أبي ضربة بن أبي زكريا بن اللاحاني ، وهو الحادى عشر من أمراء الدولة الحفصية الذين اتخذوا لقب الخلافة ، وعمرت دولتهم ثلاثة قرون ونصف القرن ، منها نصف قرن من السعود ، والباقي نحو خمس وعشرين واحتضار . وكان أبو يحيى هذا قد تولى العرش بعد محن دارت على أبيه وجده وهنَّ منها كيان الدولة ، فلم تعد بعد ذلك قط إلى بهائهما الأول أيام أميرها أبي عبد الله محمد ابن أبي زكريا يحيى الملقب بالمستنصر ، صاحب النصر العظيم على لويس التاسع الملك الفرنسي الصليبي الذي حاول غزو مصر ففشل ، وهزم وأسر وسُجن في دار بن لقمان في

المنصورة ، ثم أخلى سبيله ، فعاد ؛ ليتقم من أهل الإسلام في تونس ، فانهزم وُقتل سنة ١٢٧٠ ميلادية .

ويهمنا من ذلك كله أن ابن بطوطة انتهز فرصة خروج رسول أمير أفريقيا - أي تونس - الحفصي ، فخرج في رفقتها ، وليته ما فعل ! فقد لقى في رفقتها وصباً ؛ فقد لقى بها بعد أن خرجا أيام في مدينة مليانة ، وكان الوقت قيظاً فنزلت بها الحمى ، فلما كانوا على مسافة قصيرة من مليانة في الطريق إلى مدينة الجزائر توفى أحدهما ، وكان قاضياً ، فعادوا إلى مليانة ودفنوه فيها ، ووجد ابن بطوطة الشاب أن وقته سيضيع مع هذين الشقيقين ، فترك رفقتها ، والتحق برفقة جديدة ذاهبة إلى مدينة الجزائر ، وكان في الرفقة الجديدة نفر من كرام الناس عوضوه عن بعض ما بقي من صاحبيه الأولين .  
مدينة الجزائر  
ووصلوا إلى مدينة الجزائر فلم يطيلوا المقام فيها ؛ لأن الجزائر لم تكن مدينة بعد ، وإنما كانت فرصة صغيرة أمامها في البحر جزر صغيرة وصخرة بارزة في البحر عظيمة ، وكانت تسيطر على الناحية قبيلة تسمى ببني مزغنا ، وكانت الفرضة تسمى بجزائر بني مزغنا ، ويرجع الفضل في تعميرها وتمديتها إلى مهاجرة الأندلس ، وقد عُنى بذلك الفرضة المرابطون ، وأنشأ يوسف بن تاشفين فيها مسجداً ، ثم مددوها الموحدون ، ثم اتخذ خير الدين باربروسا - واسمه عروج - الفرضة والصخرة قاعدة لأعماله ضد الإسبان بعد أن استخلصها منهم خلال القرن الخامس عشر ، ومن ذلك حين أصبحت جزائر بني مزغنا تسمى بالجزائر فحسب ، وأصبحت كذلك القاعدة الثانية لل المغرب الأوسط ، وحلت محل تاهرت وبجاية . أما القاعدة الأولى للمغرب الأوسط فكانت تلمسان ، وقد تحدثنا عنها .

وكانت في المغرب الأوسط قاعدة كبيرة ثلاثة ، وهي بجاية ، ولكنها كانت أيام بجاية زارها ابن بطوطة تابعة للحفصيين أصحاب أفريقيا وقادتهم تونس . وكانت بجاية مدينة جليلة ومركز علم وعلماء ، وكانت قد تمدنت على أيدي الناصر بن عَلَّاتِس وهو أكبر أمراء فرع بني حماد من دولة بني زيري بن مناد الصنهاجيين خلفاء الفاطميين على أفريقيا ، وما دان لهم من المغرب .  
وعندما ترك ابن بطوطة ورفقته بجاية كانت الصحبة قد ثوّلت بين ابن بطوطة

وفقيه وقاضٍ من الرفقة ، ولكنهم عندما وصلوا إلى بجاية نزل القاضي عند قاضي البلد ، ونزل الفقيه على أحد الفقهاء ، أما ابن بطوطة فلم يكن بقاض ولا فقيه ، فتركوه ينزل حيث يستطيع ، وهناك أصابته الحمى وإن لم تقطع الصلة بينه وبين صديق من أصدقاء القاضي وهو أبو عبد الله الزبيدي وكان من التجار .

ويحكي ابن بطوطة أن تاجراً من الرفقة توفى وترك ثلاثة آلاف دينار من الذهب ، وأوصى بها لرجل من تجار الجزائر يسمى ابن حديدة ليوصلها إلى ورثته بتونس ، «فانتهى خبرها لأبي عبد الله محمد بن سيد الناس الحاجب أمير بجاية للحفصيين ، فانتزعها من يده ، وهذا أول ما شهدته من ظلم عمال الموحدين» (ص ١٢) ، والمراد بالموحدين هنا الحفصيون ، لأن أبي محمد عبد الواحد بن أبي محمد بن أبي حفص عمر الملتقي مؤسس الدولة الحفصية كان من كبار الموحدين ، وكانت الدولة الحفصية في أول أمرها فرعاً من دولة الموحدين .

قلنا : إن ابن بطوطة أصابته الحمى ، فنصحه صاحبه أبو عبد الله الزبيدي بأن يستريح في بجاية حتى يبرأ ، فأبى وركب الدابة على مرض وقال : «إن قضى الله عزوجل بالموت ف تكون وفاته على الطريق وأنا قاصد أرض الحجاز» ومن المعروف أن الناس كانوا يرون أن من مات في طريق الحج عُذْ شهيداً ، وقد عنى به الزبيدي وأعاره دابة وخباء ، وقال ابن بطوطة : «وكان ذلك أول ما ظهر لى من الألطاف الإلهية في تلك الوجهة الحجازية» .

وفي قسطنطينة لقي ابن بطوطة مكرمة جديدة من مكارم أهل الجود تؤكد ما قلناه من ترابط الأمة الإسلامية وتعاونها على الخير ورعايتها لابن السبيل . وكان المطر قد هطل على الرفقة وهم نائمون في الأنجوبة ، فتلوثت ثياب ابن بطوطة ، قال : «فنظر حاكم المدينة - وهو من الشرفاء الفضلاء - إلى ثيابي وقد لوثها المطر ، فأمر بغسلها في داره ، وكان الإحرام منها خلقاً ، فبعث مكانه إحراماً بعلبكياً ، وصارَّ في أحد طرفيه دينارين من الذهب ، فكان ذلك أول ما فتح علىَّ به في وجهي» (ص ١٢)

وأصابت ابن بطوطة الحمى مرة أخرى وهو في الطريق من بونة إلى تونس ، فكان يشد نفسه بعامته فوق السرج خوف السقوط بسبب الضعف ، «ولا يمكنني النزول من

الخوف» وعندما وصلوا إلى تونس خرج الناس للقاء صاحبيه أبي عبد الله الزبيدي وأبى عبد الله النفزاوى . وترك ابن بطوطة وحيداً لعدم معرفته أحداً من الناس ، فعزت عليه نفسه وبكى ، واشتد بكاؤه ، فرق له فؤاد بعض الناس ، فأقبلوا عليه يؤنسونه ، فدخل تونس ونزل فيها بمدرسة الكتبين .

وقد رأى ابن بطوطة سلطان تونس إذ ذاك أبا يحيى أبا بكر وهو يشهد صلاة عيد الفطر سنة ٧٢٥/العاشر من سبتمبر ١٣٢٤ ، ولم يطل مقامه بتونس ؛ إذ كان لا بد له من الخروج مع ركب الحاج فاقيم أميراً للحج رجل يسمى أبا يعقوب السوسي ، وكان أكثر الحجاج من المصامدة ؛ أى من سكان جنوب المغرب الأقصى ، «فقدموني قاضياً بينهم : أى قاضى طريق كما يقال ، ومن ذلك الحين أصبح ابن بطوطة الشاب قاضياً وحمل لقب القاضى ، وأصبح من أهل المراتب يتزل على القضاة والفقهاء .

أول زيارات  
ابن بطوطة

لا صحة لما  
يقال عنه من  
أنه كان  
مزواجاً

الإسكندرية

٦

## من الإسكندرية إلى القاهرة

خرج ابن بطوطة من تونس في ركب الحاج التونسي وقد أقيم قاضياً للموكب ، فلما وصلوا إلى صفاقس خطب بنتاً لأحد أمناء تونس من أفراد القافلة ، والأمين هنا يراد به مانسيمه بتنقيب أهل حرف من الحرف في بلد من البلاد ، وهذا يدل على أن ابن بطوطة لم يكن قد رقى بعد في السلم الاجتماعي حتى يخطب ابنة أحد القضاة أو التجار ، فلما وصلوا طرابلس بنى بها وذلك في أواخر المحرم سنة ٧٢٦ أواسط يناير ١٣٢٦ ، وتلك هي أولى زيارات ابن بطوطة .

والمشهور أن ابن بطوطة كان مزواجاً لا يزال يتزوج ويطلق على طول الطريق ، ولكن ذلك غير صحيح ، فقد كان الرجل عاديًّا من هذه الناحية ، لا يصر على الزواج قبل أن تعيب شمس أي يوم كما يقال ولقد ظل ابن بطوطة على هذه الحال البسيطة حتى دخل آسيا الصغرى ، فانصبت عليه المبات وكثير المال في يده وكثرت جواريه ، فبدأت حاله تتغير ، وببدأنا نحس أن صاحبنا الشاب الطيب المتواضع الطنجي بدأ يتحول إلى رجل متوف شديد الحرث على المال والماتع .

ويشاء الحظ ألا يوفق هذا الزوج الأول لابن بطوطة ، لا لخلاف وقع بينه وبين عروسه ، بل لشجار وقع بينه وبين أبيها ، فطلقت المسكينة ، وكأنما أراد ابن بطوطة أن يغطي صهره السابق ، فتزوج على الطريق أيضاً بنتاً لأحد طلبة فاس ، قال «وبنيت بها بقصر الزَّعافِيَّةِ ، وأولت ولية حبس طا الركب يوماً ، وأطعمتهم» (ص ١٥) وقصر الزعافية بعد مدينة سُرت بقليل في الجمهورية الليبية .

وفي الأول من جمادى الأولى ٥/٧٢٦ دخل ابن بطوطة مع الركب مدينة الإسكندرية ، وقبل أن تحدث عن ابن بطوطة في الإسكندرية نقول إن مصطلح «الطلبة» الذي مر ذكره كان يطلق على طلاب العلم وصغار الفقهاء الذين

كانوا يتلقاً رواتب من الدولة الموحدية ؛ لأنهم كانوا يقرعون ومحفظون كتب محمد بن تومرت مهدي الموحدين ، حتى بعد أن ألغت عقيدة إمامه المهدى أيام أبي العلاء إدريس المأمون ثامن خلفاء الموحدين (١٢٢٧ - ١٢٣٢) ظل طلبة الموحدين من رجال الدولة القائمين بدعوتها واستمرت رواتبهم .

**رخاء البلد في ذلك الحين**

بردت الإسكندرية أنظار ابن بطوطة بروائتها وجماها ، وكان البلد إلى ذلك الحين محظوظاً بكل بهائه ورونقه وثرائه ؛ لأن التجارة بين آسيا وأوروبا كانت على أشدها ، وكان الجنويون والبيشليون والبنادقة يرسلون المراكب إلى ميناء مصر الكبير ، وهناك يشتري ما فيها من بضائع تجارة المصريين ، وينقلونها إلى السويس أو القلزم ، وهناك يبيعون متاجرهم للتجار الوافدين من اليمن والهند ، ويبيعون منهم بضائع الهند من توابل وأقمشة حرير وتحف لينقلوها إلى الإسكندرية ويعيدها تجارة الفرنج ، وكانت الدولة المملوكية الأولى تبني من وراء ذلك أرباحاً طائلة ، وكان ثغر الإسكندرية عامراً بالحركة والمال والناس ، وكانت هناك فنادق تجارة الإفرنج ووكالات الجماليات التجارية الإيطالية ، وكانت الخزانة المملوكية عامرة بالمال عن ذلك الطريق .

**أبواب الإسكندرية**

يتحدث ابن بطوطة عن ميناء الإسكندرية وسورها وأبوابها الأربع - باب سدرة وباب رشيد وباب البحر وباب الأخضر - وهي معروفة إلى اليوم وهو لا يجد مثيلاً مرسى الإسكندرية إلا مرسى كولم وقالقوط في الهند ، ومرسى الكفار بسرادق ببلاد الأتراك ومرسى الزيتون في بلاد الصين ، ستحدث عن هذه الموانئ كلها فيما يلى من الأحاديث .

**منارة الإسكندرية**

ويتحدث ابن بطوطة عن منارة الإسكندرية ويقول : إنه رأى أحد جوانبها متهدماً ، وبحسب ما ذكر تلك هي أول مرة نقرأ فيها عن بداية هدم تلك المنارة التي كانت تعد من عجائب الدنيا السبع ثم يقول بعد قليل : « وقصدت المنار عند عودي إلى بلاد المغرب عام خمسين وسبعيناً (١٣٤٩) فوجده قد استولى عليه الخراب بحيث لا يمكن دخوله أو الصعود إلى بابه ، وكان الملك الناصر رحمة الله قد شرع في بناء منار

**عمود السوارى**

مثله يازاته فعاقه الموت عن إمامته » .  
وبتحديث عن عمود السوارى ، ثم يتحدث عن بعض علماء الإسكندرية منهم

قاضيها عماد الدين الكندي الذي كان يعم « بعامة خرفت المعتاد للعامّ ، لم أر في مشارق الأرض و مغاربها عامة أعظم منها ، رأيتها يوماً قاعداً في صدر محابه ، وقد كادت عامته تملأ المحراب ! »

أضخم عامّة  
رأها  
وعماد الدين هذا هو أول من يلقاه ابن بطوطه من الرجال الذين يتركت اسمهم من شيء مضيق إليه لفظ « الدين » مثل فخر الدين وركن الدين وبهاء الدين ، وفي هذا العصر كله ما كان من الممكن أن تجد رجلاً من أهل العلم لا يتسمى على هذا الأسلوب ، حتى ابن بطوطه نفسه تسمى بشمس الدين .

أول من لقى  
من الأولياء  
وفي الإسكندرية يلقى ابن بطوطة أوائل أصحاب الكرامات الذين كان يؤمن بهم ويحرص على لقائهم والفوز ببركاتهم على طريقة أهل عصره وإيمانهم بهم ، منهم الشيخ أبو عبد الله الفاسي ، وهو كما يقول ابن بطوطة - من كبار أولياء الله تعالى ، يذكر أنه كان يسمع رد السلام عليه إذا سلم من صلاته (ص ١٩) <sup>(١)</sup> ، والإمام الزاهد الورع « خليفة » صاحب المكاففات ، ويدرك أنه دخل مرة على الشيخ خليفة فقال له « أراك تحب السياحة والجولان في البلاد » فقلت له : نعم إنّي أحّب ذلك ، ولم يكن حيثُنْ يخاطرني التوغل في البلاد القاصية من الهند والصين ، فقال لا بد لك إن شاء الله من زيارة أخي فريد الدين بالهند ، أخي ركن الدين زكرياء بالسند وأخي برهان الدين بالصين ! فإذا بلغتم فأبلغتم من السلام فعجبت من قوله ، وألتقي في رويع التوجه إلى تلك البلاد ، ولم أزل أجول حتى لقيت الثلاثة الذين ذكرهم (ص ٢٠) .

ويذكر كذلك من الأولياء الشيخ ياقوت الحبشي تلميذ أبي العباس المرسي ، هذا بدوره تلميذ أبي الحسن الشاذلي ، وسرى ابن بطوطة يزور قبر الشاذلي في حُمِيشَة في الطريق من قوص إلى عذاب ، وبهذه المناسبة يورد ابن بطوطة نص « حزب البحر » أي دعاء البحر الذي كان يقرؤه الشيخ الشاذلي إذا عبر البحر الأحمر من عذاب إلى جدة ليسمه الله من العطّب ، وما زال الشاذلي يتلو حزب البحر هذا كل يوم .

حرص سلطان المالك على سلامه تجاه الإفرنج

ويحكى وهو بالإسكندرية حكاية تدل على حرص والي الإسكندرية على سلامه

(١) أرقام الصفحات هنا تشير إلى طبعة بيروت سنة ١٩٦١ لرحلات ابن بطوطه ، وهي طبعة غير محققه ، ولكنها هي التي في متناول الأيدي اليوم .

تجار الإفرنج فقد وقعت مشاجرة بين تجار الإفرنج وأهل الإسكندرية ، فتحيز الوالي للتجار وعاقب المشاجرين معهم من أهل البلد ، فثارت ثائرة الناس ، وأرسل السلطان الناصر رسولًا من القاهرة فتحيز هو الآخر للإفرنج ، واسمه طوغان ، ويصفه ابن بطوطة بأنه كان جباراً قاسى القلب يقال : إنه كان يعبد الشمس ، فكان هذا الرجل أقسى من الوالي على أهل البلد ، فحبس كبارهم وأغرمهم الأموال وقتل ستة وثلاثين منهم ، وقطع كل رجل قطعتين وصلبهم صفين ، وكان ذلك يوم الجمعة . ولم نسمع بهذا الجزء إلا من ابن بطوطة ، ولكنه على أي حال يدل على حرص السلطان الناصر بن المنصور قلاؤون على تأمين جالية تجار الإفرنج في الإسكندرية فهم مصدرون دخل عظيم للدولة !

وقرب الإسكندرية سمع ابن بطوطة « بالشيخ العابد المنقطع المتنق من الكون أبي عبد الله المرشدى ، والمنق من الكون هو الولي الذى يرزقه الله من عنده رأساً أى من الكون فلا يحتاج إلى سعي أو عطاء من أحد ، وكان متفرداً في زاوية له في منية بني مرشد في الطريق إلى دمنهور ، وهناك يقصده الوزراء والكرياء وعامة الناس ، فيشتهر كل منهم ما يريد من الطعام ، فإذا به منها كانوا بالطبع كان هذا كله من الكون ». .

ووصل ابن بطوطة دمنهور ، ومنها إلى فوة ومن هناك قصد إلى زاوية الشيخ أبي عبد الله المرشدى ، فلقى منه إكراماً وبراً ، وقال له الشيخ : « اصعد إلى سطح الزاوية ونم هناك .. فصعدت السطح فوجدت به حصيراً ونطعاً وآية للوضوء وجرة ماء وقدحاً للشرب فنم هناك »

ورأى ابن بطوطة في نومه مناماً ، فلم ينعد الشیخ به وانتظر أن يکاشفه الشیخ والمکافحة هي أن یعلم الشیخ أنك رأیت المنام الفلاني دون أن تخکی له شيئاً عنه فيقصه عليك ويفسر لك ، وقد فعل الشیخ المرشدى ذلك فزاد إيمان ابن بطوطة به . ومن دمنهور ذهب إلى إيبار ثم إلى المحلة الكبرى ثم إلى دمیاط ، وهذا أمر مستغرب ، فهل كان يقصد القاهرة أو يقصد الشام وهو يثني على دمیاط ومدينة البرلس ويذكر شیخاً صالحًا من أهل دمیاط یسمی الشیخ جمال الدین الساوی کان یبهر النساء

بحاله ويحكى كيف كاد يقع في حبائل إحداهم حتى نجاه الله ؟ ثم هبط إلى فارسكور ثم إلى أشمون الرمان ثم إلى سمنود ، ومنها إلى القاهرة ، وهو يسمىها مدينة مصر ، وكان على طول طريقه هذا يلقى العباد والزهاد وأصحاب الكرامات ؛ لأن رحلة ابن بطوطة إلى الآن رحلة دينية ، أو كراماتية إذا صع هذا التعبير ؛ فقد كان يقصد من يسمع به من أولياء الله في بلادهم ، ويوجه رحلته على هذا الأساس لا على أساس الجغرافية . وهذه ناحية جديرة بالللاطفة عند دراسة رحلة ابن بطوطة ، فهذا الرجل يطوف بنواحي الأرض مدفوعاً بعوامل شتى تجعل خط رحلته يتوجه اتجاهات لا يمكن تفسيرها بالملحق ولا تفسير لها إلا بفهم طبيعة ابن بطوطة .

فهذا رجل سَفَّار بطبعه يرحل للرحلة في ذاتها ، ويعرب للتنقل في نواحي الأرض ، كل شيء جديد يشوقه ويجذبه إليه .

وهذا رجل مؤمن عميق الإيمان يثق في الأولياء ثقة بلا حدود ، إنه يتسمهم ليس لهم البركات ، ويطرد أشد الطرف إذا هو جلس إلى ولی واستمع إلى صوته الحافل بالبركات وهذا رجل مسلم مشوق لرؤيه عالم الإسلام كله ، فهو يطوف بنواحي الأرض في صبر واحتمال كأنه صحفى أرسلته صحفته ؛ ليكتب استطلاعاً عن عالم الإسلام ، فهو يطوف بذلك العالم الإسلامي ؛ ليتفرج ويستمتع ومركز حركته كلها مكة أم القرى وقلب عالم الإسلام ، يطوف ويطوف ثم يعود إليها ، ليصيّب زاداً روحيًا جديداً يعينه على مواصلة المسير .

## القاهرة - الصعيد إلى عذاب

يبدأ ابن بطوطة كلامه عن مصر بعبارة مثقلة بالمعنى والعمق ، ولا أحسب أنه ساقها مجرد الحافظة على السجع ، قال « ثم وصلت إلى مدينة مصر ، وهي أم البلاد وقرارة فرعون ذي الأوتاد ، ذات الأقاليم العربية والبلاد الأriضية ، المتناهية في كثرة العمار ، المتناهية بالحسن والتضارة ، بجمع الوارد والصادر ، ومحط رحل الصعييف والقادر ، وبها ما شئت من عالم وجاهل ، وجاد وهازل ، وحليم وسفيه ، ووضيع ونبيه ، وشريف ومشروف ، ومنكر ومعروف ، وتقوج موج البحر بسكنها ، وتکاد تضيق بهم على سعة مكانها وأماكنها ، وشبابها يجد<sup>(١)</sup> على طول العهد وكوكب تعديلها لا يريح عن منزل السعد » ومع أن الكتاب كله من صياغة ابن جزى ، فإني أذكر أن هذه العبارة ، أو معناها على الأقل من كلام ابن بطوطة ، فهي لاتصدر إلا عن مشاهد ذكي ينفذ إلى حقائق الأشياء .

ويضيف بعد ذلك عبارة تدل على أن ما امتاز به أهل مصر من تفاؤل وميل للسرور قد يم معروف كأنه خاصية شعبية : « وأهل مصر ذوو طرب وسرور وهو . شاهدت بها مرة فرجة بسبب براء الملك الناصر من كسر أصاب يده فزين كل أهل سوق سوقهم ، وعلقوا بخواصيهم الحلال والحلل وثياب الحرير ، وليثوا على ذلك أياماً (ص ٣٢) ويشير إشارة سريعة إلى جامع عمرو ، ثم يقول : « وأما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثتها ، وأما المارستان الذى بين القصرين عند تربة الملك المنصور قلاوون فيعجز الوالصف عن مخاسنه ، وقد أعد فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر ، ويدرك أن مجبه ألف دينار كل يوم (ص ٣٣) وهذه العبارة الأخيرة غير مفهومة ؛

(١) يتجدد .

كثرة المدارس  
بمصر-مارستان  
قلاوون

لأن المعروف أن المارستان وهو المستشفي - لم يكن يُعلَّم مالاً بل كان ينفق عليه المال ، فكيف يكون له بحثي ؟ فلعله يريد بذلك أن النفقة عليه ألف دينار في اليوم .

كتبة الزوايا  
(الخانقاهات)  
في مصر

ويقول : إن الزوايا في مصر كثيرة وإنها تسمى الخوانق (جمع خانقاه) والأمراء في مصر يتنافسون في بناء الزوايا ، وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من القراء ، وأكثراهم الأعلام ، وهم أهل أدب ومعرفة بطريقة التصوف ، ولكل زاوية شيخ وحارس ، وترتيب أمورهم عجيب .

ويطنب ابن بطوطة في مدح « القرافة » مصر التي أعجب بها الكثيرون من رأوا مصر قبله وبعده ، والقرافة كانت مدفن الصالحين والعلماء من أهل مصر ، ويقال : إن عدداً من الصحابة دفنت فيها وعدد التابعين فيها كثيرون .

القرافة روضة  
الصالحين

وكانت من أبرك مواضع الزيارة بمصر ، وكانت مرتبة على نظام جميل يصفه ابن بطوطة : فعل القبور قباب ، ويقام حول الضريح سور ، وتبنى فيه الغرف ، وكان الناس يخرجون كل جمعة للambiliet في القرافة .

ويذكر عدداً من العلماء المدفونين فيها مثل عبد الرحمن بن القاسم العتقي وأشهب بن عبد العزيز وأبي عبد الحكم . وكانت روضة جميلة رويت فيها أحاديث تؤكّد بركتها . وابن بطوطة كان من أواخر من رآها قبل أن يفسد أمرها بكثرة إقبال الناس على الدفن فيها وخروجهم إليها جماعات أيام الخميس وفي الأعياد والنوم والأكل فيها ، فضاع رونقها ونظمها ، وكانت في الموضع الذي تقوم فيه اليوم إدارة الجامعة الأزهرية .

وكل شيء كان جميلاً في مصر حتى أيام ابن بطوطة ، إنما فسد أمره وتلاشي جماله في عصر المماليك البرجية الذين جاءوا بعد البحرية ، وأولهم السلطان الظاهر سيف الدين برقوق بن أنس العثماني اليبيغاوى ، وقد بدأ حكمه سنة ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م . أما

ابن بطوطة  
رأى مصر في  
أوج ازدهارها  
في المصور  
الوسطى

في عصر المماليك البحرية فقد احتفظت مصر برونقها هذا الذي يصفه لنا ابن بطوطة . وكانت زيارة ابن بطوطة هذه لمصر في أثناء الفترة الثالثة من حكم الملك الناصر محمد بن المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي ، وهو عاشر سلاطين المماليك البحرية تولى وعزل مرتين ، ثم أعيد إلى الملك المرة الثالثة في رمضان سنة ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ م

وظل يحكم حتى سنة ١٣٤٠ هـ / ٧٤١ م ، وبعد وفاته مباشرة تأخذ دولة الماليك البحرية في التدهور السريع ، وكان ابن بطوطة في القاهرة في أواخر ٧٢٦ هـ / أوائل ١٣٢٦ م فكان آخر رحالة زار مصر فأكمل صورها في الصور الإسلامية ، وبعد ذلك كان الانحدار ، وقد لاحظ ابن بطوطة عندما مر بمصر المرة الأخيرة سنة ٧٥٦ هـ / ١٣٥٥ م أي في حكم الملك الصالح صلاح الدين صالح بن الناصر أن البلد فقد الكثير من بهائه .

ويتحدث ابن بطوطة عن عمن عرف من علماء مصر ، ويذكر منهم جماعة يستوقف نظرنا فيهم أنهم كانوا من جميع نواحي بلاد الإسلام ، فنهم : ركن الدين بن القويغ التونسي ، وأثير الدين أبو حيان الغرناطي ، وبرهان الدين الصقافسي ، وقوم الدين الكيرمانى ، وبدر الدين عبد الله المتنوف .

وهذه الأسماء تدل بالفعل على أن مصر كانت قد تحولت إلى مركز العلم الإسلامي الأكبر ، وأن أهل العلم جمِيعاً كانوا فيها سواء ، لا تفرقة بين مصرى وغير مصرى ، وذلك هو الذي جعل لمصر وجامعها الأزهر ذلك الطابع العربي الإسلامي العام : ويبدو أن ابن بطوطة لم يسعد في القاهرة كثيراً ، لأنَّه لا يذكر إلا مشاهداته القليلة دون أن يضيف ما تعودنا منه من وصف أحاسيسه وانطباعات الأشياء في نفسه ! ولكنَّه بدأ يشعر بالسعادة حقاً عندما بارح القاهرة إلى الصعيد في طريقه إلى رحلته في قوص ؛ ليصل إلى الحجاز عن طريق ميناء عيذاب . فهو عندما خرج من القاهرة بات في الرباط الذي بناه الصاحب تاج الدين بن حناء بدير الطين ، ودير الطين غير اسمها اليوم إلى دار السلام ، وهي ضاحية صغيرة في الطريق من مصر إلى حلوان .

ويطيل الكلام عن ذلك الرباط الذي «بني على مقابر عظيمة وآثار كريمة أودعها الآثار النبوية في رباط دير الطين إياه وهي قطعة من قصبة رسول الله ﷺ ، والميبل الذي كان يكتحل به ، والدرش وهو الإشفاء (أى المسلاة أو الإبرة الكبيرة) الذي كان يخضف به نعله ، ومصحف أمير المؤمنين عثمان الذي كتبه بخط يده رضى الله عنه .»

ويقال : إن «الصاحب تاج الدين بن حناء اشتري هذه الآثار الشريفة بمائة ألف درهم ، وبنى الرباط ، وجعل فيه للوارد والصادر (أى للمقبل والذاهب) الطعام

والجراية لخدمات تلك الآثار الشريفة . نفعه الله بقصده المبارك » (ص ٤٣) ومن دير الطين عبر النيل إلى الضفة الغربية إلى مبنية القائد<sup>(١)</sup> ، وهو نفسه لا يذكر أنه عبر النيل ، ولكننا نعرف ذلك لأن منية القائد على الضفة الغربية للنيل إلى الشمال من بوش في مديرية بنى سويف الحالية ، وكانت مشهورة بالكتان شهرة عظيمة .

ويستمر في المسير حتى منية ابن خصيب ، وهي مدينة المنيا الحالية ، وكانت تسمى المنيا

منية ابن الخصيب ، ولفظ المنيا لفظ مصرى قديم ، والبلد مذكور في الآثار القديمة ، ولكن ابن الخصيب عندما ول عليها حرف الاسم إلى مبنيه أو مبنيه . وكان الذي ول الخصيب على مصر هو المؤمن ، وكان في أول أمره خادماً ، ثم نبه شأنه ، وفي المنيا أقام قصراً عظيماً زاره فيه كبار الشعراء ، ومن بينهم أبو نواس ، وقالوا فيه وفي مصر ونيلها أشعاراً جميلة وغير جميلة .

منبر منفلوط

ومن المنيا ينتقل ابن بطوطة إلى ملوي ، ويتحدث عن كثرة معاصر قصب السكر فيها . وفي منفلوط يحكى كيف أن الملك الناصر ابن قلاون صنع منبراً عظيماً محكم الصنعة برسم المسجد الحرام ، ثم أراد نقله في النيل إلى قوص ، ليحمل منها إلى عيذاب ، فلما وصلت السفينة إلى منفلوط توقفت ولم تتحرك برغم مساعدة الرياح ، وعيثاً حاول الناس رزحتها عن موضعها ، فأمر الملك الناصر بأن يوضع المنبر في جامع منفلوط ، ولا بد أن أصحابنا أهل منفلوط احتالوا بهذه الحيلة ليحصلوا بجامعهم على منبر عظيم .

وفي كل مدن الصعيد كان نزول ابن بطوطة على القضاة ، وهذا نجده يتحدث عنهم في إطباب وإعجاب ، وربما نزل في المدارس كما فعل في مدينة « هو » عندما نزل في مدرسة تقي بن السراج ، وفي تلك البلدة لق الشیخ الصالح أبا محمد عبد الله الحسیني من كبار الصالحين الصوفية على طریقة الشاذلی .

ويقف طويلاً في مدينة قوص ، ويتحدث عن علمائها وصلحائتها ، والحق أن قوص كانت في تلك العصور مركزاً من أكبر مراكز العلم في عالم الإسلام ؛ فقد كانت ملتقى

(١) يضبطها بعض بضم الميم ظناً منهم أن النطق المصري الجارى (بالكسر) تحرف للفظ مبنيه أى ضبيعة ، ولكن ذلك غير صحيح حين يتعلق بمحفظة مصرى لفظ : المينا بكسر الميم قديم قبل الفتح العربى ،

طرق عظيم ، ومنها أو من إسنا إلى جنوبها كان الناس يبدعون في السير نحو عيذاب . وكان الطريق من وادي النيل إلى نهر عيذاب يشرع عند قوص أو جنوبها قليلاً ، ويسير في وادي القلّاق في اتجاه جنوبي شرق حتى يصل إلى ذلك الميناء الذي درس الآن ، وكان في بلاد التوبة الحالية في مقابل مدينة جدة .

وابن بطوطة في هذه المرحلة في أسفاره متفائل مستبشر حافل القلب بالشوق إلى شهود موسم الحج ، يطرب أشد الطرب لكل ما يتصل بالإيمان والعبادة ، ويسعى سعياً حثيثاً للقاء الشيوخ والأولياء والصالحين ، ولا غرابة في ذلك فقد كان شاباً في مقتبل العمر في الثالثة والعشرين من عمره ، ونحن لانجد في حديثه لحة واحدة من ضجر أو ملل ، بل إننا نجد في هذه السن الباكرة منطلقاً في رحلته في ثقة تامة بنفسه عامراً الشوق إلى زيارة المسجد الحرام وأداء الفريضة وزيارة قبر المصطفى صلوات الله عليه في المدينة المنورة بالغ الطرب لرؤيه المسلمين والاجتماع بهم والأنس بمحالسهم والتحدث معهم ومقاساتهم لقمة العيش والاشتراك معهم في الصلوات والاستمتاع بصحبة الشيوخ والمساع منهم ورؤية أولياء الله الصالحين والتبرك بهم والثقة في صدق كراماتهم ، فهو يصدق أن بعض أولئك الشيوخ يصلى الظاهر في الحجاز والعصر في الهند ، أو أن « ينفق من الكون » : أى أن رزقه يأتيه من عند الله بأى قدر يشاء وفي أى وقت يشاء ! وتلك هي الروح الطيبة السمحنة التي تجعل قارئ ابن بطوطة يسعد بما يقرأ فيها هنا شاب لا يمتلك درهماً ولكنه سعيد ، بعيد عن بلده وأهله ، ولكنها مستأنس بالناس أجمعين ، ينام ليلة على فراش وليلة على سطح بيت ، وهو في كلتا الحالين سعيد كل السعادة ، ونحن نشاهده هذه السعادة ، وزرافقه في رحلته بقلوب عاصرة بالسرة .

## بقية مصر وبلاد الشام

في هذا الفصل من رحلة ابن بطوطة نتحدث عن ثغر عيذاب وتجربة ابن بطوطة عنده وعن بعض مشاهداته في بلاد النوبة ثم في بلاد الشام .

وقد ذكرنا في الفصل السابق كلامه عن « قوص » ذلك المركز العلمي الكبير في العصور الوسطى في صعيد مصر الأعلى ، ومن قوص انتقل إلى الأقصر ، وهو لا يشير إلى آثارها أو إلى معابد الكرنك ، ولكنه يشير إلى قبر الشيخ الصالح العابد أبي الحجاج الأقصري ، وهذا القبر مازال قائماً إلى اليوم في قلب معبد الكرنك ، وهو عبارة عن مسجد ريفي جميل مطل على الجص ، وهو يروع النفس وسط المعبد الفرعوني المشهور . ومنها انتقل إلى أرمانت ، وهنا نقرأ هذه العبارة الطريفة : « وهي صغيرة ذات بساتين مبنية على ساحل النيل ، أضافني قاضيها وأنيست اسمه ، وفي إسنا أيضاً أضافه قاضيها ، ولكنه لحسن حظ القاضي لم ينس اسمه ، وهو شهاب الدين بن مسكين ، ولعله ذكره ، لأنه لم يكتف باستضافته ، بل أكرمه » وكتب إلى نواهيه يا كرامي » . (ص ٤٩) .

ومن مدينة إسنا - وكانت سوقاً تجارية عظيمة - انتقل إلى أدفو ثم عبر النيل إلى الضفة الشرقية ونزل في بلدة العطوانى ، وهي بداية طريق العلاقة هناك أكثرى ابن بطوطة وأصحابه الجمال لكي يقطعوا ذلك الطريق الصحراوى الطويل إلى « عيذاب » وهذا الطريق يمر في منازل قبيلة عربية تعرف بدغم ، وليس فيه إلا آبار ماء قليلة ، ولهذا كان الحجاج يجهدون في حمل الماء ، ولكنه كان آمناً جداً ، شهد بذلك الإدريسي أيضاً ، فكان ينذر أن يسرق فيه شيء .

وفرضة عيذاب لم تكن لها أهمية إلا لأنها قبلة جدة ، وفيها آبار ذات ماء صالح

زعاً ، ولكن الناس كانوا يتحملون كل المصاعب في سبيل الفوز بالحج إلى بيت الله الحرام وكانت عذاب في أرض البجاء ، وقد عظم أمرها في أثناء القرنين الخامس والسادس المجريين عندما كان الصليبيون يسيطرون على أرض فلسطين ، ويقطعون طريق الحج التقليدي خلال سيناء ثم العقبة ، وهناك كان يتلقى ركب الحاج المصري وركب الحاج الشامي

أما في أثناء الفترة التي تتحدث عنها فقد انقطع هذا الطريق وأصبح حجاج مصر والمغرب يسيرون في الطريق الذي سار فيه ابن بطوطة صاعدين مع النيل إلى قوص أو إسنا أو دفو ، ويعبرون النيل ليأخذوا طريق وادي العلاقي إلى عذاب في بلاد البجاء .

والجاجة الذين كانت عذاب في بلادهم كانوا قبلاً قريباً من أهل التوبه ، ولكنهم لم يكونوا نوبيين ، وهم يكادون أن يكونوا جنساً منقطعاً مفرداً بذاته ، مثلهم في ذلك مثل النوبين ويقال : إنهم من أهل الين ، وقد سكروا ساحل البحر الأحمر من قبالة الأقصر إلى ميناء سواكن ، وهم سر الألوان يشتهرون بالأمانة والشجاعة ويجولون في هذه التواحي ، وقد عرفوا بالمهارة التجارية ، ومن بقائهم اليوم البشرية المعروفة في جنوب مصر ووادي حلفاء . وقد ضعف أمر الجاجة بعد هجرة عرب رفاعة من صعيد مصر إلى التوبه ، فقد ساروا في أرض البجاء واحتلtero بهم ، فأضاعوا وحدتهم الاجتماعية القبائلية .

وإلى هؤلاء الجاجة يرجع الفضل فيما اشتهر عن طريق عذاب من الأمن ، إذ كانت فيهم أمانة وصلابة اضطرت حكام مصر إلى أن يشركونهم في حكم عذاب ، فكان فيها والي لسلطان مصر رئيس من رؤساء الجاجة ، وكانوا يتقاتلان إبراد الميناء .

وكانت السفن تصنع هناك ، ولكنها كانت سفنًا ضعيفة سيئة الصنع لا يدقون فيها سهاراً ، ظنًا منهم أن قاع البحر الأحمر فيه حجر المغنتيس ، فإذا سارت سفينة بمسامير اجذبها المغنتيس فتفتك المركب وغرق ، وهذا كانوا يربطون الواح الخشب بعضها إلى بعض بجبال القنب ، ثم يصبون عليها زيت الخروع حتى لا يندف في الماء ، وكانت السفينة - لهذا لا تحتمل إلا رحلة واحدة ، فاما غرقت أو وصلت ثم

تفكركت ، وكان الله في عون من كتب له السفر بهذه السفن !

وقد أُعْفَت الظروف ابن بطوطة من ذلك الخطر ، فعندما وصل إلى عيناب وجد أن خلافاً نشب بين سلطان البجاية - كما يقول - والسلطة المصرية ، ووقعت الحرب بين الجانبين ووقف الطريق ، بل ذهب غضب سلطان البجاية إلى درجة جعله يحرق السفن المعدة للحجاج « فبعثنا ما كنا أعدادناه من الرزاد ، وعدنا مع العرب الذين اكتربنا الجمال منهم إلى صعيد مصر » (ص ٥٠)

وهكذا عاد ابن بطوطة أدراجه ، فصعد مع النيل ، ووصل إلى مدينة بليس في منتصف شعبان ٧٢٦ هـ / يوليو ١٣٢٦ م ، واتجه إلى الشام ، قال : « ثم وصلت إلى الصالحية ، ومنها دخلنا الرمال ، وزللت منها متازها مثل السوداء والوراده والمطليب والعريش والخرّوبة ، وبكل منها فندق ، وهم يسمونه الخان ، يتزله المسافرون بدوائهم ، وبخارج كل خان ساقية للسبيل وحانوت يشتري منه المسافر ما يحتاج إليه لنفسه ودابته » (ص ٥٠)

ابن بطوطة  
لا يجع عن  
طريق عيناب  
ويعود أدراجه

وبعد قليل يمتاز نقطة الحدود بين مصر والشام عند قطانياً « وفيها تؤخذ الزكاة من التجار وتنتشن أمتعتهم ، ويبحث عن لديهم أشد البحث ، وفيها الدواوين والعمال والكتاب والشهدود ، وجهاها كل يوم ألف دينار من الذهب ، ولا يجوز عليها أحد من الشام إلا ببراءة<sup>(١)</sup> من مصر ، أو أحد من مصر إلا براءة من الشام » .

الحدود بين  
مصر والشام

ومع أن مصر والشام كانتا سلطنة واحدة ، فإنأخذ الضرائب على الحدود كان أمراً هاماً بالنسبة لإيرادات السلطة في مصر ونيابة السلطة في الشام . ويبدو كذلك أنهم كانوا يخافون الجوايس .

غزة  
دخل ابن بطوطة الشام عند غزة ، وهو يطبب في مدحها ويقول : إن كبراء المدينة إذ ذاك كانوا بني سالم ، ومنهم شمس الدين بن سالم قاضي القدس ومنها انتقل إلى « الخليل » وأطال الحديث عن المقام الخليلي كتب الله له السلامه من مكايده اليهود - ووصفه يدل على عناية المسلمين بالمشهد الخليلي واجتهدتهم في أن

(١) أي بوثيقة مرور تدل على أنه دفع الضرائب والمكوس المفروضة على الانتقال بين مصر والشام ، وكانت مبالغ كبيرة ، ومع ذلك كانت تسمى زكاة !

يكون في أجمل حالة ، وفيه عدد من قبور الأنبياء عليهم السلام .  
وهنا نجد دليلاً على عنابة ابن بطوطة بقراءة الكتابات والنقوش ؛ فقد أثنا بالنص  
الكامل لمشاهد قبر السيدة فاطمة بنت الحسين بن علي رضوان الله عليها ، وهو يقوّم  
داخل مغارة .

**القدس الشريف** ثم وصل إلى القدس الشريف ووصفه وصفاً مفصلاً ، وذكر مزارات البلد المشرف  
كلها ، ويذكر نفراً من لقى من فضلاء القدس ، وكالهم من الفقهاء ، وييمّنا « منهم  
الشيخ الصالح العابد أبو عبد الرحيم عبد الرحمن بن مصطفى من أهل آرزن الروم ،  
وهو من تلامذة تاج الدين الرفاعي ، صاحبته ولبس منه خرقه التصوف (ص ٥٥) :  
أى أن صاحبنا ابن بطوطة أصبح مريداً صوقياً على الطريقة الرفاعية ، ولكننا لم نلاحظ  
قط أى أثر في سلوكه لانتظامه في الطريقة الرفاعية .

**ابن بطوطة يابس خرقه التصوف** ونلاحظ أن ابن بطوطة بعد أن يفرغ من المزارات يجول في البلاد على هواه ، شأن  
السائح في أيامنا هذه : فهو يذهب إلى عسقلان مع أنها كانت إذ ذاك خراباً ، ويصف  
آثارها ومبانيها ، ويزور الرملة ونابلس ، وهي عنده أكثر بلاد الشام زيتوناً ، ومنها  
يحمل الزيت إلى مصر ودمشق ، وبها تصنع حلوي الحزوب ، وهي نوع من الرب أى  
المري .

**عكا وصور** ثم يزور عجلون ، وفي الطريق إلى اللاذقية يمر بالعور ، ويزور قبر  
أبي عبيدة بن الجراح « أمين هذه الأرض » كما يقول ، والأصح أنه أمين هذه الأمة ،  
يقول : زرناه وعليه زاوية فيها الطعام لأنباء السبيل ، وبتنا هناك ليلة (ص ٥٦).  
ثم يزور عكا ويقول : إنها في أيامه خراب ، ويقول : إنها كانت قاعدة بلاد  
إفرنج بالشام ومرسى سفنهما . وعندما يصل إلى صور يقول : إن أكثر أهلها أرافق  
أى رافضة<sup>(١)</sup> ويخكى حكاية لا بأس من روایتها : (ولقد نزلت بها مرة على بعض  
المياه أريد الوضوء فأتى بعض أهل تلك القرية ليتوضاً ، فبدأ بغسل رجليه ، ثم غسل  
وجهه ، ولم يتمضمض ولا استنشق ، ثم مسح بعض رأسه ، فأخذت عليه في فعله)  
فقال لي « إن البناء إنما يكون ابتداؤه من الأساس ! »

(١) في مصطلح أهل المغرب الرافضة : هم الشيعة بصورة عامة .

ويقف ابن بطوطة طويلاً عند أسوار صور ويغنى بمحاصنها ، ثم يمر بصيدا وطبرية ويقول : إنها خراب وفيها قبور شعيب وبنته زوج موسى الكليم وقبر سليمان عليه السلام ، وقبر يهودا وقبر روبيل ، ولم يفته أن يزور الجب الذي ألقى فيه يوسف عليه السلام قريباً من طبرية ، « وهو في صحن مسجد صغير ، وعليه زاوية والجب كبير عميق ، شربنا من مائه المجتمع من ماء المطر ، وأخبرنا قيمه أن الماء ينبع منه أيضاً ». (ص ٥٨).

ويرى بيروت ويقول : إنها صغيرة حسنة الأسواق ، ومنها خرج لزيارة قبر أبي يعقوب يوسف الذي يزعمون أنه من ملوك المغرب ، وهو موضوع يعرف بكرك نوح من بقاع العزيز ، وعليه زاوية يُطعم بها الصادر والوارد ، ويقال : إن السلطان صلاح الدين وقف عليها الأوقاف وقبله السلطان نور الدين ، وكانوا من الصالحين . وأبو يعقوب المذكور هنا هو أبو يوسف يعقوب المنصور ثالث خلفاء الموحدين وصاحب النصر العظيم على الفونسو الثامن ملك قشتالة في موقعة الأرک سنة ٥٩١هـ/١١٩٥م ، وقد توفي أبو يوسف يعقوب بعد هذا النصر بأربع سنوات ٥٩٥هـ/١١٩٩م وخليفة ابنه محمد الناصر ، ولكن نصر « الأرک » رفع مقام أبي يوسف يعقوب إلى مقام أبطال الأساطير وأولياء الله ، فقيل : إنه لم يمت ، بل اعتزل العرش وتركه لابنه محمد الناصر ، وخرج إلى الحجاز ، وهناك حج وجاور ، ثم ذهب إلى الشام وجاور في الأرضي المقدسة ، واتسعت أسطورته حتى أصبح كأنه الخضر عليه السلام . وقد كان أبو يوسف يعقوب معاصرأً لصلاح الدين ، فقد حكم من ١١٨٤م إلى ١١٩٩م ، وأرسل إليه صلاح الدين سفاراة على رأسها أسامة بن منقذ يدعوه إلى التعاون معه على حرب الصليبيين في الشرق والغرب ، ولكن الاتفاق لم يتم .

بيروت  
وأسطورة  
أبي يعقوب  
المنصور

## ابن بطوطة في الشام

أطال ابن بطوطة الإقامة في الشام لأنه كان يتظر موعد خروج الركب الشامي إلى الحجاز من ناحية . ولأن بلاد الشام أعجبته من ناحية أخرى ، فضى يتنقل في ربوعها على هيئة ، وقد وقفنا عند زيارته للقدس الشريف .

ونعود إلى مصاحبه في رحلته ، فنجد في طرابلس وهو يتحدث هنا عن المدينتين : القديمة التي كان الصليبيون قد أنشئوا فيها إمارة صليبية ، ثم الجديدة التي أنشأها المسلمون بعد أن استعاد الظاهر بيبرس ميناء طرابلس من الصليبيين مع حصن الأكراد سنة ٦٧٠ هـ / ١٢٧١ م .

وتحديثه عن طرابلس طريف ، وهو يعطيانا في سياقه نموذجاً من عدل أمير المدينة المملوكي وهو سعيد مور ، فقد أتت إليه امرأة تشكو أن أحد رجاله قد اعتدى عليها بأن شرب منها لبناً ولم يدفع ثمنه ، فأمر الأمير بتوسيطه : أى بقطعه قطعتين بالسيف من وسطه ، فلما فعل به ذلك ظهر اللبن في مصرانه !

وهذا - في رأي ابن بطوطة - مثال بين على تحرى العدل ما أمكن ، ولا ندرى ماذا كان يفعل الأمير لو لم يجد اللبن في جوف المسكين ؟

حسن ومن طرابلس انتقل إلى حصن الأكراد ، هذه القلعة الهائلة التي طلما اعتر بها الأكراد الصليبيون حتى استولى عليها الظاهر بيبرس ، كما ذكرنا ، وما زالت آثارها ماثلة للعين تبر الأ بصار .

حاجة ومحصر ومرة النغان ثم زار حجاً وتحدث عن نواعيرها وأرحائها ، ومحص الذى يزinya قبر سيف الإسلام خالد بن الوليد قريباً منها ، ويزور معرة النغان ، ويذكر قبر عمر بن عبد العزيز بها . ويقف عند سيرمين ويتحدث عن صناعة الصابون بها . وكان بعض علمائنا ينكرون

صناعة  
الصابون عند  
العرب

أَنَّا نَحْنُ اخْتَرْنَا الصَّابُونَ ، وَعِنْدَ أَبْنَ بَطْوَطَةِ الرَّدِّ الْحَاسِمِ ، فَهُوَ يَقُولُ : إِنْ بِهَذِهِ الْبَلْدَةِ  
سَرْمِينَ يَصْنَعُ الصَّابُونَ الْأَجْرِيَ : أَىٰ فِي صُورَةٍ قَطْعٍ عَلَى هِيَةِ الْأَجْرِ ، وَفِي ظَنِّ أَنْ هَذَا  
هُوَ الصَّابُونَ النَّابِسِيَّ ، ثُمَّ يَقُولُ : إِنْ بِهَذِهِ الْبَلْدَةِ سَرْمِينَ يَصْنَعُ « الصَّابُونَ الْمَطِيبُّ »  
لَغْسَلِ الْأَيْدِيِّ ، وَيَصْبِغُونَهُ بِالْحَمْرَةِ وَالصَّفْرَةِ » وَقَبْلَ ذَلِكَ بِقَرْنِينِ ذَكْرِ الإِدْرِيسِيِّ  
صَنْاعَةُ الصَّابُونَ فِي الْبَهْسَا مِنْ مَدَنِ مَصْرُ . وَعَنِ الْعَرَبِ أَخْذَ الْغَربُ الصَّابُونَ صَنْاعَةَ  
وَاسِعًاً ، وَأَوْلُ مَاظِهِرٍ فِي أُورُوبَا كَانَ فِي إِيطَالِيَا بِاسْمِ Sappone وَفِي إِسْبَانِيَا الْنَّصَارَى ،  
وَكَانُوا يَنْطَقُونَ بِهِ إِذَا جَاءَ jabón ، وَالْيَوْمَ Savon<sup>(١)</sup> فِي فَرْنَسَا ، ثُمَّ يَتَّقْلِلُ  
أَبْنَ بَطْوَطَةٍ إِلَى حَلْبٍ وَيَطِيلُ الْكَلَامَ عَنْ قَلْعَتِهَا .

وَهُنَا يَتَدَخَّلُ أَبْنَ جَزِيَّ فِي مَسَاقِ الرَّحْلَةِ تَدَخَّلًا طَوِيلًا ، فَيَتَحَدَّثُ عَنْ مَعْنَى حَلْبٍ  
وَمَاقِيلٍ فِيهَا مِنَ الْأَشْعَارِ .

وَبَعْدَ جُولَانَ طَوِيلٍ يَصْلِلُ أَبْنَ بَطْوَطَةٍ إِلَى أَنْطَاكِيَّةَ ، وَهِيَ أَيْضًا مِنْ فَتْوحِ الْمَلَكِ  
الظَّاهِرِ بِيَسِّ ، وَيَتَغَنُّ بِأشْجَارِهَا وَأَنْهَارِهَا وَبِنَبْرِ الْعَاصِي الَّذِي يَمْرُ خَارِجَهَا ، وَيَتَرَلُ بِهَا  
فِي زَاوِيَةِ حَبِيبِ النَّجَارِ » وَفِيهَا الطَّعَامُ لِلْوَارِدِ وَالصَّادِرِ ، وَشِيخُهَا الصَّالِحُ الْمُعْمَرُ  
مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ وَسَنَّهُ يَنْبِيَفُ عَلَى الْمَائِةِ » ، وَيَقُولُ : « وَرَأَيْتُ أَبَنَهُ قَدْ أَنَافَ عَلَى الْمَائِتَيْنِ ،  
إِلَّا أَنَّهُ مَحْدُودُ الظَّهَرِ لَا يُسْتَطِعُ النَّهْوَضُ ، وَمَنْ يَرَاهُمَا يَظْنُ الْوَالَدَ مِنْهُمَا ولَدًا وَالْوَالَدَ  
وَالَّدَا ! » (ص ٦٩)

وَعِنْدَمَا وَصَلَ إِلَى حَصْنِ الْقَدْمُوسِ وَحَصْنِ الْمَيْنَقَةِ وَحَصْنِ الْعَلِيقَةِ وَحَصْنِ مَصِيَافِ  
وَحَصْنِ الْكَهْفِ - وَيَقُولُ : إِنْ هَذِهِ هِيَ حَصْنُ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ الْمَعْرُوفِينَ بِالْفَدَاوِيَّةِ ،  
وَيَقُولُ : إِنَّهُمْ سَهَامُ الْمَلَكِ النَّاصِرِ بْنِ قَلَادُونَ ، بِهِمْ يَصِيبُ مَنْ يَعْدُ وَعَلَيْهِ مِنْ أَعْدَائِهِ  
بِالْعَرَقِ وَغَيْرِهَا ، وَلَهُمُ الْمَرْتَبَاتِ وَإِذَا أَرَادَ السُّلْطَانُ أَنْ يَبْعَثَ أَحَدَهُمْ إِلَى اغْتِيَالِ عَدُوِّهِ  
أَعْطَاهُ دِيَتَهُ ، فَإِنْ سَلَمَ بَعْدَ تَائِيَّ لَهُ مَائِرَادَ مِنْهُ فَهُوَ لَهُ ، وَإِنْ أَصَبَّ فَهُوَ لَوْلَدُهُ . وَقَدْ  
قَرَأْنَا كَثِيرًا عَنْ هَؤُلَاءِ الْفَدَاوِيَّةِ الْمَعْرُوفِينَ بِالْحَشَاشِينَ ، وَلَكِنَّنَا لَا نَعْرِفُ إِنْ كَانُوا حَقًّا فِي  
خَدْمَةِ السُّلْطَانِ النَّاصِرِ قَلَادُونَ كَمَا يَقُولُ أَبْنُ بَطْوَطَةٍ

ثُمَّ يَصْلِلُ إِلَى جَبَّةِ فِيزُورٍ قَبْرِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمِ الزَّاهِدِ ، وَيَطِيلُ الْحَدِيثَ عَنْهُ وَيَحْكِي

حَصْنُ  
الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ  
« الْفَدَاوِيَّةِ »  
وَاسْتِخْدَامُ  
النَّاصِرِ  
ابْنِ قَلَادُونَ  
لَهُ

(١) أَعْنَى كَانُوا يَنْطَقُونَ بِالْفَلْقَظِ (جَبَّونَ) بِالْجَمِّ وَالْيَوْمِ (جَبَّونَ) بِالْحَاءِ .

عنه أخباراً هي الغاية في الطرافة . وأخبار إبراهيم بن أدهم الزاهد في الكتب العربية قليلة ، ومعظمها في كتب الأتراك ، ولهذا فإن حديث ابن بطوطة عنه عظيم القيمة بالنسبة لتأريخ التصوف الإسلامي .

و عند حصن المُرْقَب يدخل جبل لبنان ويطلب الحديث عنه ، وعما فيه من الحزيرات ، وينزل بعلبك ويعجب بأنها الجارية ، ثم يتكلم عن الدبّس الذي يصنع بها ، وهو المُبَنِّ ، وقد ذكره ابن بطوطة بهذا الاسم ويقول : إنه يسمى أيضاً بجبل الدبّس ، المَلَبَنْ ، الشَّيَابِ ، البَلْكِيَّة الصَّفَافِيَّة .

ولم يقم في بعلبك إلا بياض نهارها ولكنه يحدثنا عن صناعة الصحاف - أي الأطباق - من الخشب هناك - ويقول : إنهم يسمونها بالدسوت ، وكذلك صناعة ملاعق الخشب ، ويبلغ من مهارة أهلها في صناعة الدسوت أنهم يصنعون منها نوعاً يضم الواحد منها عشر صحاف ، واحداً في داخل الآخر ، وعشرون ملاعق تدخل واحدة منها في الأخرى وتوضع في جراب ، ويقول : « ويصنعون لها غشاء من جلد ويمسكتها الرجل في حزامه فإذا حضر طعاماً مع أصحابه أخرج ذلك ، فيظن رأيه أنها معلقة واحدة ، ثم يخرج من جوفها تسعاً ! » (ص ٧٩) .

وهذه الملاحظة جديرة بأن تسترعى إليها أنظار من يحبون أن تناول الطعام باليد تقليد عربي أصيل ، وأننا لم نعرف الأكل بالملاعق - إلا عن الإفرنج !

وأخيراً وصل إلى دمشق في يوم الخميس ٩ رمضان سنة ٧٢٦ هـ / ١٣٢٥ م وكان شوقة إليها قد طال حتى إنه لم يكث في بعلبك إلا نهاراً ثم خرج إلى دمشق .

وحدث ابن بطوطة عن هذا البلد حديث طويل حافل بالمعلومات ، ولكن جانباً كبيراً من الكلام مستقى من رحلة ابن جبير أدخله ابن جزي ، وأشار إلى ذلك في قليل من المرات وتركباقي غالباً ، ولهذا فإننا نجد هنا تفاصيل معهارية عن مسجد دمشق - أي الجامع الأموي - لم تألفها من ابن بطوطة .

وفي أثناء حديثه عن علماء دمشق يقف طويلاً عند قبور الدين بن تيمية يقول :

ابن تيمية

إنه : «كبير الشام ، يتكلم في الفنون<sup>(١)</sup> إلا أن في عقله شيئاً» وفهم من هذه العبارة أن هذا كان رأى العامة في ابن تيمية ، لأن ابن بطوطة يعرض في كثير من الأحيان رأى أوساط الناس ، والسبب في ذلك أنه كان بالفعل يصاحب العلماء والفقهاء والقضاة ، ولكن معظم نزوله ومعيشته كان في الزوايا والمدارس ، ومعظم وقته كان يقضيه في المساجد والأسواق ، يستمع أحاديث الناس ، وكان شديد الوع بذلـك .

وكان الصوفية وأصحاب الكرامات والأولياء ألد أعداء ابن تيمية ، لا يزالون يتبعونه ويقصون به التهم حتى دخل السجن ثلاث مرات ، خرج منه المرتدين الأولين بتدخل السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، ولكنه مات في الثالثة ، وظل يؤلف في السجن حتى منع عنه أعداؤه الورق والقلم ، فأسرع هذا بموته .

ولا شك أن هؤلاء الصوفية هم الذين أعطوا ابن بطوطة هذه الفكرة عن إصابة ابن تيمية بلوحة . ويقول : «إنه رأى ابن تيمية قبل دخوله السجن للمرة الثالثة» وهذا معقول لأن ابن تيمية توفي سنة ١٣٢٨ م وكان ابن بطوطة في دمشق ابتداءً من أغسطس سنة ١٣٢٥ م كما ذكرنا .

وهنا نجد ابن بطوطة يختلط في التاريخ ، فيذكر أشياء وقعت في الشام وشهادتها في زيارة له تالية بعد ثلاث وعشرين سنة أى سنة ٧٤٩ ، مثل الوباء الكبير الذي اجتاح الدنيا في النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي ، وهو يسميه الطاعون الأعظم .

وكان ينبغي أن يذكره في موضعه من الرحلة ، ولكنه ذكره الآن : أى في سنة ٧٢٥ هـ . والمهم لدينا أن ابن بطوطة يذكر الإجراءات التي اتبعتها الحكومة المملوكية في مقاومة الوباء .

فقد دعا نائب السلطنة في دمشق الأمير أرغون المنادى وأمره بأن يجتمع الناس جمِيعاً في المسجد الأعظم ، فاجتمع الأمراء والشُرفاء والفضلاء والقضاة وسائر الطبقات على اختلافها في الجامع حتى غص بهم وبأيديهم المصاحف والأمراء حفاة .  
وخرج جميع أهل البلد ذكوراً وإناثاً صغاراً وكباراً ، وخرج اليهود بتوراتهم

خطأ  
لابن بطوطة  
في ترويجه  
الحوادث

إجراءات  
مقاومة الوباء

(١) أى في العلوم .

والنصارى يأنجيلهم ومعهم النساء والولدان ، وجميعهم باكون متضرعون إلى الله بكتبه وأنبيائه ، وقصدوا « مسجد الأقدام » وأقاموا به في تضرعهم ودعائهم إلى قرب الزوال .

وعادوا إلى البلد فصلوا الجمعة وخفف الله تعالى عنهم ما انتهى عدد الموتى إلى ألفين في اليوم الواحد ، وقد انتهى عددهم بالقاهرة ومصر إلى أربعة وعشرين ألفا في اليوم الواحد وربما كان السبب في ذلك - على حسب رأيه - أن حكومة القاهرة لم تتخذ الإجراءات الخامسة التي اتخذتها سلطات دمشق .

ومعنى هذا أن ابن بطوطة يرى أن الإجراءات الخازمة التي اتخذها نائب السلطان الأمير أرغون أتت بنتيجة طيبة في مواجهة الطاعون .

وحديث ابن بطوطة عن الشام حديث زاخر فياض ، لأن الرجل أحب هذا البلد فأفضى في الكلام عن فضائله ، فهو يعجب باتساع الأوقاف وأنواعها ، ووفرة المال المحبس عليها : فهناك أوقاف للعاجزين عن الحج ، وأوقاف لتجهيز البنات إلى أزواجهن ، وأوقاف لفكاك الأسرى ، وأوقاف على تعديل الطريق ورصفها ، لأن أرقة دمشق لكل واحد منها رصيفان في جانبيه يمر عليهما المترجلون ، ومير الركبان بين ذلك .  
(ص ٩٩) .

ويبدو أن ابن بطوطة حسن الظن فصدق كل مقاله له الفقهاء ، لأنهم كانوا هم الأووصياء على هذه الأوقاف ، فإذاقرأنا كتاب « منامات الوهري » رأينا فيها حديثا عجبا عما كان يصيب الأوقاف في مصر والشام .

وهنا لابد من الإشارة إلى ما اتصف به ابن بطوطة في حديث رحلاته كلها من ميل إلى تصديق ما يسمع من الأخبار ، لأنه كان يحسن الظن بالناس ، ولا ينكر من أحاديثهم شيئاً إلا إذا خالف العرف والمأثور ، وعلى أي حال فإنه لم يرو إلا القليل من أخبار هذا الطراز .

## الطريق إلى المدينة المنورة

نقف هنا مع ابن بطوطة في آخر مراحل زيارته لبلاد الشام ، ولا بد على أي حال أن نختم الحديث عن هذه الزيارة الأولى للشام لأننا لو استرسلنا في التفاصيل التي يذكرها لما فرغنا لأنه - كما قلنا - مفتونا ببلاد الشام بعجبه فيها كل شيء ، هذا شأن الكثريين من رحلة المسلمين من أمثال ابن جبير والمقرى التلمساني الذي نستطيع أن نسلكه في زمرة الرحاليين .

والسبب في هذا الحب الذي كانت تتمتع به بلاد الشام في تلك العصور هو جمال مدنه واعتدال جوها وقلة ازدحام السكان بها وكثرة أماكن الزيارة ومواقع الذكريات الإسلامية فيها ، هذا بالإضافة إلى ماطبع عليه أهلها من كرم الضيافة وحسن اللقاء فكان الزائر يستريح ويشعر بالأنس ويغزو ببركة المزارات ، ويفيد علماً ويلقي شيوخاً ينخر لهم بعد عودته إلى بلاده ، ويطول عنهم حديثه مع صحبه ، خاصة إذا كان من أهل العلم والسباع .

وهذا ما حديث أبي عبد الله محمد بن إبراهيم اللوائطي الننجي : فقد وقف في نهاية هذه الزيارة الأولى وفترة طويلة عند من سمع منهم من شيخ دمشق وأثنى عليهم ثناء عظيماً ، شأن كل طالب علم في هذه العصور مع كل من سمع منهم من الشيوخ ، فقد كان الإنسان لشيخه في تلك العصور ، لأن العلم الذي كان يدرس كان واحداً لا يتغير ، وكان مسطوراً في كتب معروفة يشبه بعضها بعضاً في الموضوعات والتفاصيل ، وكان الاختلاف والتفاوت في أسماء الشيوخ الذين يسمع الإنسان عليهم ، فكان الطلاب يحرصون على السماع من المشاهير وأصحاب الصيت من الشيوخ « الذين تضرب إليهم آباط الأبل » كما يقولون وفي أحيان كثيرة جداً نجد أن صيت الشيخ

لا يطابق حقيقة علمه ، بل قد يشتهر بجودة التأليف وسُوء المعاشرة في الوقت نفسه ولكن بعد صيغته بكتبه يستدعي إليه الطلاب من كل ناحية ، وكان الطلاب يحرصون على السماع على المشاهير للحصول على الإجازات الدراسية منهم .

والإجازة تتلخص في أن يكتب الشيخ للطلاب عبارة تقول : سمع على  
فلان بن فلان كتاب كذا وأجزت له روايته عن « وكان الشیوخ یفتون فی صیغ  
الإجازات ، حتی إن بعضهم كان یکتبها شعرا وكلاما كان شیوخه أكبر كان هو أكبر ،  
وحتی إذا كان الشیوخ صغرا اجتهد الطالب فی تعظیم شأنهم تعظیما لشأن نفسه ورفعا  
لمرتبتها بین فقهاء بلده .

فابن بطوطة يفخر بسماعه صحيح البخاري على ابن الشحنة ، وهو شهاب الدين  
أحمد بن أبي طالب بن أبي النعم الحجازي ، وهو يصفه بأنه «الشيخ المعلم ، رحلة ،  
ملحق الأصاغر بالأكابر» ، وهو يذكر أنه سمع عليه البخاري في أربعة عشر مجلساً  
آخرها يوم الاثنين الثامن والعشرين من رمضان سنة ٧٢٦ هـ / ٢٨ من أغسطس ١٣٢٥ م.

وقد اجتهد ابن بطوطة في تعظيم سماعه هذا ، لكنه يقنع الناس بأنه درس علم الحديث فأقتننه ، فذكر النسخة التي قرأ عليها ووثقها ووثق صاحبها عَلَمُ الدِّين أَبَا مُحَمَّدَ الْقَاسِمِ الْبَرْزَالِيِّ الإِشْبِيلِيِّ الأَصْلُ الَّذِي يُسَمِّيهُ « مؤرخ الشام » ولم يقل أحدٌ إن البرزالي هذا يلقب بمؤرخ الشام ، وأطال الكلام على إسناد هذه الرواية على نحو يشعر معه القارئ أن ابن بطوطة يريد أن يؤكّد هنا أنه قد استكمل جانباً كبيراً من دراسته ، وأصبح من كبار العلماء ، وأيد ذلك بذكر عدد آخر من الشيخوخ سمع عليهم خلال هذه الفترة القصيرة التي قضوها في دمشق .

ويرغم هذا الاجتهاد في توكييد دراسته فستلاحظ أن حظًّا ابن بطوطة من الفقه قليل ، وسيتبين هذا بصورة واضحة عندما يتولى القضاة ويمارسه في الهند وجزر ملديف . هنا سيقع الرجل في أخطاء كثيرة في الأحكام ، وستؤدي به هذه الأخطاء إلى متاعب كثيرة !

خواهر و روح

وفي مستهل شوال من تلك السنة، وهو سنة ٧٢٦ المعاقة لشهر ستمبر ١٣٢٥، ابن بطوطة إلى

الجاز أول

۵

خرج ابن بطوطة مع الركب الشامي قاصداً الحجاز ، وهو يسمى الركب هنا بالركب

الحجازى ، وهى تسمية أدق ؛ لأن الركب لم يكن يقتصر على حجاج الشام فحسب ، بل كان يضم حجاجاً كثيرين من العراق وخراسان وببلاد الروم - أى آسيا الصغرى - وببلاد ما وراء النهر وغيرها .

نظم ركب الحج  
ويعطينا ابن بطوطة تفاصيل نافعة جداً عن تنظيم الركب وخط سيره : فقد كان للركب أمير من المالك يسمى سيف الدين الجريان ، وهو من كبار أمراء المالك ، ولم يكن الركب يسير قطعة واحدة ، بل كان يسير مجموعات ، كل مجموعة منها تحت حراسة جماعة من العرب أو العربان - يأترون بأمر أمير الحاج ، تؤيده قوة عسكرية من المالك في كامل أهابهم لحماية الركب .

وكان سفر ابن بطوطة مع طائفة من العرب تسمى العجارةمة أميرهم يسمى محمد ابن رافع ، ويصفه ابن بطوطة بأنه كان كبير القدر في الأمراء ، وهذه ملاحظة تدل على أن العلاقة بين المالك والعرب - أو العربان كانت طيبة في ذلك الحين . ومن المعروف أن للعلاقات بين المالك والعرب تاريخاً طويلاً في مصر والشام والجزيرة العربية حافلاً بالعداوات والحروب تتخلله فترات قصيرة من الصلح والهدوء ، وكان حكم الناصر بن محمد قلاؤون من عصور الصلح والوفاق بين العرب والمالك ، وقد أفاد منهم الناصر كثيراً في تثبيت قواعد ملكه .

والطريق الذي سار فيه الركب هو الطريق التقليدي ، أو الدرب المعروف الذي ذكره غيره من الرحالة ، وخاصة ابن جبير في رحلته الثالثة - وهو يخالف الطريق السابق على الحروب الصليبية ؛ لأن سيطرة الصليبيين على نواح واسعة من الشام أوقفت طرق التجارة والحج من الشام إلى الحجاز كما سبق أن قلنا ، فلما زال الصليبيون من الشام نشأت طرق جديدة لها مراحل ومنازل - أى محطات - جديدة تختلف هي وما نجده عند المقدسي مثلاً .

طريق الحج  
من الشام إلى  
مكة

وهذا الطريق يبدأ من الكسوة - وهي منزل صغير يتجمع فيه الحجاج إلى جنوب دمشق ، يشبه بركة الحجاج إلى شمال شرق الفسطاط (بالنسبة لركب الحاج المصري) ومن الكسوة إلى قرية الصَّمَمِينَ ، ثم إلى بلدة زُرْعَة في حوران ثم إلى بُصْرَى ، وهناك

كان الركب ينتظر أربعة أيام ليتلاحق به المتخلفون من دمشق ، ولتنضم إليه روافد أخرى آتية من نواحٍ أخرى من الشام .

ولا يفوّت ابن بطوطة أن يذكر أن النبي ﷺ نزل بصرى عندما خرج بتجارة السيدة خديجة رضي الله عنها قبل زواجه بها ، ويذكر أن موضع مبرك ناقته هناك معروف قد بني عليه مسجد عظيم ، وكانت بصرى مركزاً عظيماً للتزود بالطعام و حاجات الحجاج .

ومن بصرى إلى بركة نزيرة ثم إلى اللّجُون حيث عيون الماء كثيرة تجتمع منها بركة كبيرة ، ومن هنا جاء اسم الموضع فهو لاتيني Lacuna ، وهذا نجد مواضع كثيرة تحمل اسم اللّجُون في صقلية والأندلس ومعناه البركة أو البحيرة .

وعندما يصل إلى حصن الكرك يقف عنده ابن بطوطة طويلاً ، ويصف حصناته ومدخله المنحوت في الحجر الصلب ، وهو لا يشير إلى ما كان لهذا الحصن من تاريخ في الحروب الصليبية ، وكيف أن أحد أصحابه من اللاتين وهو ريجستان دى شاتيون - أراد أن يخرج منه لغزو الحجاز والأراضي الإسلامية المقدسة ، وكيف عاقبه صلاح الدين على ذلك بقتله عندما ظفر به؟

ولكن ابن بطوطة يذكر ما كان لهذا الحصن من دور في حياة الناصر محمد بن قلاوون ، وكيف كان هذا الحصن ملجأه في فترات اختلاف الأمراء عليه ، وقد لجأ إليه عندما شعب عليه أمراؤه برياسة سيف الدين سلار ، ثم تولى الأمر بيبرس الجاشنكير حتى استعاد الناصر ملوكه وتبع بيبرس الجاشنكير وقتلها وابن بطوطة يكتب اسمه الشّشّنكير ، ولا يفوقه أن يترجم اللقب فعناء أمير الطعام ، أي وزير التموين كما نقول في أيامنا هذه ، وسنلاحظ أن ابن بطوطة شديد الحرص على معرفة معانى ما يسمع من الألفاظ وترجمتها إلى العربية ، وتلك من فضائل كتابه ، وسنهما بالتبني على أمثلة كثيرة من ذلك ترد في ثانياً هذه الأحاديث .

ومن الكرك إلى معان ، وهي عند ابن بطوطة آخر بلاد الشام ، أي أنها بعد ذلك نسيرة في الجزيرة العربية . ومن هناك إلى «عقبة الصوان» ، وهي غير فرضة العقبة المعروفة ، ثم إلى ذات حج ثم إلى تبوك ، وهنا يشير إلى عين الماء التي كان ماؤها

شحيحاً ، فلما وضع الرسول الكريم يده فيها فاضت بالماء ولا تزال تفيض بعد ذلك أبداً .

وهذه العين المباركة هي مورد الماء الأكبر للداخلين إلى الصحراء المخوفة الممتدة من تبوك إلى العلا ، وابن بطوطة يذكر أن أمراء جمادات ركب الحجاج يحفر كل منهم حفرة يُطْنِّبُها بجلد البقر أو الجاموس ويكتفى السقائين بحملها بالماء ليرتوى الناس والجمال ويترود الركب بماء يكفي أربعة أيام على الأقل .

ويصف ابن بطوطة مشقة قطع المسافة بين تبوك إلى العلا ، وكيف يمر الركب بمساحات مخوفة تهب عليها رياح السموم التي ينشف منها الماء داخل الروايا والقرب ، ويدرك كيف هلكت قوافل بأسرها بتأثير هذه السموم ؟

ويمر الطريق بديار ثمود التي يتحمامها أهل الركب ويخترون المرور بها ، ويصف ابن بطوطة ديار ثمود المخوفة هذه وما فيها من آثار أولئك القوم الذين سخط عليهم الله سبحانه وتعالى فما أبقى ، ويبلغ الأمر أن يرفض الناس استقاء الماء من بئر حجر ثمود ، ويشير ابن بطوطة إلى مبرك ناقة النبي صالح عليه السلام ، ثم تنكشف الغمة عندما يصل الركب إلى العلا ، وهي قرية كبيرة حسنة بها بساتين التخل والمياه المعينة ، وفي العلا - كما نعرف - عثرنا على أحد النصوص القليلة للكتابة العربية في تطورها قبل الإسلام .

ويقيم الركب في العلا أربعة أيام يتزودون بالماء ويعسلون ثيابهم ، ثم يرحل الركب فينزل بوادي العطاس الذي تهب عليه السموم المهلكة ، ثم يصل الركب إلى حسيان هذية ، وبعد ثلاثة أيام يصل إلى خارج المدينة المنورة . مدينة الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

وقد أوجز ابن بطوطة وصف الطريق من مدائن صالح إلى المدينة بخلاف ابن جبير الذي يفيض هنا في الوصف ، ويسترسل فلا يترك شيئاً من به إلا ذكره . ولكن الذي نلاحظه هنا هو أمان الطريق ، فنحن نسير مع ابن بطوطة في طريق آمن هادئ لا يهدد أمن السائر فيه شيء وتلك ظاهرة ترجع إلى كفاية الحكومة المملوكية في أيام الناصر محمد ابن المنصور قلاوون في ولايته الثالثة على الأقل ، فالحق أن الدولة المملوكية بلغت

أوجها في هذه الفترة ، وساد نواحها الرخاء ، لأن الناصر بن قلاوون بعد المتابع التي عاناه من ماليكه عرف في النهاية كيف يضبط أمور دولته ضبطاً تاماً مستعيناً في ذلك بنفر من خيرة أمراء الماليك . يضاف إلى ذلك أن تجارة الشرق والغرب عن طريق مصر بلغت أوجها في ذلك الحين ، وبلغ دخل الدولة المملوكية منها أقصاه ، والفضل في ذلك راجع إلى كفایة الناصر محمد بن قلاوون ..

وبعد هذا السلطان يبدأ انهيار الدولة المملوكية في أيام خلفائه ، وكانوا جمیعاً سلاطین بالاسم . وخلال فترة ما بعد الناصر بن قلاوون يهبط مستوى الحكم في سلطنة مصر والشام هبوطاً سريعاً ، وتهزّل الحياة والأحداث إلى مستوى يجعل صفحات تاريخ مصر بعد الناصر سرداً ملأه لحوادث تافهة حيناً ومؤلمة حيناً ، ويهبط نبض الحياة ، ونحس أننا في آخر عصر .

أسفاره

وصلنا مع ابن بطوطة إلى المدينة المنورة ، وكنا نتوقّع أن نشعر في كلامه بفرحة قريبة من فرحة ابن جبیر عندما أهل على مدينة الرسول ﷺ ، فإن ابن بطوطة ذكر في فاتحة رحلته أن المقصود الرئيسي من رحلته كالمها هو زيارة الأرضي المقدسة ، ولكن لأمر ما نشعر بشيء من الفتور في كلام ابن بطوطة عن المدينة المنورة ، وقد يكون هذا هو مزاج ابن بطوطة نفسه : أى أنه بطبيعة رجل هادئ النفس قليل الانفعال مقتضى في الاسترسال مع عواطفه ، وهذا صحيح ؛ فإن ابن بطوطة كان كذلك ، وكلامه يصدر دائمًا عن هدوء وبعيد عن الانفعال أيا كانت المناسبة التي يجد نفسه فيها .

ولكن الذي يستوقف النظر أن كلامه عن المدينة المنورة منقول في غالبيته عن ابن جبیر وعن « وفاة الوفاء » للسمهودی ، ولا نشعر إلا في النادر أنه يصدر في كلامه عن إحساس مباشر أو تجربة شخصية ؛ كما هو عهدهنا به في معظم أجزاء رحلته .

بعد تحية بلا غية للمدينة ومسجد الرسول الأكرم ينصرف ابن بطوطة إلى وصف المسجد النبوی وذكر شيء من تاريخه ، والكلام هنا لا يقدم إلينا جديداً ؛ لأن لدينا ما هو أفضل وأدق من ذلك في كلام السمهودی ، بل إن ابن جبیر يقدم لنا معلومات مباشرة ذات أهمية تاريخية خاصة ؛ لأنها تصور لنا المدينة المنورة والمسجد النبوی في الوقت الذي زارهما فيه ، ويبدو أن ابن جزئي أطلق ليده العنوان في تعديل كلام ابن بطوطة هنا كيف شاء .

ومن أهم المعلومات المباشرة التي يقدمها كلامه عن دار الوضوء التي أمر الملك المنصور قلاوون ببنائها عند باب السلام من أبواب المسجد المکرم ، وهي دار وضوء كبيرة المساحة يصورها لنا ابن بطوطة تصویراً دقيقاً : فقد كانت - بحسب كلامه -

ميسأة مستديرة واسعة المساحة ، ينصب فيها الماء من صنابير تدور مع الميسأة ، ويجلس المتوضئون القرفصاء أمام الصنابير .

وتدور حول هذه الميسأة دورات المياه ، وهو يسمى « البيت ». وكان الذي أشرف على بنائها الأمير الصالح علاء الدين الأقر . وهو يضيف أن الملك المنصور قلاوون أراد أن ينشئ ميسأة كهذه في مكة ، فلم يتم له ذلك ، وأقام ميسأة مكة ابنه الملك الناصر محمد بن قلاوون ، أقامها بين الصفا والمروة .

وبعد كلامه عن الميسأة – يقول شيئاً ييدو أنه لم يكن هناك ما يدعوه إلى قوله ؛ لأنه بدھی ، وهو أن قبلة مسجد الرسول ﷺ قبلة قطعٍ أى مقطوع بصحبة اتجاهها نحو الكعبة ، لأن الذي حدد موضعها كان رسول الله بنفسه ، ويدھب إلى أن جبريل – فيما يقال – هو الذي حدد موضعها .

ولكن هذه الملاحظة تأذن لنا في أن نضيف حقيقة هامة ، وهي أن الخلاف كثير حول صحة اتجاه الكثير من قبلات المساجد في العصور الوسطى ، لأن الأساليب الرياضية أو الفلكية التي كانوا يعتمدون عليها في تحديد اتجاه قبلات لم تكن تمتاز بدقة علمية حاسمة .

وفي الغالب كانت تحديد قبلات على وجه التقرير ، بل هناك مسجد عظيم – وهو مسجد قرطبة الجامع – تبين بعد بناء الجزء الأول منه أن اتجاه قبلته نحو الجنوب ، لا نحو الجنوب الشرقي كما كان ينبغي . وعندما تبين الناس ذلك فكروا في هدم المسجد وإعادة بنائه على الصحة ، ولكن الفقهاء أفتوا بإبقاء المسجد وقبلته على حالها ، وأشاروا بأن ينحرف المصلون بعض الشيء في اتجاه القبلة الصحيح .

وهنا لا بد أن نشير إلى أن أدق من عرف توجيه قبلات في تاريخنا هو أبو الريحان البيروني وفي بعض فصول كتابه المشهور « الآثار الباقية عن القرون الخالية » كلام علمي دقيق جداً عن أحسن الأساليب لحساب اتجاه قبلات ، والكلام مدعاوم بالرسوم والحسابات الهندسية الدقيقة . وقد اشتراك البيروني في تحديد قبلات الكثير من المساجد التي بنت في عصر الغزنوين .

ويحدثنا ابن بطوطة عن إمام المسجد وخطيبه في أيامه ، وهو مصريان ، ويدرك أن

الأخير منها - وهو سراج الدين عمر المصري - خطب في المسجد أربعين سنة ، فلما علت به السن وأحس بدنو منتهيه تاقت نفسه إلى ختام أيامه في بلده مصر ، فنوى العودة ، ولكن رأى الرسول ﷺ في المنام ثلاثة مرات ينهاه عن مبارحة المدينة ، ولكن حنينه إلى بلده غلبه فخرج ، قال ابن بطوطة : « فات بموضع يقال له سُويس على مسافة ثلاثة مراحل من مصر قبل أن يصل إليها ! نعوذ بالله من سوء الخاتمة » (ص ١١٥) ، والمراد بمصر هنا هي الفسطاط ، وإلا فإن سويس من مصر.

ولا يحذثنا ابن بطوطة عما شهد ومن لقى من الناس في المدينة ؛ كما فعل ابن جبير ، بل يصرف جهده إلى الحديث عن مؤذن المسجد الشريف وخدماته ، وهو يقول : إنهم فتيان من الأحابيش ، ولا ندرى ماذا أراد بقوله هذا ؟ هل هم من الأحباش ؟ أو من أبناء القبائل التي عرفت أيام الرسول ﷺ بالأحابيش ، وهى قبائل عربية سميت بالأحابيش لأنها تحبّشت أى تجمع بعضها إلى بعض ؟ ولكن يضيف : « إنهم على هيئات حسان وصور نظاف وملابس ظراف ، وكثيرهم يعرف بشيخ الخدام ، وهو في هيئة الأمراء الكبار ، ولهم المرتبات بديار مصر والشام ، ويؤتى إليهم بها في كل سنة . »

ثم يعقب ذلك حكاية مؤذن من مؤذن المسجد أصله غرناطي كان خديعاً لشيخ يسمى عبد الحميد العجمي ، وكان الشيخ يائمه على أهله وحرمه ، فحدث أن امرأة الشيخ حاولت فتنة الخديم الغرناطي ، فما كان من هذا الرجل الحريص إلا أن جب نفسه لينجو من الفتنة ، وقد عولج من ذلك وشفى وعاش بعد ذلك آمناً على نفسه !

وحدث ابن بطوطة عن المجاورين في المسجد طريف : فقد كان الكثيرون ينقطعون للمجاورة في المسجد الشريف ، ويقضون عمرهم كله هناك ، ومنهم من كانوا يجاورون بمحكمة المكرمة عند الحرم ، وكانوا لا ينقطعون عن الطواف بالкуبة صيفاً ولا شتاء ، وكان بعضهم يتعمد الطواف في أشد أيام الحر وساعة القيلولة المتاسلة للثواب عملاً بالحديث الشريف : الشواب على قدر المشقة . قال : وأكثر الطائفين في ذلك الوقت يلبسون الجوارب ، وكان أبو العباس بن مرزوق يطوف حاف القدمين ورأيته يوماً يطوف ، فأحببته أن أطوف معه ، فوصلت المطاف ، وأردت استلام الحجر الأسود ، فللحظى طب تلك الحجارة ، وأردت الرجوع بعد تقبيل الحجر ، فما وصلته إلا بعد

جهد عظيم ، ورجعت فلم أطف ، وكنت أجعل بجادي على الأرض ، وأمشي عليه حتى بلغت الرواق ، (ص ١١٧) ويدرك أنه كان بمكة إذ ذاك وزير غرناطي سابق يسمى أنها القاسم محمد بن الفقيه أبي الحسن سهل بن مالك الأزدي ، «كان يطوف كل يوم سبعين أسبوعاً<sup>(١)</sup> ، وكان يطوف في وقت القائلة لشدة الحر ، وكان ابن مزروع يطوف في شدة القائلة زيادة عليه ». .

وبقية حديث ابن بطوطة عن المدينة لا يتضمن أي شيء جديد . فهو يحدثنا بما ذكره المؤرخون من أمر أمير المدينة في أيام زيارته سنة ٧٢٨ وهو كييش بن منصور ابن جاز وما جرى بينه وبين عممه مقبل من العداوة والقتل ، ثم يتحدث عن بعض المشاهد حديثاً متقدلاً عن السمهودي وغيره من زار المدينة دون أن يضيف شيئاً يدل على معاناة شخصية . ويختتم حديثه عن المدينة بحكاية لا يأس بروايتها هنا ، قال : « وكان هناك فقيه طيب من أهل غرناطة ، ومولده بيجاية ، يعرف هناك بمجال الدين المغربي ، فصحبه رجل يسمى على بن حجر وواعده على أن يزوجه بنته ، وأنزله بدلويرة خارج داره ، واشتري جارية وغلاماً ، وكان يترك الدنانير في مفرش ثيابه ، ولا يطمئن بها لأحد ، فاتفاق الغلام والجارية على أخذ ذلك الذهب ، وأخذاه وهربا . فلما أتى الدار لم يجد لها أثراً ولا للذهب ، فامتنع من الطعام والشراب ، واشتد به المرض أسفأً على ما جرى عليه ، فعرضت قضيته بين يدي الملك ، فأمر أن يُحْفَف له ذلك ، فبعث إليه من يُعلِّمه ذلك ، فوجده قد مات رحمة الله تعالى » (ص ١٢٢)

وحديث ابن بطوطة كله عن المدينة المنورة من هذا الطراز : أي أن الرجل يستوقف انتباها باهتمامه بالناس وشئونهم وما كانوا يفعلون ، وكيف كانوا ينصرفون دون نظر إلى تحيقيقات بعيدة في موضوعات معاصرة أو تاريخية أو فكرية ؛ لأن ابن بطوطة رجل بسيط يعيش مع الناس ويشاركهم في أسلوب حياتهم وتفكيرهم ، ويتحدث معهم بلغتهم ، ويهتم ما يأكلون وما يشربون وما يحرى عليهم من الأحداث .

ولهذا فإن كلامه هنا وفي مواضع أخرى من كتابه أشبه بالمذكرات الشخصية الحالفة بكل ما يعرفنا بأحوال الناس ، وذلك هو موضع الأهمية في كلام ذلك الرجل الذي

(١) أي يطوف حول الكعبة كل يوم سبعين طوافاً ، كل طواف سبع دورات .

عرف كيف يجعل من رحلته صوراً متواالية من حياة الناس ، وهو الأمر الذي يهمنا في المكان الأول ؟ لأن كتب الرحالة الآخرين تقدم لنا فيضاً من المعلومات ذات المستوى العلمي الحالص ، في حين أننا فقراء جداً في المادة الإنسانية البسيطة التي تعطينا شكل الحياة وطعم الحياة في العصر الذي قام فيه ابن بطوطة برحلته تلك .

ولعلنا لاحظنا ذلك فيما مر من الحكايات القصيرة التي يحكيها ابن بطوطة عن بعض من لقى من الناس وما حدث لهم ، وكذلك في حديثه عن الأطعمة والأشربة والأكسيه والفرش وكل ما يهم الناس في حياة كل يوم . وهنا تعتبر رحلة ابن بطوطة بحق وثيقة اجتماعية فريدة في ذلك :

## الحديث الأول عن مكة

وصل ابن بطوطة من المدينة إلى مكة بعد رحلة توصف بأنها ممتعة ، وقد سلك بين المدينتين المقدستين الدرب المطروق منذ أيام الرسول ﷺ ، واقتدى ابن بطوطة بالرسول الأكرم ، فأحرم قبل بدئه الرحلة من قرب مسجد ذي الحِلْفَة على خمسة أميال جنوب المدينة وهو منتهي حرم المدينة .

ومن هناك أضفت إلى وادي العقيق فالروحاء فالصفراء ، ثم إلى سهل بدر . وهو يصف بدرًا وصفاً جديراً بأن نورده منه قطعة هنا ؛ لأنها تصور لنا مرحلة من مراحل تاريخ هذا الموضع المبارك الذي دارت فيه معركة من أصغر معارك التاريخ حجمًا وأعظمها قدرًا وأكثراها حسماً في الوقت نفسه .

قال : « ونزلنا ببدر حيث نصر الله رسوله ﷺ تسليماً ، وأنجزه وعده الكريم ، واستأصل صناديد المشركين ، وهي قرية فيها حدائق تخُل متصلا ، وبها حصن منيع يدخل إليه من بطن واديين جبال ، ويبدر عين فواراة يجري ماؤها ، وموضع القليب الذي سُحب به أعداء الله المشركون . . . . وعند تخُل القليب مسجد يقال له مَبْرُوك ناقفة النبي ﷺ تسليماً ، وبين بدر والصفراء بريد في واديين جبال تَطَرَّد فيها العيون وتتصل حدائق التخل » (ص ١٢٣) وهذه التفاصيل عن بدر ينفرد بها ابن بطوطة فيما نعلم . ومن بدر قطع ابن بطوطة مساحة قاحلة طولاً « ثلاث » : أى ثلاثة ليال ، . ومعنى هذا أن القافلة كانت تسير بالليل وتتمكن بالنهار لشدة الحر . وفي الليالي الثلاث تقطع القافلة نحو تسعين كيلو متر ، وهو طول هذه المفازة من الطريق . وتنتهي هذه المفازة عند رابع ، وهي موضع غدران يبقى الماء فيها زمناً طويلاً ، « ومنه يحرم حجاج مصر والمغرب ، وهو دون الجُحْفَة » .

ومن رابع إلى خليص إلى عقبة السُّوِيق إلى بركة خُلِيف ، وهي موضع مزارع ومياه وضياع . « وعرب تلك الناحية يقيمون هناك سوقاً عظيمة يجلبون إليها الغنم والقر والإدام ، ومنها إلى عُسْفَان ، ومن هناك سرّوا طول الليل ، وأهلوا على مكة في الصباح ، وهنا يحس ابن بطوطة ذلك الإشراق النفسي الذي يشعر به كل مؤمن يسعده الله بزيارة بلده الحرام .

ويعبر ابن بطوطة ببيان ابن جُزَى عن ذلك الشعور بقوله : « ومن عجائب صنع الله تعالى أنه طبع القلوب على التزوع إلى هذه المشاهد المنيفة ، والمشول بمعاهدها الشريفة ، وجعل حبها متمنكناً في القلوب ، فلا يحل لها أحد إلا أخذت بمجتمع قلبها ، ولا يفارقها إلا آسفاً لفراقها متولهاً لبعادها عنها ، شديد الحنان إليها ، ناويًا لتكرار الوفادة عليها . . . وكم من ضعيف يرى الموت عياناً دونها ، ويشاهد التلف في طريقها ! فإذا جمع الله بها شمله تلقاها مسروراً مستبشرًا كأنه لم يذق لها مرارة ، ولا كابد محنة ولا نصباً . إنه لأمر إلهي وصنع رباني ، ودلالة لا يشوبها لبس ، ولا تغشاها شبهة . . . » !

إلى آخر هذا الكلام الجميل الذي يردد كل من زار مكة المكرمة ، وعرف مشقة السفر إليها ، فلما حل بها فاض قلبه بنور ومحبة وشوق تنسيه ما لقى من نصب ، وتجعله يتمنى لو استطاع أن يزورها كل حين .

وتعينا من أوصافه لملائكة المعلومات الطريفة الجديدة التي نجدها عنده ! فهو مثلاً يحدثنا عن أبواب مكة ، ومعنى ذلك أن مكة كان لها أيام زارها ابن بطوطة سور ، وفي السور أبواب ، ولا نجد عند الأزرق مؤرخ مكة وواصفها حديثاً عن سور مكة وأبوابها على هذه الصورة .

وابواب البلد التي يذكرها ابن بطوطة ثلاثة : « باب المعنى بأعلاها ، وباب الشبيكة من أسفلها ، ويعرف أيضاً بباب العُمْرة ، وهو إلى جهة الغرب ، وعليه طريق المدينة الشريفة ومصر والشام وجدة ، ومنه يتوجّه إلى التنعيم . وباب المُسْفَل<sup>(١)</sup> وهو من جهة الجنوب ، ومنه دخل خالد بن الوليد رضي الله عنه يوم الفتح » (ص ١٢٦)

(١) المشهور : المسفلة .

ويلاحظ ابن بطوطة ملاحظة هي الغاية في الطرف ، فيقول : إن الله سبحانه وتعالى شاء أن تكون مكة بواد غير ذي زرع ، ولكنها ساق إليها المخارات من كل صوب ، « فكل طرفة تجلب إليها ، وثمرات كل شيء تجبي لها ، ولقد أكلت بها من الفواكه : العنب والتين والخوخ الطيب والرطب ما لا نظير له في الدنيا وكذلك البطيخ المخلوب إليها لا يماثله سواه طيباً وحلوة ، واللحموم بها سمان لذيدات الطعوم ، وكل ما يفرق في البلاد من السلع فيها اجتماعه ، وتجلب له الفواكه والخضرة من الطائف ووادي نخلة وبطن مرّ لطفاً من الله بسكن حرم الأمين وجواري بيته العتيق » . (ص ١٢٦)

وبعد أن يصف ابن بطوطة المسجد الحرام « شرفه الله وكرمه » ، والكعبة المعظمة الشريفة والمizarب والحجر الأسود والمقام الكريم والحجر والمطاف وزرم وأبواب المسجد الحرام وبعض المشاعر الشريفة وماذن المسجد الحرام والصفا والمروة وغير ذلك من مشاهد البلد الحرام - يذكر لنا حكاية شيخ من معارفه خرج مع أصحابه لزيارة غار حراء ، وتختلف عن أصحابه فضل الطريق حتى كاد يهلك عطشاً .

ويذكر ابن بطوطة أميرى مكة أيام دخوله إليها ، وهما من بنى قتادة ، وهما الأخوان أسد الدين رميثة وسيف الدين عطيقة ابن الأمير أبي نهى بن أبي سعد بن على ابن قتادة الحسين ، ويحدثنا عن بيتهما وأولادهما ، ويذكر مكان بيت كل منها في مكة ، وكانت الصدارة لرميحة .

**فضائل أهل مكة**  
ويحدثنا عن أهل مكة وفضائلهم وجميل أفعالهم ومكارمهم ، ويقف طويلاً عند إطعامهم الفقراء ، ويعطينا صورة عن مساكن مكة الذين كانوا يعيشون دواماً على إحسان الناس من الخنزير ، ويذكر كذلك عناتهم بالأيتام ، وكيف كان هؤلاء يقطدون بالسوق ويحملون للناس أشياءهم إلى البيوت لقاء أجر زهيد؟ ويضيف : « فلا يذكر أن أحداً من الصبيان خان الأمانة في ذلك قط ، بل يؤدى ما حمل على أتم الوجه ، وطم على ذلك أجرة معلومة من فلوس » (ص ١٤٣)

**نظافة أهل مكة**  
ويتدرج ابن بطوطة نظافة أهل مكة وصناعة بياض ملابسهم وكثرة استعمالهم للطيب والكحل ، ويصف : « ونساء مكة فائقات الحسن بارعات الجمال ذات

صلاح وعفاف ، وهن يكثرون التطيب حتى إن إحداهم لتبيت طاوية وتشترى بقوتها طيباً ! وهن يقصدون الطواف بالبيت في كل ليلة جمعة ، فيأتين في أحسن زى ، وتغلب على الحرم رائحة طيبين ، وتذهب المرأة منهن فييق أثر الطيب بعد ذهابها عيناً » ثم يتحدث عن قاضى مكة وخطيبها وإمام الموسم ، ويهمنا هذا الأخير ؛ لأنه يشير إلى تقليد خاص بموسم الحج وهو اختيار إمام للموسم ، وهو في أيامه إمام المالكية بالحرم الشريف ، وهو الشيخ أبو عبد الله محمد بن الفقيه أبي زيد عبد الرحمن المشهور بخليل ، وأصله من بلاد الجريد في جنوب تونس الحالية ويعرفون هناك ببني حبون .

إمام الموسم

وكان نزول ابن بطوطة في المدرسة المظفرية ، وقد رأى رسول الله ﷺ في متامه « وهو قاعد بمجلس التدريس من المدرسة المذكورة بجانب الشباك والناس يبايعونه ، فكنت أرى الشيخ أبي عبد الله المدعو بخليل قد دخل وقعد القرفصاء بين يدي رسول الله ﷺ تسليماً ، وجعل يده في يد رسول الله ﷺ وقال : « أبايعك على كلذا وكذا ، وعدد أشياء منها : وألا أرد من بيتي مسكنيناً خائباً ، وكان ذلك آخر كلامه ، فكنت أعجب من قوله ، وأقول في نفسي : كيف يقول هذا ويقدر عليه مع كثرة فقراء مكة من اليمن والرّيالعة وال العراق والعمّون ومصر والشام ؟ وكنت أراه حين ذلك لا يأساً جبه بيضاء قصيرة من ثياب القطن المدعومة بالقططان ، كان يلبسها في بعض الأوقات ، فلما صليت الصبح غدوت عليه وأعلنته ، فسر بها وبكي . . . » (ص ١٤٢)

ومن طرائف ما يحكي أن أهل مكة « لا يأكلون في اليوم إلا مرة واحدة بعد العصر ، ويقتصرن عليها إلى مثل ذلك الوقت ، ومن أراد الأكل في سائر النهار أكل القر ، ولذلك صحت أبدانهم وقلت فيهم الأمراض والعاهات » (ص ١٤٢)

أهل مكة  
يأكلون مرة  
واحدة في  
اليوم

ويكثر ابن بطوطة من الحكايات التي سمع بها في مكة ، وخاصة عن المجاورين ، وهم في العادة من كبار الشيخوخة الذين يقررون ترك بلادهم وقضاء بقية عمرهم بجاورين في مكة ، ومنهم الشيخ سعيد الهندي شيخ رباط كلاله ، وكان ملك الهند قد أعطاهم مالاً كثيراً فقدم به مكة ، فاستولى منه على المال الأمير عطيفة بعد أن عذبه .

ثم يذكر قصة نفر من التجار خرج عليهم لصوص الهند المعروفون بالسرّاق - ونحن نسميهم اليوم بالقراصنة - فسرقو ما معهم ، ويضيف : ومن عادة هؤلاء السرّاق أنهم

لا يقتلون أحداً إلا حين القتال ، ولا يغرقونه ، وإنما يأخذون ماله ويتركونه يذهب برकبه حيث سار ، ولا يأخذون المالك ؛ لأنهم من جنسهم ، والمراد أنهم من مالك المند

ومثل هذه الملاحظات والأخبار هي التي تعطى رحلة ابن بطوطة تلك القيمة الحضارية التي تمتاز بها على غيرها من كتب الرحلات ، فهذا الرجل حضرارة حقاً فهو يلمس الجوانب الإنسانية عند من يلقاهم من الناس ، وهو شديد الالتفات إلى كل ما يتصل بالحياة اليومية وما يسترعى نظره من عادات الناس وتقاليدهم وأحوالهم ، فالصورة التي يعطينا إياها عن عالم الإسلام في عصره صورة حضارية ولوحة اجتماعية نقلنا إلى الجو الذي كان يعيش فيه ، وتجعلنا نشاركه فعلاً في كل ما مر به من تجارب وما لقى من ناس ، وما طعم وما شرب ، بل إننا نحس معه بإحساسه فيها نزل به من البلاد وما لقى من الجماعات ، وهذا وحده جدير بأن يجعل تلك الرحلة كتاباً في الحضارة ووثيقة اجتماعية وحسب الرجل ذلك .

## ركب العراق

لا ندرى كم قضى ابن بطوطة في مكة ؟ فقد فاته أن يذكر تاريخ دخوله إليها ، ولكن الغالب أنه دخلها في رجب وفارقتها في ٢٠ من ذي الحجة سنة ٧٢٨ هـ / نوفمبر ١٣٢٨ م . أى أنه قضى فيها من موعد العمرة الرجبية إلى نهاية موسم الحج .

ولم تطل إقامته فيها بعد ذلك هذه المرة ؛ لأن الناس في تلك الأعصر لم يكونوا أحراضاً في تحديد مواعيد حلهم وترحالهم ؛ إنما كان يقرر ذلك مواقف صدور القوافل .

وفي حالة رجل كابن بطوطة مولع بالرحلة مشغوف برؤيه البلاد والعباد نجده يفضل الركبان الكبيرة الذاهبة إلى أرض جديدة ، ويفضل كذلك أن يكون في صحبة نفر من كبار الناس ، فذلك أقرب بأن يعينه على الحصول على المزيد من الأمان والمزيد من متعة السفر والرؤية والفرجة .

في هذه المرة خرج ابن بطوطة في صحبة أمير ركب العراق واسميه البهلوان محمد الحويج من أهل الموصل ، وكان يلي إمارة الحاج بعد موت الشيخ شهاب الدين قلندر ، وكان الحويج من أتباع الطريقة الفلاندرية : يخلق شعر لحيته وحاجبيه على نهج أهل طريقته ، وقد أكرم ابن بطوطة واكتفى له سُقَّة – أى عِدْلًا – على جمل ، وهو نصف محمل جمل ، فكان الرجل يجلس في سُقَّة على جانب الجمل وصاحب له في الشُّفَّة الأخرى على الجانب الآخر ، ويتبادلان الحديث أو لعب الشطرنج في أثناء الطريق ، وقد يأكلان وهما على هذه الحال ، فإذا شاء أحدهما النوم غفا والجمل سائر في الركب الكبير .

وقد زاد أمير الحج العراق في كرامة ابن بطوطة ، فأنزله في جواره . أى أن راحلته سارت في قلب الركب في أمان الأمير وحمايته ورفده .

وكان العراق وبلاط فارس يعيشان إذ ذاك في فترة تستطيع أن نصفها بأنها فترة نقاهة بعد الشقاء الذي عانته في عصر غارة المغول المخربة فيما بين سنتي ١٢١٨ م و ١٢٦٠ م ، وهي الغارة التي خربت فيهم معظم مدن ما وراء النهر وبلاط إيران ، وبلغت ذروة تخريبها بدخول المغول بغداد وطمسم معالمها سنة ١٢٥٨ .

وقد عاش الشرق الإسلامي في تلك السنين وما بعدها عصر ظلام دامس وشقاء بالغ كادت شعلة الحضارة أن تطفئه خالله جملة في ظل هولا كوك وسيده جنكيزخان . ولكن الله تدارك الإسلام برحمته ، فدخل غازان خان حفيد هولا كوك في الإسلام سنة ١٢٩٥ م ، وتنفس محنق المسلمين وزال عنهم الروع ، وبدأت شجرة الحضارة الإسلامية تورق من جديد ، وخاصة في عهد أولجايتو خدابندة (١٣١٦ - ١٣٠٥ م) ثم أبي سعيد (١٣١٧ - ١٣٣٥ م) وفي عهد هذا الأخير دخل ابن بطوطة العراق وفارس .

والبيهان محمد الحويج أمير الحاج الذي سار ابن بطوطة في حماه وكرمه كان من رجال أبي سعيد هذا ، وكان يتتخذ مقره بلدة جديدة أنشأها في شرقى خراسان تسمى سلطانية ، وقد أنشئت في الوقت الذي أنشئت فيه نفسه تبريز ، وكان ظهورهما على عودة الروح إلى أقاليم المشرق الإسلامي .

وقد انتعش العراق وعادت الحياة إلى بغداد بعض الشيء في أيام أبي سعيد ، ولكن بغداد لن تستعيد مكانتها بعد ذلك إلى نهاية العصور الوسطى . ومن حسن الحظ أن أمور مصر والشام كانت أسعد وأرخى في ظل دولة المماليك الأولى - أو البحريية - وسلطانينا الكبار الثلاثة وهم : الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري (١٢٦٠ - ١٢٧٧ م) ، وسيف الدين المنصور قلاوون (١٢٧٩ - ١٢٩٠ م) ، والناصر محمد بن قلاوون (١٢٩٩ - ١٣٤١ م) ، وإليهم يرجع الفضل في وضع أحسن نظام إداري عرفته بلاد الشرق فيما بين انهيار سلطنة صلاح الدين وقيام الدولة العثمانية .

وي يكن القول إن العراق استعاد في عهد السلطانين أولجايتو خدابندة وأبي سعيد بغداد ثقين الكثير من رخائه القديم وإن لم يستعد بهاءه الماضي ، لا ولا استعادت بغداد جزءاً من من كارثة المغول

رواءها السالف ، ولكنها بعثت إلى الحياة من جديد ، ووصلت حياتها قرية كبيرة ، هيئتها تبعث على الأسى كأنها امرأة عجوز عدا عليها الزمان بعد عز ماض وجمال فائق وسعد عظيم .

ولكن إقليم فارس وما يصافبه ، مثل كرمان والجبال استعادت رخاءها الزراعي والاقتصادي القديم ، ونشأت فيها مراكز جديدة للحضارة مثل شيراز ويزد ، وفي ذلك العصر ظهر طراز الفن المعاشر السلجوقي المتأخر الذي طالما أعجب به المغاربة الأوروبيون ، وفيه ألف أولبيج جرابار كتاباً يعتبر من أجمل ما ألف في العمارة الإسلامية .

وإلى شمال إيران في بلاد ما وراء النهر قامت دولة مغولية إسلامية أخرى تشبه دولة الإيلخانات ، وهي دلة خانات – أو سلاطين – شغتاي من حفداده جنكيز خان ، وإذا كان مغول جنكيز خان قد خربوا قواعدهما وراء النهر ومراكز فخره من أمثال بخاري وسمرقند – فإن حكم آل شغتاي خلال القرن الرابع عشر الميلادي قد أعاد المدود بعض الشيء ، فأظهرت الزراعة وانتعش الاقتصاد ، ولكن بلاد ما وراء النهر كانت قاعدةً زاهرة من قواعد العلم والحضارة الإسلامية – قد ولّى زمانها مع أمس الدابر .

ذلك هو عالم المشرق الذي سيدخله الآن ابن بطوطه ويحدثنا عنه ، ولم نتحدث بعد عن الإسلام في بلاد عالم الروم ، ويشمل بلاد آسيا الصغرى وما يليها شمالاً من أراضي القرم ، وكانت بلاد إسلامية وسيدخلها ابن بطوطة ، ولم نتحدث كذلك عن بلاد النوريين والهند الإسلامية ، وستكون أيضاً مجال نشاط واسع لابن بطوطة ، فقد رأيت أن أرجئ الكلام عن الوضع السياسي والحضاري في هذه التواحي لحينه ومكانه من هذه الدراسة .

ولابد أن نلاحظ قبل أن نستطرد مع الحديث أن ابن بطوطة كان رجلاً حسن الظن لا يكاد يرى إلا الجانب الحسن من الأشياء ، فهو يثنى على كل ما يراه ولا يكاد يكشف لنا شيئاً ، وهذا يدل على نفس ابن بطوطة المفتتحة للحياة المقبلة على كل ما فيها بنفس طيبة وقلب كريم .

فهذا رجل يأكل ما تيسر وينام حيثما اتفق ، فإذا تيسر له الطعام الجيد لم يتردد في الإقبال عليه ، وإذا لم يجد إلا الخل والزيت والخبز أكل وافتresh حصيراً على ظهر

عود الرخاء  
إلى بعض  
أقاليم إيران

دولة خانات  
شغتاي في  
بلاد ما وراء  
النهر

اهتمام ابن  
بطوطة  
بسجان  
المشرق من  
الحياة

مدرسة ونام ملء عينيه دون أن يشكوا أو يتململ .

وهذه منة من الله أكبر على هذا الرجل ، جعلته يستمتع ب حياته ، ويستبشر بأيامه ، وجعلت كتابه صفحات مشرقات تملأ النفس بشراً وأمناً .

وهو في هذا يخالف رحالة من بنى بلده هو العبدري الذي كان يرى الدنيا من خلف نقاب أسود ، ولا يكاد يخرج من بلد حتى يسب أهله ويندم كل أوضاعه ، لأنه بطشه كان رجلاً ضيق النفس متبعاً بانتقال الحياة ، ولهذا فتحن معه في تعب على طول رحلته .

وليس تلك بالخصلة الطيبة على إطلاقها عند ابن بطوطة ، فإن الإسراف في حسن الطفن ، والاقتصار على الجانب المشرق من الحياة لا يعطينا إلا نصف الصورة ، ويفق نصفها الآخر بعد ذلك خافياً عنا كأنه الوجه الخفي من القمر .

أقول هذا ، لكي أنبه الناس إلى أن الصورة المشرقة التي يعطيها ابن بطوطة لهذا الجزء الذي نحن بصدده فيها الكثير من التجميل أو التجمل ، فإن ابن بطوطة كان سعيداً جداً في صحبة صاحبه البهلوان محمد الحويج ، فصور لنا الركب الذي حمله إلى العراق في صورة ركب السعادة ، فهو يقول : « وخرجنا بعد طواف الوداع إلى بطن مر - والمراد من الظهران - في جمع من العراقيين والخراسانيين والفارسيين والأعاجم ، لا يحصى عددهم ، توج بهم الأرض موجاً ، ويسرون سير السحاب المتراكم ، فمن خرج عن الركب حاجة ولم تكن له علامات يستدل بها على موضعه ضل عنه لكثرة الناس ( ص ١٦٨ ) . »

ثم يقول : « وفي هذا الركب نواضح كثيرة لأبناء السبيل يستقون منها الماء ، وجال لرفع الزاد للصدقة ورفع الأدوية والأشربة والسكر لمن يصبهه مرض ، وإذا نزل الركب طبخ الطعام في قدور نحاس عظيمة تسمى الدسوت ، وأطعم منها أبناء السبيل ومن لزاد معه ، وفي الركب جملة من الحال عليها من لاقدرة له على المشي ، كل ذلك من صدقات السلطان أبي سعيد ومكارمه ( ص ١٦٨ ) . »

وإذا كنا نلحظ بوضوح وجوه المبالغة في هذا الكلام فإننا ينبغي أن ننبه هنا إلىحقيقة تتعلق بطبيعة الإسلام ، فقد أظهر أولئك المغول بعد إسلامهم من الحب

لإسلام والإخلاص ما يدعوه إلى العجب . وسرى ابن بطوطة يحدثنا عن مكارمهم وبذلهم في سبيل الإسلام ، وما زالت مساجدهم باقية إلى أيامنا تحدثنا عن بذلهم كل ما يستطيعون في سبيل الدين الحنيف ، فما أعجب هذا الدين ! وما أعمق أثره في النفوس !

والحق أننا تعودنا أن ننظر إلى كارثة الغزو المغولي وكأنها قارعة مالها من دافعة ! والحق أنها كانت كارثة مروعة وكان لها أثر مخرب لجانب كبير من عالم الإسلام وتطوره الحضاري : فكل بلاد ماوراء النهر ، وكانت بلاداً إسلامية زاهرة ، تحفل بمراكز العلم والتأليف - تلاشت تحت سنابك خيل المغول ، وانتهى إلى الأبد بجد بلاد مثل سمرقند وبخارى وترمذ وآمل وما إليها مما تفخر به حوليات التاريخ الحضاري الإسلامي . وإلى شمال ما وراء النهر كانت هناك بلاد الترك بمختلف أجناسهم ، وكانت تتحول شيئاً فشيئاً إلى مراكز علم وحضارة للإسلام وأهله وكانت عملية إسلام أجناس الأتراك في المناطق الواسعة المتعددة من جحيرة ييكال إلى نهر الفولغا تسير على قدم وساق دون أن تلقي صعوبة ما . ويكتفى أن نذكر أن ما يسمى اليوم ببلاد البلغار كانت في ذلك الحين بلاداً إسلامية ، وكل مناطق وسط آسيا التي تحولت إلى جمهورية سوفيتية عاصمتها أولان باطور كانت بلاد إسلام .

كل ذلك أوقفه الغزو المغولي ، ولم يعد هناك أمل في توسيع الإسلام في هذه التوالي ، وتقدم دعاة المسيحية المقربون من ناحية القسطنطينية يملؤون الفراغ الذي خلفه غياب المسلمين ، وبذلك ضاعت على الإسلام وأهله فرصة أكبر ، إذ كان من الممكن أن يصبح شرق آسيا ووسطها كله بلاد إسلام لو لا هذه الكارثة المغولية . أما ما نزل بالإسلام في بلاد إيران والعراق وببلاد الشام فأمره معروف ، ولكن الذي نريد أن نقوله هو أن تلك الضربات القاسمة التي تلقاها الإسلام نتيجة لغزوته المغول لم تكن قاسمة بالصورة البشعة التي تتصورها ، والفضل في ذلك يرجع إلى الإسلام الذي أودع الله إياه من الحيوة والقوة ما يمكنه من النهوض والسير إلى الأمام من جديد ، فإذا كان المسلمون قد انهزوا أمام المغول فإن الإسلام لم ينهزم ، بل وجد طريقه إلى قلوب المغول فأسلم من استقر منهم في بلاد الإسلام ، وتحولوا إلى خدم لهذا

الدين ، وهنحن أولاء رأينا مافعله غازان وأوجايتو خدابنده وأبو سعيد وغيرهم من إيلخانات المغول في إيران لخدمة الإسلام وأهله .

وقد كتب في ذلك كثيرون ، ولكن ابن بطوطة هو شاهد العيان الذي رأى بيته هذه البلاد والإسلام يتعشش فيها من جديد . وعملية إسلام المغول تقوم بتعويض مأاصاب أهل الإسلام ومدن الإسلام من شر على يد هولاكو ومعاصريه . وإذا كان المغول قد غلبو المسلمين فإن الإسلام غالب المغول ! وهذا هو الذي يصفه لنا ابن بطوطة في رحلاته في تلك البلاد وتلك ميزة من ميزات رحلته لابد أن نقف عندها ونطيل التأمل والتفكير .

تنظيم ركبان  
الحجاج

١٤

## ابن بطوطة في ركب العراق

بعد أن شرحتنا أحوال الشرق الإسلامي في أيام رحلة ابن بطوطة نتابع سيره مع الركب العراقي من مكة إلى ماوراء النهر ، ونردد ما ذكرناه في الفترة الراهنة عن حرص ابن بطوطة على إظهار الجوانب الطيبة مما يرى ومبالغته في تنميق ما يرى من الصور . ومن ذلك قوله في وصف هذا الركب العراقي : « وفي هذا الركب الأسواق الحافلة والمرافق العظيمة ، وأنواع الأطعمة والفواكه ، وهم يسرون بالليل ، ويوقدون المشاعل أمام القطار والمحارات ، فترى الأرض تتلاألأً نوراً ، والليل قد عاد نهاراً ساطعاً ! » (ص ١٦٩)

والمراد بالقطار هنا صفوف الجمال المتتالية ، أما المحارات فيراد بها الجمال التي تحمل الحامل المزدوجة التي ذكرناها آنفاً .

وهذه الصورة تعطينا فكرة عن تنظيم الركبان ، وكيف كان يصحبها التجار ومعهم البضائع والأقوات من كل صنف ، فإذا حطت القافلة في موضع نصب السوق وقام البيع والشراء ، أما السير بالليل فكان هو القاعدة في أوان الصيف وارتفاع الحر ، وكانت العادة أن يضاء الركب بالمشاعل ؛ حتى تبين ضخامته فتحتماه اللصوص ، ثم إن الضوء كان يضفي على الرحلة أنساً كانت في حاجة إليه .

وعندما يخترق ركب ابن بطوطة أرض نجد - نجد برهاناً ناصعاً على حقيقة كشفت عنها أبحاثنا خلال السنوات الأخيرة ، وهي أن نجد بصفة خاصة ، وجزيرة العرب بصورة عامة - كانت - فيما مضى من الأعصر - أوفر ماء مما هي عليه اليوم . ففي كتابات عَرَام بن الإصبع والمسكوني ، ومن نقل عنها مثل أبي عبيد البكري - ذكر موارد مائية كثيرة جداً في شبه الجزيرة ، مابين آبار وجياش ومياه سائحة بركاً من تجتمع

ماء المطر ، تغذىها عيون ماء تحتية في بعض الأحيان .

وقد تحققنا من ذلك بدراساتنا لعصر البعثة النبوية وأحداث صدر الإسلام ، ثم توالت البيانات على ذلك من كتب الرحالة والجغرافيين حتى أيام الإدريسي ، وهلحن أولاء في النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي والماء وافر في نجد بصورة تستوقف النظر .

يقول ابن بطوطة : « ثم رحلنا إلى وادي العروس ودخلنا أرض نجد ، وهو بسيط من الأرض مد البصر ، فتنسمنا نسيمه الطيب الأرج ، وزلنا بعد أربع مراحل على ماء يعرف بالعسيلة ، ثم رحلنا عنه ، وزلنا ماء يعرف بالقرفة فيه آثار مصانع كالصهاريج العظيمة ، ثم رحلنا إلى ماء يعرف بالقارورة ، وهي مصانع مملوءة بماء المطر ؛ مما صنعته زبيدة بنت جعفر رحمها الله ، وهذا الموضع وسط أرض نجد فسيح طيب النسم ، صحيح الهواء ، نقى التربة معتدل في كل فصل ؛ ثم رحلنا من القارورة وزلنا بالحاجز ، وفيه مصانع للماء ربما جفت ، فحضر عن الماء في الجفار » (ص ١٦٩) .

وهكذا لا يزال الركب يتنقل خلال نجد من موضع ماء إلى موضع ماء حتى يصل إلى مشارف العراق ، فيمر بقرى صغيرة حتى ينتهي إلى القادسية موضع المعركة المشهورة بين العرب والفرس ، ثم يصل الركب إلى النجف أو مشهد النجف ، وفيه قبر على بن أبي طالب رضي الله عنه ، بطل الإسلام وخطيبه وبليغه ورابع الخلفاء الراشدين .

**النجف** ووصف ابن بطوطة للنجف يدل على ذكاء ودقة ملاحظة : فقد لاحظ أن مدخل البلد غير جدير بأن يكون مدخلاً لوضع مقدس كهذا ، فإن الذي يستقبلك ساعة دخولك سوق البقالين والطباخين والخبازين ، ولم تكن هذه بأجمل أجزاء المدن في الماضي ، نظراً لتفايات البقالين وزهومه المطابخ وأفران الخبازين .

أما أجمل أبواب البلد فكان باب الحضرة حيث روضة على بن أبي طالب كرم الله وجهه : ( ويإزاره المدارس والزوايا والخوانق معمورة أحسن عمارة ، وحيطانها بالقاشاني ، وهو شبه الزليج عندنا - أى في المغرب - لكن لونه أشرق ونقشه أحسن ) .

ويصف ابن بطوطة النجف وصفاً دقيقاً تخرج منه بأن صورة هذا المزار الجليل لم تتغير كثيراً من ذلك الحين ، وأن توقير الناس له كان عظيماً على طول الأعصر ، ولكنه

ينفرد بذكر أشياء جديدة مثل قوله : إن بركة ليلة السابع والعشرين من رجب - وهي ليلة الحيا - تعم المعدين الذين يقضون الليلة هناك ، فلا يصبح الصباح إلا وهم واقفون ، وقد زال عنهم مابهم ، وهو يصف أهل النجف بالفضل وحسن العشرة والمهارة في التجارة .

وإليك فقرة من كلام ابن بطوطة في وصفه للطريق من بغداد إلى الموصل يتحدث فيها عن النفط وأباره :

ثم رحلنا ونزلنا موضعًا يعرف بالقيارة بمقربة من دجلة وهنالك أرض سوداء منها عيون تنبع بالقار ، ويجتمع فيها فتراء شبه الصالصال على وجه الأرض حalk اللون مقيلًاً رطباً وله رائحة طيبة ، وحول تلك العيون بركة كبيرة سوداء يعلوها شبه الطحلب الرقق فتقذفه إلى جوانبها فيصير أيضًا قارًا .

ومقربة من هذا الموضع عين كبيرة ، فإذا أرادوا نقل القار منها أوقدوا عليها النار فتشتفف النار ما هنالك من رطوبة مائة ، ثم يقطعنوه قطعاً وينقلونه .

وقد تقدم لنا ذكر العين التي بين الكوفة والبصرة على هذا النحو ، ثم سافرنا من هذه العيون مرحلتين ، ووصلنا بعدهما إلى الموصل .

ثم يتنقل إلى واسط ، وهو معجب بها وببساتينها وأشجارها وعلمائها وحديثه طويل عن مدرسة تحويド القرآن فيها ، يقول : « عمرها الشيخ تقى الدين عبد المحسن الواسطي ، وهو من كبار أهلها وفقهائها ، ويعطى كل متعلم بها كسوة في السنة ، وسيجرى له نفقة في كل يوم ، ويقعده هو وإنخوانه وأصحابه لتعليم القرآن بالمدرسة ، وقد لقيته ، فأضافي وزوجني تمراً ودراماً ». واسط

وعندما أقامت القافلة خارج واسط ثلاثة أيام أتيحت لابن بطوطة فرصة لزيارة قبر الولي أبي العباس أحمد الرفاعي ، وهو بقرية تعرف بأم عبيدة على مسيرة يوم واحد من واسط ، فطلب من الشيخ تقى الدين أن يرسل معه أحداً ، ليزور الولي ، ويشهد أعماله الرفاعية .

قال : « وصلنا ظهر اليوم الثاني إلى الرواق ، وهو رباط عظيم فيه آلاف من القراء ، وصادفنا قدوم الشيخ أحمد كوجل حفيد ولی الله أبي العباس الرفاعي الذي

زار  
أبي العباس  
أحمد الرفاعي  
رواق  
الرفاعية

قصدنا زيارته ، وقد قدم من موضع سكانه من بلاد الروم برسم زيارته قبر جده وإليه انتهت الشياحة بالرواق .

ولما انقضت صلاة العصر ضربت الطبول والدفوف ، وأخذ الفقراء في الرقص ، ثم صلوا المغرب ، وقدموا السساط ، وهو خبز الأرز والسمك واللبن والتمر ، فأكل الناس ، ثم صلوا العشاء الآخرة ، وأخذوا في الذكر والشيخ أحمد قاعد على سجادة جده المذكور .

ثم أخذوا في السماع ، وقد أعدوا أحالاً من الخطب ، فأججوها ناراً ، ودخلوا في وسطها يرقصون ، ومنهم من يتمنغ فيها ، ومنهم من يأكلها بفمه حتى أطفئوها جميعاً . « وهذا دأبهم وهذه الطائفة الأحمدية مخصوصون بهذا ، وفيهم من يأخذ الحياة العضدية ، في بعض أيامه على رأسها حتى يقطعه » (ص ١٨٠) ، وبهذه المناسبة ينتقل ابن بطوطة إلى حديث قوم آخرين من اللاعبين بالنار وآكلتها قرب دهل في الهند .

ثم ينتقل إلى البصرة ويحدثنا عما رأه فيها ، وهو على عهده يعجبه كل شيء ويمدح كل شيء ، ولا يكاد يتقد شيئاً ، وتستوقف نظره تمورها وكثتها وامتيازها ورخص أسعارها .

ويضيف أن البصرة كانت مقسمة في أيامه إلى ثلاثة محلات مجلّة هزيل (وهم عرب) وكثيرها الشيخ الفاضل علاء الدين بن الأثير ، « وهو من الكرماء والفضلاء . أضافني وبعث إلى بشاب ودراهم » ، والحلة الثانية محلة بني حرام (وهم من العرب أيضاً) ، والحلة الثالثة محلة العجم ، كثيرةها « جمال الدين بن اللوكى » (ص ١٨٢) .

وقد دهش ابن بطوطة لكثره لحن خطيب البصرة ، وتحدث في ذلك إلى صاحبه له فقال له : « إن هذا البلد - أى البصرة - لم يبق به من يعرف شيئاً من علم النحو ، وهذه عبرة لمن تفكير فيها ، سبحان مغير الأشياء ومقلب الأمور ! هذه البصرة التي إلى أهلها انتهت رياضة النحو ، وفيها أصله وفرعه !

ويحرض ابن بطوطة على ذكر مشاهد البصرة ومزاراتها ، وهي كثيرة . وبعد أن يلم بذكر عبادات يزور رابطة على البحر تعرف بالنسبة للخضر وإلياس .

ويما زادها رابطة يزورها مرة في الشهر عابد متأند بنفسه في عبادان ، ليتزود منها لشهر ، وقد أعجب ابن بطوطة بهذا العابد حتى فكر في أن يقضى بقية عمره في خدمته ، قال : « وهجس في خاطري الإقامة بقية العمر في خدمة ذلك الشيخ ثم صرفتني النفس اللجوج عن ذلك » (ص ١٨٦) .

وأراد ابن بطوطة أن يزور بغداد ، وله هنا ملاحظة طيبة يقول فيها : « ثم ركبنا البحر عند الصبح بقصد بلدة ماجُول ، ومن عادني في سفري لا أعود على طريق سلكتها مأمونكني ذلك ، وكنت أحب قصد بغداد العراق ، فأشار على بعض أهل البصرة بالسفر إلى أرض اللور ثم إلى عراق العجم ، ثم إلى عراق العرب ، فعملت بمقتضى إشارته » .

وهكذا ترى كيف كانت أحسن الطرق من البصرة إلى بغداد لاتمر وسط بلاد العراق ؟ وإنما يتوجه الناس إلى بلدة لور عاصمة بلاد لورستان – وهي الأهواز الحالية تقريباً – ثم يمرون بعرق العجم ثم عراق العرب وهي بلاد الجبال . وكانت طريقة من البصرة إلى ماجول إلى رامز ، وهنا يقول : « في كل مرحلة منها زاوية فيها للوارد الخبز واللحم والحلواء ، وحلواوهم من رب العنب مخلوطاً بالدقائق والسمن ، وفي كل زاوية الشيخ والمؤذنون والخادم للفقراء والعبيد والخدم ، يطبخون الطعام .

ثم يصل إلى تُسْتَر ، وكان نزوله فيها في مدرسة الشيخ شرف الدين موسى « وله مدرسة وزاوية خدامها فتيان ، وله أربعة أولاد قسم عليهم إدارة الزاوية والمدرسة : فواحد منهم مكلف بالأوقاف ، والثاني يتولى النفقات ، والثالث خديم السماط بين أيدي الواردين ومرتب الطعام لهم ، والرابع موكل بالطباخين والسباقين والفراشين . قال : فأفاقت عنده ستة عشر يوماً ، فلم أرّأ عجب من ترتيبه ولا أرّغد من طعامه : يقدم بين يدي الرجل ما يكفي الأربعه من الأرز المقلفل المطبوخ في السمون والدجاج المقللي ، والخبز واللحم والحلواء » (ص ١٨٨) .

فهلرأيت نظاماً هو أكمل من هذا في رعاية أبناء السبيل ؟ لقد كنا نتصور أن أمر الزوايا لا يخرج عن أنها كانت ملاجيء تقدم للمسافر الغريب مجرد المأوى ، وبالفعل كان

مثال من دقة  
تنظيم بعض  
الروايات وإكرام  
النزلاء فيها

الكثير من الروايات لا يقوم بأكثر من ذلك ، ولكن هانحن أولاً نرى كيف كانت تلك الروايا دور ضيافة حقيقة تتفق عليها الأموال الطائلة ويقدم فيها للنازل الغريب الطعام الوافر بل الفاخر ! وها نحن أولاً هنا أمام أسرة ندرت أموالها وجهود أفرادها للقيام بذلك العمل الجليل ، وكل ذلك حسبة لله تعالى دون نظر إلى مال أو جزاء فهذا ابن بطوطة يحدثنا عن اجتهد هذه الأسرة الأب وأولاده – في خدمة الغرباء ، وكيف تقاسموا العمل فيما بينهم لكي يقوموا بإكرام النازل الغريب على أحسن ما يكون الإكرام ؟ وماذا نريد منهم أن يقدموا فوق ما ذكر ابن بطوطة أنهم قدموه إليه ؟ ماذا بعد ذلك الطعام الطيب الوافر الذي يتكلف المال الطائل ؟

ولم تكن هذه الدار فريدة في بايتها ، بل كان هناك أمثلها كثیر ، وابن بطوطة نفسه يحدثنا عن غيرها وعما لقى فيها من إكرام وعنایة ، وكل ذلك قام به المسلمين تنفيذًا لما نص عليه القرآن الكريم من ضرورة رعاية ابن السبيل والقيام بمحقه ،

وابن السبيل هو المسلم الغريب عن داره ، لأنه على سفر ، وهو يحتاج إلى الإكرام والرعاية والطعام والشراب والمأوى ولم يجعل القرآن قيام المسلم بذلك الأمر فضلًا منه على غيره ، بل جعله قربة من القربات التي يتقدم بها المسلم إلى ربه ، وهى في حساب حسناته ، لهذا كان اجتهد أولئك الناس في إقامة الروايا والربط والتزل والإتفاق عليها في سخاء ، والقيام بخدمة أهلها على التحول الحكيم الذي رأيناها في حديث ابن بطوطة .

وهذا جانب يسير من جوانب فضل الإسلام على الناس وإنسانيته التي تبلغ أقصى الحدود ، وهي التي جعلت عالم الإسلام في العصور الوسطى عالم أخوة ومحبة وتعاون ، وجعلت منه بحق داراً لكل المسلمين .

## إيلخانات فارس

**إيلخانية فارس** يتحدث ابن بطوطة عن مدن غرب إيران التي رآها على اعتبار أنها قاعدة إقليم سياسي أو إيلخانة من إيلخانات فارس منضمة إلى العراق - وهي عنده سلطنة العراق وأسمها في كتب التاريخ إيلخانية فارس - في ذلك العصر كانت البصرة وكازرون ويزد وإصفهان وتبريز وتستر وبغداد تابعة كلها لولاية واحدة أو إمارات أو إيلخانات المغول التي نشأت عن تفكك دولهم ، وهي إيلخانية فارس التي يسمى بها سلطنة العراق ، وسلطانها - كما ذكرنا - هو أبو سعيد ، وكان المغول بعد إسلامهم - أهل حب للإسلام ، وتقدير لعلمائه واهتمام بإنشاء المدارس ، والإتفاق عليها واحترام بالغ لأهل العلم والقضاء .

وقد سعد ابن بطوطة بذلك أيما سعادة ، ومن الآن فصاعداً سنجده في بلاد فارس والمغول والترك والروم محل تكريم عظيم ، وستنهال عليه الأموال ، وسيتغير أسلوب حياته تبعاً لذلك ، وسيتغير من ثم خلقه ونظرته إلى الحياة وسلوكه فيها كما سرني : فعندما دخل شيراز لقى قاضيها « الإمام قطب الأولياء ، فريد الدهر ، ذا الكرامات الظاهرة مجذ الدين إسماعيل بن محمد بن خداد ، ومعنى « خداد عطية الله » ووجد عنده كرامة عظيمة ، وكان هذا الشيخ طاعن السن ، ولكنه كان مبجلاً جداً من سلطان العراق أبي سعيد حتى إن رسول هذا السلطان عندما دخل عليه « نزع شاشيته عن رأسه ، وهم يسمونها الكلا ، وقبل رجل القاضي ، وقعد بين يديه ممسكاً أذن نفسه بيده ، وهكذا فعل أمراء التتر عند ملوكهم » .

« وكان هذا الأمير قد وصل في خمسينات فارس من ماليكه وخدماته وأصحابه ، وزُل خارج المدينة ، ودخل إلى القاضي في خمسة نفر ، ودخل مجلسه وحده منفرداً تأدباً ! » (ص ١٩٩) .

وبلغ من عظم مكان هذا القاضي أن كان الناس يلقبونه رسميًّا في الخطابات والكتب الرسمية بلقب «مولانا أعظم» وقد تعلق به ابن بطوطة حتى إنه حرص على رؤيته مرة أخرى بعد خروجه من الهند ، فرأاه سنة ٧٤٨ هـ قبل موته بقليل .

**شیراز وکنزة الشرفاء فيها**  
وكانت كل من الإلخانات مقسمة إلى ولايات تسمى مالك ، ولهذا فقد كان أمير شیراز هو الملك الفاضل أبو إسحق بن محمد شاه ، وهوتابع للسلطان أبي سعيد . وكان هذا الأمير يكره أهل بلده شیراز ويحدُّرُهم ويحرم عليهم حمل السلاح ؛ لأنهم كانوا ذوى نجدة وقوة وجراة على الملوك ، وقد بنى لنفسه إيواناً كایوان کسری .

وقد طالت إقامة ابن بطوطة في شیراز وأكثر من مدحها ، وقال : إنها أكثر بلاد الله شرفاء ، حتى إن أصحاب المرتبات منهم فيها ألف وأربعين ونيف بين صغير وكبير وكذلك فإن الأولياء كثيرون جداً هناك ، ونحن نعرف أن ابن بطوطة كان شديد التعلاق بالأولياء شديد الإيمان بهم ، لافتتوه زيارة ولى يبر به للارتفاع ببركاته ، ولا يترك مزاروبي دون أن يزوره ويتمسح به ويصلُّ فيه ، وكذلك فعل في شیراز بالقطب الولى محمد بن عبد الله بن خفيف المعروف عندهم بالشيخ .

**الشاعر الشفاري السعدي**  
وفي شیراز زار قبر «الشيخ الصالح المعروف بالسعدي» ، وكان أشعر أهل زمانه باللسان الفارسي ، وربما ألم في كلامه بالعجمي ، وله زوايا كان قد عمرها بهذا الموضع حسنة ، بداخلها بستان مليح ، وهي بقرب رأس النهر الكبير المعروف بركن أباد .

وقد صنع الشيخ أحواضاً صغاراً من المرمر لغسل الثياب ، فيخرج الناس من المدينة لزيارته ، ويأكلون من سماطه ، ويعسلون ثيابهم بذلك النهر . وينصرفون ، وكذلك فعلت عنده رحمة الله» (ص ٢١٠) . وهذا هو الشاعر الفارسي السعدي صاحب ديوان جولستان .

**زاوية الشيخ أبي إسحاق في كازرون**  
ومن شیراز انتقل إلى كازرون ، وهناك نزل بزاوية الشيخ أبي إسحاق وقال : إن من عادة أهل البلد أن يطعموا الوارد - كانوا من كان - المريسة المصنوعة من اللحم والسمن وتؤكل بالرقاق ، وهم يتمسكون بأن تكون ضيافة الوارد عليهم ثلاثة أيام . وهذا الشيخ أبو إسحق معظّم عند أهل الهند والصين . ومن عادة ركاب بحر الصين

أنهم إذا تغيرة عليهم الهواء أو خافوا اللصوص نذروا ابن إسحق نذراً وكتب كل منهم على نفسه مانذر به !

إذا وصلوا بر السلامه صعد خدام الزاوية إلى المركب وأخذوا الزمام . وقبضوا من كل ناذر نذره (ص ٢١٢) وهذا أغرب ما قرأناه عن الشيوخ ذوى الكرامات وما ينذر لهم من نذور .

ومر ابن بطوطه بالكوفة ، ولم تطل إقامته بها ولا أفضى حديثه عنها ، وما تجدر ملاحظته قوله : « ورأيت بغربي جبانة الكوفة موضوعاً مسوداً شديداً السواد في بسيط أبيض ، فأخبرت أنه قبر الشقى ابن ملجم ، وأن أهل الكوفة يأتون في كل سنة بالخطب الكبير ، فيوقدون النار على موضع قبره سبعة أيام ، وعلى قرب منه قبة وضعفت على قبر الختار بن أبي عبيد .

وقد زار كذلك الحلة ثم كربلاء ، وهو يصفها في صورة قريبة من وصفها اليوم ، ويتحدث عن عتبة مشهد الحسين رضي الله عنه وهي من الفضة ، وأخيراً ينتهي إلى بغداد .

نفف بعض الوقت عند بغداد : فهذه أول مرة يزورها رحالة كبير ، ويصفها لنا بعد خرابها على أيدي المغول ، وكلام ابن بطوطة عنها حزين بالطبع ، يقول : « لم يبق إلا اسمها ، وهي - بالإضافة إلى ما كانت عليه قبل إخناء الحوادث عليها ، والتفات أعين النوائب إليها - كالطلل الدارس أو تمثال الخيال الشاخص ، فلا حسن فيها يستوقف البصر ، ويسترعى من المستوفر العناية والنظر ، إلا دجلتها التي هي بين شرقها وغربها كالمرأة الجلولة بين صفتين ، أو العقد المنتظم بين لبتين ! » (ص ٢١٦)

يقول ابن بطوطة : إنه كان في بغداد ، أيام زيارته لها : « جسران يصلان شرقها بغربيها ، وفيها المساجد التي يخطب فيها ، وتقام فيها الجمعة أحد عشر مسجداً ، منها بالجانب الغربي ثمانية وبالجانب الشرقي ثلاثة ، والمساجد سواها كثيرة جداً ، وكذلك المدارس إلا أنها خربت . وحمامات بغداد كثيرة وهي من أبدع الحمامات وأكثرها ، مطلية بالقار مسطحة به ، فيخيل لرائي أنه رخام أسود ، وهذا القار يجلب من عين بين الكوفة والبصرة تنبع أبداً ، ويصير في جوانبها كالصلة فيجرف منها ويجلب إلى

قب  
عبد الرحمن  
بن ملجم  
قبة الختار ابن  
أبي عبيد

بغداد

النقط  
العراق

بغداد . وفي كل حمام منها خلوات كثيرة كل خلوة منها مفروشة بالقار ، مطلٍ نصف حائطها مما يلي الأرض به ، والنصف الأعلى مطلٍ بالجص الأبيض الناصع ، فالضدان بها مجتمعان متقابل حسنهما » .

ومن الواضح أن هذا القار مأخوذ من آبار النفط أى البترول ، وكانت عيونه كثيرة معروفة بالعراق من قديم الزمان ، وكان الناس لا يحفلون له ولا يهمهم من أمره سوى القار ، وكان يستخرج من آبار البترول التي ينضب ما فيها أو يقل دفع السائل منها .  
حامات بغداد ويصف ابن بطوطة حمامات بغداد وما كان فيها من الخلوات وهو يقول . إن بكل خلوة أنبوبين : واحداً للماء البارد والآخر للساخن ، وفي زاوية كل خلوة أيضاً حوض آخر للاغتسال فيه أيضاً أنبوبان يجريان بالحار والبارد ، وكل داخل يعطي ثلاثة من الفوط : إحداها ياترر بها عند دخوله ، والثانية ياترر بها عند خروجه ، والثالثة يشف بها الماء عن جسده ولم أر هذا الإتقان بحق في مدينة سوى بغداد ، وبعض البلاد تقاربها في ذلك » .

ومعنى ذلك أن بغداد كانت لا تزال تحفظ بشيء من جمالها وترفها السابق برغم ماجرت به عليها المقادير .

ويقول ابن بطوطة - إن الجانب الغربي من بغداد هو الذي عمر أولاً ، ثم خرب ، وعلى ذلك فقد بقي منه ثلاثة عشرة محلة فيها الحمامان والثلاثة ، وفي ثمان منها المساجد الجامعية ، والمفهوم أن المراد بال محلة الحي ، ويدرك من بين هذه المحلات محلة باب البصرة ، وبها جامع الخليفة المنصور والمرستان فيها بين محلة باب البصرة ومحلة الشارع على الدجلة ، وهو قصر كبير خرب وبقيت منه آثار .  
 محلات بغداد

وزار ابن بطوطة في محلة باب البصرة مشهد الصوفى المشهور معروف الكرخى ، مشهد معروف الكرخى وذكر كذلك قبر الإمام موسى الكاظم بن جعفر الصادق والد على بن موسى الرضا ، ومقامات وإلى جانبه قبر الجواد ، والقبران داخل الروضة ، عليها دكانة ملبسة بالخشب عليه بعض آثار آل البيت  
أواحة الفضة » ( ص ٢١٨ )

احتفاظ بغداد  
بجانب من  
بعدها العلمي  
القديم

١٦

## بغداد

بقية بغداد - تبريز - الموصل - حجته الثانية -

محاورته بمكة - خروجه إلى اليمن

يستفاد من كلام ابن بطوطة أن بغداد احتفظت إلى أيامه ببقية صالحة من مجدها العلمي الثالث ، وإذا كانت زعامة العلم قد انتقلت منها إلى غيرها من المدن ، وخاصة القاهرة ودمشق ، ومدن أخرى مثل تبريز التي كانت عاصمة إيلخانية فارس - فإن أهل العلم في بغداد حرصوا على المحافظة على الشكل والهيبة العلمية لبلدهم ، والصورة التالية مصدق لذلك :

« وهذه الجهة الشرقية من بغداد حافلة الأسواق ، عظيمة الترتيب ، وأعظم أسواقها سوق تعرف بسوق الثلاثاء كل صناعة فيه على حدة ، وفي وسط هذه السوق المدرسة النظامية العجيبة التي صارت الأمثال تضرب بمحسنها ، وفي آخرها المدرسة المستنصرية ، ونسبتها إلى أمير المؤمنين المستنصر بالله أبي جعفر بن أمير المؤمنين الظاهر بن أمير المؤمنين الناصر . وبها المذاهب الأربع ، لكل مذهب إيوان فيه المسجد وموضع التدريس ، وجلوس المدرس في قبة خشب صغيرة على كرسي عليه البسط . ويقع المدرس وعليه السكينة والوقار لابساً ثياب السوداء معتماً ، وعلى يمينه ويساره معيدان يعيidan كل ما يملئه ، وهكذا ترتيب كل مجلس من هذه المجالس الأربع ، وفي داخل هذه المدرسة الخمام للطلبة ودار الوضوء » (ص ٢١٩) .

وبهذه المناسبة يذكر ابن بطوطة كيف قرأ في مسجد الخليفة في بغداد مستد الدارمي (أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن الفضل بن بهرام) على مسند العراق ، كما يقول أبو حفص عمر بن علي القزويني ، وهو ينص على ذلك نصاً واضحاً كأنه يريد أن يقرر

في ذهن قارئه أنه أكمل دراسته على الطريق ، بل يحدد تاريخ هذا السماع كما حدد تاريخ سماعه البخاري ، والتاريخ هو رجب ٧٢٧ /مايو ١٣٢٧ .

ويطيل ابن بطوطة الحديث عن أبي سعيد بهادرخان سلطان العراقيين : أى العراق وفارس ؛ وهو آخر إيلخانات إيران ، وهو ابن السلطان محمد خدابنده المشهور باسم أولجايتو ، وقد حكم فيما بين سنتي ١٣٠٥ م و ١٣١٦ م .

وأولجايتو هو ثامن السلاطين من حفدة جنكيزخان ، وهو الذي اعتنق الإسلام ، ولا ينبغي الخلط بين أولجايتو هذا وأولجايتو حفيد قلابي خان إمبراطور الصين من المغول الذي حكم فيما بين سنتي ١٢٩٤ م و ١٣٠٧ م .

وتجدر بالذكر أن أولجايتو محمد خدابنده الذي اعتنق الإسلام كان قد تنصر في مداخل شبابه ، ثم هداه الله إلى الإسلام ، وإليه ينسب جامع من أجمل مساجد تبريز الباقية إلى اليوم من عصر الإيلخانات . وأبوسعيد هو تاسع الإيلخانات وآخرهم ، وبعده تفرقت السلطنة ، وقد قص علينا ابن بطوطة تفاصيل هذا التفرق .

إسحاق تبريز  
ومن بغداد يذهب ابن بطوطة في موكب السلطان أبي سعيد إلى تبريز ، ويصف لنا سوق الجوهريين في تبريز قال : « فحار بصرى مما رأيته من أنواع الجواهر ، وهي بأيدي مماليك حسان الصور عليهم الثياب الفاخرة ، وأوساطهم مشدودة بمناديل الحرير ، وهم بين التجار يعرضون الجوهر على نساء الأتراك وهن يشترينها كثيراً ويتنافسن فيها ، فرأيت من ذلك كله فتنة يستعاد بالله منها » (ص ٢٢٦) .

وبعد أن يصف سوق العبر والمسلك ثم المسجد الجميل الذي عمره الوزير على شاه المعروف بيجilan - يلقى السلطان ، ويبلغه أنه يريد الحج ، فيعطيه السلطان زاداً وحصاناً . ثم عاد إلى بغداد ليتظر موعد خروج الركب ، ويجد أنه بي على ذلك شهران - فيحفزه حب الرحلة إلى الانتفاع بهذين الشهرين في رحلة استطلاع إلى الموصل ودياربكر .

سامرا  
وفي الطريق إلى الموصل يزور سامرا ويصف خرائتها ، ويأتيانا بتفسير غير صحيح لاسمها فيقول : إنه سام را : أى طريق سام ، لأن را معناه بالفارسية الطريق ، ومن سامرا يصل إلى تكريت ويطرى حسنه ، ويدرك أن أهلها موصوفون بحسن الأخلاق ،

ثم يصل إلى موضع يعرف بالقيارة ، أى مكان القار ويقول : « وهناك أرض سوداء فيها عيون تنبع بالقار » والمراد بطبيعة الحال النفط ، وكان يظهر على وجه الأرض ثقيلًا محملًا بالقار والكريت ، ومن الغريب أنهم كانوا يتمنون بالقار وحده ، ويوقدون النفط ليحرق ويبيق القار وهو مطلبهم .

ويطول وقوف ابن بطوطة بالموصى ، ويستطرد في مدح أميرها علاء الدين على بن شمس الدين الملقب بجيدر ؛ لأنه أكرمه وأنزله بداره ، وأجرى عليه الإنفاق مدة مقامه عنده .

ثم يتبع سيره ويرى بقرى كثيرة ، وعندما وصل جزيرة ابن عمر رأى جبل الجودى الذي استوت عليه سفينة نوح ، ويسمى أيضًا بجبل أرارات وهو في بلاد الأرمن ، وهو من مفاجئهم .

ثم يزور نصيبين ، ويحدثنا عن بسيطها الأفيع ذى المياه الحاربة والبساتين المختلفة . وابن بطوطة معجب بجمال بلاد الموصى وسحر الطبيعة فيها ، ونلتمع في كلامه إحساسه المرهف بالجمال ، وتقديره لما يرى من بدائع الطبيعة .

ثم يقول : إنه مر بعد ذلك بسنجر ، وهذا خطأ منه في الترتيب لأن سنجر في طريق العودة من ماردین إلى الموصى . وعندما ينزل ماردین يثنى على سلطانها الملك الصالح بن الملك المنصور ، ويشير إلى كرمه على الشعرا ، « وله الصدقات والمدارس والزوايا لإطعام الطعام » .

ثم عاد إلى بغداد فوجد ركب الحاج على أهبة الرحيل ، وهكذا نرى كيف كان حب الرحلة والتطلع إلى كل جديد مستولياً على نفس هذا الرجل حتى كأنه كان موكلًا حقاً بقضاء الله يدرعه !

وذهب إلى الحج ، وتلك حجته الثانية ، ومن سوء طالعه أنه أصيب بإسهال شديد في الطريق ، وقد لازمه الإسهال طول مدة الحج ، فكان يصل قاعداً ، وطاف وسعى بين الصفا والمروة راكباً فرساً أعطاه إياه صاحبه القديم اليهوان محمد بن الحويج أمير ركب الحاج العراقي ، ولم يُشفَ حتى وصل مني وأفاض منها ، وكأنما أتعبه المرض فأقام بمكة مجاورةً السنة التالية ، وهي سنة ٧٣٠ هـ / ١٣٢٩ م .

حجته الثانية  
مرضه على  
الطريق

وجاور معه تلك السنة نفر من كبراء المصريين ، وقد أقام في المدرسة المظفرية ابن بطوطه وشقيقه تماماً من مرضيه وقال : « فكنت في أنعم عيش ، وتفرغت للطواف والعبادة بجاور في مكة والاعمار » ( ص ٢٣٤ ) .

وهو يذكر نفراً من كبراء صعيد مصر وفدوا على الحجاز ذلك العام للإعمار والجاورة ، وأسعده الحظ بقدوم نفر من أبناء طنجة بلده ، وكذلك نفر من أهل قصر الحجاز وأهل القصر الكبير في شمالي المغرب .

ويروى كيف وقعت منازعة بين أمير مكة مبارك بن عطيفة والأمير أيدمير أمير جندار الناصري من ماليك مصر ، وقد تدعى أيدمير على مبارك بن عطيفة بالضرب ، فما كان من هذا إلا أن دبر مقتل أيدمير وأغتاله ، ووقعت فتنة كبيرة ، فأرسل الناصر محمد بن قلاوون حملة لتأديب أمير مكة ، وانتهى الأمر باعتذار مبارك وإسلامه نفسه طائعاً للناصر ، فعفا عنه وعاد العسكري إلى مصر .

وبعد أن استوفى ابن بطوطة ما أراد من الجاورة بمكة خرج قاصداً زيارة اليمن ، ولم يكن رآها قبل ذلك .

ولابد أنه كان لليمن سحر كبير على نفس ابن بطوطة ، لأننا سنلاحظ أنه يصر على زيارته المرة بعد المرة ، وسيتعرض في سبيل ذلك لكثير من المهالك ، ولكن ذلك لن يصرفه عن زيارة اليمن ، فسيحاول حتى يوفق في النهاية إلى زيارته ، ولأنه ما ستشعر في كلامه عن اليمن وكأنه قد خاب رجاؤه . وكأنه كان يتوقع أن يرى لليمن صورة أخرى غير التي وجده عليها ، والحقيقة أن بلاد اليمن خلال تلك الأعصار كانت قد تدهورت أحواها وفقدت الكثير من بهائها نتيجة لظروفه التاريخية القاسية التي مر بها ولكنه برغم ذلك ظل يتمتع بسمعة بعيدة وسزى أن ابن بطوطة لن يجد في اليمن مكاناً جميلاً يعجبه إلا صنائع ، وهذه فسيطيل الكلام عنها ، ثم إننا سنزى أنه لن يطيل المقام في اليمن ، بل سيسرع بالخروج منه لأنه لا يجد فيه مكاناً يتظره .

وعلى أي حال فإن ابن بطوطة من الرحالة القلائل الذين أصروا على زيارة اليمن في تلك العصور ، وقد وفق في ذلك وأعطانا صورة لابأس بها عن ذلك البلد الذي كان الطريق إليه عسيراً دائماً سواء بالبر أم بالبحر ،

## اليمن

بارح ابن بطوطة مكة إلى جدة وفي نيته زيارة اليمن عن طريق البحر ، وتلك كانت أول تجربة لابن بطوطة في ركوب البحر ، وهلذا فهى حادث جدير باللاحظة في سلسلة رحلاته ، ويزيد من أهميتها في نظرنا أنه ركب جلبة من جلب اليمن ، والجلبة سفينة متوسطة الحجم ، وقد اشتهر بينها أهل اليمن وسواحل البحر الأحمر ، وجمعها جلاب وجَلَب ، والجلبة كانت أيضاً سفينة ذات عمق يستعمل باطنها لخزن الطعام والماء والبضائع ، وتكون حياة الناس على ظهرها .

وكان مع ابن بطوطة في الجلبة الشريف منصور من آل نبي حكام مكة ، ويستوقف نظرنا تصرف يدهشنا لأول وهلة من هذا الأمير ، ولكننا ينبغي أن نعلم أنه كان التصرف الطبيعي من جانب الأمراء وأصحاب الأمر ، وهو أنهم كانوا يرون أن لهم الحق في أن يأخذوا من أموال الناس وأشيائهم ما يريدون ، بل كانوا يرون أنهم إذا لم يأخذوا شيئاً فذلك تفضيل منهم جدير بأن يقابل بالشكر .

والحكاية أن هذا الأمير أراد من خدمه أن يصنعوا له طعاماً ، فأمر أحد غلامه بأن يأتيه بعديلة دقيق - وهي نصف حمل - وبطة سمن « يأخذها من جلب أهل اليمن ». والبطة إناء صغير معدني كانوا يستعملونه للزيت والزبد والسمن وما أشبه ، فكانوا يقولون : بطة زيت ، وبطة سمن ، وكانت البطة تستخدم قنديلاً ، فيدخلون فيها فتيلًا يصل إلى الزيت ، ثم يوقدون الفتيل .

وذهب الغلام وأخذ عديلة الدقيق ، وكان من سوء طالع التاجر صاحبها أنه كان قد دسَّ فيها عشرة آلاف درهم نقرة أى فضة ، وتلك كانت طبيعتهم في نقل أموالهم ولا نقول تهريبيها ، لأن الدول لم تكن دولاً بالمعنى المعروف اليوم ، بل كانت

استبداديات تقوم على نهب أموال الناس ، فكان هم الناس إخفاء أموالهم عن هؤلاء الحكام ! وها نحن أولاء نحكي مثلاً من تصرفهم ونظرتهم إلى أموال الناس فنقول : إن التجار لما رأوا تلك العدالة الحاوية للنفسة قد وقعت في يد ذلك الأمير خافوا عليها ، وكلموا ابن بطوطة في أن يتحدث إليه في ردّها مستشفعين في ذلك بعکانه عند الأمير.

قال ابن بطوطة : « فأيتها وكلمته في ذلك وقلت له : إن للتجار في جوف تلك العدالة شيئاً فقال : إن كان سكرًا فلا أرده إليهم ، وإن كان سوى ذلك فهو لهم ، ففتحوها فوجدوا الدراما ، فردوها عليهم وقال لي : « لو كان عجلان ماردا ! ». وعجلان هو ابن أخيه رميثة وكان قد دخل في تلك الأيام دار تاجر من أهل دمشق قاصدٍ لليمن ، فذهب بمعظم ما كان فيها ، وكان عجلان أمير مكة على هذا العهد ، وقد صلح حاله وأظهر العدل والفضل » (ص ٢٣٧) وهو من آل جمازين نُمَيَّ الذين ذكرناهم ،

فإذا كانت السفينة وسط البحر هب عليها ريح عاصف غير اتجاهها ، وبدلًا من أن ترسو في أحد مراسى اليمن « خرجنا في مرسي يعرف برأس دوائر فيها بين عيناب وسواكن ، فنزلنا به ، ووجدنا بساحله عريش قصب على هيئة مسجد ، وفيه كثير من قشور بيسن العام مملوءة ماء فشرينا منه وطبخنا »

ومعنى ذلك أن ابن بطوطة بدلًا من أن يصل إلى اليمن وصل إلى ساحل السودان على الضفة الأخرى لبحر القلزم أي البحر الأحمر ، ولم يستذكر ذلك ابن بطوطة ولا هو استاء منه ، فهو رجل متطلع لرؤيه الدنيا والناس ، وسواء عنده أرض اليمن أو أرض السودان وسواء عنده أهل اليمن أو البجاة .

البجاة كانوا شعباً قائماً بذاته يسكن سواحل البحر الأحمر من ساحل صعيد مصر عند أسوان إلى زيلع من ساحل السودان إذ ذاك وما زالت بقاياهم إلى اليوم تسمى بالبشارية .

وهم شعب شبيط ذكي في التجارب وهو يتولى أمرها في سواحل مصر والسودان ، ويتنقلون بين البلدين إلى يومنا هذا بكل حرية ، وكانوا قد أسلموا قبل أن يسلم أهل

السودان الشمالي لكتلة هجرة العرب إلى بلادهم عبر البحر الأحمر من تهامة وعسير واليمن .

قال ابن بطوطة : وهم سكان تلك الأرض ، سود الألوان ، لباسهم الملحف الصفر ، ويישدون على رءوسهم عصائب حمراء في عرض الإصبع ، وهم أهل نجدة وشجاعة وسلاحيهم الرماح والسيوف ، وظم جمال يسمونها الصهيب يركبونها بالسرور فاكتربنا منهم الجمال ، وسافرنا معهم في برية كثيرة الغزلان ، والبجاة لا يأكلونها ، فهي تأنس الآدمي ولا تنفر منه » ( ص ٢٣٨ ) .

وفي بلاد البجاة وجد ابن بطوطة قوماً من مهاجرة العرب يسمون ببني كاهل قد احتاطوا بالبجاة وتكلموا لسانهم .

ثم انتقل ابن بطوطة ومن معه إلى جزيرة سواكن ولم يكن ميناء سواكن المعروف جزيرة سواكن اليوم قد أنشئ بعد ، وكانت جزيرة سواكن تابعة لصاحب مكة إذ ذاك ، إذ كان يحكمها الشريف زيد بن نُعْمَان « وأبوه أمير مكة وأنخوه أميراها بعده ، وهو عطيفة ورُمِيَّة اللدان تقدم ذكرهما ، وصارت إليه من قبل البجاة ، فإنهم أحواله ، ومعه عسكر من البجاة ، وأولاده كاهل وعرب جهينة » .

ومن جزيرة سواكن ركب ابن بطوطة ومن معه البحري إلى اليمن ، وكلامه عن البحر الأحمر شبيه بكلام المسعودي والإدريسي ، وكان الناس في الماضي يتوهمن أن البحر الأحمر بحر خطر كثير التنوّعات الخافية تحت عمق قليل من الماء ، فترتطم السفن وهذه التنوّعات ، والإدريسي يسمّيها القلالات والتروش .

ولهذا كانت السفن لا تسير في هذا البحر إلا بالنهار وترسو عند شاطئي أي جزيرة في الليل ، والسبب في هذه السمعة السيئة هو سوء بناء السفن نفسها : فقد كانت ألواح الخشب تختلط بالقنب أو القنبار وهو قشر شجر النارجيل ، ولا تدق بالمسامير ؛ إذ كان الناس يعتقدون أن حجر المغنتيس راقد في قاع البحر الأحمر ، فإذا سارت فيه اجتذب المغنتيس المسامير فتفتكك المركب !

ثم إن السفن كانت تسير بجانب الشواطئ ، وبجانب الجزر في وسط البحر ، ومياه هذه السواحل دائما ذات تنوّعات خطيرة تحت الماء . وجدير باللاحظة أن طبعة ابن

بطوطة المتداولة الآن وهي طبعة دار التراث في بيروت سنة ١٩٦٨ تحرف لفظ القالات فتجعله النبات وكأنها كانت في الأصل القلات .

ووصل ابن بطوطة إلى ميناء حلّي في اليمن ، وقد عبر البحر الأحمر من سواكن إلى ميناء حلّي في اليمن في ستة أيام ، وهي سرعة لا يأس بها . وكانت تسكن منطقة حلّي طائفتان من العرب اليمن هما بنو حرام وبنو كنانة ، وهناك لقى ابن بطوطة رجلاً زاهداً أصله من الهند يسمى « قبولة الهندى » وحوله أتباعه يقضون حياتهم في عبادة وصلة قال ابن بطوطة : « ولقد كنت أردت الإقامة معهم باقي عمري ، فلم أوفق لذلك والله تعالى يتداركنا باطفه وتوفيقه » .

ثم يعود ابن بطوطة إلى البحر ، ويركب محاذاياً للساحل فيمر بمرسى الحادث ، ولا ينزل به ، ثم مرسي الأبواب ثم إلى زبيد ، وعند زبيد يتحدث عن صناعه فيقول : إن بينها وبين زبيد أربعين ميلاً أي نحو ثمانين كيلومتر وهو يتحدث عن صناعه وهو بعد في زبيد ، ويطلب في مدح صناعه ويتحدث عن بساتينها ومياهها وفاكهها من الموز وغيره ، ويقول : إنها برية لا شطيبة ، ويمدح شمائل أهلها وحسن أخلاقهم ، ويتحدث عن خروجهم أيام السبت للتزهّة في الخلاء ومعهم الطعام وأدوات الطرب وأهل الأسواق لبيع الفواكه والحلوات .

وينتهز هذه الفرصة للتتحدث عن نساء اليمن فيقول : « إن هن الجمال الفائق ، وللغربي عددهن مزية ، ولا يمتنعن من تزوجه كما تفعله نساء بلادنا - ي يريد نساء المغرب - فإذا أراد السفر خرجت وودعته ، وإن كان بينها ولد فهى تكفله ، وتقوم بما يجب له إلى أن يرجع أبوه ، ولا تطالبه في أيام الغيبة بنفقة ، ولاكسوة ولا سواها ، وإذا كان مقيماً فهى تقضى منه بقليل النفقة والكسوة ، لكنهن لا يخرجن من بلدنهن أبداً ، ولو أعطيت إحداهم ما عسى أن تُعطاه على أن تخرج من بلدتها لم تفعل » (ص ٢٤٠) .

ولنا هنا ملاحظتان : الأولى هي أن ابن بطوطة لا يكاد يصف نساء أى بلد يزوره إلا بالحسن ، ولا يفوته أبداً أن يقف عند نساء البلد ويطرى محسنهن ، وإذا جاز لنا أن نستنتاج من هذا شيئاً فهو أن الرجل كان مفتوح الشهية من هذه الناحية يهضم ذوقه كل

صنف من أصناف بنات حواء ، وذلك طبع في الرجل مريع ، فهو لا يشرط ولا يتعلل ولا يدقق ، فالكل عنده حسناوات وذلك إذا كان يكشف عن ذوق غير مرهف من ناحية – فإنه يكشف في الوقت نفسه عن صحة في الرجل جنسية شأنه في ذلك شأن الرجل القوى المعدة السليم جهازه الهضمي ، فهو يأكل أي شيء ويهرض أي طعام ، بخلاف الرجل المريض المعدة الذي لا تهضم معدته إلا الطيب الناضج المتقن من الطعام ، وأي عيب في المأكل يتبعه وينفره .

أما الملاحظة الأخرى فهي أن الرجل على الرغم من ذلك لم يكن بزير نساء ولا شديد الولع بهن ؛ إنما هو كان رجلاً ذا طبيعة سليمة قوية تحتمل الكثير . وقد رأينا الكثير من مظاهر قوته البدنية واحتماله الأمراض وقدرته على الصمود ، لمسانكها فكم من مرة رأيناها يصاب بالمرض الثقيل ويعانى منه ، ويركب الحصان في أثناء الرحلة وهو مريض حتى ليسد جسده على الدابة حتى لا يقع وهى تسير به !

ومع ذلك فقد كان الرجل شديد الإحساس بالنظافة لا يتحمل القذر ولا يطيقه ، فهو لا يقبل أبداً على طعام يشك في نظافته أو نظافة الوعاء الذى يقدم فيه ، وإذا دخل مدينة غير نظيفة عجل باللحروج منها ، وقد حدث له ذلك مراراً في أثناء رحلته كان ابن بطوطة رجلاً سليم الطبع والبدن ، شديد الولع بروية الدنيا والناس ، مقبلًاً على الدنيا دون طمع في ترف أو تكلف في أي شيء من أشياء هذه الدنيا ، وكل ما فيها يعجبه ويشوقه إلا القذر ، وسوء الخلق وقلة الإيمان .

## بقيه اليمن زيلع - مقدشو - كلوة - سفاله - العبور إلى ظفار

لم تطل إقامة ابن بطوطة في اليمن ، لأنه لم يجد فيه - فيما يبدو - ما توق إليه نفسه من الأولياء والصالحين والعباد الزهاد ، فهو لم يزور من هؤلاء هناك إلا قبر شيخ عابد في زيد يسمى أحمد بن العجيل من شيوخ الزبدية ، فيتحدث عنه في سطور ، ثم ينتقل إلى الحديث عن سلطان اليمن بعد انتقاله من زيد إلى تعز ، وكانت عاصمة اليمن إذ ذاك .

وكان السلطان هو المؤيد هربر الدين داود بن السلطان الأشرف عمرو بن المظفر يوسف بن نور الدين عمر بن رسول ، وقد حكم فيما بين سنى ١٣٢١ و ١٣٦٣ م وهو الخامس من بنى رسول أمراء اليمن . وأصل بنى رسول من العراق ، ولكنهم دخلوا في طاعة الأيوبيين وأصبحوا نوابهم في اليمن ، ثم استقلوا عن مصر سنة ٥٦٢٨ هـ / ١٢٣١ م نهاية حكم الملك المسعود يوسف بن الكامل آخر سلاطين الأيوبيين في اليمن .

وقد اتخذوا تعز عاصمة لهم ، لأن صناعه في داخل البلاد في منطقة جبال ، في حين أن تعز على حافة السهل وفي مدخل التلال المؤدية إلى الداخل حيث استقل الزبيديون بزعامة إمامهم أحمد بن الحسين ، وكانت صناعه عاصمتهم وهي على ارتفاع نحو ١٢٠٠ متر عن سطح البحر ، وإلى هذا يرجع اعتدال مناخها ، ثم إن الماء بها أوفر بسبب الرياح الموسمية ، وهذا فهى مشهورة بخضرتها وبساتينها

وقد لقى ابن بطوطة إكراما بفضل الشيخ الفقيه أبي الحسن الزبيدي وصاحبه قاضى القضاة الإمام المحدث صنف الدين الطبرى المكى ، وقدمه هذان إلى السلطان ، وقد وصف لنا ابن بطوطة تقاليد سلطان اليمن في الاستقبال وتسير الأمور والطعام بما عرف

عنه من الدقة والالتفات للتفاصيل .

ثم انتقل إلى صنعاء ، وقد سبق له أن امتدحها وأطري أهلها ، وهو يضيف الآن حقيقة جديدة : وهي أن صنعاء كانت كلها مدينة مفروشة أي مباطلة الشوارع فإذا نزل المطر غسل المطر جميع أزقها وأنقاها .

ومن اليمن اتجه إلى عدن ، ومن أسف أن ابن بطوطة أهمل ذكر التواريخ كثيراً ، عدن وهذا فتحن لانعلم كم قضى في اليمن ، وكان نزوله في عدن عند تاجر يعرف بناصر الدين الفاري نسبة إلى الفار .

ومن عدن ركب البحر الأحمر أربعة أيام فنزل زيلع ، ولم تعجبه هذه المدينة قط ، زيلع لأنها كما قال : أقدر مدينة في المعور وأوحشها وأكثرها نتناً بسبب فضلات السمك التي يتذكونها في الأزقة ودماء الجمال التي يذبحونها ، فيتعفن ذلك كله ، وهذا فقد عجل بالرحالة منها .

وركب البحر خمسة عشر يوماً ، ونزل مقدشو بعد أن مر ببريره . وببلاد الزيالعة مقدشو تمت إلى حدود مقدشو ، وأهلها وأهل إقليمها يسمون عنده البريرة وهم الصوماليون البريرة والزيالعة أيضاً يدخلون اليوم في عداد البريرة . أو الصوماليون

أعجب ابن بطوطة بالبريرة أو المقدشين ، ووصف لنا تقاليدهم مع التجار ، وهي تقاليد جميلة ، فإن المركب إذا سار في الميناء صعد تجارة البلد إليه ومعهم الطعام ، وبختار كل منهم تاجرًا من الوافدين يكون نزيله ، والتزاللة هنا تتضمن شراء التاجر المُضيف لكل ما مع التاجر الوارد بالثلث الحلال .

وعندما صعد التجار إلى المركب ليختاروا نزلاءهم أو عملاءهم أراد أحدهم أن يكون ابن بطوطة نزيله ، « فقال له أصحابه : ليس هذا بتاجر ، وإنما هو فقيه فصاح بأصحابه وقال لهم : هذا نزيل القاضي ، وكان فيها أحد أصحاب القاضي ، فعرفه بذلك ، فلقي إلى ساحل البحر في جملة من الطلبة وبعث إلى أحدهم ، فنزلت أنا وأصحابي وسلمت على القاضي وأصحابه ، وقال لي : « باسم الله نتوجه للسلام على الشيخ » ، فقلت : ومن الشيخ ؟ فقال السلطان » (ص ٢٤٥)

وهذا يؤكد ما قلناه من أن المجتمع الإسلامي كان مقسماً إلى مراتب وأصناف ،

وابن بطوطة فقيه فهو من أهل المراتب ، ومرتبته الفقه والقضاء ، فهو إذن نزيل القاضي وضيفه ، أما التجار فهم نزلاء التجار ، وهم مرتبة على حدة .

ويمدحنا ابن بطوطة عن سلطان مقدسه أيام زيارته وهو أبو بكر بن الشيخ عمر ، وهو من البربرة وكلامه بال المقدسى ويعرف اللسان العربى . وعندما أبلغ القاضى السلطان أن ابن بطوطة وافد من الحجاز أرسل إليه السلطان إشارة التكريم وهى أوراق التنبول والقوفل .

والتنبول - كما سرر - هو القات أو شيء شبيه به ، وكان استعماله شائعاً في جنوب الجزيرة العربية وشرق إفريقية وببلاد الهند ، أما القوفل فنبات يؤكل معه ، وسيمدحنا عنه ابن بطوطة بعد قليل .

ثم أنزلوه في دار الطلبة ، وهى دار معدة لضيافة الطلبة ، وأنواع الطعام جيد هو الأرز مطبوخاً بالسمن في صحفة خشب كبيرة ، ثم الكوشان وهو الإدام من الدجاج واللحم والحوت والبقول ، وهم يطبخون الموز قبل نضوجه في اللبن الحليب ويجعلونه في صحفة ، يجعلون اللبن المروب في صحفة ، ويجعلون عليه الليمون المصير وعنقائد الفلفل المصير والمصير هو ما نسميه نحن بالخلل .

ويختم الطعام بالعنبا وهي مثل التفاح ، ولكن لها نواة ، ومعنى هذا أن صاحبنا ابن بطوطة عاش هناك في سعة ورغد لمجرد أنه فقيه مسلم نزل في بلد مسلم ، وهذا يؤيد ما قلناه من ترابط أمة الإسلام .

ثم يصف لنا لباس الناس والسلطان فكسوه فوطة يشدتها الإنسان في وسطه - عوض السراويل فهم لا يعرفونها - ودراءة من المقطع المصرى - معلمة ، وفرجية من القدس مبطنة ، وعامة مصرية معلمة ، وهنا ترى كيف كانت الملابس أيضاً من صنع بلاد الأمة الإسلامية ، وكذلك كان لباس السلطان وإن كان أفحى .

ثم ركب البحر من مقدشو متوجهاً إلى بلاد السواحل ، ويراد بها شرق إفريقية وهذه أول مرة نقرأ هذه التسمية لهذه الجهات . ومنها نعرف من أين أتى اسم اللغة السواحلية وكانت وجهته كلوبة من بلاد الزنوج كما يقول ، ومرفي طريقه بممبسة . وهي جزيرة كبيرة بينها وبين أرض السواحل مسيرة يومين في البحر ، وأهلها شافية المذهب ممبسة

أهل دين وعفاف وصلاح ومساجدهم من الخشب محكمة الإنقان .

كُلُوة ثم ركب البحر إلى كُلُوة وهي مدينة عظيمة ساحلية أكثر أهلها الزنوج المستحکمو السواد ، وطم شرطات في وجوههم كما هي في وجوه الليميين من جنادة . وذكر لى بعض التجار أن مدينة سُفالَة على مسيرة نصف شهر من مدينة كُلُوة ، وأن بين سُفالَة ويونى من بلاد الليميين مسيرة شهر ، ومن يوني يؤتى بالتبَر إلى سُفالَة . هذا ولم يستطع أحد تحقيق أعلام الليميين وجنادة ويونى إلى الآن .

وكان سلطان كُلُوة إلى الجنوب من زنجبار هو أبو المظفر حسن ويكنى أيضاً المواهب لكثرة مواهبه ومكارمه ، وكان هذا الرجل يغزو أرض الزنوج ويغنم منهم ، وينحرج الخمس ، ويصرفة في مصارفه الشرعية ، ويجعل نصيب ذي القربي في خزانة على حدة ، ويصرفة له من يأتيه من الشرفاء ، ولهذا فقد كان الكثيرون منهم يفدون عليه ، وقد رأى ابن بطوطة عنده بعض آل جَمَاز وآل نُمَي شرفاء الحجاز وحكامه . ومن طريف ما يحكي ابن بطوطة أن أبو المواهب مات وخلفه أخوه داود ، وكان على عكسه لا يعطي أحداً شيئاً ، فإذا أتاه سائل قال له : مات الذي كان يعطي ، ولم يترك من بعده ما يعطي !

ظفار ومن ساحل أفريقيا الشرق عند زنجبار قطع ابن بطوطة البحر إلى ظفار من أرض عمان ، ولم يذكر لنا كيف قطعه أو في أي مدة تم له ذلك ، ولكنه يقول : إن المسافة من ظفار إلى قاليلقط - من ساحل الهند - تقطع في شهر مع الرياح الطيبة ، والمسافة من كُلُوة إلى ظفار تبدو على الخريطة كالمسافة من الهند إلى ظفار ، أي أن هذه الرحلة البحريّة دامت شهراً دون أن تكون لدينا عنها أي تفاصيل .

ومثل هذا عند ابن بطوطة كثير مما يلقى ظللاً من الشك على بعض فترات رحلته ، ولكننا لانستطيع اتهامه بالادعاء ، لأن الحقائق التي ذكرها عن ساحل أفريقيا الشرق صحيحة تطابق الواقع ، وتدل على مشاهدة عيان ، وكذلك ما يذكره عن ظفار وأرض عمان فلا يبقى أمامنا غير التصديق !

## ظفار وعمان

لم تكن زيارة ظفار في خط سير ابن بطوطة ، وإنما نزلها فيما يبذلو على غير موعد ، ولا نعتقد أنه كان يعرف ما يقصد إليه منها ، لأن هذا الرجل في الكثير من مراحل رحلاته كان يسير بحسب ما تهوى الرياح لا بحسب ما يهوى هو ، وهذا فإننا للحظة أنه يهش لقدمه إلى ظفار .

فهو يبدأ بذكر المسافات بينها وبين غيرها من البلاد ، وليست هذه عادته فيقول : إن بينها وبين عدن مسيرة شهرين في صحراء ، وبينها وبين حضرموت ستة عشر يوماً ، وهو يقول : إن مدينة ظفار في صحراء منقطعة لاقرية بها ولاعالة لها ، والعالة يراد بها هنا ما يعرف « بالفنترلاند » أي الأرض الداخلية الخصبة أو العنية بالماء والموارد التي تغذى مدينة أو إقليماً ساحلياً .

وسوق البلد منفصلة عنها قائمة خارجها وهي لا تعجب ابن بطوطة ، بل يقول : إنها من أقدر الأسواق وأكثرها ثباتاً وذبابةً لكثرة ما يباع فيها من الثمار والسردين ، وهو يطري هذا السردين ويقول : « إنه في غاية السخن ». « ومن العجائب أن دوابهم إنما علفها من هذا السردين ، وكذلك غنمهم ولم أر ذلك في سواها ». وقد سألت في إمكان هذا رجلاً من البيولوجيين فقال : إن ذلك ممكن ، وإن آكلات العشب قد تعتذر باللحم في حالة الضرورة طلباً للبروتين ، ولابد أن يكون السردين في هذه الحالة مجففاً .

ويحدثنا ابن بطوطة عما يقدمه أهل ظفار من وجوه الإكرام للتجار ليجتنبواهم إلى القادمين إلى بلادهم . وهو يثنى على أهل ظفار ثناء جميلاً ويضيف : « ومن الغريب أن أهل هذه

المدينة أشبه الناس بأهل المغرب في شعورهم : نزلت بدار الخطيب بمسجدها الأعظم ، وهو عيسى بن علي ، كبير القدر كريم النفس ، فكان له جوار مسميات بأسماء خدام المغرب ، إحداهم اسمها بحثة ، والأخرى زاد المال ، ولم أسع هذه الأسماء في بلد سواها » (ص ٢٥٢) .

وبعد أن يذكر وجوه تشابه أخرى بين المغرب وظفار يقول : « وهذا التشابه كله مما يقوى القول بأن صنهاجة وسواهم من قبائل المغرب أصلهم من حمير » ، ومن المعروف أن بعض قبائل الصنهاجيين من أمثال لمونة ومسوفة وجزولة وغيرها من القبائل التي أقامت دولة المرابطين ترعم أن أصلها من حمير في خبر طويل يتناوله أصحاب تاريخ المغرب والأنساب من العرب .

ومن طرائف ما يحكى عن ظفار إضراب الجندي عن العمل إذا تأخرت رواتبه ، فيعتزلون في تربة سلف السلطان المغيث .

وعلى مسافة نصف يوم من هذه المدينة الأحقاف وهي منازل عاد ، وهناك زاوية ومسجد على ساحل البحر ، وحوله قرية لصيادي السمك .

وفي الزاوية قبر مكتوب عليه : هذا قبر هود بن عابر عليه أفضل الصلاة والسلام .  
ويذكر أنه بمسجد دمشق موضع آخر مكتوب عليه : هذا قبر هود بن عابر . ويرجح أن قبر هود الحقيق في الأحقاف ، لأن هذه بلاده والله أعلم .

ويقول ابن بطوطة إن التنبول هناك ، ثم يتحدث عن التنبول بتفصيل ، وهو نبات يشبه القات ، ولما كان حديث ابن بطوطة عن التنبول سيطول من الآن فصاعداً فلتذكر طرقاً مما ي قوله عنه هنا :

قال : « والتنبول شجر يغرس كما تغرس دواى العنبر ، وتصنع له معرشات من القصب كما تصنع للدواى العنبر ، أو يغرس في مجاورة شجر النارجيل ، فيصعد فيها كما تصعد الدواى وكما يصعد الفلفل . ولا ثmer للتنبول ؛ وإنما المقصود منه ورقه ، وهو يشبه ورق العلبيق ، وأطيشه الأصغر وتحتني أوراقه في كل يوم ، وأهل الهند يعظمون التنبول تعظيمًا شديداً .

فبر هود  
بن عابر

التنبول

وإذا أتى الرجل دار صاحبه ، فأعطيه خمس ورقات منه - فكأنما أعطاه الدنيا  
وما فيها !

وكيفية استعماله أن يؤخذ قبله الفوفل ، وهو يشبه جوز الطيب ، فيكسر حتى يصير  
أطرافاً صغاراً ، ويجعله الإنسان في فمه ، ويلوكيه ثم يأخذ ورق التنبول فيجعل عليها شيئاً  
من التورة ، ويضئعها مع الفوفل ، وخاصيته أنه يطيب النكهة ، ويذهب بروائح  
الفم ، ويهمض الطعام ، ويقطع ضرر شرب الماء على الريق ويُفرج أكله ، ويعين على  
الجماع .

ومن ظفار ركب البحر إلى عمان ، فلم يخترق أرض ظفار ولا جبال عمان ، وكان  
ركوبه في مركب صغير لرجل يعرف بعل بن إدريس المصيري ، من أهل جزيرة  
مصالحة .

وفي اليوم الثاني لركوبه ينزل بمرسى حاسك ، وفيه ناس من العرب صيادون  
للسمك ، وعندهم شجر الكندر ، وورقه إذا شُرط خرج منه صمع يتتحول إلى اللبان .  
ومن مرسي حاسك ساروا بخداة البحر أربعة أيام حتى وصلوا إلى جبل لمعان وهو  
في وسط البحر ، وبأعلاه رابطة مبنية بالحجارة ، وسقفها من عظام السمك ،  
وبخارجها غدير يجتمع من المطر .

ثم ركبوا البحر مرة أخرى ، فوصلوا إلى جزيرة الطير والمراد إحدى جزر كوريا  
موريا فيها طيور صغيرة تشبه الشقاشق ، وهي مثل الحمام ، وقد أنكر ابن بطوطة أكل  
الناس منها دون تذكرة .

وكان طعام ابن بطوطة هناك التر والسمك ، وأكثر السمك عندهم صنف منه طعام الناس  
يسمي بالفارسية : شير ما هي ، ومعناه - كما يقول -أسد السمك ، لأن شير هو الأسد  
في تلك المنطقة التر وما هي السمك ، وهذا مثل من حرص ابن بطوطة على ترجمة ما يذكر من الفاظ  
فارسية أو تركية أو هندية .

ثم وصلت سفن ابن بطوطة إلى جزيرة مصيرة ، ولم ينزلوا بها بعد مرساها عن  
الساحل ، وإنما نزل صاحب المركب ، لأنه من أهل مصيرة فزار أهله وعاد .  
ثم ساروا في البحر قدر يوم وليلة ، فوصلوا إلى مرسي قرية كبيرة على ساحل البحر

تعرف بصورِ ، ومنها رأى مدينة قَلْهَات في سفح جبل ، فخَيلَ إِلَيْهِ أَنَّهَا قُرْبَيَةٌ . وكان ابن بطوطه قد كَرِه صحبة أَهْلِ الْمَرْكَبِ ، فقرَرَ التَّرَوْلُ إِلَى السَّبَرِ وَالتَّوْجِهُ إِلَى قَلْهَاتِ ، فَفَعَلَ .

وصحبه فقيه هندي يسمى خِضْرَاً ، وترك بعض أشيائه في المركب ، ليأخذها عندما يلحق بهم ، واكتفى حَالاً دليلاً لكي يحمل له أثواباً كان حريصاً عليها ، وقد أراد ذلك الدليل المُهرب بالآثواب ، ولكن ابن بطوطة أظهر الحزم . « وشدَّدت وسْطَى ، وكنت أَهْزَ الرِّمْحَ فَهَابَنِي ذَلِكَ الرَّجُلَ ». قلهات

وقد لقى ابن بطوطة تعباً شديداً حتى وصل إلى المدينة وهي قَلْهَاتِ ، وقد أَكْرَمَهُ حاكِمَهَا ، وأَضَافَهُ ستة أيام وهو لا يقدر على المشي ، لأنَّ نَعَاهُ ضاقَ على رجله لطول المشي ، « حتَّى كَادَ الدَّمُ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ أَظْفَارِهَا » ! (ص ٢٦١) .

ويتذَّحَ ابن بطوطة جامِعَ قَلْهَاتِ ويقول : إنَّ حِيطَانَهُ بِالْقَاشَانِ وَهُوَ شَبَهُ الزَّلِيجِ ، وهو مرتفع يُنْظَرُ مِنْهُ إِلَى الْبَحْرِ وَالْمَرْسَى ، وهو مِنْ عَمَارَةِ الصَّالِحةِ بِبِيْ بِيرِ وَيَقُولُ : وَمَعْنَى بِبِيْ بِيرِ عَنْهُمُ الْحَرَةُ ، وَهَذَا هُوَ تَقْسِيرُ ذَلِكَ الْاسْمِ الشَّائِعَ بَيْنَ نِسَاءِ الْخَلِيجِ . وَهُمْ يَكْثُرُونَ أَكْلَ الْأَرْزِ ، وَهُوَ يَأْتِيهِمْ مِنَ الْهَنْدِ ، وَيَقُولُ : إِنَّ كَلَامَهُمْ لَيْسَ فَصِيحَةً مَعَ أَنَّهُمْ عَرَبٌ وَأَهْلُهُمْ خَوَارِجٌ ، وَلَكُنْهُمْ لَا يَصْرُحُونَ بِمَذْهَبِهِمْ خَوْفًا مِنْ أَمْرِهِمْ قَطْبُ الدِّينِ تَمَهَّتْ مِنْهُمْ مُلْكُ هَرْمَزَ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ السَّنَةِ . بلاد عمان

ثُمَّ يَصْلِي إِلَى بِلَادِ عَمَانَ بَعْدِ مَسِيرَةِ سَتَةِ أَيَّامٍ فِي صَحَراءِ ، وَيَقُولُ : إِنَّهَا خَصْبَةٌ ، « ذَاتُ أَنْهَارٍ وَأَشْجَارٍ وَبِسَاتِينٍ وَحَدَائِقٍ وَنَخْلٍ وَفَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مُخْتَلِفةُ الْأَجْنَاسِ ، وَوَصَلَنَا إِلَى قَاعِدَةِ هَذِهِ الْبَلَادِ وَهِيَ مَدِينَةُ نَزُوةٍ »<sup>(١)</sup> (١) مدِينَةٌ في سفح جبل تحف بها البساتين والأَنْهَارِ ، وَطَرَا أَسْوَاقُ حَسْنَةٍ وَمَسَاجِدُ مُعَظَّمَةٌ نَقِيةٌ ، وَعَادَةُ أَهْلِهَا أَنَّهُمْ يَأْكُلُونَ فِي صَحَوْنِ الْمَسَاجِدِ ، وَيَأْكُلُونَ مَعَهُمُ الْوَارِدُ وَالصَّادِرُ ، وَلَهُمْ نَجْدَةٌ وَشَجَاعَةٌ ، وَالْمُهَرَّبُ قَائِمَةٌ فِي بَيْنِهِمْ أَبْدًا . نزوء

وَهُمْ إِباضِيَّةُ الْمَذَهَبِ ، وَيَصْلُونَ الْجَمْعَةَ ظَهَراً أَرْبَعاً ، فَإِذَا فَرَغُوا مِنْهَا قَرَأُوا إِلَيْهِمْ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ ، وَنَثَرُ كَلَامًا شَبَهَ الْخُطْبَةِ يَرْضِي فِيهِ عَنْ أَنِّي بَكْرٌ وَعُمْرٌ ، وَيَسْكُتُ عَنْ

(١) يَرِدُ اسْمُ هَذِهِ الْبَلَادِ بِالْسَّعْدِينِ : نَزُوءٌ ، نَزُوةٌ .

عُمان وعلى وإذا أرادوا ذكر على رضي الله عنه كفوا عنه فقالوا : ذكر عن الرجل أو قال الرجل ، ويرضون عن الشق اللعين ابن ملجم ، ويقولون فيه : العبد الصالح قامع الفتنة » (ص ٢٦٣)

وهذا الذي يذكره ابن بطوطة عن إباضية عمان يدعو إلى التفكير ؛ فإن الإباضية يقيمون الجمعة كما يقيمها السنة ؛ لأن لهم إماماً ظاهراً يعيشون في حكمه ، ومن ثم فلا وجه لتعطيل الصلوات العامة بحججة غياب الإمام كما تفعل بعض فرق الشيعة . وربما كان أولئك الإباضية الذين يحدثنا عنهم ابن بطوطة هنا كانوا فرقة خاصة منهم ، فقد ذكر الشهرستاني والبغدادي فرقاً كثيرة من الإباضية مثل الحارضية والحفصية واليزيدية والوهبية والنكارية ، والكثير من فرق الإباضية من لا يعرف عقائدها وعبادتها إلا أصحابها . وخبير مرجع لمعرفة هذه العقائد كتاب كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة .. وهو كتاب جيد لم ينشر إلى الآن محققاً تحقيقاً علمياً .

وعلى أي حال فقد كانت إماماة إباضية عمان دائماً في الجبل الأخضر في داخل عمان وقادتهم نزوى ، وأما السواحل فقد كانت في الغالب سيئة .

## مدخل الخليج العربي

### هرمز ولار وخنجبار وجزيرة قيس وسيراف

لم تطل إقامة ابن بطوطة في عُمان ، لأنه - أولاً - لم يجد فيها ماتوق إلى نفسه من لقاء الأولياء والصلحاء والعباد ، وأخراً لأنه كان على نية الحج ، ويبدو أنه لم يكن هناك درب مطروق بين عُمان والحجاج .

ثم إن ظفار وعُمان لم يكن لها ركب حجاج ، ربما لأن حكام عُمان كانوا من الخوارج ، فكان على الراغب في الحج من أهل تلك البلاد أن يذهب إلى نجد أو العراق أو اليمن ، ومن ثم يلحق بياحدى قوافل الحج .

وقد اختار ابن بطوطة طريقاً طويلاً بعض الشيء ، ليصل إلى القصيف ومنها إلى الحجاج عن طريق نجد ، ولا يدَّ له في هذا الطريق الذي اختاره ، فقتل هذا الرجل لم يكن حرّافاً في هذا الاختيار ، وإنما كان يسير في الطريق الميسّر له أو الذي يسرّ له الأمان .

وإنه لما زيدنا إعجاباً بهذا الرجل إنما هو إصراره على السير قدماً وركوب المخاطر دون أن يركن إلى راحة ، فقد رأينا الفرصة تتحمّل له أكثر من مرة ليستقر في مهاد الدّعة : إما مع أحد الزهاد - وكان ذلك مهرباً من الحياة شائعاً في تلك العصور ، أو يستكئن في ظل أمير أو حاكم - وكانت هذه أكبر الأمان في نظر المفكرين وأهل العلم في ذلك الزمان .

أما ابن بطوطة فلم يكن طالب دعوة ولا طالب رفـد ، إنما كان سياحاً جواهـاً لذاته الكـبرـى في التنقل ومشاهدة البلاد والعباد ، ثم إن الحجـ كان قـرة عـينـه : يطوف ويطوف ثم يذهب إلى الحجاج قـبيلـ الموسم ، فيجاورـ حينـاً ويعتمـرـ ثم يـحجـ ، وهذا تطمـئـنـ نفسه ويهـدـ بالـهـ ، وينهـض للـرـحلـةـ منـ جـديـدـ .

الحجـ قـرةـ عـينـ  
ابنـ بطوطـةـ

وقد قطعنا مع ابن بطوطة إلى الآن قريراً من نصف رحلته ، ولم نلاحظ ما يتحدث به الناس عنه من أنه كان مزواجاً لا يدخل في مكان إلا تأهل ، وهذا هو إلى الآن لا يلتفت إلى هذه الناحية إلا بالقدر المعقول ، فما رأيناه يتزوج إلى الآن إلا مرتين في بداية رحلته . إنما سيحدث هذا فيما بعد ، خلال الثالث الأخير من رحلته عندما يدخل بلاد الترك ثم المندوب ثم جزائر ذيبة المهل وهي الملديف ، وسيكون ذلك جزءاً من تغير عام شمل حياة ابن بطوطة وشخصيته ، وستحدث عن ذلك في حينه .

وسلطان عُمان في أيامه هو أبو محمد بن نبهان من أزد عُمان ، والمشهور في كتب التاريخ أن سلسلة الأئمة الأزديين أصحاب عمان وقادتهم نزوة - انقطعت فيها بين سنتي ١١٥٤م و١٤٦٠م ، وحل محلهم بنونبهان وقادتهم مَقْنِيَات في إقليم الزاهرة ، ولكن كلام ابن بطوطة يدل على أن بني نبهان أزديون أيضاً ، وأن العاصمة استمرت في نزوة ، وهذه النقطة في حاجة إلى تحقيق ، ومن الممكن أن يكون ابن بطوطة قد خلط في هذا الموضوع .

وعلى أي حال فإن رحالتنا غير راض عن أبي محمد بن نبهان هذا برغم أنه يقول : إن له أخلاقاً حسنة ، ولكنه يروى عنه حكاية لاتصدق ، وهي أنه كان يُجبر المرأة الفاسدة على أهلها ويعينها على فسادها ويحميها من أهلها !

ويبدو أنه زار الكثير من مدن عمان ؛ لأنه يقول : ومن مدن عمان مدينة زَكَام أدخلها ، وهي على ما ذكر لي - مدينة عظيمة ، ومنها القرىات وشبا وكليا وخور فكان وصغار ، وكلها ذات أنهار - وأشجار وحدائق ونخل ، وأكثر هذه البلاد في عالة هرمز (ص ٢٦٣) .

وملاحظته في محلها ؛ لأن إمامية عمان لم تكن تشمل إلا الدواخل دون السواحل في الركن الجنوبي الشرقي من جزيرة العرب . وكان الجبل الأخضر قلب بلاد الإمامة ومعقلها ، وكانت تتبع إماراة عمان بعض مدن الساحل الجنوبي مثل مسقط ومطرح . وكان جزء كبير من ساحل الجزيرة في مدخل الخليج تابعاً لسلطنة هُرْمُز وصاحبها في أيامه قطب الدين ثَمَهَّنْ بن طوران شاه . وكانت القاعدة في تلك الأيام هي هرمز

الجديدة ، أى المدينة التي قامت على الجزيرة المواجهة هرمز ، أما المدينة الساحلية فكانت – كما يقول ابن بطوطة – مُوغ استان .

وهرمز الجديدة يطلق على الجزيرة . أما القاعدة فيها فاسمها جَرَون ، ويصفها ابن بطوطة بأنها مرسى الهند والستان ، ومنها تحمل سلع الهند إلى العراقيين وفارس وخراسان ، وهذه المدينة سُكْنَى السلطان .

والجزيرة التي فيها المدينة على مسيرة يوم ، وأكثرها سباح وجبال ملح ، وهو الملح الناراني ، ومنه يصنعون الأواني المزينة والمنارات التي يضعون السُّرُج عليها ؛ والملح الداراني ويسمى الداراني أيضاً هو الملح الصخري الذي في الجبال في شبه المناجم ، وهو أصلب من الملح العادي أى البحري ، حتى ليس بملح الحجري ، وكان يستعمل دواء ؛ لأنه لم يكن مجرد كلوريد الصوديوم ، بل كانت تختلط به مواد أخرى ، وإلى هذا ترجع صلابته وقلة ذوبانه ، وأكبر مناجمه المعروفة في أيامنا هذه في التنسا عند سالزبورج ، ومعنى اسم هذه المدينة مدينة الملح .

ويقول ابن بطوطة : إن طعامهم السمك والقر الجلوب لهم من البصرة ، « ويقولون بلسانهم : خرما وماهى لوت باد شاهى ؛ ومعناه بالعربي : القر والسمك طعام الملوك (ص ٢٦٤) .

وقد رأى ابن بطوطة هناك جمجمة حوت هائل وكأنها رابية وعيناها كأنها ببابان فرى الناس يدخلون من إحداها وينحرجون من الأخرى ! »

ويتحدث ابن بطوطة عن سلطان هرمز وكيف وجده مشغولاً بحرب ابن أخيه نظام الدين بن طوران شاه ! وقد عبر ابن بطوطة البحر من الجزيرة إلى البر ، ليزور رجلاً صالحاً ييلد خُنْج بالفاخترق صحراء قاحلة مسيرة أربعة أيام تهب بها رياح السموم في شهرى أغسطس وسبتمبر « فن صادفته قتله » .

**رياح السموم** ويذكر هذه الرياح شارдан Chardin في كتابه « رحلات في فارس » المنشور سنة ١٩٢٧ م ويقول : إنها تهب فيما بين ١٥ من يونيو و ١٥ من أغسطس ، وهو وقت الحرارة القصوى في الخليج ، ويقول شاردان : إن تلك الرياح لها صفير مخيف . وهى تبدو حمراء ملتهبة ، وتقتل الناس وتتعصف بهم ، فن وقع فيها اختناق ، وخاصة إذا

أصابته بالنهار . ويقول ابن بطوطة : إن من مات بها يقى على حاله ، فإذا أمسكت بأى عضو من أعضاء جسده خرج معك !

ولم يكن هذا هو الشر الوحيد الذى يلقى السائر فى تلك الصحراء ، بل كان يقطع الطريق بها لص كبير يسمى جمال الملك الـڭ ومعناه الأقطع ، وقد تأبى إليه نفر عظيم من اللصوص والذئاب ما بين عجم وعرب ثم تاب هذا الرجل وتبع ، ومات وأقيم له ضريح رآه ابن بطوطة .

ومن هناك وصل ابن بطوطة إلى كوراستان ، ويرى شفارتس صاحب كتاب «إيران في العصور الوسطى<sup>(١)</sup>» : أن المراد بهذا البلد خوريستان التى تسمى أيضا سرقيستان على نحو ثمانين كيلو متراً جنوب شرق شيراز .

ويقول جب فى تعليقه على ذلك : إن هذا - إذا صح - فيكون ابن بطوطة قد أخطأ فذكر اسم ذلك البلد الذى مر به بعد عودته من الهند سنة ١٣٤٧ م عندما قطع خورستان فى طريقه إلى شيراز ، ويضيف أنه من غير المحتمل أن يخاطئه عربي فيكتب خورستان بدلاً من كورستان ، إلا إذا كان هذا هو نطق هذا الاسم على لسان أهل الموضع .

ثم وصل إلى لار ، وهى مدينة معروفة بين هرمز وشيراز ، وهو يثنى على أهلها لار ويقول : إنهم يتبرعون بالخبز لإيواء الغرباء ، وكان سلطان المدينة جلال الدين التركانى .

ومن هناك قصد إلى خنجبال ، فزار زاوية الشيخ العابد أبي دلف محمد وهو زاهد خنجبال ينفق الأموال العظيمة على أبناء السبيل ، وينذهب بعض الناس إلى أنه ينفق من الكون !

ثم يقول : إنه سافر من خنجبال إلى مدينة قيس ، وتسمى أيضاً سيراف . وهذا يقع في خطأ جسيم ؛ لأن سيراف كانت من أعظم موانى إقليم فارس على الخليج - قرب مدينة طاهري الحالية .

أما قيس - أو كيش - فجزيرة على نحو ١٣٠ كيلو متراً إلى الجنوب ، وقد حلت جزيرة قيس

محل سيراف في القرن الثاني عشر الميلادي ، ثم حلت هرمز محل هذه الأخيرة في الأهمية سنة ١٣٠٠ م ، ثم حلت بندر عباس محل المدن الثلاث في القرن السابع عشر . ومن المعروف أن هرمز وقعت في أيدي البرتغاليين سنة ١٥١٢ م ، وظلت في أيديهم حتى خلصها الشاه عباس من أيديهم سنة ١٦٢٢ م بمعاونة الإنجليز .

وقد مر ابن بطوطة بهذه النواحي من شرق إيران في آخر أيام سلطانها أبي سعيد بهادر الذي توفي سنة ٧٣٦ هـ / ١٣٣٥ م ، ولكن المظفررين الذين سيرثون إقليمي فارس وكerman اللذين مر بهما ابن بطوطة كانوا في طريقهم إلى الاستبداد بالأمور . ولكن يبدو من كلام ابن بطوطة أن الأمن كان مستتبًا في هذه النواحي والأحوال راضية ، وسيظل الأمر على ذلك بعد وفاة أبي سعيد ، لأن المظفررين كانوا من أقدر حكام إيران خلال فترة أمراء النواحي أو أمراء الطوائف الذين تقاسموا البلاد بعد تفكك إيلخانية إيران المغولية .

## صيد اللؤلؤ في الخليج

رافقتنا ابن بطوطه في الفقرة السابقة على الصفة الشرقية للخليج العربي حتى جزيرة حديث ابن بطوطة عن اللؤلؤ في الخليج وصيده قيس في طريقه إلى القطيف ونجد ثم الحجاز ليحج حجته الثالثة . وقد لاحظنا أنه وقع في بعض الأخطاء في حديثه عن هذه المنطقة ، وسراه في حديثنا هذا يقع في وهم كبير في كلامه عن اللؤلؤ ومحاصاته ، وهو يقول : إن تلك المغاصات بين سيراف والبحرين في خور راكد ويقول : إن معظم أهل سيراف عجم وفيهم طائفة من عرببني سفاف كما يقول ، وقد تكون صحة الاسم : سَقَاف .

وهو يصف خور اللؤلؤ هذا بأنه مثل الوادي العظيم ، وسأته بكلامه على تواليه نظراً لأهميته لأهل منطقة الخليج كلها ، وسنلقي عليه بعد ذلك بما يقتضيه المقام ، قال : «إذا كان شهر أبريل وشهر «مايه» تأتي إليه القوارب الكثيرة فيها الغواصون وتجار فارس والبحرين والقطيف ، ويجعل الغواص على وجهه منها أراد أن يغوص شيئاً يكسوه من عظم الغيلم وهي السلحافة ، ويصنع من هذا العظم أيضاً شكلاً شبه المراض يشد على أنفه ، ثم يربط حبلًا في وسطه ، ويغوص .

ويتفاوتون في الصبر في الماء فنهم : من يصبر الساعة والساعتين فما دون ذلك ، فإذا وصل إلى قاع البحر وجد الصدف هناك فيما بين الأحجار الصغار مشتا في الرمل ، فيقتلعه بيده ، أو يقطعه بمحديدة عنده معدة لذلك ، ويجعلها في مخلة جلد . منطعة عنقه . فإذا ضاق نفسه حرك الحبل ، فيحس به الرجل الممسك للحبل على الساحل ، فيرفعه إلى القارب . فتؤخذ منه الخلابة ويفتح الصدف ، فيوجد في أجوفها قطع لحم تقطع بمحديدة . فإذا باشرت الهواء جمدت فصارت جواهر ، فيجمع جميعها من صغير وكبير ، فيأخذ السلطان خمسه ، والباقي يشتريه التجار الحاضرون بتلك القوارب ،

وأكثراً يكون له الدين على الغواصين ، فيأخذ الجوهر في دينه أو ما وجب له منه (ص ٢٦٩) .

وهذه الفقرة تدل على أن ابن بطوطة لم يشهد عملية الغوص بنفسه ، وإنما أخذ المعلومات من أفواه نفر غير عارفين بدقة عملية الغوص ، وربما أخذها من أصحابه الفقهاء ، وهذا أمر يستغرب من رجل طلعة مثل ابن بطوطة تشوّه رؤية كل غريب ، والغوص على المؤثر كان من أغرب ما يمكن للإنسان مشاهدته .

وربما كان السبب كذلك أن إقامته في البحرين والقطيف ومنطقة رأس الخليج جملة لم تتوافق فترة الغوص ، فقد كان في هذه المنطقة في شهرى يوليو وأغسطس سنة ١٣٣٢ م ، لأنه حج حجته الثالثة في ذى الحجة ٧٣٢ هـ أى أواخر أغسطس وسبتمبر ١٣٣٢ م فكان في منطقة رأس الخليج قبل ذلك بشهرين مثلاً أى في يونيو ويوليو كما قلنا ، وموسم الغوص كان في أبريل ومايو كما يقول أى قبل أن يصل إلى المنطقة بشهر سبتمبر وهو شهر ونصف .

لهذا يقول إن الغواص يستطيع البقاء تحت الماء ساعة أو ساعتين ، وهذا غير ممكن أو معقول - وبهذه المناسبة نذكر أن شاردان يقول إن الغواصين يمكثون تحت الماء قرابة ربع الساعة وهذا أيضاً مستبعد - ويقول كذلك أن المؤثر يكون قطعاً من اللحم إذا باشرت الهواء جمدت وصارت جواهر وهو أمر غير صحيح كما نعرف .

ولكن ابن بطوطة أعطانا على أى حال - فكرة عن نظام الغوص في أيامه وكيفية خروج الغواصين للغوص وعن الضريبة التي كان يجبيها السلطان وهي خمس المؤثر المستخرج ، وهى النسبة الشرعية لنصيب الدولة من الركاز ، وهو كل ما يستخرج من باطن الأرض ، وملاحظته عن إقراض التجار المال للغواصين قبل موسم الغوص واستيفاء التجار لديونهم بعد الصيد ملاحظة لها أهميتها .

من سيراف ابن بطوطة إلى البحرين ، وهو يقول عنها : « وهي مدينة كبيرة حسنة ذات بساتين وأشجار وأنهار ، ومؤاها قليل المؤنة يحفر عليه بالأيدي فيوجد ، وبها حدائق النخل والرمان والأترج وهي الفاكهة المعروفة بالليمون المر أو الجريب فروت ، ويزرع بها القطن ، وهي شديدة الحر كثيرة الرمال ، وربما غالب الرمل على بعض

البحرين

منازلها . وكان فيها بينها وبين عمان طريق استولت عليه الرمال . وانقطع فلا يصل من عمان إليها إلا في البحر» (ص ٢٧٠)

وهذه عبارة تدل على أن لفظ البحرين كان يطلق على الجزيرة المعروفة بذلك الاسم اليوم . واسمها الأصلي : أول . ويطلق كذلك على الشاطئ المقابل لها من أرض الجزيرة . فابن بطوطة يتحدث عن جزء الساحل لا عن الجزيرة بدليل أنه يذكر أنه بالقرب منها جبل كسير وعويم .

ويتحدث ابن بطوطة عن أنهار تحتية تجري بالماء العذب بين جزيرة البحرين وشاطئ البحرين . وهذا صحيح . ولكن الأنهر عيون تنفجر في قاع البحر بالماء الحلو . وفي العصر التركي كان هناك غواصون يغوصون في الماء ومعهم قرَب من الجلد يملؤنها بالماء الحلو ثم يصدعون إلى السطح . وكان البرتغاليون يستخرجون هذا الماء بأنابيب . وإلى حين قرب كان أهل الخليج يفعلون ذلك .

ومن البحرين سافر ابن بطوطة إلى القطيف . وقد سمع نطقها : القُطِيف . وهو يذكر أن أهلها عرب من غلاة الروافض - ويريد بذلك : غلاة الشيعة - ومنها انتقل إلى هجر ويقول : إنها تسمى الآن الحسا . وهذا خطأ ، لأن الحسا هو اسم الإقليم الذي فيه ميناء القطيف .

ولكن المستشرق هاملتون جيب في تعليقه على مقتطفاته من ابن بطوطة وقع في خطأ كبير : فقدقرأ هَجَر « حجر » وترجمها بلفظ Stone . وقرأ الحسا بالصاد : الحصى وقال : إن معناها bubbles المعروف عندنا أنها جمع حسيّ وهو البئر القريبة القاع والجمع حسًّا وأحساء . والاسماان مستعملان .

وهذا أمر مستغرب جداً من مستشرق ضليع مثل السير هاملتون جب لا يغيب عليه مثل ذلك . ولا يعلل هذا إلا بأن تلميذه كان ينسخ له المخطوط فأخطأ في النقل . وربما كان هذا التلميذ يقوم بالترجمة . ولا تعليل لذلك إلا بأحد هذين الافتراضين .

ثم ينتقل إلى العمامه ويقول : إنها تسمى أيضاً بحجر . وهو يتلذثها ويقول : إنها مدينة حسنة خصبة ذات أنهار وأشجار . يسكنها طوائف من العرب من بنى حنيفة .

وهم كانوا أهلها على طول الدهر ، وكان أميرهم في أيامه طفيل بن غانم ، وفي صحبة هذا الرجل حج ابن بطوطة حجته الثالثة ، وهو لا يذكر أى تفاصيل عن الحجارة في حجته تلك ، فيما خلا قوله : إن الملك الناصر محمد بن قلاوون سلطان مصر حج في هذه السنة وهي ٧٣٢ هـ ، ومعنى ذلك أن حجة ابن بطوطة هذه كانت في أوائل سبتمبر ١٣٣٢ م . وهنا يذكر ابن بطوطة بعض التفاصيل عن قتل الملك الناصر لولد من أولاده يسمى أحمد تامر هو وأمير على السلطان يسمى بُكْتُمُ الساق .

وكانت نية ابن بطوطة معقودة على السفر إلى اليمن ومنها إلى الهند ، ولكن الله لم يكتب له الوصول إلى اليمن هذه المرة أيضاً : فقد أقام في جدة أربعين يوماً حتى علم بأمر سفينة لرجل يسمى عبد الله التونسي ، فصعد عليها ، فلم ترض عنها نفسه وعزف عن ركوبها ، وكان ذلك من لطف الله به ، فقد غرق هذا المركب بعد إقلاله عند رأس يسمى رأس أبي محمد ، ونجا نفر من أهله في العشاريات ، والعشارية مركب صغير يتسع لعشر أنفس ، وكان يربط بكل سفينة كبيرة عدد من العشاريات كأنها قوارب نجاة .

ثم ركب البحر بعد ذلك في صُبُوق ، ونحن ننطقه اليوم : سُبُوك ، وهو مركب صغير الحجم ولكنه متين البناء ، وتشاء الصدفة أن تحمله الرياح مرة أخرى إلى فرضة رأس دواير على شاطئ السودان بين عيذاب وسواكن في أرض البجا ، ولكنه هذه المرة لم يسر جنوباً بل اتجه شمالاً فوصل إلى عيذاب ، وانحرق وادي العلاق إلى قرية العطوانى المقابلة لمدينة أدفعى الصعيد الأعلى ، وصعد النيل إلى مدينة مصر وهي الفسطاط ، ثم اتجه إلى بلييس في طريقه إلى الشام ، وهكذا أراد صاحبنا شيئاً وأراد الله غيره ، وأمر الله بين الكاف والنون .

العشريات  
الصَّبُوق

## بلاد الروم - آسيا الصغرى - العالايا - أضاليا

لم يطل مقام ابن بطوطة في بلاد الشام هذه المرة ، وإنما هو من بعض بلادها الرئيسية مسرعاً ؛ لأن وجهته - هذه المرة - كانت بلاد الروم ، وهي آسيا الصغرى ، وهو لا يحذثنا عن الدافع له إلى زيارة هذه البلاد ؛ لأنه على العادة - لا يذكر علة لانتقاله من بلد إلى بلد ، ومن مثل هذا الرجل لاتطلب تعليلات ؛ فهو رحاله ، وزيارة البلاد ولقاء العباد والتعرف عليهم هو مطلبه وغايته .

وهو يحدثنا بأنه كان له في الرحلة - هذه المرة - رفيق هو الحاج عبد الله بن أبي بكر ابن الفرحان التوزري ، ولم يزل في صحبتي سنين إلى أن خرجنا من بلاد الهند إلى أن توف بستانابور ، وسنذكر ذلك « والتوزري هذا منسوب إلى توزر من بلاد إقليم قسطنطيلية جنوبى تونس الحالية ، فهو مغربي مثل ابن بطوطة .

دخل ابن بطوطة آسيا الصغرى بطريق البحر ، قال : « ومن اللاذقية ركبنا البحر بر التركية في قرقورة كبيرة للجنوبيين يسمى صاحبها بمرتللين ، وقصدنا بر التركية المعروف ببلاد الروم .. وسرنا في البحر عشرأً بريح طيبة . وأكرمنا النصراني ولم يأخذ منا نولاً . وفي العاشر وصلنا إلى مدينة العالايا ، وهي أول بلاد الروم » .

وفي هذه العبارة ألفاظ تحتاج منها إلى شيء من التعليق ، أولها : انقرورة وهو نوع من السفن ، وقد ضبط نطقه ابن منظور فقال : إنه على وزن عصفور ، ويرد اللفظ أيضاً في صورة قُرُور .

وهنالك خلاف عن المراد به ، فيقول ابن منظور في لسان العرب : « ويقال للسفينة القرقر أو الصرصور » ، ويقول الجواليق في المغرب : « القرقر ضرب من السفن أعجمي تكلمت به العرب ، ويفهم من النصوص أن ابن منظور على حق في القول

بأن اللفظ يطلق على السفينة ، والمراد به السفينة بصورة عامة ، لأن القراقير كانت من كل حجم ، يقول ابن منكلي في كتابه « الأحكام الملوكة والضوابط الناموسية في فن القتال في البحر » إن القراقير منها الكبار جداً « وهي بثلاثة ظهور ومشي » والمراد بذلك مركب ذو ثلاثة أدوار ، والظهور هو ما يعرف بالإنجليزية باسم deck وقرقرور مسطح أى ذات دور واحد وقرقرورة حرية .

والغالب أن ابن بطوطة ركب قرقورة كبيرة . وكان صاحبها جنوبياً يذكر ابن بطوطة اسمه بطليموس والغالب أنه تحريف لاسم Barholomeou اليوناني . وقد أحسن هذا الرجل معاملة ابن بطوطة وصاحبها ولم يأخذ منها نولاً أى أجرًا ، واللفظ مستعمل في مصطلح البحر والجبارك في البحر الأبيض إلى اليوم ، وهو الناولون .

ويستعمل ابن بطوطة لأول مرة لفظ « بر التركية » والمراد بر البلاد التركية ، وهي آسيا الصغرى التي كانت تعرف عند المسلمين باسم بلاد الروم أى سلاجقة الروم ، أى سلاجقة الذين اقتطعوا من أرض الروم في آسيا الصغرى أجزاء ونزلوها ، ولما كان سلاجقة أتراكاً فقد عرفت البلاد أيضاً بالتركية ، ومن هنا جاء اسم تركيا الذي أطلق على بلاد آسيا الصغرى أولاً ثم على بلاد الدولة العثمانية عاملاً ، ثم على الجمهورية التركية الحالية .

وفي أيام ابن بطوطة كان لفظ بر التركية يطلق على بلاد الأناضول وهي الجزء الجنوبي من آسيا الصغرى ، وقد تنازع عليها المسلمون والنصارى زماناً طويلاً حتى تمكنت سلاجقة الروم من انتزاعها من أيدي الروم - أو البيزنطيين - نهائياً فيها بين سنتي ١٠٨١ م و ١٠٩١ م .

بلاد  
الأناضول

إمارات الغرابة وخلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر قامت في آسيا الصغرى إمارات تركية إسلامية أنشأها من يعرفون باسم الغرابة ، وهم الأتراك الذين جعلوا دأبهم مغاذة بلاد الروم واقتطاع أجزاء منها وإنشاء إمارات فيها .

وكانت هذه الإمارات تابعة لسلطان سلاجقة الروم في آسيا الصغرى وعاصمتها قونية ، وكان سلطانه يمتد على شبه الجزيرة كلها ماعدا أرمينيا الصغرى وطرابزون وما يلي للدولة البيزنطية من أملاك في آسيا الصغرى على ساحل بحر مرمرة .

وكان الأتراك العثمانيون في أول أمرهم جماعة من الأتراك التابعين لسلطان قونية ، ثم أقطعهم أرضاً في شرق شبه الجزيرة فأنشئوا فيها إمارة غزة ، ثم تمكنوا شيئاً فشيئاً من التغلب على سلطنة الروم واقتطاع معظم أراضيها . وبعد أن فتح السلطان محمد الفاتح القسطنطينية تجرد للقضاء على إمارات الغزة وإدخالها في أراضي الدولة العثمانية بصفته أكبر الغزا .

وكان السلطان العثماني إذ ذاك يلقب بالغازي ، وقد ظل خلفاء بنى عثمان يحملون هذا اللقب حتى آخر أيامهم ، وحمله أيضاً مصطفى كمال منشئ تركيا الحديثة فكان اسمه أولاً « الغازى مصطفى كمال » .

**علايا**      وعلايا - وأصل اسمها علاية - ميناء كبير كان على ساحل أضاليا ، وهي من إنشاء أعظم سلاطين سلاجقة الروم ، علاء الدين كيقباذ (١٢١٩ - ١٢٣٧ م) سميت باسمه ، أما الملحنون الأوربيون فيسمونها كانديلور Candelor وهو تحريف لاسمها الأول عند البيزنطيين Kalon Oros .

وكان الجانب الأكبر من تجارة علايا مع موانى سلطنة مصر والشام المملوكية وخاصة اللاذقية والإسكندرية ، لأن إقليم أضاليا كان مشهوراً بأخشابه ، وكان هو المورد الأكبر للأخشاب الازمة للأسطول المملوكي .

**ابن بطوطة**  
**يتأثر أهل**  
**أضاليا**      ويمتدح ابن بطوطة أولئك الأتراك أصحاب إمارة أضاليا (أو أنطالية) وغيرهم من أهل إمارات الغزة ، ويقول عن إقليم بلاد الروم جملة : « فأهله أجمل الناس صوراً ، وأنظفهم ملابس وأحسنهم مطاعم ، وأكثر خلق الله شفقة ، ولذلك يقال : البركة في الشام والشفقة في الروم .. وكنا متى نزلنا بهذه البلاد زاوية أو داراً يتفقد أحوالنا جيراننا من الرجال والنساء ، وهن لا يحتاجين ، فإذا سافرنا عنهم ودعونا وكأنهم أقاربنا وأهلنا ، وترى النساء باكيات لفراقيا متأسفات » (ص ٢٧٢) .

وهذه العبارة من ابن بطوطة فيها مبالغة - فيها يبدو - ولكننا نستطيع قبولها وتفسيرها بأن أهل هذه البلاد - والأتراك عامة - كان لهم تقدير عظيم لرجال الدين والفقهاء خاصة . وقد دخلها ابن بطوطة فقيهاً ، وكان يحمل لقب القاضي ، وهذا لقى هذا الإكرام كله من أولئك الأتراك ، وسيظل يتمتع به من الآن فصاعداً حتى يدخل

بلاد القرم والبلغار ، بل حتى يدخل القسطنطينية نفسها . وسيزداد ذلك الاحترام لابن بطوطة الفقيه في خوارزم ثم بلاد الهند ، وستتغير حاله تبعاً لذلك كما سرني . وهو يذكر أن جميع أهل البلاد من السنة على مذهب أبي حنيفة ، وليس فيهم على غير السنة أحد ، وسنلاحظ أن هذا أيضاً سيكون حال الأتراك العثمانيين ، بل سيصبح أولئك الآخرون أبطال السنة والجماعة ، ومن هنا صارت إليهم خلافة الإسلام .

و هنا نزل ابن بطوطة ضيفاً على قاضي المدينة جلال الدين الأربنخاني ، وقدمه هذا إلى ملك العلايا ويقول : « وهو يوسف بك ، و معنى بك الملك ، ابن قرمان ، و سكنه على عشرة أميال من المدينة . و اسم هذا الأمير يفسر لنا السبب في أن الإقليم الذي شرقه أصلالية (أو أنطالية) سيعرف فيما بعد باسم إماراة قرمان ، و ستتصبح عاصيته مدينة لارندة التي ستسمى بمدينة قرمان جنوب قونية . وكانت إماراة قرمان تابعة لسلطان السلاغقة الروم في قونية ، ثم استقلت عنها بعد ذلك .

و من العلايا يتنقل ابن بطوطة إلى أصلاليا (أو أنطالية) وكانت أضخم من العلايا وأهم ، و تجاراتها أوسع وخاصة مع مصر و قبرص ، و ما زال المصريون يسمون الليمون الكبير الحجم باسم ليون أصلاليا ؛ لأنهم كانوا يستوردونه من هذه الناحية . أما أهم ما كانت مصر المملوكية تستورده من أصلاليا ف كانت الأخشاب لبناء سفن الأسطول خاصة .

ويعطينا ابن بطوطة صورة طريفة و دقيقة جداً لتكوين هذه المدينة : فقد كانت مؤلفة من أقسام أو أحياء أو مدن ، لكل طائفة من الناس قسم عليه سور ، فهناك قسم أو مدينة لتجار النصارى « ما كثون منها بالملوضع المعروف بالمبينة ، و عليهم سور تسد أبوابه عليهم ليلاً و عند صلاة الجمعة » .

وهذه كانت عادة أهل مدن السواحل الإسلامية في العصور الوسطى : يتحرزون بالليل من النصارى النازلين بالمبينة وفي أثناء صلاة الجمعة خوفاً من الطرقات المفاجئة . وهناك أقسام أخرى للروم واليهود والمسلمين أهل المدينة وهو أكبر الأقسام وأهمها « الملك وأهل دولته و ملاليكه يسكنون ببلدة عليها أيضاً سور يحيط بها » .

ولعل الكثيرين لا يعلمون أن الأتراك العثمانيين لم يكونوا يسمون أنفسهم أتراكا ، بل عثمانين أو عثماني ، لأن لفظ ترك وتركي في لغة الأتراك يحمل معنى الجلاخة والبدائية كما كان لفظ « فلاح » يحمل هذه المعانى في لغة العرب . ولم نجد سلطان آل عثمان موصوفاً فقط بأنه تركي .

أما أول من استخدم هذه اللفظة من رؤساء الأتراك فكان مصطفى كمال ، وكان في هذا الاستعمال يريد أن يفخر بالجنس التركي الأصيل الذي قامت عليه الدولة . فسمى نفسه أتاترک ، أي « أبو الأتراك » ولم يسم نفسه أتا عثماني ، وقد حدث ذلك في الثورات العربية الحديثة ، عندما تحول لفظ فلاح إلى مداعاة للفخر واعتزافاً بالأصلية : فيبينا كان الناس قبل ثورة ٢٣ يوليو في مصر لا يحبون أن يوصفوا بأنهم فلاحون أصبحوا يفخرون بأنهم فلاحون ، وأن ثورتهم ثورة فلاحين ، وارتبطت بوصف الفلاح كل فضيلة قومية أو إنسانية .

قر الدين

٢٣

## في بلاد سلاجقة الروم وإمارات الغرابة

قبل أن نترك أصلًا في صحبة ابن بطوطة لابد أن نذكر أمرين :

الأول : هو قوله : « وفيها البساتين الكثيرة والفاواكه الطيبة والمشمش العجيب المسحى عندهم بقمر الدين ، وفي نواته لوز حلو ، وهو ميس ويحمل إلى ديار مصر ، وهو بها مستطرف » (ص ٢٧٥) . وتلك واحدة من الفقرات القليلة في مؤلفات القدماء تعرفنا بأصل قر الدين المشهور الكثير الاستعمال في شهر رمضان خاصة ، والمشهور أنه يصنع من المشمش الحموي وهو نفسه المعروف بقمر الدين .

والأمر الآخر هو نظام أو تنظيمات الأخية التي يطرب ابن بطوطة في الحديث عنها في الأنجية كل ما مر به من بلاد آسيا الصغرى ، وهو نظام شبيه بنظام الفتوة ، وربما كان مشتتاً منه ، وربما كان كذلك مقتبساً من نظام جماعات المغاربة الدينيين المعروفيين في تاريخ الحروب بين المسلمين والنصارى في الشرق والغرب على السواء باسم religious orders أو orders religieus وفي الأندلس باسم Ordenes religiosos ، وكان لهذه الأنظمة دور كبير في تاريخ الصراع بين الإسلام والنصرانية .

ولنستمع أولاً لكلام ابن بطوطة ، ثم نلقي عليه بما يبدو لنا : قال تحت عنوان : « ذكر الأخية الفتوان » : واحد الأخية أخرى على لفظ الأخ إذا أضافه المتكلّم إلى نفسه ، وهم يجتمعون في كل بلد ومدينة وقرية . وليس في الدنيا مثلهم أشد احتفالاً بالغرباء من الناس ، وأسرع إلى إطعام الطعام وقضاء الحاجة والأخذ على أيدي الظلمة ، وقتل الشرط ومن لحق بهم من أهل الشر » (ص ٢٧٥) . وإن فهؤلاء الأخية تنظيم فتوة مهمته العناية بالغرباء وقضاء حوائج الناس

والوقوف في وجه الظلمة : أى حماية الناس من ظلم الحكام . ولا تروعنا عبارة « وقتل الشرط ومن لحق بهم من أهل الشر » ، فهي تدل على أن نظام الشرطة الذي وضع أول الأمر لحماية الناس وإقرار لأمن تدهور مع تدهور أجهزة الحكم كلها إلى نظام ضار بالناس ، فأصبح الشرط يحمون رجال الدولة والقوة والجاه ، ويغسرون الضعفاء ومن لا حامي لهم ، يفرضون عليهم الإتاوات ، ويفيدون الأشرار ويقاسمونهم الأرباح ! وهذا التدهور لهذا الجهاز الذي لا يغنى عنه واضح لمن يطالع الأجزاء الأخيرة من تاريخ الطبرى ، وما فيه من أوصاف حالة الأمن في بلاد الدولة وفي بغداد خاصة . والشرط المقصودون هنا هم التابعون لسلطان سلاجقة الروم في قونية ، وهو صاحب الولاية على إمارات الغزاة ، والأئمة أو الأئمة الفتى كانوا يتصدون لأولئك الشرط ، ويحمون الناس منهم ومن يلوذون بهم من الأشرار .

وكان الأخية يتكونون من أهل الحرف من الصناع ، فلكل أهل حرفة جماعة منهم يرأسهم واحد منهم يسمى الأخى . ويكونون في العادة من الشبان الأعزاب والمتجردين ، أى المتجردين عن الدنيا وهم الضوفية ، ويقول ابن بطوطة هنا : « وتلك هي الفتوة أيضاً : أى أن نظام الأخية كان تجديداً لنظام الفتوة ، وهذا الأخى أى رئيس الجماعة من المتطوعين لحماية الناس يجمع من أهل حرفته مالاً بصورة منتظمة ، وبيني به زوايا يجعل فيها الفرش والسرج وما يحتاج إليه من الآلات ، ويخدم أصحابه بالنهار في طلب معيشتهم » ، أى يساعدهم في القيام بشؤون حرفتهم بالمال والشفاعة لدى الحكام والحماية من الأذى ، يقول ابن بطوطة : « ويتلون إليه بعد العصر بما يجتمع لهم ، فيشترون به الفواكه والطعام إلى غير ذلك مما ينفق في الزاوية ثم يجتمعون بعد ذلك ، فإذا كلون معاً ويندون ويرقصون رقص الدراويش المعروف ، فإذا

كان هناك غريب طارئ على البلد أشركونه في ذلك كله ». وهذا دون شك تنظيم اجتماعي وسياسي على جانب كبير من الأهمية ابتكرته الجماعة الإسلامية لحماية نفسها من أذى الأشرار ومن الطالبين من رجال الحكم . وجدير بالذكر أن كل المؤسسات والتنظيمات النافعة في تاريخ الأمة الإسلامية إنما هي من ابتكرها جماهير الناس : وكانت إقامتها وإعداد الرجال الذين يقومون بها من اختصاص الأمة

كل المؤسسات  
والتنظيمات  
النافعة في  
الإسلامية لحماية نفسها من أذى الأشرار ومن الطالبين من رجال الحكم . وجدير بالذكر  
أن كل المؤسسات والتنظيمات النافعة في تاريخ الأمة الإسلامية إنما هي من ابتكرها جماهير  
الناس : وكانت إقامتها وإعداد الرجال الذين يقومون بها من اختصاص الأمة

لا الحكومة ، ومن ذلك التشريع والقضاء والتعليم وعلوم الحياة كالطب والصيدلة والفلك وما إلى ذلك . وهل نحن أولاء نرى كيف كان نظام الأخية نظاماً شعبياً أنشأه ، أفراد الشعب للقيام بواجبات عجزت الحكومات عن القيام بها .

ويقول ابن بطوطة إن الواحد منهم يسمى بالفتىاني ، أما مقدمهم - أى رئيسهم - فيسمى بالأختي ؛ والجماعة كلها تسمى بالأختية الفتىاني ويقول : « ولم أمر في الدنيا أحسن أفعالاً منهم ويشبههم في أفعالهم أهل شيراز وأصفهان ، إلا أن هؤلاء - أى أخية بلاد الروم - أحب في الوارد والصادر ، أى أحب من غيرهم لمن يرد عليهم ويصدر عنهم من الغرباء وأبناء السبيل ، وأعظم إكراماً له وشفقة عليه » .

ثم يعطينا ابن بطوطة مثلاً من كرم أولئك الأخية وأريحتهم ، فيروى كيف أن مقدمآ من مقدميهم لا يجدون عليه غنى أو يسار استضافة وأصحابه في زاويتهم ، « وهي زاوية حسنة ، مفروشة بالبسط الرومية الحسان ، وبها الكثير من ثريات الزجاج العراقي . ويدرك أنه كان بالزاوية خمسة من البيسوسات ، جمع بيسوس ، وهو مصباح شبه المنارة من النحاس له أربع قرجل ثلاث ، وعلى رأسه شبه جلاس أى غطاء مثقب من النحاس ، وفي وسطه أنبوب للفتيلية ، ويملاً من الشحم المذاب ، ويوكل أحدهم باليوسوس لإشعال الفتيل وإصلاحه . ثم يصف كيف قدموه لهم طعاماً حسناً ، ثم اصطفوا وعلى رأسهم قلانس يض من الصوف ، بأعلى كل قلنسوة قطعة موصولة بها في طول ذراع وعرض إصبعين ، فإذا استقرت بهم الجلس نزع كل واحد منهم قلنسوته ، ووضعها بين يديه ، وتبقى على رأسه قلنسوة أخرى من الزردىخانى - وهو نوع من اللباد وسواء ، وفي وسط مجلسهم شبه مرتبة موضوعة للواردين » أى للضيف ( ص ٢٧٦ ) .

وبعد الطعام قاموا فرقصوا رقص الدراويش أو الملووية ، وهو أن يدور كل منهم على نفسه ، ويدور مع الجماعة في الوقت نفسه حول المجلس ، ويتقدموه واحداً فواحداً إلى متصرف الدائرة فيدور حول نفسه في سرعة ينتشر بها ثوبه كأنه مظلة واقية من السقوط .

وهذا الرقص الذى استحدثه دراويش الأتراك زيادة من الزيادات التى أدخلها

الأتراءك – أو التركان – على نظام الفتنة الذي ظهر في العراق وبغداد خاصة في النصف الأخير من القرن الثاني عشر محاولة من أهل المهمة والتنقية والورع لإيقاف التدهور العام الذي شمل الدولة العباسية إذ ذاك .

وكان الداعون إلى تلك الحركة يتعاهدون على « الامتناع عن الأذى والعطاء دون سؤال والانقطاع عن الشكوى ، واتخذوا لأنفسهم لباساً خاصاً يسمى سراويل الفتنة أو بلباس الفتنة ، ورصدت هذه الجماعات نفسها لحرب الذُّمار واللصوص وحماية الناس من أذى الجنود ، وكان تنظيمهم يجري على نظام الطرق الصوفية ، وقد تسموا أحياناً بالمجاهدين في سبيل الله »

وقد تحدث عنهم ابن الأثير في تاريخه وكذلك ابن جبير في رحلته . وفي سنة ١١٨٢ م انضم الخليفة العباسى الناصر إلى حركة الفتنة ولبس سراويلها في حفل كبير ، وأصبح راعيها وصار يلبس رجاله ومن يرضى عنهم سراويلها . وفي أيامه أزهرت الحركة وقامت بالفعل بدور إيجابي في إصلاح الأحوال في بغداد نوعاً ما ، ثم أنشأت جماعة الفتنة لها تاريخاً قدماً جعل أول رجالها الإمام على بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وأضيف إلى مراسيمها الشرب من كأس : يسمى كأس الفتنة . وقد اضطرب نظام الحركة بعد الخليفة الناصر .

ويصف لنا ابن بطوطة إمارة أنطالية وصفاً مفصلاً ، ويتحدث عن سلطانها خضر بك بن يونس بك ، ويقول : إن الناس هناك لا يتحدثون إلا بالتركية .

ومن هناك مضى شمالاً ثم شرقاً إلى بُرُود ثم سُرْتَا ثم أكوش شهر ، ثم يتوجه غرباً إلى جل حصار ثم إلى مدينة آق ريدور ويقول : وطا بحيرة عذبة الماء يسافر المركب فيها يومين إلى أقشهر وبشهر وغيرهما من البلاد . وهذه البحيرة معروفة واسمها أحجدير – جول ، وإلى جوارها بحيرة أخرى تسمى كيريل جول ، وهي التي يسميهما ابن بطوطة بشهر . وقد ذهب المستشرق دفرمرى في تعليقاته على هذا الجزء من رحلة ابن بطوطة إلى أن أقشهر التي ذكرها ابن بطوطة هنا ليست البحيرة المعروفة بذلك الاسم ، بل هي مدينة أوشار أو آقشار إلى جوار بحيرة أحجدير جول وهي التي نزل بمدرستها ،

وعرف شيخها مصلح الدين الذى «أكرمنا غاية الإكرام وقام بمحقنا أحسن قيام» (ص ٢٧٧)

وأمثال هذه التفاصيل التى تأذن لنا في أن ننفذ إلى داخل الجماعة الإسلامية ونرى ماذا تفعل؟ وكيف تعيش؟ وماذا تأكل؟ وكيف كانت تنظم نفسها؟ هذه التفاصيل لا نجدها إلا عند ابن بطوطة ونفر قليل آخر من الرحالة والكتاب مثل ابن جبير والمسعودى والباحث إلى حد ما ، لأن بقية كتاب العرب فى العصور الوسطى كانوا يحسبون أن حياة الناس اليومية ونظمهم الاجتماعية كانت لا تستحق الكتابة أو الوصف ، ومن ثم فنحن مقدرون لابن بطوطة هذا الفضل ، فنحن معه نعيش مع الناس وفي الناس ، ونحن نجالسهم ونؤاكدهم ونشاركتهم فى إحساسهم وذوقهم ، ولستنا نعرف بين مؤلفينا من ذكر لنا من أوصاف البيوت والملابس والأطعمة والأشربة مثلاً فعل هذا الرجل الطلعة الذى لا يفوته شيء ، ولا يستريح حتى يأخذ بقارئه معه ويشركه فيها يرى ويسمع ويأكل ويشرب .

وذلك هي الفضيلة الكبرى لهذا الرجل النادر ورحلاته التي لا تقدر قيمةً ، فهي صورة أمينة ل المجتمع الإسلام فى القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى ، وذلك حسبها .

## إمارات الغزاة

يعجب ابن بطوطة بلاد الروم ، وهي آسيا الصغرى التي قامت فيها إمارات الأترالك والتركمان التي تسمى بإمارات الغزاة ، وقد أتينا بصورة من ذلك الإعجاب ، ويستمر ثناؤه لما زاره من هذه الإمارات وهي أنطالية وأكريدور وقل حصار ولاذق وميلاس ، وقونية عاصمة سلاطين سلاجقة الروم ، ولارندة وبركى ومحنيسا وبرغامه وبكى كسرى وبصقا التي نسميتها بروسة ، وينطقها الروم بورسه التي ستتصبح عاصمة للدولة العثمانية في مرحلة من مراحل تاريخها ، وكريدى بولى وقصطمونى . ومن هذه الأخيرة يتوجه ابن بطوطة إلى سينوب على البحر الأسود ، ويسحر منها إلى مدينة قارش في بلاد القرم مغادراً بذلك بلاد الروم وداخلاً في مرحلة جديدة طريفة من مراحل رحلاته الممتعة الحافلة بالأحداث .

خلال هذا التنقل المتصل في آسيا الصغرى ، وهي بلاد الروم ، يقول لنا ابن بطوطة : معلومات ذات قيمة أكبر عن هذه الإمارات التي قامت بدور جليل في تاريخ الإسلام ، ولم يؤرخ لها أحد على نحو يعرفنا تعريفاً كافياً بأحوالها وأحوال حكوماتها وشعوبها وتنظيماتها ، ومن حسن الحظ أن ابن بطوطة - كعادته - يعطيها معلومات طيبة عن الحكام والشعب معاً : فهو يتحدث عن الأمراء - ويسميهم السلاطين - ومن يحيط بهم من رجال الدولة ، ثم يتحدث بتفصيل عن أحوال الناس الذين كان يعيش بينهم ويعاملهم . وسألني من ذلك كله بماذج تكون تصوير أحوال هذه البلاد وأهلها ، وتعطينا فكرة عن طريق ابن بطوطة الفريدة في سياق رحلته . قلنا : إنه يسمى أمراء هذه الإمارات بالسلاطين ، ونضيف هنا أنهم كانوا جميعاً يحملون لقب بك ، وهو يقول : إن بك معناه الملك ، فيقول مثلاً : إن سلطان أنطاليـا

النقاري الروم هو خضر بك ، وسلطان أكريدور هو إسحق بن الدندرار بك ، وسلطان قل حصار هو محمد جلبي وتفسيره بسان الروم سيدى ، وسلطان لاذق هو ينبع بك وهكذا . وهو يثنى على هؤلاء السلاطين جميعاً ، ويدرك أنه لقى منهم البر والرعاية والإكرام .

وكان ابن بطوطة ينزل في الزوايا والمدارس في تلك البلاد كلها ، وهو يبني على هذه الزوايا وتلك المدارس ، ويقول : إن القائمين بأمر الزوايا وإكرام الناس فيها هم الأخيرة ، وهو يحدثنا عن تنافسهم في إكرام الضيوف وما يقدمون لهم من الأطعمة والفاكه والحلوي .

وعندما يصل إلى لاذق يقول : إن الروم فيها كثيرون ، ويريد بهم نصارى الروم من أهل البلاد الأصليين ، ويقول : « وعلامة الروم بها القلنس الطوال ، منها الحمر والبيض . ونساء الروم لهن عائم كبار .

ومن لاذق يتقل إلى قونية عاصمة سلاطين سلاجقة الروم ، وكان أمرهم قد  
ضعف حتى أصبحت قونية تحت سلطان بدر الدين بن قرمان أمير لارندة التي سُتُّعرف  
بعد ذلك بإمارة قرمان .

وابن بطوطة يعجب أشد الإعجاب بقونية ، ويصف شوارعها الواسعة الجميلة وعمارتها الحسنة وأسواقها البديعة الترتيب «وهي المشمش المعروف بقمرين الدين ، وقد تقدم ذكره ، ويحمل منه أيضا إلى ديار مصر والشام» ويقول : «نزلنا منها بزاوية قاضياً ويعرف بابن قلم شاه ، وهو من الفتى ، وزاويته من أعظم الزوايا ، وله طائفة كبيرة من التلاميذ ، وعلم في الفتوة نسب يتصل إلى أمير المؤمنين على بن أبي طالب عليه السلام ، ولباسها عندهم السراويل كما تلبس الصوفية الخرقة .

و هنا يتحدث ابن بطوطة حديثاً مستفيضاً عن جلال الدين الرومي الشاعر الفارسي المشهور ، وأصله من قونية ، ويدرك أنه كان في ابتداء أمره فقيهاً مدرساً يجتمع إليه الطلبة بمدرسته بقونية ، ثم اختفى بعض الوقت في خبر غريب يذكره ابن بطوطة ثم يقول : « ثم إنه عاد إليهم بعد أعوام ، وصار لاينطق إلا بالشعر الفارسي المغلق الذي لا يفهم ، فكان الطلبة يتبعونه ، ويكتبون عنه ما يصدر عنده من ذلك الشعر ، وألقووا

منه كتاباً سمي «المثنوي» وأهل تلك البلاد يعظمون ذلك الكتاب ، ويعتبرون كلامه ويعلمونه ويقرءونه بزواياهم في ليالي الجمعة (ص ٢٨٣)

ومن قونية يتوجه إلى لارندة ثم إلى أقصرا - وهى آق سرای - ومنها إلى نکدہ ، وهاتان المدينتان - أقصرا ونکدہ ، كانتا كما يقول في طاعة ملك العراق ، ومنها إلى قيسارية ، وهى أيضاً من توابع ملك العراق ، وكان ملك العراق هذا نائب في آسيا الصغرى يسمى الأمير أرتنا .

وفي قيصرية لقى ابن بطوطة إحدى خواتين - أى نساء - الأمير أرتانا واسمها طُفْيَ خاتون تحمل لقب أغَا ، ومعنى أغَا : الكبير ، والخاتون هو اللفظ الترکي الذى حرف إلى خانوم في الشام وهانم في مصر . يقول : « ونزلنا من هذه المدينة بزاوية المفتى الآخرى أمير على ، وهو أمير كبير من كبار الأخية بهذه البلاد ، وزاويته من أحسن الزوايا فرشا ، ومن عوائده هذه البلاد أنه ما كان منها ليس به سلطان فالأخى هو الحاكم به ، وهو يُركِّب الوارد ويكسوه وينحسن إليه .

ومن قيصرية يتقل إلى سيواس ، وهي أيضاً من أملاك ملك العراق ، وبها منزل دار السيادة أمرائه وعماله . وبها - كما يقول - دار مثل المدرسة تسمى دار السيادة لا يزطاها إلا الشرفاء ونقيبهم ساكن بها ، وتجرى لهم فيها مدة مقامهم الفرش والطعام والشمع وغيره فيزودون إذا انصروا » .

ومن سيواس ينتقل ابن بطوطة إلى أماصية ، وهي تابعة لملك العراق كذلك ، ويقرب منها بلدة سُونُسٰى ، «وبها سكنت أولاد ولد الله تعالى أبي العباس أحمد الرفاعي ، منهم الشيخ عز الدين ، وهو الآن شيخ الرواق وصاحب سجادة الرفاعي ولو ثلاثة إخوة .

وقد نزل ابن بطوطة بزاوية لهم ، ثم مر ببلاد كمس وأرزنجان وأرز الروم وأثنى على هذه الأخيرة ثناء طويلاً ، ثم انصرف إلى بركى أو برجى ، وسلطانها محمد آيدين ، وقد وجده ابن بطوطة مهموماً بسبب فرار ابنه الأصغر سليمان إلى صهره السلطان أورخان بك . وتلك هي أول مرة يرد فيها ذكر أورخان ثانى أمراء الغزاة من بنى عثمان ، ومن سلاطين آل عثمان أورخان هذا سينحدر جميع سلاطين آل عثمان فيما بعد ، وقد أهدى له هذا السلطان

خاركاه ، وهي الخيمة التركية ، ويصفها ابن بطوطة بقوله : « وهي عصا من الخشب تجمع شبه القبة ، وتجعل عليها اللبود ، ويفتح أعلاه لدخول الضوء والرياح مثل البابـهـنـج ، ويسد مني احتيج إلى سده وقد أقام ابن بطوطة عند ذلك الأمير في مصطافه في الجبل حتى سئل المقام في الجبل ، فجعل السلطان بالتزول إلى قصره في المدينة ، ويطلب ابن بطوطة في وصف هذا القصر وفخامته وما قدم له فيه من صحاف الذهب والفضة مملوءة بالجلـابـ المحلول قد عصر فيه ماء الليمون ، وجعل فيه كعكات صغار مقسمة ، وفيها ملاعق ذهب وفضة ! »

ونحن ندهش كيف انتقل ابن بطوطة من أماصية إلى برجى أو برجين قاطعاً بذلك معظم آسيا الصغرى عرضاً دون أن يمر بمدينة يذكرها ، وقد يكون قد عاد أدراجه من أماصية إلى سيواس إلى قيصرية حتى وصل إلى برجى قرب ساحل البحر الأبيض غير بعيد من أزمير التي يسميها يزمير وسيتحدث عنها بعد قليل .

وبدخوله برجى يكون قد دخل أرض الأتراك العثمانيين أيام الأمير أورخان ، وحديثه هنا على أكبر جانب من الأهمية ، لأنه من أقدم مالدينا عن أوليات الأتراك العثمانيين ، فهو يصف لنا مدنـاـ كانت إلى حين قريب نصرانية ، ثم دخلت الإسلام على أيدي غزوة الأتراك العثمانيين ، مثل تيرة التي يقول : إن مسجدها من أبدع مساجد الدنيا ، وكان أصلـهـ كنيسة تحول إلى جامـعـ ، وأمير تيرة هو الأمير خضر بلـكـ بن السلطان محمد بن آيدـينـ وهذا بدوره صهر أورخـانـ .

أمير  
ومن تيرة يصل إلى إزمير ويسمـهاـ يزـميرـ ، ولـقـ بـخـارـجـهاـ الشـيخـ عـزـ الدـينـ أـحمدـ الرـفاعـيـ ومعـهـ الشـيخـ زـادـةـ الـاخـلاـطـيـ ومعـهـ مـائـةـ فـقـيرـ منـ الـأـحـمـدـيـةـ الرـفـاعـيـةـ المـلوـهـينـ .ـ وأـمـيرـ اـزمـيرـ هوـ أـمـيرـ عمرـ بـنـ الـأـمـيرـ مـحـمـدـ بـنـ آـيـدـينـ ،ـ وـهـوـ يـطـبـنـ فـيـ مدـيـحـ مـحـمـدـ هـذـاـ ،ـ وـيـذـكـرـ حـماـسـهـ فـيـ مـغـازـةـ النـصـارـىـ وـالـاستـيـلاءـ عـلـىـ بـلـادـهـمـ حـتـىـ رـفـعـواـ أـمـرـهـمـ لـلـبـابـاـ ،ـ فـدـعـاـ إـلـىـ حـرـبـ صـلـيـيـةـ ضـدـهـ .ـ وـسـارـ نـحـوـ أـزمـيرـ أـسـطـولـ جـنـوـيـ فـرـنـسـيـ بـيـزـنـطـيـ ،ـ وـطـرـقـواـ

المـدـيـنـةـ لـيـلـاـ ،ـ فـخـرـجـ إـلـيـهـمـ الـأـمـيرـ عـمـرـ بـنـ مـحـمـدـ بـنـ آـيـدـينـ فـاستـشـهـدـ .ـ

ـ وـالـوـاقـعـةـ حـقـيقـةـ تـارـيـخـيـةـ ،ـ سـقـطـتـ فـيـهاـ اـزمـيرـ فـيـ يـدـ النـصـارـىـ سـنـةـ ١٣٤٤ـ بـمـعـاـونـةـ فـرـسـانـ الـقـدـيسـ يـوـحـنـاـ أـصـحـابـ جـزـيـرـةـ روـدـسـ .ـ وـسـيـظـلـوـنـ فـيـهاـ حـتـىـ يـقـضـيـ عـلـيـهـمـ

في إمارة  
الأتراك  
العثمانيين

السلطان المملوكي بارسباى ، ويستولى على الجزيرة ، وتظل إسلامية إلى آخر أيام الدولة العثمانية ، عندما يسلمها الحلفاء للبيزنطيين بعد هزيمة تركيا في الحرب العالمية الأولى . على أي حال في الوقت الذي كان فيه نفسه ابن بطوطه على ساحل البحر الأبيض – كان أمراء آل عثمان يستولون على بلاد الدولة البيزنطية هناك واحدة فواحدة ، فقد سقطت بروسة سنة ١٣٢٦ م ونيقية سنة ١٣٢٩ م .

ثم يسير إلى مغنيسيه ثم برغامه ثم إلى بولى كسرى ثم بروصه ، وفي أثناء مقامه بها وصل إليها السلطان أورخان بك ثم إلى كردي بولى ثم قصطمونية ثم إلى صنوب ، وهي سينوب ؛ ليعبر إلى بلاد القرم ، وهو في أثناء ذلك يقص أخباراً عجباً لا يتسع لذكرها هذا العرض السريع .

ويستوقف انتباها من أوصاف ابن بطوطة لبلاد الروم ظاهرتان جديرتان بالتنزيه بالإضافة إلى ما ذكرناه من أحاديثه الممتعة عن أمراء هذه البلاد وفضائلهم وكلامه عن جماعة الأخية الفتىان .

**الظاهرة الأولى :** هي مكانة العلماء في هذه البلاد ، وما كان بينهم من علاقات المودة على اختلاف مواطنهم ومناشئهم :

فهو عندما نزل علايا لقى قاضيها الشيخ علاء الدين ، ورأى من علمه وفضله وبره وكرمه الشيء الكثير ، وهذا الشيخ عراق ، ولكن أهل البلاد يكرمونه ويعجلونه وينظرون إليه وكأنه رئيسهم وصاحب الرأي فيهم ، وهناك أيضاً لقى الشيخ شمس الدين الريجحاني ، وكان عالماً جليلاً ، وكذلك كان أبوه ، وكانت للأب صلات دقيقة مع بلاد أفريقيا الغربية الإسلامية ، وقد توفي في مالي ، وفي إسكندرية يلقى الشيخ مصلح الدين الذي درس في مصر والشام والعراق ثم هاجر إلى بلاد الروم ، واستقر فيها يعلم ويقتى ، ويعجب به ابن بطوطة ويصفه بأنه «أطروفة من طرف الزمان . وفي كردي – بولى لقى الفقيه شمس الدين الحنبلي وأصله من دمشق ولكنه عاش وعمّ في بلاد الروم ، وكان محترماً موقراً من كل الناس ، وكانت له كلمة مسموعة عند السلطان ، إذ إنه كان خطيبه ومعلمه ، وفي بورصه (بروسة) يلقى الشيخ الصالح عبد الله المصري ، وهو شيخ رحالة يقول عنه ابن بطوطة : «جال الأرض ،

إلا أنه لم يدخل الصين ولا جزيرة سردينيا ولا المغرب ولا أندلس ، ولا بلاد السودان ، وقد زدت عليه بدخول هذه الأقاليم<sup>(١)</sup> فكان ابن بطوطة يقارن بين هذا الشيخ وبين نفسه ، ويرى أنه أفضل .

والملاحظة الأخرى التي استوقفت نظر ابن بطوطة - ونظرنا أيضا - هي حرية النساء في بلاد الروم ، وما كان يتمتعن به من حرية العمل والحركة : فقد وجد أن النساء التركيات يقمن بمعظم الصناعات اليدوية في «كوتاهية» قرب «قونية» فهن اللائي كن يقمن بأعمال نسج القطن المعلم بالذهب . وكانت إحدى زوجات أمير «قيسارية غير محجبة ، وكانت من أذكي الناس وأكرمهن وأحسنهن خلقاً». وقد دخل عليها ابن بطوطة مع صحبه فسلموا عليها ، وأمرت لهم ب الطعام ، ولما انصرفوا بعثت إليهم بهدية : فرس ملجم وخلة ودرارهم مع أحد غلامها واعتذر عن التقصير .

وفي بزنيق (إينيق) وجد ابن بطوطة أن الحاتون زوج الأمير هي التي تحكم المدينة ، وهو يصفها بالفضل والصلاح ، ويقول : إن الكثيرات من نساء الترك يركبن الخيل ويعشن الفروسيّة . ويصف بعض أعمال الفروسيّة التي كانت نساء الترك يقمن بها<sup>(٢)</sup> .

(١) انظر : محمود الشرقاوى : رحلة مع ابن بطوطة القاهرة ١٩٦٧ ، ص ١٦٠ .

(٢) راجع : محمود الشرقاوى ، المرجع نفسه ص ١٦١ .

## في بلاد مغول القفجاق

وظل ابن بطوطة في صنوب - وهي ميناء سينوب التركي - على البحر الأسود أربعين يوماً في انتظار سفينة تنقله إلى بلاد القرم . ومع أنه سمع أحاديث كثيرة عن خطورة الرحلة لقطع البحر الأسود من الجنوب إلى الشمال ، فإنه ظل ينتظر الفرصة المواتية في صبر حتى أتيحت له فرصة العبور ودخل بلاد القفجاق .

وعندما أتيحت له هذه الفرصة ، ووفق إلى مركب للروم يزمع العبور إلى بلاد القرم - اضطر إلى الانتظار أحد عشر يوماً أخرى حتى تجئ ريح مساعدة ، فلما جاءت وركب البحر ومضى فيه ثلاثة ليال ، « هال علينا واشتد بنا الأمر ورأينا الملائكة عياناً » ثم اضطروا إلى العودة إلى ميناء سينوب .

وبعد انتظار أيام ركب البحر ، وتكرر هيجان البحر ، فارتدى مرة أخرى إلى سينوب ، وقد صرف الكثيرون من الركاب - ومعظمهم تجار - النظر عن هذه السفرة الخطيرة ولكن ابن بطوطة - وما هو بتاجر ولا طالب رزق - أصر على العبور .

وتمكن أخيراً من قطع البحر الأسود والاقتراب من ميناء قارش في نهاية البر الرئيسي إلى بحر آزوف . وقد تخوف الركاب من التزول إلى البر لشيء را لهم ، ولكن ابن بطوطة غامر بنفسه وطلب إلى الربان أن ينزله في موضع من البر قريب من المدينة فأنزله .

وهكذا نزل الرجل وحده على ساحل غريب مخوف . وهذا واحد من البراهين الكثيرة التي نمر بها في هذه الرحلة ، والتي تنطق بأجلٍ بيان بمحب الرحلة المتأصل في نفس هذا الرجل ، وشوقه إلى رؤية كل ماتيسره له رؤيته من نواحي الأرض ومن عليها وما عليها مغامراً بنفسه في كل حالة .

خانية مغول  
القفجاق  
واساعها

وببلاد القرم التي نزلها ابن بطوطة كانت تابعة لخانات القفجاق التي تسمى أيضاً  
بدولة القططع الذهبي ، وهي إحدى الدول الأربع التي تقسّمت إليها دولة المغول  
الكبير خلال القرن الثالث عشر الميلادي .

وكانت دولة خانات القفجاق هذه ، وهي أقصى دول خانات المغول غرباً -  
تنقسم قسمين يجمعهما سلطان واحد ، وهما : القططع الأزرق والقططع الأبيض ، وكان  
هذا القططع الأخير يتمتع باستقلال وسلطان محلى في أراضيه .

ولكن السيادة والقوة كانت في القططع الأزرق الذي كان يسود البلاد التي بين  
المجريَّين الأدرين لنهرى الدون والفوغا ، وكان سلطانهم يشمل نواحى كييف والقوقارز ،  
ويمتد إلى بحر آرال وجنة ، أى الأرضي المتدة شمال بحر آرال وبحر قزوين والبحر  
الأسود ، والممتدة شملاً إلى كييف وجنوباً حتى تشمل بلاد القوقاز كلها ، فهى على هذا  
كانت دولة من الدول الكبرى تحكم مساحات من الأرض واسعة .

ومسألة القططع هذه ما بين ذهبي وأسود وأزرق تسمية رمزية اخذتها فروع القبائل  
المغولية نسبة إلى لون فراء قططع الغنم التي كانت ترعاها وتتّخذ منها الصوف الذى  
تصنع منه خيامها ، فهذه ذات خيام بيضاء ، وتلك ذات خيام زرقاء ، وهذه  
صفراء ، وذلك هو المراد بالذهبي .

وكانت قبائل القططع الأزرق التي نزل ابن بطوطة أرضها مسلمة في ذلك الحين ،  
وإن كانت غالبية سكان البلاد التي تسيد عليها نصرانية ، وكان يحكم خانية مغول  
القفجاق في الوقت الذي دخلها ابن بطوطة فيه السلطان محمد أوزبك الذى حكم فيها  
بين سنتي ١٣١٢ م و ١٣٤٠ م .

ومن أسف أن ابن بطوطة يهمل كثيراً ذكر التوارييخ ، فآخر تارييخ ذكره في سياحتنا  
هذه كانت سنة ١٣٣٢ هـ / ١٣٣٢ م عندما حج حجته الثالثة ، ومن المجاز بدأ الرحلة  
التي نحن بصددها التي مر فيها ببلاد آسيا الصغرى ، وانتهت به الآن إلى بلاد القرم في  
خانية مغول القفجاق ، والغالب أنه كان هناك في سنة ١٣٣٤ هـ / ١٣٣٤ م .

نزل ابن بطوطة إذن أرضاً إسلامية ، ولكن النصارى فيها كثيرون . ومن الواضح  
أن دولة خانية مغول القفجاق هذه لو أتيح لها العمر الطويل لأصبحت هذه البلاد التي

مصير خانية  
مغول  
القفجاق

ذكرناها بلا دأ إسلامية خالصة بصورة نهائية وخاصة إذا ذكرنا أن الأتراك العثمانيين كانوا إذ ذاك قد ملكوا الجزء الغربي من آسيا الصغرى ، وجعلوا عاصمتهم في بروسة وبدعوا عبر بحر إيجي لغزو أراضي الدولة البيزنطية في شبه جزيرة المورة : أى أن الإسلام كان يطبق شيئاً على ما بقي من الدولة البيزنطية ليزيدها من الوجود سنة ١٤٥٣ م ، وينشر راياته على قلب ما يعرف الآن بروسيا ، ولكن دولة خانية القفجاق هذه كانت دولة بدو ، ودول البدو قصيرة الأعمار كما نعلم ، فلم يلبث أمر سلطنة محمد أوزبك أن انتثر بعد موته .

وضفت قضية الإسلام على هذه النواحي ، وإن ظل يتسع فيها ويتنتشر بين إمارة كيف : مهد الروسيا أهلها ، ولكن الأمر كان يتطلب سلطاناً سياسياً يشد أزر العقيدة . ومن تصاريف القدر أن دولة إيلخانات القفجاق ما كاد ينتشر نظامها حتى بدأت إمارة كيف في النزول ، وهي إمارة نصرانية ، وهي نواة الدولة الروسية الصقلية التي سيعظم أمرها مع الزمن . وعندما نصل إلى القرن السادس عشر ، وهو القرن الذي بلغت فيه دولة آل عثمان أوجها السياسي والعسكري وبسطت سلطانها على بلاد القرم ومصب الفولجا كانت دولة كيف هي الأخرى في أوج توسعها ، فشملت معظم حوض الفولجا والدون وامتدت حتى البحر الأبيض القطبي في الشمال ، وأخذت تتأهب لخوض المعركة الطويلة مع الأتراك العثمانيين ، وهي في صميمها معركة بين الإسلام والنصرانية .

وقد انتهت - نتيجة لعوامل شتى - بالسيطرة الكاملة للروس على كل بلاد المسلمين المتداة من بحر آزوف إلى بحر آرال ، ثم بلاد ماوراء النهر التي كانت منذ أيام قتيبة بن مسلم العظيم قاعدة من قواعد الإسلام وحضارته .

كان ذلك استطراداً لا بد منه ، حتى نستبين أين نضع أقدامنا في هذه الرحلة الممتعة الحافلة بالغرائب التي يقودنا فيها ذلك الرجل العجيب أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إبراهيم اللوائى الطنجى المعروف بابن بطوطة .

ف طريق ابن بطوطة إلى قارش - التي يسمىها مدينة الكرش - يقص خبراً لطيفاً يقول فيه : « ورأيت كنيسة فقصتها ، فوجدت بها راهباً ، ورأيت في أحد حيطان نوافيس الكنيسة صورة رجل عربي عليه عامة ، متقدلاً سيفاً ، وبidine رمح ، وبين يديه سراج كنيسة » ٤

يورقد ، فقلت للراهب : ما هذه الصورة فقال : هذه صورة النبي على ! فعجبت من قوله » .

ويقول ابن بطوطة إن الأرض التي نزلها تسمى بدشت قفقق ، « والدشت - كما يقول - بلسان الترك هو الصحراء » ، وهذه الصحراء خصيرة نصيرة ، لا شجر بها ولا جبل ولا تل ولا أبنية ولا حطب : أى أنها منطقة سهوب وحشائش طويلة : أى منطقة سفانا .

ثم اكترى مع أصحابه عجلة - أى عربة - حملتهم إلى مدينة الكفا Caffa وهي بلدة كافا أو فيودوسيا

التي تسمى الآن فيودوسيا Feodosia في بلاد القرم. وكانت قد تهدمت ، فأعاد بناءها الجنوبيون في القرن الثالث عشر ، واتخذوها قاعدة لتجارتهم في البحر الأسود وبحر آزوف ، وهذا فقد وجدها ابن بطوطة مدينة نصرانية فيها أقلية من المسلمين .

وقد دهش ابن بطوطة لأمرين لاترى أنهما كانا يستحقان هذه الدهشة ! الأول أنه هاله سماع أصوات نواقيس النصارى ، ومن الغريب أنه يقول : « ولم أكن سمعتها قط » ! وهذا أمر مستغرب من رحالة كهذا . وقد أراد ابن بطوطة أن يسكت أصوات النواقيس ، وطلب إلى أصحابه أن « يصعدوا إلى صومعة النواقيس ، أى برج الأجراس ، ويقرعوا القرآن ويدركروا الله ويؤذنوا » وكاد الأمر يؤدي إلى غضب النصارى ، وهم أصحاب البلد ، لو لا أن قاضي المسلمين أسرع إلى ابن بطوطة وأصحابه وصرفهم عما كانوا يريدونه .

ويصف ابن بطوطة ميناء كافاً بأنه من أعمق موانئ في الدنيا ويقول : إنه رأى في مراسيها نحو مائتي مركب ، وهذا يدلنا على اتساع النشاط البحري للجنوبيين .

والأمر الآخر الذي أدهشه هو شيوع استعمال العجلات - أو العربات في التنقل والحمل ، وهو يصف العجلات وصف من لم يكن رآها من قبل ، ويقول : إنها تجري على بكرات ويجرها الفرس والفرسان وأكثر ، وقد تجرها البقر والجمال . « والذى يخدم العربية يركب إحدى الأفراص التى تجرها ، ويكون عليها سرج وفي يده سوط يحركها به للمشي » (ص ٣١١)

وكانت العجلات معروفة في عالم الإسلام ، ولكن كلام ابن بطوطة يدل على أن

استعمالها كان محدوداً . وهذا صحيح بدليل أن أكثر عربات النقل الشائعة في بلاد مصر مثلاً تحمل اسمها الإيطالي «كارو Carro» وقد دخلت مصر في القرن التاسع عشر . ويصف ابن بطوطة هذه العربات وصفاً نفهم منه أنها كانت تشبه ما يسمى بالعربة المغطاة Covered Wagon التي كانت تستعمل في الولايات المتحدة الأمريكية . وقد اشتهرت هو عربة لركوبه مغشاة أي مغطاة باللبد «ومعنى بها جارية لـ». وأكثرى أصحابه عربات وساروا في صحبة الأمير توكتمور حاكم مدينة القرم باسم السلطان محمد أزيك ، ومضوا يقطعون دشت قفجاق ، أي صحراء القفجاق .

وهكذا نطلق مع هذا الرجل من عالم إلى عالم ، ونستمع بما يطرأنا به من كل جديد غريب . منها نحن اليوم في دشت قفجاق « وهي ليست على الحقيقة صحراء ، وإنما هي بلاد أعشاب طويلة تصلح للمراعي ، وتكثر بها الحيوان والعلجلات ، وكانت المنطقة إذ ذاك خالية أو كالتالية ، وما كان يدور بخالد ابن بطوطة أن الزمان سيدور وأن هذه الأرض ستعمر ، وتصبح بلاداً غنية باليمن ومرَاكز الصناعة ، فتحنن هنا في قلب ما يعرف اليوم بالاتحاد السوفيتي ، فيما يعرف بجمهوريّة قازاكسنستان وامتداد الأرض غرباً إلى شمال بحر قزوين ومصب الفولجا ، نحن على الحافة الشمالية لعالم الإسلام في ذلك العصر ، وما كان أحد ليحصل بهذه البلاد أو يسمع عنها من المسلمين اللهم إلا رجلاً مثل هذا المغامر الفريد الذي آلى على نفسه أن يذرع بلاد الإسلام كلها بالطrol والعرض ، من حافتها الشمالية هنا إلى حافتها الجنوبية عند بلاد أفريقيا المدارية والأستوائية ، ومن المغرب إلى الصين . وقد قام هذا الرجل بعمله هذا محتسباً صابراً يشعر بذلك المغامر الذي وجد ميدانه إيمان المسلم الذي تملأ السعادة قلبه وهو يحرى مدى شوطه في عالمه الإسلامي الواسع ، ولا يكاد يشارك ابن بطوطة في هذا الطموح إلا رجلٌ مغامر مثله طموح مثله هو أبو حامد الغرناطي .

مغول  
القفجاق  
الأتراك في  
تلك النواحي

٤٦

## مغول القفجاق الأتراك

قضى ابن بطوطة في بلاد مغول القفجاق وقتاً لا نستطيع تحديده ، لأنه - كما قلنا -  
يحمل ذكر التواريخ . ولكننا نستنتج من تغير الفصل من الصيف إلى الشتاء في أثناء  
مقامه أنه قضى في هذه النواحي نصف عام على وجه التقريب ، ومنها انتقل إلى جنوب  
روسيا ثم زار القسطنطينية ، ثم عاد إلى جنوب الروسيا ومضى إلى خوارزم .  
وقد لاحظنا أنه يصف أولئك المغول بأنهم ترك ، وهذا خطأ ، ولكنه خطأ  
مفهوم ، ولابن بطوطة عنده فيه : فإن القفجاق المغول كانوا هم الطبقة السائدة أو أهل  
الحكم كما نقول . وكانوا أهل الحرب أيضاً ، لأن أعدادهم كانت كثيرة ، ولكن  
القاعدة السكانية كانت تركية ، وهذه النواحي - شمال بحر آرال وقزوين والبحر  
الأسود - كانت أرضًا تركية من قديم الزمان ، وأهلها أتراك مسلمون تحضروا بحضارة  
الإسلام .

وعندما ساد المغول بلادهم كانوا لا يزالون على جانب كبير من القوة والصلابة  
المعروفتين في الجنس التركي بصورة عامة ، ثم إنهم كانوا أرق من المغول في سلّم  
الحضارة نتيجة عيشهم الطويل في المحيط الإسلامي ، ومن ثم فلم يستطع المغول  
سيادتهم سيادة تامة ؛ وإنما هم تأثروا بهم وتحضروا وقلدوهم في العادات .

وتأثرت لغتهم بلغة الترك مع بعض الفارسية ؛ لأن الفارسية في تلك النواحي كانت  
واسعة الانتشار بسبب انتشار الفرس فيها تجارةً أو معلمين أو فقهاء . فإذا كان  
ابن بطوطة قد عاش هناك في بلاد يحكّها مغول قفجاق (أو قبشقاق) - فقد كانت  
تركية السكان ذات حضارة عربية إسلامية فارسية ، ومن هنا جاء اختلاط الأمر عليه .  
ولكن هذا الاختلاط لا يقلل من أهمية كلام ابن بطوطة عن هذه النواحي ، فما

دمنا قد تنبهنا إلى حقيقة الأمر فلا بأس علينا في أن نفيد من المعلومات القيمة التي يقدّها إلينا ابن بطوطة عن بلاد أولئك المغول الفججاق (أو القبشقاق) وخاصة أنها معلومات فريدة في باهها عن قوم أرادت صروف التاريخ أن يزولوا من الوجود ، فإن مغول الفججاق كانوا بدواً وعاشوا بدواً ، فلم تتأصل لهم جذور في البلاد .

ثم إنهم عاشوا في بلاد ستصبح بعد قليل مجال صراع بين قوتين ضيختين كانتا عند زيارة ابن بطوطة مازالتا في دور التكوير :  
الأولى هي قوة الأتراك العثمانيين التي ستزيد مع الزمن حتى تسود شرق أوروبا بلاد القرم وجانبها كبيراً من بلاد القوقاز والأراضي الممتدة شمال بحر قزوين .

ال الأخرى هي قوة الصقالبة الروس التي ستتوسع مع الزمن الطويل حتى تشمل كل حوضي الفولجا والدون وشمال بحر الخزر أو بحر قزوين ، وكل بلاد التركستان ، وهذه هي بلاد مغول الفججاق الذين عرفهم ابن بطوطة وأتانا بنبيهم قبل أن يقضي الله في أمرهم قضاءه .

وقد أتينا بعض مشاهدات ابن بطوطة وملاحظاته ، ونرجو أن نوجزباقي في هذا الحديث ، ويستوقف نظرنا في كلام ابن بطوطة اهتمامه الشديد بما يهم المؤرخ من طعام الناس ولباسهم ومسكنهم ومركبهم وعاداتهم وما إلى ذلك مما يهمله عادة الكثيرون من مؤرخي تلك العصور .

ومن أمثلة ذلك قوله عن أمة الترك سكان تلك النواحي التي يزورها وهي تحت سلطان مغول الفججاق : « وهؤلاء الأتراك لا يأكلون الخبز ولا الطعام الغليظ ، وإنما يصنعون طعاماً من شيء شبه الآتي يسمونه الدوق :

يجعلون على النار الماء ، فإذا غلى صبوا عليه شيئاً من الدوق ، وإن كان عندهم لحم قطعوه قطعاً صغاراً وطبخوه معه ، ويعمل لكل رجل نصيبه في صحفة ، ويصبون عليه اللبن الرائب ويشربون ، ويشربون عليه لبن الخل ، وهم يسمونه القُمْز ، وهم أهل قوة وشدة وحسن مزاج » (ص ٣١٢)

والآتي والدوقي المذكوران هنا صنفان من الحبوب شبيهان بالدخن ، وهي الدرة الصغيرة أو الشعير . والقُمْز شراب مسكر يصنع في بعض بلادنا ، ويشرب ويسمى

البوزة ، وهى البيرة غير المصفاة ، ولهذا أنف ابن بطوطة من شربها .

من مدينة آزاق ومن مدينة القرم وصل ابن بطوطة إلى مدينة آزاق ، وهى المعروفة باسم أزواف على الطرف الشرقي الأقصى لبحر آزوف ، وقد امتدحها ابن بطوطة وقال : إن الجنوبيين كانوا يصلون إليها ويتجرون فيها .

وقد لقى ابن بطوطة فيها فتى من الأخية يكرم الناس يسمى بـ **جُجْجِي** ، واستقبله أميرها محمد خواجة الخوارزمي بتوصية من القاضى **لُكْتُمُور** .

ويشمل التفاصيل ابن بطوطة كل شيء من عادات الناس وتقاليدهم ، وقد ضربنا مثلاً من تفصيله الكلام بما يقدم إليه من الطعام ، فاسمع لما يقوله ضمن تفاصيل كثيرة يوردها عن حفل أقيم للأمير محمد خواجة الخوارزمي أمير آزاق : « وفي أثناء ذلك يكرر القراء آيات من القرآن بتراجع عجيب ، ثم أخذوا في الغناء ، يغنوون بالعربي ويسمونه القول ، ثم بالفارسي والتركي ويسمونه الملمع » وهذا كلام رجل دقيق الملاحظة مرهف الحس لا تفوته ملاحظة شيء .

**الأكاديش :**  
خيل المغول

ثم يتحدث عن الخيل ببلاد الفجاق ويقول : « والخيل بهذه البلاد كثيرة جداً ، وثمنها نور القيمة ، الجيد منها خمسون درهماً أو ستون من دراهمهم ، وذلك صرف دينار من دنانيرنا أو نحوه .

وهذه الخيل هي التي تعرف في مصر بالأكاديش ، ومنها معاشهم ، وهي ببلادهم كالغنم ببلادنا بل أكثر ، فيكون للتركي آلاف منها » .

والأكاديش جمع أكديش ، وهو نوع من الخيل هجين صغير الحجم ، لا يتجاوز بقعة أو شدة احتمال ، وهى مذكورة في مصر المملوكية ، ولا وجود لها الآن . وهو يذكر أن هذه الخيل تصدر إلى الهند فيرجع ثمنها هناك ، لقلة الخيل في الهند نظراً لقلة أراضي المراعي الصالحة لها .

وهو يقول : إن حكام الهند والسندي يجرون عليها ضرائب ثم يقول : « ومع ذلك يتي للتجار فيها فضل كبير ؛ لأنهم يبيعون الرخيص منها ببلاد الهند بمائة دينار دراهم ، وصرفها من الذهب المغربي خمسة وعشرون ديناراً ، وربما باعواها بضعف ذلك وضعيفه » (ص ٣١٥)

ونلاحظ أن ابن بطوطة حريص دائمًا على بيان قيمة عملة ما يمر به من البلاد بالعملة المغربية فالخمسون أو الستون درهماً من صرف الترك قيمتها نحو دينار مغربي مرينى ، ومائة دينار دراهم من صرف الهند قيمتها خمسة وعشرون ديناراً ذهبياً مغربياً ، ولا نعرف على أى أساس كان ابن بطوطة يقيم تقديراته تلك ؟ ولكننا نلحظ في ذلك ناحية جديرة بالتأمل في تفكير هذا المغربي النابه .

وتجدر بالذكر أن عملة بني مرين أيام ابن بطوطة كانت عملة سليمة صحيحة وزن الذهب ، وقد أقاموها على أساس من العملة المرابطية ثم الموحدية ، وكانتا هما كانتا عملة صحيحة وافية الوزن ؛ لأن المرابطين ثم الموحدين تنبهوا إلى مصدر جديد للذهب ، وهو تبر بلاد السودان الأطلسي ، فبذلوا الجهد في الحصول عليه ، وصححوا به سك عملتهم ، فصار الدينار المرابطي من ثابت العملات صرفاً ، وكذلك الدينار الموحدى عرف بصحبة وزنه وسلامة عياره حتى زاد على وزن الدينار العربى ، وهو جرامان ونصف الجرام من الذهب في المتوسط .

أما بنورين فقد قلل الوارد عليهم من الذهب ، ولكنهم عوضوا ذلك بما كانوا يتناقضونه من فديات أسرى النصارى بين أيديهم ، وكانت الفديات تدفع ذهبًا ، وسيزيد ذلك أيام السعديين . فيكثر الذهب في المغرب من تبر السودان ومن أموال الفديات معاً ، ويبلغ الأمر أن لقب أحد سلاطين السعديين بالذهبي ، وهو أحمد المنصور الذهبي فاتح بلاد السودان الأطلسي .

ومن هناك وصل ابن بطوطة إلى بلدة ماجر وتسمى اليوم بورجوماد زهرى وأستراخان Burgomadzhary وهى على نهر كوما إلى الجنوب الغربى من أستراخان وعلى ١١٠ كيلومترات شمال شرق جورجيفسك Georgiewsk وأستراخان على رأس دلتا نهر إيل وهو الفولجا . وكانت أيام ابن بطوطة بلداً إسلامياً . وقد وجد ابن بطوطة في ماجر زاوية للرفاعية فيها نحو سبعين من فقراء العرب والفرس والترك والروم ، منهم المتزوج والعزب ، وعيشهم من القتوض<sup>(١)</sup> .

(١) أى ما يفتح الله به عليهم دون عمل يقومون به .

احترام  
القفجاق  
للنساء.

ويتعجب ابن بطوطة من احترام أهل هذه البلاد للنساء وتعظيمهم لهن ، ويطيل الكلام في ذلك صفحات ، ويصف هيئهن وملابسهن من الأميرات إلى الفقيرات ، بل هو يصف نساء السلطان الأربع - وهن الخواتين - وصفاً مفصلاً ، وقد لقيهن ، جميعاً ، ولقي منهن كرامة .

عظماء  
السلطانين في  
عصره

ولقي كذلك السلطان محمد أوزبك خان سلطان مغول القفجاق ويصف سعة ملوكه ، ويجعله بين سلطانين الدنيا العظام على أيامه ، وهم سلطان بنى مرين ، وسلطان مصر والشام ، وسلطان العراق ، والسلطان أوزبك ، وسلطان بلاد تركستان وماوراء النهر ، وسلطان الهند ، وسلطان الصين .

بلاد البلغار

ووصل ابن بطوطة إلى بلغار ، وكانت عاصمة دولة البلغار العظيمة التي قضى عليها المغول في القرن الثالث عشر ، وكانت تقوم على الضفة الغربية لنهر الفولجا جنوب التقائه بفرعه كما و كانت إذ ذاك مركزاً تجارياً عظيماً ، ولا ندرى كيف وصل ابن بطوطة من ماجر إلى بلغار في عشرة أيام والمسافة بينهما ثمانمائة ميل : أى نحو ألف وأربعمائة كيلومتر؟ .

ومثل هذه القفزات غير المفهومة عند ابن بطوطة كثيرة :  
فقد رأيناها يتنتقل من سفالة على الشاطئ الشرقي لأفريقية إلى ظفار على ساحل عمان دون أن يذكر لنا كيف قام بهذه الرحلة البحريّة المائة؟

ورأيناها يتنتقل من أماصية في شرق الأنضول إلى برجي أو برجيني قرب ازمير على شاطئ البحر الأبيض عابراً آسيا الصغرى كلها دون أن نعرف كيف فعل ذلك ؟  
وها نحن أولاء نراه يقطع ثمانمائة ميل من ماجر إلى بلغار في عشرة أيام ، وهذا غير معقول !

وقد اتخذ بعض الباحثين أمثل هذه القفزات دلائل على عدم صدق ابن بطوطة في بعض أجزاء رحلاته ، وقد يكونون على حق ، لأن مثل هذا الرجل قد يلجم أحياناً إلى نقل أوصاف بعض البلاد من كتب أخرى أو يأخذ أوصافها من أفواه الناس ويدرجها في كلامه زاعماً أنه رأى ذلك بنفسه ، وذلك لكي يستكمل رحلته ، ويلم أطراها ، أو ليزيدها طرافة ، وذلك كله غير سليم ، ولكنه غير مستنكر ، فهذا رجل يصف الدنيا

كما رآها ، والكثير من معلوماته عن البلاد التي زارها مأخوذ بالسماع ، فالسماع هنا جزء من الرحلة ، وقلّ من كبار الرحالة من لم يفعل ذلك .

ومع ذلك فنحن - وقد صاحبنا هذا الرجل في أسفاره ، وقرأنا رحلته مرة بعد مرة نستبعد الكذب أو التدليس على الرجل ، فهو رجل فاضل حسن الخلق نقى ذو ورع ، ثم إنه لم تكن له حاجة إلى أن يكذب أو يدلّس ، فإن المقطوع بصحّة مشاهدته له مما يصفه يكفي أن يجعله من كبار الرحالة الذين عرفهم التاريخ .

ثم إننا نقول إن الخلط والتسیان أمران معقولان بالنسبة لرجل قضى قرابة ربع القرن في الرحلة والجولان ، ومع أننا نقطع بأنه كان يدون مذكرات وملحوظات ، وبدون ذلك لا يمكن أن تتصور كيف وعي تلك التفاصيل كلها في ذاكرته ؟ وكيف قص الأخبار على هذا النسق العجيب ؟ وسنزري في نهاية هذه الدراسة أن ابن بطوطة كتب بيده رحلته ولم يفعل ابن جوزي أكثر من صياغتها في قالب أدبي ؛ لأن ابن بطوطة كان رحالة متحدثاً مطراً ولم يكن أدبياً ذا أسلوب .

## بلاد الظلمة

كانت رغبة ابن بطوطه أن يدخل «بلاد الظلمة» من بلغار ويقول : إن بينها وبين بلغار أربعين يوماً ، والأغلب أنه يريد بذلك بلاد الروس في وسط جمیع الفولجا ، وربما أراد بذلك بلاد سيريا ، ولكنه - على أى حال - أضرب عن ذلك «لعظم المعنون وقلة الجدوى» كما يقول .

بلاد الظلمة  
روسيا  
أو سيريا

والسفر إليها لا يكون إلا في عجلات صغار تجرها كلاب كبار ، فإن تلك المفازة فيها الجليد ، فلا يثبت قدم الآدمي ولا حافر الدابة فيها ، والكلاب لها الأظفار فشتلت أقدامها في الجليد (ص ٣٢٥) .

ويضيف أن «قيمة الكلب الجيد المقدم على غيره في جر العجلة ألف دينار ونحوها . وهذا الكلب لا يضره صاحبه ولا يهرب ، وإذا حضر الطعام أطعم الكلاب أولاً قبل بني آدم وإلا غضب الكلب وفر وترك صاحبه للتلف !» .

ويقول ابن بطوطة : إن خير تجارة لهذه البلاد هي الفرو وأحسن أنواعه القاقم ، وثمن الفروة منه ببلاد الهند ألف دينار «وهي شديدة البياض من جلد حيوان صغير في طول الشبر ، وهو المعروف اليوم باسم المينك Mink أو الأرمين Ermine ، ويل ذلك السمور ، تساوى الفروة منه أربعين دينار فما دونها<sup>(١)</sup> .

(١) الأصح القاقم ، بالفاء ثم القاف ، والمشهور في الاسم الفقمة وهي كلب البحر ، وعندما تكون الفقمة رضيماً تحت الأشهر الستة في العمر تكون مغطاة بفرو ناصح البياض بالغ النعومة ، فإذا كبرت نفضته عن نفسها ، ونبت لها الجلد الغليظ ذو الشعر القوى الأسود اللامع ، وهذا يخرج الصيادون لصيد أطفال الفقمة ، وإذا عثروا عليها قتلوها بالضرب بالخشب على رموزها حتى تموت دون أن يفسد الجلد ، ثم يبادرون بسلخها ومعالجة جلدتها حتى تظل فروته ناعمة . وشعرها كاملاً ، وتباع لصناعة الفرو بالثلن الغالي لتصنع منه معاطف الفرو الأبيض أو المينك الرقيق القيمة . ويعرف هذا الفرو في بعض التصوص العريبة بالفنك (بفتح الفاء والتون) وكان أغلى الفرو في العصور الوسطى أيضاً .

وتحبّناً لمشاق هذه الرحلة - عاد ابن بطوطة مع الأمير الذي كان في صحبته إلى محلّة السلطان محمد أوزبك في بلدة بيش داغ ، وهي على ثلثي المسافة بين بحر قزوين والبحر الأسود ، وكان ذلك في ٢٨ من رمضان ، ولم يذكر ابن بطوطة السنة ، ولكن الغالب أنه سنة ٧٣٤ هـ / ١٣٣٤ م.

**أسترخان**  
ومن بيش داغ انتقل إلى مدينة الحاج تورخان ، وهي المسماة اليوم بأسترخان على صفة نهر الفولجا ، ويقول ابن بطوطة : إنها منسوبة إلى حاج من الصالحين من الترك ، ويمتدحها ابن بطوطة ويقول ! إنها مقام السلطان حتى ينزل البرد بالناس ، فيتقلّ منها ، لأن الأرض تلّاح والبرد يشتّد .  
وفي هذه المدينة أبدت الخاتون باليون - أى زوجة السلطان - رغبتها في زيارة أبيها ملك الروم لتلد عنده ثم تعود .

ويقول المستشرق هاملتون جيب هنا : إن المراجع البيزنطية لا تذكر أن ملك الروم في ذلك الوقت وهو أندرونيكوس الثالث ، وكانت سنه إذ ذاك ستّاً وثلاثين سنة - قد زوج إحدى بناته خان القطبي الذهبى أى خان مغول القفقاج ، ولكن لدينا معلومات من أميرتين بيزنطيتين ابنتين غير شرعيتين للإمبراطور قد زوجتا رؤساء من التتار .

**الذهاب إلى القسطنطينية**  
على أى حال كان استئذان هذه الخاتون في الذهاب إلى القسطنطينية فرصة ما كان ابن بطوطة ليدعها نفلت من يديه ، فسأل السلطان أن يأذن له هو أيضاً في مرافقها ليزري مدينة الروم العظمى ، فنفعه السلطان خوفاً عليه ، ولكنه لاطفه حتى أذن له ووصله بآلف وخمسة دينار وخلعة وأفراش كثيرة ، وأعطته كل خاتون سبائك من الفضة وأعطته ابنته أكثر منهن « وكسته وأركبته » .

**ابن بطوطة في طرقه إلى القوى**  
يقول ابن بطوطة : « واجتمع لي من الخيل والثياب وفروات السنجب والسمرور جملة » .. وهكذا نرى أن صاحبنا ابن بطوطة مضى ليزور القسطنطينية في هيئة فخمة وموكب حافل وقد امتلأت يده بالمال بعد طول إملاق !

هناك شكوك كثيرة حول زيارته ابن بطوطة للقسطنطينية ، ولكننا منها رأينا من ظلال الشك لانستطيع أن ننكر زيارته كلها : فقد أورد لها وصفاً دقيقاً لا يصدر إلا عن مشاهدة عيان . فليس أمامنا الحالة هذه إلا أن نصدق رحالتنا فيها يقول مع إبداع

ما يبدو لنا من الملاحظات على مايدكر . وهذا لا يمنع من القول بأن الكثير من التفاصيل التي يذكرها منقول عن أصول لا نعرفها :

فالطريق الذى سلكه من بيش داغ إلى القسطنطينية في صحبة الخاتون بيلون غير واضح ، فهو يقول : إن ركب الخاتون سار من الحاج ترخان - وهي أستراخان - إلى مدينة أكك ، ويقول المستشرق هاملتون يجب اعتقاداً على معلومات قبسها من السير هزى يول Yule وهو ناشر رحلة ماركو بولو وصاحب دراسات مستفيضة عنها Marco Polo (11, 488) إن أكك هذه ليست المدينة المعروفة بهذا الاسم والتي يشير إليها كتاب العصور الوسطى والتي كانت على نهر الفولجا جنوب مدينة سارتوف الحالية ، ولكن المراد بها مدينة أخرى مذكورة على الخرائط البورتولانية أي خرائط المأوى التي عملها الإيطاليون والقططليون خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر تسمى لوكاتشى Locachi أو أكك Locoq على بحر آزوف .

وهنا يقول ابن بطوطة : « وعلى يوم من هذه المدينة - جبال الروس ، وهم نصارى شرق الشعور زرق العيون قباه الصور ، أهل غدر ، وعندهم معادن الفضة ، ومن بلادهم يؤتى بالصوم وهي سائق الفضة التي يباع بها ويشترى في هذه البلاد ، وزون الصومة منها خمس أواق » (ص ٣٣٠) وهذه هي الصورة التي يعطيها رجالنا الروس ، أما معادن الفضة التي يشير إليها فناجم خام مركب من مركبات الفضة مختلط بالرصاص قرب نهر الميوس ، وهو نهر يصب في بحر آزوف على بعد نحو ٣٢ كيلومتر من مدينة تاجا نزوج الحالية Taganragg ، ومنها كان الروس القدماء يأخذون الرياحلات وهي قولاب الفضة .

ثم يصل ركب الخاتون ، وفيه ابن بطوطة - إلى مدينة سلطوق - وهي سرداق أو سولدايا Soldaia وتسمى اليوم سوادق Sudak وهي في وسط شبه جزيرة القرم - وكانت مركز التجارة فيها وفي البحر الأسود قبل قيام كافا . ويتساءل بعض الدارسين : لماذا قام ركب الخاتون بهذا الطواف الطويل في شبه جزيرة القرم ، لأن الطريق المباشر لا يمر بسرداق ، ويغلب على الظن أن الطريق اخْتَلَطَ على ابن بطوطة لطول العهد ، وأن زيارته لسرداق كانت في أثناء مقامه في مدينة السرا في جزيرة القرم

واسمها اليوم ستارى كريم Stary Krim

ويقول ابن بطوطة : إن سلطوق هذه آخر بلاد الأتراك ، بينها وبين أول عمالة وصوله إلى بلاد الروم ثمانية عشر يوماً ؛ أى أنها كانت نقطة الحدود بين أملاك مغول القفجاق وبلاط البيزنطية

الدولة البيزنطية ، وبعدها يختار الركب بريه مقفرة حتى يدخل بلاد الروم .

وبقية رحلة ابن بطوطة إلى القسطنطينية يشوبها خلط وخطأ ، ربما لأن أسماء الأعلام الرومية اختلطت عليه ، فهو يقول : إنه وصل إلى حصن مسلمة بن عبد الملك ، ولا حصن بهذا الاسم في تراقيا وهى التي لامفرله من اخترافها للوصول إلى القسطنطينية .

ثم وصل بعد ذلك إلى خليج ، ويظن أن المراد بذلك مصب الدانوب ، أما مدينة الفениكة التي يذكرها فالغالب أنها أجاثوميكى Agathomiké حيث يقطع الطريق الرئيسي من ديمبوليis نهر تونجا وهو تونتروس Tontzos عند أو قرب قرل أجاتش .

ولأنهم كيف يقول : إنه وصل إلى حصن مهتولى « وهو أول عمالة الروم » ؟ لأن عمالة الروم أى بلادهم بعد الخروج من بلاد القفجاق في ذلك الحين – وهو سنة ١٣٣٤ م – كانت مدينة ديمبولي وتسمى أيضاً كفولي Kavuli واسمها اليوم جمبولي Jamboli وهو لفظ قريب من مهتولى .

وعند هذه المدينة كان أهل الخاتون في استقبالها وعلى رأسهم أخوها كفالى قراس وكفالى ليس اسمه بل هو لقب ومعناه الرئيس ، ويصف ابن بطوطة الاستقبالات والحفلات التي أقيمت لهذه الأميرة بتفصيل طويل .

وعندما يدخل القسطنطينية يختلط عليه أمر إمبراطورها فيقول : « واسمه تكفور بن السلطان جرجيس ، وأبو السلطان جرجيس بقيد الحياة ، لكنه تزهد وترهب ، وانقطع للعبادة في الكنائس وترك الملك لولده وسندر كوه » ( ٣٣٥ ) .

والحقيقة أن الإمبراطور إذ ذاك كان أندرونيكيوس كومين حفيد أندرونيكيوس الثاني ، أما تكفور فليس اسمه وإنما هو لقب معناه « الملك » أخذه الروم عن لفظ أرمني هو تاجافور Tagavor وقد اعتزل أندرونيكيوس الثاني العرش لابنه أندرونيكيوس الثالث في ١٣ من فبراير ١٣٣٢ م ، فمن عجب أن يسميه ابن بطوطة جرجيس وهو جورج .

وكلام ابن بطوطة عن القدسية دقيقة ، ولكن ليس فيه جديد نذكره ونقف عنده غير كلامه الممتع عن الكنيسة العظمى وهى آيا صوفيا وعن الجالية الإسلامية في البلد وقاضيها وكلامه عن المانسترارات وهى جمع موناستير أى دير وتشبيه لها بالزوابيا . وقد رغبت الأميرة في البقاء مع أهلها وتنصرت ، فلم يعد أمام مرافقيها إلا العودة ، فعاد معهم ابن بطوطة ، وبقي مع السلطان محمد أوزبك في عاصمته السرا ، وقد ذكرناها ، ومن هناك خرج إلى خوارزم .

العسكر :  
مدينة متنقلة .

وإليك فقرتين من كلامه في هذا الجزء من رحلته :

الأولى : يصف فيها معسكراً ضخماً كأنه المدينة المتنقلة .

والآخر يصف فيها بعض ما شاهده في القدسية : قال في بعض كلامه عن مسيرة من مدينة الماجر إلى بيش داغ وكان فيها معسکر السلطان محمد أوزبك : « وعندما وصلنا إلى المعسکر رأينا مدينة عظيمة تسير بأهلها ، فيها المساجد والأسواق ، ودخان المطبخ صاعد في الهواء ، وهم يطبحون في حال رحيلهم ، والعربات تجرها الخيل بهم ، فإذا بلغوا المزلزل أزلوا البيوت عن العربات ، وجعلوها على الأرض ، وهي خفقة الحمل ، وكذلك يصنون بالمساجد والخوانيت »

وقال يصف بعض ما شاهده في القدسية : « والقدسية متناثرة في الكبر ، منقسمة بقسمين بينها نهر عظيم المد والجزر على شكل وادي سلا ببلاد المغرب ، وكانت عليه فيما تقدم قنطرة مبنية فخرت ، وهو يعبر في القوارب ، واسم هذا النهر يسمى » وأحد القسمين من المدينة يسمى اصطمبول وهو بالعدوة الشرقية من النهر ، وفيه يسكن السلطان وأرباب دولته وسائر الناس ، وأسواقه وشوارعه مفروشة بالصفائح متعددة ، وأهل كل صناعة على حدة لا يشاركون سواهم ، وعلى كل سوق أبواب تسد عليهم بالليل . وأكثر الصناع والباعة بها نساء ، والمدينة في سفح جبل داخل البحر نحو تسعة أميال ، وعرضه مثل ذلك أو أكثر ، وفي أعلىه قرية صغيرة وقصر السلطان ، والسور يحيط بهذا الجبل ، وهو مانع لا سبيل لأحد إليه من جهة البحر ، وفيه نحو ثلاثة عشرة قرية عاملة . والكنيسة العظمى في وسط هذا القسم من المدينة .

وأما القسم الآخر منها فيسمى الغلقة ، وهو بالعدوة الغربية من النهر شبيه ببرباط

الفتح<sup>(١)</sup> في قرية من النهر . وهذا القسم خاص بنصارى الإفرنج<sup>(٢)</sup> يسكنونه . وهم أصناف فنهم : الجنوبيون والبنادقة وأهل رومية وأهل إفريانة . وحكمهم إلى ملك القسطنطينية ، وربما استعصوا عليه فيحاربهم حتى يصلح بينهم البابا . وجميعهم أهل تجارة ، ومرساهم من أهم المراسى . وقد رأيت مائة جفن من القرافر وأما الكفار فلا تخصي كثرة . وأأسواق هذا القسم حسنة إلا أن الأقدار غالبة عليها ، ويشقها نهر صغير قدر نحس ، وكتائبهم لا خير فيها » .

وغريب من ابن بطوطة ألا يشاهد داخل الكنيسة العظمى في القسطنطينية ، وهو الطلعة المشوق إلى كل غريب ، ولكن يبدو أن إيمانه هو الذي حال بينه وبين دخول أيَا صوفيا ، فقد كان ينفر من الكنائس وأصوات التواقيس كما رأينا .

ويسترعى نظرنا أنه يقول : إن نصف المدينة الذي فيه قصر السلطان يسمى اصطمبول ، فكأن هذا الاسم كان معروفاً قبل استيلاء المسلمين على البلد . وقد كانت نحسب أن الأتراك العثمانيين هم الذين أطلقوا هذا الاسم على ذلك البلد ، فسموه إسلامبول : أى مدينة الإسلام ؛ ثم حرف الاسم إلى إستانبول أو اصطمبول . ولكن هاهو ذا الاسم معروف مستعمل قبل استيلاء الأتراك على القسطنطينية بأكثر من مائة سنة .

(١) الإشارة هنا إلى مدينة الرباط عاصمة المغرب الحالية ، وهي على ضفة الأطلسي على الجانب الغربي من منصب نهر الرقاق أو بورجج ، وعلى الضفة الأخرى مدينة سلا ، وما مدینات تومان .

(٢) الإفرنج هنا هم نصارى أوروبا من غير الروم وهم البيزنطيون والصقالية وهم الروس .

إلى خوارزم  
وخطابة مغول  
شغناي

## ٢٨

### مغول شغناي

نحن نخرج مع ابن بطوطة الآن من واحدة من خانيات - أو إيلخانات - المغول إلى الأخرى ، فعندما يدخل ابن بطوطة خوارزم يدخل مملكة خانات مغول ماوراء النهر ، وهم أبناء جفتاى المسؤولون إلى جفتاى بن جنكىز خان ، وابن بطوطة يسميه الجَكَطِى .

وكانت هذه الدولة تمتد شرقاً حتى تشمل فارس والعراق ، وملكتها هو الذي يذكره ابن بطوطة باسم ملك العراق ، وتمتد غرباً حتى ماوراء غرنة وكابل ، وحدها جبال سليمان من الهندوكوش ، وفيها مر خير الذي يؤدي إلى بلاد السندي .  
وعندما يعبر ابن بطوطة ذلك المرمىبدأ حلقة جديدة بالغة الطرافاة من رحلته وهي الفترة الهندية .

وكانت دولة خانات ماوراء النهر هذه مملكة واسعة جداً تشمل أقاليم إسلامية عظيمة هي العراق والجبال - وخراسان وسجستان وبلاط ماوراء النهر وبلغ وهرات وكابل وغرنة .

وقد دخل ابن بطوطة هذه البلاد بعد غزوته جنكىز خان الخزبة ، وابن بطوطة يسميه تنكر خان ، ويقص شيئاً من حياته ، ويلقى التبعة فيها أثره ببلاد الإسلام من التخريب على جلال الدين منكوبى المعروف باسم خوارزمشاه ، فقد اعتدى عمداً على قافلة تجارة مغولية وقتل رجالها ، فتحرك جنكىز خان للانتقام منه ، ودخل بلاد الإسلام مخرباً سنة ١٢١٤ م وكان أول ما خرب سمرقند .

وابن بطوطة يذكر ذلك في إيجاز ، ولا يزال يتسرّع في أثناء مقامه في تلك البلاد على ما أصاب الإسلام وكبار مدنه على يد المغول ، من أمثال سمرقند وبخارى وترمز

ابن بطوطة  
يلقى تبعة غزوة  
المغول على  
خوارزم شاه

وغيرها من القواعد التي خربت ، ولن تعود إلى سابق عهدها أبداً .

وقد دخل ابن بطوطة البلاد من ناحية خوارزم مقبلاً من السرا عاصمة محمد مدينة السرا عاصمة محمد أوزبك سلطان مغول الفجحاق على مسافة قصيرة من ساحل بحر قزوين قرب مدينة جورييف Gureyev الحالية على مصب نهر أورال الصغير .

وخارزم كانت قبل الغزوة المغولية إقليماً واسعاً عالماً بالخير والعمaran يشمل البلاد الواسعة التي على المجرى الأدنى لنهر أموداريا وهو جيحون ، وقد يسمى الأقاليم بالخوارزمية . أما خوارزم فمكانها اليوم بلدة خيوة - أو خيافا - في جمهورية أوزبكستان السوفيتية .

وكانت خوارزم لاتزال تحفظ بالكثير من جمالها ورواهها عندما دخلها ابن بطوطة في حدود سنة ١٣٣٤ - ١٣٣٣ هـ ، فهو يصفها بأنها أكبر مدن الآثار وأعظمها وأجملها وأضخمها ، ويقول : إنها كانت تمحق بالناس موج البحر ، وبلغ من ازدحام الناس في أسواقها أن ابن بطوطة دخل السوق مرة فضاع في الزحام ، ولم يستطع العودة إلى داره إلا بعد مشقة !

وكانت ناحية خوارزم وما يليها من النواحي التي زارها ابن بطوطة هناك عامرة بالإسلام لا تزال برغم تخريب المغول ، وكانت البلاد قد بدأت تستعيد حياتها الأولى بفضل خان مسلم تولى أمرها يسمى تارما شيرين ، ويكتبه ابن بطوطة : علاء الدين طرمشيرين وقد غضب المغول على ذلك الرجل للدخوله الإسلام ، واجتمع جمعهم المسمى بالقورولتاي وعزله ، وقام عليه كبار المغول سنة ١٣٣٥ م أو ١٣٣٦ م . وكان له خبر طويل بعد ذلك يقصه ابن بطوطة ، فهو أشبه بالأسطورة ، فقيل : إنه قتل ثم ظهر مرة أخرى في الهند ، وثبت أنه لم يقتل ، وكاد ملك الهند أن يصدقه غير أنه آثر تكذيبه حتى لا يغضب المغول ، ولكنه لم يقتله بل تركه يمضى لسيله ، فمضى واعتزل في شيراز وظل فيها حتى لقيه ابن بطوطة في ذلك البلد عند عودته من الهند سنة ١٣٤٧ م .

وقد تحدث ابن بطوطة عن نظم المغول في دولتهم حديث العارف فيقول : « وكان نظم المغول تنكر (أى جنكير خان) ألف كتاباً في أحكامهم يسمى عندهم « اليساق » - وهو

عرضية السياسة الذي يسميه مؤرخونا إلياسة ، وينحط بعضهم فيقرؤه السياسة ، وهو يجمع أحکاماً أو إلياسة مغولية تخالف شريعة الإسلام .

وكان المغول والأتراء - خلا العثمانيين - يطبقون في بلادهم القانونين ، فإذا كان الأمر أمر سياسة وملك ومعاملة خصوم سياسيين أو عدداً على الأمان طبقوا شرعة إلياسة ، وإذا كان الأمر يدخل في نطاق شريعة الإسلام من زواج وطلاق ومعاملات وتركات وما إلى ذلك طبقو شريعة الإسلام .

وقد اختلفت إلياسة وأحكامها مع الزمن وبقيت شريعة الإسلام ، والله غالب على أمره .

وبعد أن عزل طرمشرين تولى سلطان مغولي آخر يسمى أوزون أوغلي<sup>(١)</sup> وكان مسلماً ولكنه كان فاسقاً فظالم المسلمين وقدم عليهم اليهود والنصارى ، فثار عليه المسلمون واجتمعوا على أمير مغولي مسلم يسمى خليل<sup>(٢)</sup> وهو ابن الأمير اليسور وكان أميراً على خراسان ، فاجتمع عليه المسلمون وتولى وزارته الأمير علاء الدين خداوند صاحب ترمذ وكان حسيناً النسبة ، فنهض خليل بعساكره إلى مالق وهي عاصمة دولة خانات التركستان ، وتمكن من الانتصار على التتر عند بلدة أطرار ، وانتصر خليل على التتر في موقعة أخرى وتقدم شرقاً نحو بلاد الخطا وهي الصين ، فحاول خان الصين إيقافه فعجز ثم وقع الصلح بينهما ، واستقر الأمر خليل بن اليسور أو ابن ياسادان بتعبير أدق .

ولم تكن خوارزم من بلاد هذه السلطنة أو الخانية ؛ وإنما كانت آخر بلاد خانات القفقاق سلطانهم محمد أوزبك خان .

ومن خوارزم انتقل ابن بطوطة إلى سرقند ، وهو يصف جمالها ويرثي لها في آن معاً ، ويثنى على أهلها ويقول : إن لهم مكارم وأخلاقاً ومحبة في الغريب .  
وقد زار خارجها قبر قثم بن العباس بن عبد المطلب الذي استشهد هناك أيام

سرقند

(١) صحة الاسم بوزون بن دورا تيمور (حوالي ٧٣٥ إلى ٧٣٩ - ١٣٣٨ - سنة ١٣٤٢ / ٧٤٣ و ١٣٤٢ / ٧٤٣).

(٢) هو على خليل الله بن ياسادار ، وقد حكم مدة قصيرة خلال ١٣٤٢ / ٧٤٣ وبينه وبين بوزون إسن تيمور (زامباور ٣٧٠ و ٣٧٢).

الفتوح الأولى ، وعلى قبره زاوية جميلة ذات رواء بنيت بأموال النذور ، وبالزاوية مساكن يسكنها الوارد والصادر .

وكان قيم هذه الزاوية حين نزول ابن بطوطة بها الأمير غياث الدين محمد ابن عبد القادر بن عبد العزيز بن يوسف بن الخليفة المستنصر العباسى ، قدمه لذلك السلطان طرشيرين لما قدم عليه من العراق ، وهو الآن عند ملك الهند ، وسيأتي ذكره (ص ٣٦٣) .

حفيد المستنصر  
بالله آخر  
خلفاء بني  
العباس فى  
بغداد

ثم يمضي إلى نصف ثم ترمذ ، ويصفها بكثرة الخيرات ويقول : « وأهلها يغسلون رعوسمهم في الحمام باللبن بدل الطفل » ، ويضيف : « وأهل الهند يجعلون في رعوسمهم زيت السمسم ويسمونه الشيرج ، ويعملون الشعر بعده بالطفل فينتم الجسم ويصلق الشعر ، وبهذا طالت لى أهل الهند ومن سكن معهم » (ص ٣٦٤) .

ويقول : إن ترمذ التي نزلها مدينة جديدة غير القديمة التي خربها التتر ، وكانت على ضفة جيحون ، أما الجديدة فعلى ميلين منه ، وقد نزل ابن بطوطة بها بزاوية الشيخ عزاوان .

ثم جاز نهر جيحون إلى بلاد خراسان ، وسار في صحراء حتى بلغ بلخ ، « وهي خاوية على عروشها غير عامرة » ، ولكن آثارها مازالت ماثلة للعين تتحدث عن مجدها الغابر ، وهنا أيضاً نزل ابن بطوطة ، بزاوية ملحقة بمسجد بنته إحدى الأمراء .

ثم يصل إلى هراة قاعدة السلطان المعظم حسين بن السلطان غياث الدين الغوري ، وكان يحكم هراة منذ سنة ١٢٤٥ م بيت يسمى بيت كرتس ومن أكبر أمرائه الأمير معز الدين حسين الذي حكم من ١٣٣١ م إلى ١٣٧٠ م ، وكان حسين هذا صبياً عندما دخل ابن بطوطة هراة .

هراة

ويقص ابن بطوطة حكاية حرب وقعت بين حسين هذا ونفر من بدو الأتراك كانوا يسكنون قرب هراة وعليهم ملك يسمى طغيمور ، ولفظ ملك لا تعنى هنا كما في الهند أكثر من أمير محل .

وظاهر أن الأمر احتلّ على ابن بطوطة فجعل السلطان معز الدين حسين ابا لغياث الدين والعكس صحيح : أى أن غياث الدين بدأ حكمه بعد سنة ١٣٧٠ م فلا

يتفق أن يروى عنه ابن بطوطة خبراً ، والغالب أن ابن بطوطة دخل هرآ أيام معز الدين حسین وفي أيام هذا وقعت الحادثة ، وربما كانت الحقيقة أن غیاث الدین كان والیاً للعهد في ذلك الحین وتولی کیر فتنة الأتراء .

وكانت خراسان كلها في طاعة سلطان أویل - خان فارس والعراق ، ولكن أمره كان قد ضعف ، واستبد أمراء النواحي بنواحیهم .

مدينة الجام ثم انتقل ابن بطوطة إلى مدينة الجام جنوب مشهد الحالية واسمها الحالی الشیخ جام ، ومنها إلى طوس وهي - كما يقول - بلد الإمام الشهید أبي حامد الغزالی ، وفيها توفي هارون الرشید سنة ٨٠٩ هـ .

ومن هناك ذهب إلى مشهد ، وهي مشهد الإمام علی بن موسی الرضا ثامن أئمۃ الشیعة الإسماعیلیة ، وقد توفي أيام المأمون بن الرشید بعد موت الرشید بتسعة سنوات أی سنة ٨١٨ هـ .

ومنها إلى سرخس ثم زاوية ، وهي مدينة الولی قطب الدين حیدری ، وهذا تسمی اليوم تربی - حیدری .

دخوله الهند ثم اتجه ابن بطوطة إلى الهند ، ودخلها عن طريق مر خاواک شہال شرق کابل : وهذا مجرد افتراض ؛ لأن کلام ابن بطوطة يدل على أنه اتبع طریقاً يؤدى إلى شاش نجار - وهي الیوم هشت نجار - قرب بشاور ، وهذا معناه أنه دخل الهند عن طريق مر خیر ، ثم إنه يقول : إنه من بغزنة ، وطريق غزنة لا يؤدى إلى خیر ، بل إلى مرات جبال سلیمان ، والله أعلم أی طريق سلك ؟

وبدخول ابن بطوطة الهند تتغير حاله من حال إلى حال : فسيبلغ في الهند كرامته لم يبلغها في أی بلد دخله إلى ذلك الحین ، وسيتعرض كذلك لأنحطاط لم يتعرض لها من قبل .

وهكذا نرى ذلك الرجل العجيب ينتقل من عالم إلى عالم ومن نطاق حضاری إلى نطاق حضاری ، فقد رأينا في الفصول القليلة الماضية ينتقل من عالم الروم الأتراء أو إمارات الغزارة في آسيا الصغرى إلى عالم مغول القفجاق ، ثم إلى بلاد الروم ويزور القسطنطینیة ، ثم يکر راجعاً إلى بلاد مغول القفجاق ، ثم يدخل بلاد ماوراء النهر

وكأنها من بلاد الأترالق القبراخانية إذ ذاك ، ثم ينتقل إلى عالم الفرس فيدخل خراسان ويزور هراة ، ولكنه لا يوغل فيها ، فقد عرفها من قبل ، ومن هناك اتجه إلى بلاد الأفغان وتحشم الطريق العسير ، فدخل الهند من الشمال من مر خبيث إلى بشاور . وهذه كلها عوالم أو نطاقات حضارية مختلف بعضها وبعض كل الاختلاف ، وكلها إسلامية عدا بلاد الروم ، وابن بطوطة في تنقله هذا بين النطاقات الحضارية يلاحظ الاختلاف بين بعضها وبعض ، ويسجل ملاحظاته ومرئياته بغاية الدقة ، وهو من هذه الناحية خبير بالحضارات وطرازها والمجتمعات ونظمها لايشق له غبار .

## الهند

دخل ابن بطوطة بلاد الهند من الشمال ، وعبر نهر السند في موضع إلى الشمال قليلاً من ملتان ، وهو يسمى السند باسمه الحقيق وهو البنجاب ، ويكتبهما بنج - آب ، ويقول : إن معناها المياه الخمسة ، ويريد بالمياه : الأنهار وكان دخوله أول الحرم سنة ١٢/٥٧٣٤ من سبتمبر ١٣٣٣ م وهو يشكو الحر الشديد ، فلعل حرارة الصيف امتدت إلى أطول من المعهود ذلك العام .

ابن بطوطة  
يدخل الهند  
رجلًا غنيًا

وقد دخل الرجل الهند ميسور الحال كثير المال والخيل والخدم بفضل ما اجتمع له من عطايا الملوك والأمراء والخواatin ، وقد وصل إليه هذا المال على اعتبار أنه فقيه ورجل دين .

وكان الأتراك والمغول يعظمون أهل الدين والعلم ، وقد طال عهد ابن بطوطة بالظهور الدینی وملازمة الشيوخ والقضاء والسمع عنهم حتى أصبح فقيهًا جليلًا حقًا ولو في الظاهر ، وهذه الصفات مجتمعة جعلت الرجل يدخل الهند شخصية محترمة مرموقة ، وسيكون لذلك كله أثره في تصرفه ونظرته إلى الأمور كما سنرى .

فتحن الآن مع رحالة غنى وفقيه جليل يصاحب الملوك والأمراء وذوى السلطان ويخدمهم ، ويفوز بعطایاهم ، فاتسعت حالي أكثر فأكثر ، وظهرت عليه تلك الصفة التي حسب الناس أنها لازمه منذ بداية رحلته ، وهي ولعه بالنساء وحرصه على أن تكون له الجواري الحسان ، وهو أمر لا حظناه عليه في أثناء رحلته في بلاد القفجاق ثم بلاد مغول فارس والعراق . وسيزداد الأمر ظهوراً بعد ذلك ، فأفسد على ابن بطوطة جانباً كبيراً من متعة الرحلة ، وأضاع علينا الكثير من جوانب الاستمتاع بها ، وقد رأينا

ابن بطوطة  
والنساء

أن اهتمامه بالنساء قليل قبل أن يدخل بلاد سلاجقة الروم .

دخل ابن بطوطة الهند أيام السلطان فخر الدين محمد تغلق ثانى السلاطين من آل تغلق الذين خلفوا الخلجيين سنة ١٣٢١هـ / ١٣٢٠ م، وتولى محمد تغلق الملك بعد أبيه غياث الدين تغلق مؤسس الأسرة في ربيع الأول سنة ١٣٢٥هـ / فبراير ١٣٢٥ م.

وكان محمد تغلق سلطاناً واسع النشاط كثيرة المشروعات يختلط في عمله حسن النية والاندماج بالأعمال بسوء التصرف وسوء الطالع معاً ، فجلب على الهند الإسلامية بعض جوانب من الخير وكثيراً من الأذى بأفكاره التي تدل على قصر نظر ، مثل تقديره نقل عاصمة الدولة من دهلي إلى دولت أباد في أعلى الدكّن وإرغامه الناس على الهجرة إليها ، ومثل تفكيره في إحلال النحاس محل الذهب والفضة في التعامل .

ولكن ابن بطوطة يرضى عنه لأنـه - كما قال - كان يكرم الغرباء ويفضّلهم على أهل البلاد ، ويشق فيهم أكثر مما يشق في رعيته ، فتفاظر عليه الأجانب من كل صوب ، وفي جملتهم صاحبنا ابن بطوطة الذي ذهب إلى الهند بدافع الرغبة في الرحالة ربما دون أن يعلم بهذا الأمر ، فلقى من أفضال هذا السلطان الشيء الكثير .

وأول مدينة لقيها عند دخوله السند كانت جناني ، وقد لقى فيها ناساً من السامرة قال : إنهم دخلوا الهند من الشام أيام فتحها محمد بن القاسم أيام الحجاج ، وذهب هامليون جيب إلى أن المراد بهؤلاء السامرة أهل طائفة راجبوت Sammas Rajput الهندية الذين كانوا يسودون منطقة الحوض الأدنى للسند في ذلك الحين ، وقال - استنتاجاً من ذلك - إن جناني ربما تكون قد قامت بين مدينتي روري Rhori وسيوان Sehnwan الحاليتين في الطريق من المتنان إلى دهلي .

ولابد أن نوسع الخطوط بعض الشيء في سيرنا مع ابن بطوطة في الهند : فقد قضى فيها ثمان سنوات حافلة بالأحداث فلم يبارحها إلا سنة ١٣٤٢هـ / ١٣٤٣ م ، ولهذا افتقرت على ذكر الأهم من المهم ، ولا سبيل لنا غير هذا ، لأن ابن بطوطة رحالة يسر بعينيه مفتوحتين ، فهو يرى كل شيء ويصف كل شيء ، وحديثه عن الهند يحتاج إلى أضعاف ما نملك من الحيز ، وقد ترجمه إلى الألمانية وعلق عليه المستشرق فون بجيك في

كتاب كبير هو معتمدنا في هذا التحليل والتعليق<sup>(١)</sup> من جناني ركب ابن بطوطة نهر السندي في مركب يسمى بالأهورة ، وهى سفينة سلطانية تسير في النهر ومن حوالها أربعة مراكب فيها طبول الأمير وأبواقه وندماوه ومطربوه حتى وصلوا إلى طارى ، وهى لاري بوندر Larry Bunder على الضفة الشرقية من قناة راهو على نحو خمسة وثلاثين كيلو متراً جنوب شرق كراتشى التي حلت محلها وأحملتها حوالي سنة ١٨٠٠ م.

الملتان  
ومن هذه البلدة يصل إلى الملتان وهى - في رأيه - عاصمة السندي ، ويرى طريقه ببلاد فيه آثار معابد هندية ، ويذهب كُثُرُّهم إلى أن هذا البلد المهجور هو الدليل - أوديال كما يقال في الهند - وهو الميناء الهندي الشهير عند العرب على مصب نهر السندي على نحو سبعين كيلو متراً جنوب شرق كراتشى ، ولكن ذلك مستبعد ، لأن الدليل ظلت بلداً عامراً وميناء واسع النشاط إلى زمن ابن بطوطة .

ويصل ابن بطوطة إلى بلدة صغيرة تسمى (أبهر) ، وهى أول بلاد الهند في رأيه ، أما ماسبق ذلك فكان بلاد السندي . والتقطيم هنا إقليمي لاسياسى ؛ لأن هذه البلاد كلها كانت في طاعة سلطنة آل تغلق أصحاب دهلي وإن كان لكل ناحية أو بلد كبير حاكم إقطاعي مستقل بشئونه يشبه الأمير .

فاكهة الهند  
وهنا يقف ابن بطوطة وقفه طويلة ليستقصى أشجار الهند الغربية وفواكهها التي لا توجد إلا فيها ، وما يلاحظ أنه يذكر أصنافاً كثيرة هندية خاصة ، ولكنه لا يذكر واحدة من أشهر فواكه الهند ، وهي الجواة . أما المانجو فهي عنده المنج ، وهو لا يذكر شيئاً من خصائص هذه الفاكهة الطيبة ؛ وإنما يقول : « ومنها المنج وهو نوع من الماش إلا أن حبوبه مستطيلة ولونه صاف الخضراء ، ويطبخون المنج مع الأرز ، ويفاكرون بالسمن ، ويسمونه الكشرى ، وعليه يفطرون كل يوم . وهو عندهم كالحريرة ببلاد المغرب » (ص ٩٣٤) .

وفي بلدة تسمى حصن أبي بكر ، وهى مدينة بخار Bakkur Bakkar ثم في

مدينة أبجرى amjari<sup>(١)</sup> يصف ابن بطوطة بتفصيل بالغ إحراق الأرامل أنفسهن مع إحراق الأرملة بعلتهن الذين تدركهم المنية ، ووصفه طويل ممتع وإن كان المنظر بشعا ، ونجترئ منه مع زوجها الميت بالفقرة التالية نصف مشهد إحراق ثلاث أرامل :

« ولا تعاهدت النسوة الثلاث اللات ذكرناهن على إحراق أنفسهن أقين قبل ذلك ثلاثة أيام في غناء وطرب وأكل وشرب كأنهن يودعن الدنيا ، ويائى إليهن النساء من كل جهة ، وفي صباح اليوم الرابع أتيت كل واحدة منها بفرس ، وهى متزينة متعرضة ، وفي ي McNها جوزة نارجيل تلعب بها ، وفي يسرها مرأة تنظر فيها وجهها ، والبراهمة يحفون بها ، وأقاربها معها ، وبين يديها الأطبال والأبواق والأنقار<sup>(٢)</sup> ، وكل إنسان من الكفار يقول لها : أبلغى السلام أبى أو أخي أو أمى أو صاحبى ، وهى تتقول دھلی نعم ، وتضحك لهم (ص ٣٩٧) ثم يصف بعد ذلك مشهد الإحراق بكل تفصيل ». ثم ينتهى ابن بطوطة إلى حضرة دھلی ، وهو لا يذكر لنا تاريخ ذلك الوصول ، وإنما يبدأ بوصف المدينة وصفاً دقيقاً لا ينم عن مشاهدة شخصية فحسب ، بل على اجتهاد في التعرف على التفاصيل والبحث عنها .

فهو يذكر أنها مكونة من أربع مدن متاجورات متصلات ، وهى دھلی القديمة التي فتحها المسلمون سنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م كما يقول ، وهو يشير إلى فتحها على يد معز الدين بن سام المعروف باسم محمد الغوري .

فقد كان محمد النوري هذا أميرا لغزنة ، فلما ضعفت دولة الغزنويين في الهند وقام ببداية دولة عليها أهل البلاد - تقدم هذا الأمير بقومه من الترك التوريين فدخلها سنة ٥٧٠ هـ / التوريين الغزنويين ١١٧٤ م واستمر يوالى غزواته على بلاد السند والبنجاب وشمال الهند حتى فتحها كلها ، ثم عاد إلى غزنة بعد أن أثاب عنه قائد قطب الدين أبيك .

وقطب الدين أبيك هذا هو الذى افتح دھلی ، واتخذها قاعدة له ، وهو الذى بني قطب الدين مسجد المشهور بها ، وأهم ما فيه منارته المعروفة بقطب منار ، وهو لم يتمها ؛ وإنما أبيك شرع في بنائها .

(١) في النص العربي المطبع بـأبجرى ، وهو خطأ (ص ٣٩٦) .

(٢) المفرد نقارة ، وهي طبلة صغيرة ينقر عليها بالعصا .

والله لهم لدينا أن التاريخ الذي يحدده ابن بطوطة لفتح دهلي غير دقيق ؛ لأن البلد فتح وأصبح قاعدة الحكم الإسلامي في الهند بعد ذلك بعشر سنوات . والمدينة الثانية تسمى « سيري » وتسمى أيضاً « دار الخلافة » ، والثالثة تسمى « تغلق أباد » مسماة باسم « والد السلطان محمد تغلق ، سلطان الهند الذي قدمتنا عليه » (ص ٤٠٠) .

وحدث ابن بطوطة عن الهند الإسلامية أيام آل تغلق يعتبر وثيقة تاريخية ، لأنه يكاد يكون العربي الوحيد الذي كتب عنها ، وبقية معلوماتنا عن تاريخ الهند الإسلامية ، وخاصة في أيام الخالجين ومن جاء بعدهم من آل تغلق ف مصدره مراجع فارسية وهندية ثم إنجليزية . غير أن كلام ابن بطوطة هنا موضع شك كبير ، فما كان محمد تغلق بهذه القسوة ، ولا صدرت عنه كل هذه الأفعال فيما يروى مؤرخو الهند من يعرفون ذلك التاريخ معرفة صحيحة .

حقاً إن محمد تغلق (٧٢٥ - ٧٥٢ هـ / ١٣٥١ - ١٣٥١ م) الذي كان يسمى قبل توليه العرش بـ « فخر الدين جونه الغ خان » يقال : إنه قتل أباه مشتركاً في ذلك مع رجل من أوليائه يسمى الشيخ نظام الدين أوليا ، ولكن أحداً لم يصفه بهذه القسوة المبالغة التي يرميه بها ابن بطوطة .

والغالب أنه أخذ هذه الأقوال عن كافر يصحبهم ويطمن إليهم من أهل الطرق الصوفية من الدراويش والفقهاء ، وقد قتل محمد تغلق نفراً كثيراً كانوا يعارضونه وينقدون أعلاه . وهذا برهان جديد على ما قلناه هنا مرة بعد مرة من أن ابن بطوطة كان يأخذ معلوماته من يتصل بهم من العوام وأهل الأسواق . وكان أولئك العوام يكرهون السلطان (محمد تغلق) لسوء تصرفه معهم وإيذائهم لهم عندما أخرجهم من ديارهم في دهلي وأجبرهم على الانتقال إلى دولت أباد ، وعندما آذاهم في أموالهم عندما أراد إبدال عملة الذهب بالنحاس .

وخلالصة ما يقال في هذا الرجل هو ما يقوله الدكتور حسن الساعاتي في تقدير هذا الرجل في كتابه القيم « تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية » (الطبعة الثانية سنة

هذا وينسب بعض المؤرخين ما صادف هذا السلطان من الفشل في مشروعاته الكثيرة إلى سوء طالعه ، وما كان حوله من مستشارين تنقصهم الخبرة والإخلاص . وينسب ابن بطوطة لهذا الملك كثيراً من الفضائل ، كما يثنى المؤرخ ميناء الدين بارثي معاصره على تمسكه بأهداب السنة ، وحرصه على إقامة العدل بين الناس . ويشير أغلب مؤرخي المنداكة الحديثين إلى تسامحه ، حتى قرب إليه الكثير من المنداكة وولاهم عدة مناصب في الدولة ، وينفون عنه ما أشيع من ميله لسفك الدماء ، وتعطشه لارتكاب العنف والقسوة ، ويقولون إن تشنيع بعض المؤرخين عليه بهذه التهم لم يكن إلا لقتله بعض الدراويش والفقهاء . ولعل قياس هذه الحوادث جمياً على ضوء مجتمع القرون الوسطى وتقاليده ، قد يربأ بهذا السلطان عن أن يحشر في زمرة جلادي عصره<sup>(١)</sup> .

(١) د. حسن الساعدي ، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية . الطبعة الثانية ، سنة ١٩٧٠ ص ١٤٠ .

## ابن بطوطة ينتقل إلى الغنى ..

يدل كلام ابن بطوطة في وصف دهلي على مشاهدة وبحث واستقصاء ، فهو يتحدث عن جامع دهلي الذي جدده غازى ملك تغلق والد السلطان محمد تغلق وصفاً دقيقاً ، وهو في الأصل مسجد القطب الذى بناه قطب الدين أبيك فى موضع بُؤْخَانَه : أى معبد بوذى ، وبنى له المذنة المعروفة باسم قطب منار .

ويصف لنا ابن بطوطة هذا المنار الذى يسميه صومعة ، يصفها لنا وصفاً دقيقاً ، وهو أول وصف عربي بين أيدينا عن هذه المذنة الهائلة التي لا نظير لها في الدنيا . ثم يصف لنا بعض مشاهد دهلي الأخرى ، وكما هي عادته يلم بذكر من لقى في البلد من الصالحين والعلماء ثم يوجز تاريخ الهند الإسلامية مبتدئاً من أيام الغزنوين . وعلى الرغم من أهمية ذلك التاريخ وما يديه خالله ابن بطوطة من ملاحظات ذات أهمية تاريخية كبيرة فإننا ينبغي أن نستطرد عن هذا التاريخ كله حتى يصل إلى السلطان محمد تغلق الذي وفد عليه ابن بطوطة ، وهو يسميه أبو المجاهد محمد شاه بن السلطان غيث الدين تغلق شاه ملك الهند والسند ، ولقبه في كتب التاريخ فخر الدين ، وقد حكم من ربيع الأول ٧٢٥ هـ / فبراير ١٣٢٥ م حتى رجب ٧٥٢ هـ / سبتمبر ١٣٥٠ م ، وخلفه ابن عمه فیروز تغلق .

وكان محمد تغلق رجلاً واسع الآمال دائم النشاط ، ولكنه كما قلنا كان سيئ الطالع فلم يوفق في الكثير مما طلب ، وهو يعد - على الجملة - من الحسينين من سلاطين الإسلام في الهند ، وثناء ابن بطوطة المستفيض عليه مبالغ فيه دون شك .

وقد حظى ابن بطوطة من هذا السلطان بمال كثير ، فانتقل إلى عداد الأغنياء حقاً ، ثم فقد ذلك المال كله بعيد خروجه من الهند ، وله في المال المكسوب في الهند

ابن بطوطة  
يصبح في  
عداد الأغنياء

تعليق طريف ذكره بمناسبة تاجر يسمى شهاب الدين الكازروني جمع من الهند مالاً كثيراً ثم فقده ، قال : « ورأيت أيضاً شهاب الدين وقد فني ما كان عنده ، وهو بشيراز يستجدي سلطانها أباً إسحاق ، وهكذا مال هذه البلاد الهندية قلماً يخرج أحد به منها إلا في النادو ! » ( ص ٤٣٩ ) .

واللحظة صحيحة ولكن ليس سببها شؤم البلاد ؛ وإنما اضطراب الأمن فيها وفي البحار حولها وعجز حكامها عن حماية النفس والمال ، وميلهم إلى مد أيديهم إلى أموال الناس ، ثم كثرة متلاصصة البحار في البحار المحيطة بها ، فما كان يفوز بشيء من مالها أحد إلا بحظ حسن وصادفة مواتية . وعلى طول مقام ابن بطوطة في الهند لا نزال نسمع بعدوان اللصوص وقطع الطريق على السابلة والتجار وأهل المدن ، وهو مرض يبدو أنه كان مزمناً في الهند على طول تاريخها .

وينفق ابن بطوطة صفحات طويلة في أحاديث مكارم هذا السلطان على الناس ثم غدراته بهم . ثم يصف كيف لقى السلطان لقاء عابراً لا معنى له ، وبعد ذلك بقليل يحدثنا عن إكرام السلطان إيه وإنزاله في بيت طيب « وجدت فيه ما يحتاج إليه من فرش وبسط وحضر وأوان وسرير للرقاد » وبعد أيام أعطاه بدرتين كل بدرة من ألف دينار دراهم وقال لي : « هذه سرishi و معناه لغسل رأسك » ثم أعطى أصحابه وغلمه وخدمه عطايا مجموعها أربعة آلاف دينار ونيف ، هذا إلى جانب الضيافة وهي مقدار كبيرة من الدقيق واللحم والسكر والسمن والفوفل وغير ذلك ثم يقول : « والرطل الهندي عشرون رطلاً من أرطال المغرب ، وخمسة وعشرون من أرطال مصر ، وكانت ضيافة خداوند زاد وهو الوزير - أربعة آلاف رطل من الدقيق ، ومثلها من اللحم مع ما يناسبها مما ذكرناه » ( ص ٤٩٤ ) .

ولا يملك المرء إلا أن يسأل : علام أخذ ابن بطوطة هذا العطاء كله ، وهو لم يفعل شيئاً يستحق عليه جزءاً مما أصاب ؟ وربما جاز لنا أن نقول هنا : إن هذا مثل من سفة حكام الهند هؤلاء وسوء تصرفهم في أموال الناس !

ويزيد إدراكنا لهذه الحقيقة عندما نعلم أن فقر الناس في الهند جعل الكثيرين منهم يؤجرون أنفسهم لحمل الناس على محفات كأنهم السوائم . وهذه المحفات تسمى دول

واحدتها دُولَة ، يقول : « وبالبلد منهم جماعة يسيرة يقفون بالأسواق وعند باب السلطان وعند أبواب الناس للكري » ( ص ٤٩٥ ) .

وعلى هذه الحال من السفة في إنفاق المال كان آل السلطان ومنهم الخدومة جهان أم السلطان ، وكانت امرأة كفيفة ، ولكنها كانت واسعة الثراء .

وقد ماتت لابن بطوطة بنت من جارية تركية ، فأرسل الجارية بعد دفن البنت إلى الخدومة جهان هذه وقال : « فأقامت الجارية أم البنت عندهم ليلة ، وجاءت في اليوم الثاني وقد أعطوها ألف دينار دراهم ، وأساور ذهب مرصعة ، وخلة حرير مذهبة وختنا بأثواب . ولما جاءت بذلك كله أعطيته أصحابي والتجار الذين لهم على الدين مخالفة على نفسي ، وصوناً لعرضي ، لأن الخبرين يكتبون للسلطان بجميع أموالي » ( ٤٩٦ ) . ويقول بعد ذلك : « وفي أثناء مقامي أمر السلطان أن يعين لي من القرى ما تكون فائدته خمسة آلاف دينار في السنة » ثم أرسل له الوزير بعد ذلك عشر جوار فأعطي ثلاثة منها أصحابه وباقيهن لا أعرف ما اتفق لهن . والسي هناك رخيص الثمن لأنهن قدرات لا يعرفن مصالح الحضر . والعلامات رخصيات الأثمان ، فلا يفتقر أحد إلى شراء السي » ( ص ٤٩٩ ) .

ثم يتحدث عن الوضع بين المسلمين والمهدود ، ويسميهم الكفار فيقول : « والكافار يبلاد الهند في بر متصل وببلاد متصلة مع المسلمين ، والمسلمون غالبون عليهم ، وإنما يمتنع الكفار بالجبال والأعوار ، وهم غيَّضات من القصب ، وقصبهم غير مجوف ، ويعظم ويتألف بعضه على بعض ولا تؤثر فيه النار ، وله قوة عظيمة ، فيسكنون تلك الغياض ، وهي لهم مثل السور ، وبداخلها تكون مواشיהם وزروعهم ، وطعم فيها المياه مما يجتمع من مياه المطر ، فلا يقدر عليهم إلا العساكر القوية من الرجال الذين يدخلون تلك الغياض ، ويقطعون تلك القصب بالآلات معدة لذلك » .

ثم رتب له السلطان اثني عشر ألف دينار في السنة ، وأعطاه قريتين غير الثلاث التي أخذ ، وبعد قليل أبلغه الوزير خُدَّاونْ زاده ضياء الدين أن خوند عالم - أي سلطان الدنيا ، وهو محمد تغلق - عينه قاضي دار الملك دهلي « وجعل مرتبك اثني عشر ألف دينار في السنة ، وعين لك مجاشرًا - أى ضياعاً - بمثلها ، وأمر لك باثنى عشر ألفاً نقداً

تأخذها من الخزانة غداً إن شاء الله » وأشياء أخرى كثيرة ، وهكذا أصبح ابن بطوطه قاضياً ورجالاً موسراً ، وتغيرت حاله جملة (ص ٥٠١) .

وكأنما كان ذلك كله مغرياً لابن بطوطه بالاستزادة من المال ، فزعم أن عليه ديوناً للتجار ، وصنع قصيدة للسلطان يرجوه فيها أن يعطيه خمسة وخمسين ألف دينار يدفعها إلى التجار ، وكأنما شكّوا في أمره فطلوه ، وبعد أيام أمر السلطان بأن يقال للتجار : إن هذا المال عند السلطان فلا يطالبون به ابن بطوطه !

ثم دخل في إشكالات ومتاعب مع الوزير خداوند زاده ضياء الدين ، ولم يحصل من المتاعب على شيء ، وبدا وكأن الناس قد ارتباوا في أمره ، وهم على حق ؟ إذ كيف تكون للتجار عليه ديون بمبلغ خمسة وخمسين ألف دينار؟

ولكن ابن بطوطة لم يشئ ، وظل ملازماً بباب السلطان ، مصاحباً له في كل خروج حتى مل السلطان ، ثم أهدى له ابن بطوطة جملأاً ، ثم جملين وحلواه ، وأخيراً فاز بالمال المطلوب وأضيف إليه اثنا عشر ألف دينار.

ثم ولاد السلطان أمر مقبرة قطب الدين إلى جانب القضاء ، فزاد ماله واتسعت حاله ، وعلت مكانته وأصبح رئيساً كبيراً حتى لقد خرج في أمر من أمروره إلى قرية تسمى هزار أمروها على ثلاثة أيام من دهلي ، فاصطحب معه ركباً من الأتباع فيه خمسة من المغنين يغنوون له على الطريق.

وما دام ابن بطوطة قد مد يده إلى السلطان ونال منه هذا كله فقد كان لا بد أن يناله مكروه ، فاتهموه بزيارة أحد أعداء السلطان ، فأقاموا عليه الحراسة تمهيداً لعقابه ، فجعل يتسلل إلى الله سبحانه أن يخلصه ، وصار يقرأ كل يوم : حسبنا الله ونعم الوكيل ثلاثة وثلاثين ألف مرة ، وجعل يختم القرآن كل يوم مرة ، وصام خمسة أيام لا يفطر إلا على الماء حتى خلاصه الله من الحنة ، فقرر بعد ذلك أن يتحجب عن الناس وأن يخرج عن الدنيا ، فأعطي كل ما كان عنده ولزم شيئاً صالحاً يخدمه.

وقد تسائلنا آنفاً عن السبب الذي نال به ابن بطوطة هذه الكرامة الكبيرة والنعمه الظليلة في الهند وما هو بالفقير الكبير ولا الشخصية التي تدخل الملوك وتكتسب ثقتها وتستمد منها القوة ؟ إنما هو كان رجلاً سفاراً يلتمس الطائف ، ويبحث عن

الغرائب ويعشق العجائب فما باله الآن يصاحب الملوك ويحظى برفدهم وينال من أفضالهم الألوف بعد الألوف ، ويتولى القضاء ثم يختار للسفارة ويعطى الأموال الكثيرة ؟ ومع ذلك فنحن نراه لا يتخلق بأخلاق هذا المكان الكبير الذي وصل إليه . فهو يزعم أن عليه للتجار ديناً تصل إلى خمسة وخمسين ألف دينار ! وهو دين لا يتجمع إلا على رجل موسر واسع النفة أو تاجر كبير يغامر في الأسواق ليكسب حيناً ويخسر أحياناً ؟

ولكن لا سيل لنا إلا أن نأخذ كلامه على علاته ، أو نمر به من الكرام ، فكلامه هنا يتعلق بشخصه وما جرى له في الهند ، ولا يهم كثيراً أن نصدقه أم لا نصدقه ، ولكننا ينبغي أن نرده للنظر في كلامه هذا إذا أردنا حقيقة أن نعرف أخلاق هذا الرجل ونسمير شخصيته ، وهي شخصية بسيطة أو قل واضحة ، فهذا رجل يحب الحياة ، وأحبابها في الرحلة والمشاهدة ، وأحبابها في رؤية الأولياء الصالحين والفوز برకاتهم ، وأحبابها في الاستمتاع بصحبة العلماء والفقهاء والعيش مع طيبة العلم في الروايا والتكتايا والمدارس ، وأحبابها في الحج إلى بيت الله الحرام والمحاورة مع العباد الصالحين ، وأحبابها في ترف الهند ويسر الحصول على المال من الملوك ، فأأخذ يستزيد منه وفي سبيل ذلك تصاغر وادعى الدين وحصل على المال ووصل إلى القضاء والسفارة .

وفي أحداياته عن الهند وأعاجيبها وحرقها وبراهيمها وكهنتها نحس حب الحياة وما فيها يملأ قلب هذا الرجل الطريف ، وهذا أصدق وصف للرجل : إنه إنسان طريف يحب كل طريف !

## الرحلة إلى الصين ومتاعها

ظل ابن بطوطه معتكفاً عن الناس متخفياً بعض الوقت ، ثم بعث إليه السلطان ليعود إلى الخدمة فرفض ، ونزل في زاوية تنسب إلى شيخ يسمى بشيراً في آخر جادى الآخرة سنة ١٣٤٢ هـ / نوفمبر ١٩٦٢ م ، وظل على تلك الحال شهر رجب وعشرة من شعبان .

ثم استدعاه السلطان وأكرمه وقال له : « إنما بعثت إليك لتتوجه عن رسولـا إلى ملك الصين فإني أعلم حبك في الأسفار والجولات » فجهزني بما أحتاج إليه ، وعين للسفر معه من يُذكـر بعد ( ص ٥١٩ ) .

وأغلب الظن أن ابن بطوطة لم يكن يرغب في سفارة ، إنما كانت أمنيته الهروب من تلك البلاد ، وكان من تقاليـد ملوك الهند في تلك العصور ألا يخرج غـريب من البلاد إلا يـاذنـهم .

وكان ابن بطوطـة قد ضاق ذرعاً بـمـقـامـهـ فيـ الهندـ ، وـنـعـتـقـدـ أنـ خـروـجـهـ عـنـ الدـنـيـاـ وـتـرـهـدـهـ كـانـ حـيـلـةـ مـنـهـ لـصـرـفـ الـأـنـظـارـ عـنـهـ حـتـىـ يـسـطـعـ التـسـلـلـ إـلـىـ الـخـارـجـ ، فـأـتـاهـ أـمـرـ

الـمـلـكـ هـذـاـ فـرـجاـ مـنـ حـرـجـ .

وـنـحـنـ لـاـ نـعـلـمـ فـيـ الـحـقـيقـةـ مـاـ الـذـىـ جـعـلـ السـلـطـانـ يـنـتـارـهـ هـذـهـ الـمـهـمـةـ ؟ـ وـيـذـكـرـ ابنـ بطـوطـةـ أـنـ مـلـكـ الصـينـ كـانـ قـدـ بـعـثـ إـلـىـ السـلـطـانـ مـحـمـدـ تـغـلـقـ بـهـدـيـةـ سـنـيـةـ وـطـلـبـ إـلـيـهـ أـنـ يـأـذـنـ لـهـ فـيـ أـنـ يـعـدـ بـنـاءـ مـعـبدـ بـوـذـىـ فـيـ مـوـضـعـ يـعـرـفـ بـسـمـهـلـ وـإـلـيـهـ يـمـحـ أـهـلـ الصـينـ ، وـتـغـلـبـ عـلـيـهـ أـهـلـ إـلـيـسـلـامـ بـالـهـنـدـ فـخـرـبـوهـ وـسـلـبـوهـ .

فـأـعـتـذرـ مـحـمـدـ تـغـلـقـ عـنـ دـمـرـ إـمـكـانـهـ السـيـاحـ بـيـنـاءـ مـعـبدـ بـوـذـىـ فـيـ أـرـضـ إـلـيـسـلـامـ ، وـأـرـادـ أـنـ يـرـضـىـ مـلـكـ الصـينـ ، فـقـرـرـ أـنـ يـرـسـلـ لـهـ هـدـيـةـ عـظـيمـةـ الـقـدـرـ يـحـمـلـهـ إـلـيـهـ وـفـدـ

يرأسه رجل جريء يحب السفر ولا يخاف البحر ، فوقع اختياره على صاحبنا ابن بطوطة .

وقد أورد ابن بطوطة وصف الهدية بتفصيل (ص ٥٢٠ - ٥١٩) ثم قال :

« وعين السلطان للسفر معه بهذه الهدية الأمير ظهير الدين الزنجاني ، وهو من فضلاء أهل العلم ، والفقى (كافور) الشّرّيدار وإليه سلمت الهدية وبعث معنا الأمير « محمد الهروى » في ألف فارس ليوصلنا إلى الموضع الذى يُركب منه البحر ، وتوجه صحبتنا أرسال ملك الصين ، وهم خمسة عشر رجلاً يسمى كبيرهم (ترس) وخدمتهم نحو مائة رجل ، وانفصلنا في جمع كبير ومحلة عظيمة ، وأمر لنا السلطان بالصيافة مدة سفتنا ببلاده .

وخرج ركب ابن بطوطة لهذا السفر في السابع عشر لشهر صفر سنة ٥٧٤ هـ من يوليو ١٣٤٢م. وبعد مسيرة يوم عسكر الركب في مدينة كول Kul - وتسمى أيضاً كوييل وهي أليجار Aligarh التي تسمى عندنا أحياناً : علبة - وهناك سمعوا أن نفراً من اللصوص أغروا على بلدة جلالى Jalali على نحو عشرين كيلو متر من علبة ونهبوا .

ويعلق جيب على ذلك بقوله : إن غارة اللصوص على موضع بهذا القرب من العاصمة تعطينا فكرة عن حالة الأمن في مملكة محمد تغلق . وهي ملاحظة في محلها ، وسرى أسوأ من ذلك بعد قليل . وكان أولئك اللصوص جيشاً حقيقياً من ألف فارس وثلاثة آلاف راجل . ويقول ابن بطوطة ! إنه ورفقته كروا عليهم وقتلواهم عن آخرهم ، وأخذوا خيلهم وأسلحتهم وكتبوا بذلك إلى السلطان !

وبينما كانوا في انتظار رد السلطان كان اللصوص وقطاع الطرق يهاجمون القرى المحيطة بجلالى دون انقطاع . وحدث ذات مرة أن خرج ابن بطوطة مع نفر من صحبه ليستريحوا في روضة ، فهاجم اللصوص المعسكر ، ونهبوا للقائهم ونفروا قطعاً تطارد كل قطعة منهم نفراً من اللصوص ، وبعد قليل وجد ابن بطوطة نفسه منفرداً مع خمسة رجال من صحبه في برية لا يعرفها . فانقضت عليهم جماعة من قطاع الطرق ما بين فارس ورجل ، فقاوموهم فترة ، ثم هرب ابن بطوطة على جواده وتبعه نفر من

اللصوص . فلم يخلص منهم إلا بأن استر في غيضة بعد أن كادوا يظفرون به ! هنا تبدأ قصة مغامرة طويلة لابن بطوطة يلاحقه فيها الموت على يد الأعداء أو الملائكة ظمأً وجوعاً ، فقد خرج من غيضته وسار على الطريق فوقع في أسر لصوص آخرين يبلغ عددهم الأربعين ، وأشرف على الموت ، وظل في قبضتهم حتى رق له قلب شاب منهم ، فأطلق سراحه .

وبعد أن سار ابن بطوطة قليلاً خاف أن يbedo لهم فيأخذوه مرة أخرى ، فاختفى في غيضة قصب إلى غروب الشمس ، ثم نهض فواصل السير .  
فلا غربت نهض وسار والليل مقمر حتى أدركه التعب فنام تحت جبل ، ثم عاود السير مع الصباح ، وما كاد يجد من الطعام إلا نبقاً فتفقتو منه . وكان يشرب الماء من آبار يحفرها الناس معاونة للسفار يسمى الواحد منها (بابن) .

واستمرت حاله على ذلك ثمانية أيام حتى كاد يهلك ، ثم رزقة الله رجلاً صالحًا «أسود اللون بيده إبريق وعكاز وعلى كاهله جراب» فقال له : «سلام عليكم !» فرد عليه السلام واطمأن قلبه ، ولم يستطع السير طويلاً مع الرجل لأنَّه كان مجهاً ، فحمله الرجل ، وتبين بعد ذلك أنَّ هذا الصوفى الجوال كان الهندى دلشاد الذى قال فى شأنه ولِى الله عبد الله المرشدى فى دمنهور مصر قبل نحو عشرين سنة : «ستدخل أرض الهند ، وتلتى بها أخي دلشاد ، ويخلصك من شدة تقع فيها». وتذكرت قوله لما سأله عن اسمه فقال : القلب الفارح ، وتفسيره بالفارسية : دلشاد ، فعلم أنه هو الذى أخبرنى بلقائه وأنه من الأولياء ، ولم يحصل لي من صحبته إلا المقدار الذى ذكرته . ثم وصل آخر الأمر إلى قرية عامرة حاكمها مسلم ، فأكرمه وكساه . وكانت تلك القرية على يومين من مدينة كول وفيها أصحاب ابن بطوطة ، فذهب إليهم ، ووجد أنهم قد تشعروا من الرحلة وأرادوا الرجوع إلى دهلي ، فأصر على أداء رسالة السلطان ، وكان السلطان قد بعث إليهم بعدد جديد

ومن كول - وهى عَلَيْكَرَة ساروا حتى وصلوا إلى برج بوره ، وهى اليوم برج بور Burjpur ومضوا حتى صادفوا نهرًا يسمى آبي سياه أى الماء الأسود وهو نهر الكالندي .

ثم وصلوا إلى مدينة عامرة كبيرة هي قنوج . ثم مروا بأماكن عدة أهمها جواليور ، ويسمى بها كاليلور ، ثم وصل إلى بلدة تسمى بروان وهي مركز لنفر من السحرة يسمون الجوكية وهم المعروفون باليوجي<sup>(١)</sup> . ويبلغ من سحرهم أن واحداً منهم كان يتذكر في صورة سبع ويفتك بالناس في الليل ، ثم يذكر عجائب من أعمال اليوجي هؤلاء ، كصبر أحدهم على الجوع شهوراً ، أو دفن نفسه حيا في حفرة تبني عليها قبة ليس فيها إلا ثقب للتنفس ثم يظل كذلك شهوراً .

الجوكية  
السحرة

وقد أعطانا ابن بطوطة مثلاً من أعاجيب ما كان يصنع أولئك السحرة الجوكية أراه إياه السلطان ، فقال : إنه كان عنده يوماً « فامرني بالجلوس فجلست وقال لها - أى لاثنين من الجوكية أى اليوجي - إن هذا العزيز - أى الغريب - من بلاد بعيدة فارياه مالم يره ، فقلالا : نعم . فترفع أحدهما ثم ارتفع عن الأرض حتى صار في الهواء فوقنا متربعاً . فعجبت منه ، وأدركني الوهم ، فسقطت إلى الأرض ، فأمر السلطان أن أُسوق دواه عنده ، فأفاقت وقعدت ، وهو على حاله متربع ، فأخذ صاحبه نعلاً له من شکارة كانت معه ، فضرب بها الأرض كالمحاذظ ، فصعدت إلى أن علت فوق عنق المتربع ، وجعلت تضرب في عنقه ، وهو ينزل قليلاً قليلاً حتى جلس معنا ، فقال لي السلطان : إن المتربع هو تلميذ صاحب التعل ، ثم قال : لولا أنى أخاف على عقلك لأمرتهم أن يأتوا بأعظم ما رأيت ! فانصرفت عنه ، وأصابني الحرقان ، ومرضت حتى أمر لى بشريه أذهبت ذلك عنى ! » (ص ٥٣٤) .

ومن بروان انتقل ابن بطوطة إلى أموارى ثم كجراء ، وهى اليوم خاجورا هو على نحو أربعين كيلومتر شرق شهاتابور Chhatapur ثم إلى بلدة شنديرى ، ثم إلى ظهار ، وهى Dhar ، وهى أكبر مدن ملوه ، ثم إلى أجَّين - وكان ينبغي أن يذكر أجَّين هذه قبل ذر .

في دولت أباد

ومن هناك إلى دولت أباد التي ذكرنا أن ( محمد تغلق ) أراد أن يجعلها عاصمة ملكه ، بل حاول إرغام أهل دهلى على الانتقال إليها ، فكانت كارثة على الناس حتى عدل السلطان عن ذلك .

(١) أى الذين يقومون بمارسات اليوجا وribasatها .

وهو يقول : إن سكان دلت أباد من المرهنة وهم المرهنة Marathas وكان اسمها قبل ذلك ديوجيري ، واستولى عليها المسلمون سنة ١٢٩٤ م ، والذى سماها دلت أباد – أى عاصمة الدولة – كان ( محمد تغلق ) .

وبعد مسیر طویل تصل القافلة إلى كنباريہ Kinbarya وهي كما يقول – على خور من البحر ، وهو شبه الوادى تدخله المراكب . وهذا الخليج جنوب شبه جزيرة الكوچرات .

ويقول ابن بطوطة : إنه مر بعد ذلك على مدينة قندھار ، وهذا وهم منه ، وكأنه خلط بين اسم هذه المدينة الأفغانية باسم شبه الجزيرة في القديم وهو کاثياوار Cathiawar يقول هاملون جيب إن الاسم الحقيقي ربما كان جندھار ، أو جندھار مدينة كانت على هذا الخليج .

ومن هنا ركب هو ومن معه البحر إلى قاليقوط .

وهذه أول مرة يميل حديث ابن بطوطة في رحلته ناحية القصص الذى يذكرنا ألف ليلة ، فإن هذه الأحداث التي مر بها منذ خروجه من دھلی تذكرنا بعض ما جرى للسنديباد ، ولكننا مع ذلك لا نميل إلى الشك في هذه التفاصيل ؛ لأننا نرى الرجل يرسم طريقه من بلد إلى بلد على الخريطة ، وتحقق أسماء البلاد وما يقدرها من المسافات بينها فنراها صحيحة أيضاً ، وقد حققتنا الأسماء كلها على ما رأيت .

أما ما جرى عليه من الأحوال والخطوب في أثناء هذه الرحلة في الهند فأمر لا يستغرب وقوعه في الهند في تلك العصور : فقد كان اضطراب الأمن في البلاد سمة غالبة على الهند ، ثم إنه كانت تتنازع السلطان عليها ثلاث قوى أكبر : الدول الإسلامية وجموعة ولايات الراجبوتانا في الشمال الغربي للهند إلى الشمال من ولايات الكجرات ومیور وملوه . وهذه الولايات الثلاثة إسلامية . ومعظمها يدخل اليوم في جمهورية الباكستان ، وقد غزا المسلمون بلاد الراجبوتانا وسادوها قروناً متطاولة ولكنهم لم يستطيعوا تحويلها إلى بلاد إسلامية لتأصل الهندوكية فيها .

أما صخرة المقاومة للإسلام في الهند فكانت جماعات المرهنة الهندوكية التي كانت تسيطر على بلاد جنوب الدکن ، وهي بلاد غابات مشابكة وغياض يتکاثر فيها غابات

غليظة كثيرة تجعل سلوكها عسيراً كل العسر ، وهناك هضاب وأراض صخرية وصحراء ومحاور مهلكة . وكان المرهتها هنادكة ، ولم يكونوا جماعة قومية أو شعباً متجانساً ؛ وإنما هي جماعات من الطغاة كانت تستبد بالقرى وأهلها وتفرض الإتاوات ، وكان فيهم زعماء ذوو قدر ونباهة وجرأة ، ولكنهم لم يكونوا يمثلون الشعب الهندي الأصيل كما يريد المؤرخون المحدثون من الهند ، فلم تكن لهم نظم مستقرة ولا سياسات موضوعية بشأن البلد . وإنما هم كانوا سادة عتاة أشبه بسادة الحرب ، في الصين ، وكانت حربهم مع المسلمين دفاعاً عن سيادتهم وأموالهم ومراكزهم ، وهذا يفسر لنا السبب في استطاعة الإنجليز السيطرة على البلاد بمعاونتهم ، فقد خضعوا للإنجليز ؛ لأن الإنجلترا دخلوا بالحديد والنار ، فلم تعد غاباتهم ولا غياضهم بواقية لهم ، فدخلوا في طاعة الإنجلترا ، وانضموا إليهم في حرب المسلمين ، وكانوا في ذلك الحين يمثلون الهند وحضارتها .

وعلى ضوء هذه المعلومات يمكن تفسير ما يقصه ابن بطوطة لما لقيه في نواحي الدكن وهو يوغل في بلاد يسيطر عليها المرهتها .

## دخوله جزائر ذيبة المهل

الجميل في رحلة ابن بطوطة أنيك كلما مضيت في قراءتها ازدلت بها استمتاعاً وبصاحتها إعجاباً ، فهو منذ دخل الهند لا يزال في مغامرات ومفاجآت وأخبار غريبة ، يرويها في بساطة تجعلك تشعر - أي كان موقفك منه - بالحب له والتصديق لما يقول ، وهو في أثناء روایته لهذه الأخبار لا ينصرف عما رکبہ الله في طبعه من التطلع والولع بمعرفة كل شيء ثم وصفه بتفصيل .

ويستحيل علينا أن نأتي بكل التفاصيل والحكايات والطرق التي يأتينا بها ، فرحلة البحر وحدها من جندهار - التي يسميه قندهار - إلى قاليقوط على ساحل المالييار استغرقت شهرين .

ومنها عبر إلى جزر ذيبة المهل - وهي الملديف - ليبدأ فصلاً جديداً من رحلته حافلاً بالمخاطر ، وهو يصف ما حدث له خلال هذين الشهرين في عشرين صفحة لا تستطيع أن تسقط منها سطراً إذا أردت التحقيق ، ولكن لا مفر لنا من الإيجاز والاقتصار على ذكر الأهم من المهم .

ساحل المالييار أو الملييار ، ونحن نسميه اليوم ملابارا ، وهو ساحل الهند الشرق كان في ذلك العصر قسمة بين المسلمين والمندوس والبوذيين وغيرهم من يسميهم الكفار : فللمسلمين مدنهم وللكفار مدنهم ، وهم يعيشون في سلام بعضهم مع بعض ، لأن غير المسلمين يعرفون أنهم في بحر عربي يسوده الإسلام ، وأنهم إذا عدوا على مسلم كانت العاقبة وخيمة .

وابن بطوطة يصف الساحل بأنه آمن ، ويقول إن أمراءه - مسلمين وغير مسلمين - حررiscون على حفظ الأمن في بلادهم ، وببلادهم غنية كثيرة الأشجار

والزروع والخضرة والمسافر فيها بالبر والبحر يمضي في ظلال الأمان .

وكانت مراكب ابن بطوطة وأصحابه تقلع من ميناء وتحط في آخر . فبعد جندهار زلوا بقوه ثم سيندابور وهى التي سميت من بعد بجوا ، ثم مغور ثم أبو سرور ثم فاكور ثم منجرمور ثم هيلى ثم جرفتن ثم فندارانية ثم شالوجات ثم قاليقوط ، ومنها أخذ البحر إلى الصين .

وبديهي أن يكون ثناء ابن بطوطة على سلاطين المسلمين أكبر من ثنائه على غيرهم ، ومن هؤلاء جمال الدين محمد بن حسن سلطان هنور ، وهوتابع لسلطان كافر أقوى منه ، ولكنه مستقل ببلده قائم بأمرها ، وقد وصف لنا ابن بطوطة ولية صنعها السلطان فيها شملت قدرأً من الأطعمة يدل على أن ابن بطوطة كان يتمتع بمعدة من حديد .

ويقول ابن بطوطة : إنه عند هنور تبدأ بلاد المليار وهي بلاد الفلفل ، وطوططا مسيرة شهرين على ساحل البحر من سندابور إلى كولم ، والطريق في جميعها بين ظلال الأشجار ، وفي كل ميل بيت من الخشب فيه دكاكين ينفذ عليها كل وارد وصادر من مسلم وكافر ، وعند كل بيت منها يشرب منها ورجل كافر موكل بها ، فمن كان كافراً سقاوه في الأواني ، ومن كان مسلماً سقاوه في يديه ، ولا يزال يصب له إلى أن يشير له أن يكتف !

ثم يقول : « وعادة الكفار ببلاد المليار لا يدخل المسلم دورهم ولا يطعم في آنيتهم ، فإن طعم فيهاكسروها ، أو أعطوها المسلمين ، وإذا دخل المسلم موضعًا منها لا يكون فيه دار للمسلمين طبخوا له الطعام وصبوه له على أوراق الموز ، وصبوا عليه الإدام ، وما فضل عنه تأكله الكلاب والطيير ! » ( ص ٥٤٧ ) .  
وهنا لا يسع المرء إلا أن ينحني إجلالاً للإسلام الذي ما عرف قط هذا التعصب غير الإنساني .

وتجدر بالذكر أن مثل هذا الموقف من التعصب ضد الإسلام كان هو القاعدة في الغرب المسيحي في ذلك العصر وإن اتخذ صورة أخرى ، في حين أن أهل ملة الإسلام برغم اعتقادهم الراسخ في امتياز دينهم وفي أنه الدين الوحيد المقبول عند الله فإنهم

تعصب  
المندوس

وبتوجيه من الإسلام نفسه - فتحوا قلوبهم وبيوتهم لغير المسلمين ، وعاملوه على أساس الإنسانية حتى لو لم يكن لهم أمل في هدایته .

ثم انظر إلى مشهد آخر من مشاهد العداون على كرامة البشر في بلاد أولئك الهندوس ، وهم كانوا أغلبية سكان ساحل مiliار هذا ، وهو على الحقيقة ساحل الدكـن ، وكان الدكـن إذ ذاك معقل الهندوـكية حتى دكـها سلاطين مغول الهندوكـا وفتحوا أبوابـها لنور الإسلام وإنسانـيته : « ولا يسافـر أحدـ في تلكـ الـبلـادـ بـدـابةـ ، ولا تـكـونـ الخـيلـ إـلاـ عـنـدـ السـلـطـانـ وـأـكـثـرـ رـكـوبـ أـهـلـهـاـ فـيـ دـوـلـةـ عـلـىـ رـقـابـ العـيـدـ أوـ المـسـتـأـجـرـينـ . والـدوـلـةـ هـيـ الـحـفـةـ ذاتـ السـقـفـ الذـيـ يـقـومـ عـلـىـ عـمـدـ ، وـمـنـ لـمـ يـرـكـبـ فـيـ دـوـلـةـ مـشـىـ عـلـىـ قـدـمـيـهـ كـائـنـاـ مـنـ كـانـ ، وـمـنـ كـانـ لـهـ رـحـلـ أوـ مـتـاعـ مـنـ تـجـارـةـ وـسـوـاـهـاـ اـكـثـرـ رـجـالـ يـحـمـلـوـنـهـ عـلـىـ ظـهـورـهـ » (ص ٥٤٩) .

ويصف ابن بطوطة شجرات الفلفل ، وساحل مiliar هو ساحل الفلفل ، ويقول إنـهاـ شـبـيـهـ بـدـوـالـىـ العـنـبـ ، وـهـمـ يـغـرسـونـهـ إـزـاءـ النـارـجـيلـ ، فـتـصـبـعـ فـيـهـ كـصـعـودـ الدـوـالـىـ ، وـيـشـرـ عـنـاقـيـدـ صـغـارـاـ ، وـإـذـ كـانـ أـوـانـ الـخـرـيفـ قـطـعـوهـ وـفـرـشـوهـ عـلـىـ الـحـصـرـ فـيـ الـشـمـسـ حـتـىـ يـسـتـحـكـمـ لـوـنـهـ ، ثـمـ يـبـيعـوهـ لـلـتـجـارـ (ص ٥٤٩) .

مدن الساحل  
أول مدينة دخلها ابن بطوطة من بلاد المليار أبو سرور ، وهو تعريف لطيف  
التي مر بها لاسمها الهندى Barcelore .

ثم وصلوا إلى مدينة فـاكـنـورـ ، وهـىـ باـكـانـورـ Bacanurـ وهـىـ الـيـوـمـ

قالـقوـطـ Mangaloreـ .  
ثم وصلوا إلى منجرورـ ، وهـىـ الـيـوـمـ ماـنـجـلـورـ .  
ومن هناك إلى هـيلـ ، وهـىـ فـيـ الـقـدـيمـ إـلـىـ Eliـ ، ولا يـزالـ اسمـهاـ باـقـياـًـ فـيـ جـبـلـ هناك يـسـمـيـ جـبـلـ دـلـلـ Mount Dellyـ ثـمـ يـصـلـ إـلـىـ قـالـقوـطـ ، وـهـىـ أـحـدـ الـبـنـادـرـ العـظـامـ بـيـلـادـ المـلـيـارـ ، يـقـصـدـهـاـ أـهـلـ الصـينـ وـالـجـاـوـةـ وـسـيـلـانـ وـالـمـهـلـ (ـمـلـدـيـفـ)ـ وـأـهـلـ

الـيـنـ وـفـارـسـ ، وـيـجـمـعـ بـهـ تـجـارـ الـآـفـاقـ ، وـمـرـسـاـهـاـ مـنـ أـعـظـمـ مـرـاسـيـ الـدـنـيـاـ .

وـسـلـطـانـهـاـ كـافـرـ يـعـرـفـ بـالـسـامـرـىـ »ـ شـيـخـ مـنـ يـحـلـ لـحـيـتـهـ كـمـاـ تـفـعـلـ طـائـفةـ مـنـ الرـوـمـ .ـ .ـ .ـ وـأـمـيرـ التـجـارـ بـهـ إـبـراهـيمـ شـاهـ بـنـدرـ مـنـ أـهـلـ الـبـحـرـيـنـ فـاضـلـ ذـوـ مـكـارـ ،ـ يـجـمـعـ إـلـيـهـ التـجـارـ وـيـأـكـلـونـ فـيـ سـماـطـهـ ،ـ وـقـاضـيـهـ فـخـرـ الـدـيـنـ عـثـانـ فـاضـلـ كـرـيمـ ،ـ

وصاحب الزاوية التي بها الشيخ شهاب الدين الكازروني . . .  
وبهذه المدينة الناخوذة مثقال<sup>(١)</sup> الشهير الاسم ، صاحب الأموال الطائلة  
والمراكب الكثيرة لتجارته بالهند والصين واليمن وفارس ، وقد تدهور أمر قاليلقوط  
وفقدت أهميتها بعد دخول البرتغاليين بحار الهند وقضائهم على التجارة فيها واحتقارهم  
إياها وإنشائهم المراكز التجارية على سواحلها .

أما اسم ملكها كما يذكره ابن بطوطة وهو السامری ، فهو اسم مألف عند العرب ؟  
إذ هو مقترب عندهم باسم جد طائفة السامريين من اليهود ، ولكن حقيقته هنا ساموتيري  
أو ساموري Samutiri وهي كلمة معناها ملك البحر ، وقد حرفاها  
البرتغاليون إلى زامورين Zamorin  
وفي قاليلقوط انتظر ابن بطوطة وأصحابه ثلاثة أشهر في ضيافة سلطانها ، يقول  
ابن بطوطة : وبحر الصين لا يسافر فيه إلا مراكب الصين .

<sup>مراكب</sup> ثم يتحدث عن هذه السفن ، وحديثه عنها في الغاية من الطرافه والفائدة ، فيقول  
<sup>الصين</sup> إن مراكب الصين ثلاثة أصناف : كبيرة تسمى الجنك ومتوسطة تسمى الرو ( وهي  
الدو ) وصغيرة تسمى الككم » .

« ويكون في المركب الكبير منها اثنا عشر قلعاً فا دونها إلى ثلاثة ، وقلعها من قضبان  
الخيزران منسوجة كالحصار لا تتطأ أبداً<sup>(٢)</sup> ويدبرونها بحسب دوران الريح ، وإذا أرسوا  
تركوها في مهب الريح .

ويخدم في المركب الكبير منها ألف رجل ، منهم البحريه ستمائه ، ومنهم أربعين من المقاتلة  
تكون فيها الرماة وأصحاب الدرق والجرختية . وهم الذين يرمون بالنفط ، ويتبع كل  
مركب كبير منها ثلاثة : النصفي والثلثي والرابعى ، ولا تصنع هذه المراكب إلا بمدينة  
الزيتون ( وستتحدث عنها فيما بعد ) من الصين أو ب الصين كلان وهي صين الصين » .  
ثم يصف طريقة صنع هذه السفن من ألواح ضخمة من الخشب ويقول : « وعلى  
جوانب تلك الخشب تكون مجاذيفهم ، وهي كبار كالصوارى ، يجتمع على أحدها

(١) أى الريان مثقال .

(٢) أى لا تطوى .

العشرة والخمسة عشر رجلاً ، ويحذفون وقوفاً على أقدامهم ، ويجعلون للمركب أربعة المcribs المcribs وهي الغرف ظهور ، أى طوابق ( وهي Decks بالإنجليزية ) ويكون فيها البيوت ، أى الغرف أو الأجنحة المفردة ، والمصارى جمع مصرية وهي ما يعرف اليوم باسم جناح أو Suite والغرف ذات الحمامات للتجار وهي الغرف الجماعية ، والمصرية منها يكون فيها البيت أى الغرف والستداس أى الحمام ، وعليها المفتاح ، يسدها صاحبها ، ويجعل معه الجواري ، والنساء . .

والبحرية يُسكنون فيها أولادهم ، ويزرعون الخضر والبقول والزنجبيل في أحواض خشب ، . ووكيل المركب – أى رباني وهو الكابتن – كأنه أمير كبير ، وإذا نزل إلى البر مشت الرماة والحبشة بالحراب والسيوف والأطبال ، وإذا وصل إلى المنزل الذي يقيم به ركروا رماحهم على جانبي بابه ، ولا يزالون كذلك مدة إقامته ( ص ٥٥٤ – ٥٥٥ ) .

إذن فهذه عابرات محيطات تشبه أعاظم سفن اليوم التي كنا نظن أنها من ابتكار الغرب في العصور الحديثة .

وقد تحدث بعض الرحالة الآخرين عن تلك السفن ، ولكن ابن بطوطة هو أول من حدثنا عنها بهذا التفصيل ، فكل من تكلم عن سفن الصين أو سفن بحار الصين لا يكادون يذكرون إلا الجنك ، وهي السفينة التي عرفت بالإنجليزية باسم Chunck، وما زال الاسم مستحماً إلى اليوم في بحار الصين ، وقد انفرد ابن بطوطة بالحديث عن أنواع السفن ومقاييسها وطريق صنعها وطريق تسخيرها .

أما تسمية الغرفة ذات الحمام أو الجنح ذى الحمام بالمصرية فلم يكن لفظ المصرية يقتصر على غرف السفن . بل كان شائع الاستعمال للدلالة على المسكن الكامل ذى الغرفة الواحدة ، ففي كل العالم العربي كان هذا النوع من المساكن الصغيرة يسمى بالمصريات ، وكان من عادة الكثيرين أن يتخذوا في أعلى بيوتهم المصريات ليخلدوها فيها إلى راحتهم أو ينفردوا بأصحابهم وربما بجواريهم ، وللهفظ مشهور كثيراً مستعمل في هذا المعنى وإن كنا لا نعرف لماذا نسبته إلى مصر بالذات ؟

## مخاطر و مغامرات

تركنا ابن بطوطة في قالبقوط يتأهب للسفر إلى الصين ؛ ليؤدي سفارته عن السلطان أبي المجاهد محمد شاه بن السلطان غياث الدين تغلق شاه سلطان دهلي ، ونمضى الآن في تتبع أحداث هذه السفارة التي لم يقدر لها أن تتم .

لقد قال عقيب دخوله قالبقوط واستقبال الناس إياه والوفد الذي معه استقبال الملوك : « فكانت فرحة تتبعها ترحة » ؛ لأن ابن بطوطة لقى في هذه السفرة وصباً شديداً روينا بعضه ونتم الباق الآن ، وهو خبر لطيف كأنه قصة ، انتهى بإبن بطوطة إلى ضياع أمواله وهدية السلطان ثم ذهابه إلى ذيبة المهل - وهي ملديف - بدلاً من ذهابه إلى الصين !

والقارئ لهذه الفصول من الرحلة يشعر وكأنه انتقل إلى رحلات السنديباد من أحاديث ألف ليلة ؛ لأن الرحلة أخذت طابع القصص فعلاً ، ولو لا أنها نثق في ابن بطوطة ونستبعد عليه الكذب - وإن لم نستبعد المبالغة - لقلنا : إن حديثه في هذه الفترة من رحلاته إنما هو نسج خيال .

ونتركه يتحدث الآن بربة قصيرة من الزمن ، فإن في حديثه هنا متعة وفائدة ، قال :

ابن بطوطة  
يستأجر جناحاً  
بحام في سفينة

ولما حان وقت السفر إلى الصين جهز لنا السلطان السامری جنكا من الجنوک الثلاثة عشر التي يمرسى قالبقوط ، وكان وكيل الجنك يسمى بسلیمان الصَّفْدَی الشَّامِی ، وبينه وبينه معرفة ، فقلت له : « أريد مصرية » - أي جناحاً بحاماً - لا يشاركتني فيها أحد لأجل الجواري ، ومن عادني ألا أسافر إلا بهن ؟ فقال لي : إن تجاري الصين قد اكتروا المصاري ذاهبين وراجعين ، ولصهرى مصرية أعطيكها ، لكنها لا سنداس فيها ( أي

لا حمام فيها ) فأمرت أصحابي فأوسقوا ماعندي من الماء ، وصعد العبيد والجواري إلى الجنك ، وذلك في يوم الخميس ، وأقت لأصل الجمعة ثم أحق بهم . ( ص ٥٥٦ ) . ثم يحكي بعد ذلك كيف صعد إلى المركب زميلاه في الرحلة : ظهير الدين والملك سنبيل ، وهو حامل المهدية التي أرسلها الملك محمد تغلق إلى ملك الصين . ثم جاءه غلام له يسمى هلال فقال له : إن المصرية التي اكتزيناها ضيقة لا تصلح ، فذكر ذلك للناخودة ، فاعتذر له ، ثم قال : إنه يستطيع أن يعطيه مصرية واسعة بسنداس في الككم ، أى في مركب أصغر من الجنك ، فوافق ابن بطوطة على ذلك ، وانتقل متاعه وغلمانه وجواريه إلى الككم ، ولبث هو على البر ليصعد إلى الككم في الصباح .

فلا كان بعد الظهر انقلب البحر وهاج ، وانقلعت مراسى السفن وأخذتها الأمواج ، فلما طلع النهار كان الجنك والكم قد بعدا عن المرسى وتعذر على ابن بطوطة الصعود . فإذا كان الليل رمى البحر بالجنك الذى كان فيه ظهير الدين والملك سنبيل والمهدية ، وهلك الاثنان في ذلك وغرقت المهدية ، وقال :

« ولما رأى أهل الككم ماحدث على الجنك رفعوا قلعهم ، وذهبوا ومعهم جميع متاعي وغلماني وجواري ، وبقيت منفرداً على الساحل ليس معى إلا فتى كنت أعتقته ، فلما رأى ما حل بي ذهب عنى ، ولم يبق إلا عشرة الدنانير التى أعطانيها الجوكى والبساط الذى كنت أفترشه !

وقال لي الناس : إن ذلك الككم لابد أن يدخل مرسي كولم ، « فعزمت على السفر إليها ، وبينها مسيرة عشر في البر أو في النهر ، وفعلًا سافرت إلى كولم » ، وهى سفره إلى كولم Quilon إلى الجنوب من قاليقوط . وكانت أيضًا من كبار مراسى تجارة الهند مع Afrيقية والصين ، وقد ذكرها رحالة المسلمين في القرن التاسع الميلادي باسم كولم الملايو ، وقد تدهورت خلال القرن السادس عشر نتيجة لعدوان البرتغاليين على سواحل الهند وتجارتها .

وفي أثناء ذلك يتحدث ابن بطوطة عن شجر القرفة وهى الدارصيني والبقم ، والبقم شجر جيد متوسط الحجم ويسمى بالإنجليزية Brazil tree .

ووصل إلى كولم بعد عشرة أيام فامتدحها وأعجب بأسوافها ، وظل ينتظر الككم  
فلم يسمع له خبراً ، وعرف أن رجال ملك الصين نجوا من الموت ، وأعادهم صاحب  
كولم إلى بلادهم ، حيث لقيهم ابن بطوطة فيها بعد .

عودته إلى هنور وخطر بباله أن يعود إلى السلطان محمد تغلق ليبلغه ماحدث ، ولكن خاف أن  
يعاقبه لتخليه عن المدينة ، واستقر رأيه آخر الأمر أن يعود إلى جمال الدين سلطان هنور  
ففعل ، ولقي منه إكراماً بسيطاً ، ونصحه هذا بألا يعود إلى دهلي .

وفي أثناء ذلك كان جمال الدين يعد حملة على سندابور ، وهى جوا ، لخلاف وقع  
بين سلطانها الهندوسى وابنه ، فكتب ابن إلى السلطان جمال الدين صاحب هنور  
يدعوه إلى دخول المدينة ، ويعد بالتعاونة ويدخول الإسلام وزواج ابنته السلطان  
جمال الدين ، فوافق السلطان وأعد أسطولاً من اثنين وخمسين سفينة حربية .

وشعر ابن بطوطة برغبة في الجهاد ، فقرر الانضمام إلى الحملة ، وأراد السلطان أن  
يقيمه أميراً على الحملة ، ثم قرق قيادتها بنفسه ، وعندما أبلغه ابن بطوطة أنه عندما عزم  
على الاشتراك في الجهاد فتح المصحف ليري الفأل فيما تبدأ به الصفحة اليمنى في الموضوع  
الذى يفتح المصحف فيه ، فقرأ في مطلع الصفحة الجزء الأخير من الآية الأربعين من  
سورة الحج وهي الثانية والعشرون : (( ومساجد يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ  
مِنْ يَنْصُرَهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَّهُوَ أَعْزِيزٌ ) .

ونخرجت الحملة قاصدة سندابور ، وبهذه المناسبة يذكر ابن بطوطة نوعاً من  
المراكب الحربية الهندية يسمى العُكُبُرِي يشبه الغراب إلا أنه أوسع منه ، وفيه ستون  
مجدافاً ، وهو مكشوف ولكنه يُسْقَفُ عند القتال حماية للمقاتلين . وكانت هناك مع  
الأسطول طريدان أى طرادتان ، والطرادة سفينة حربية كبيرة تحمل الفرسان  
وخيولهم ، ويفتح مؤخرها للإنزال كما تفعل سفن نقل الجنود البحرية اليوم .

قال ابن بطوطة : « وكان عندنا طريدان مفتوحتا المؤخر فيهما الخيل ، وهى بحيث  
يركب الفارس فرسه فى جوفها ويترعرع وينخرج » ، وقد انتصر المسلمون واستولوا على  
سندابور .

وقد أتعجب السلطان جمال الدين بابن بطوطة وأكرمه وأعطاه مالاً وثياباً وجارية ،

وأراد منه المقام معه ، ولكن ابن بطوطة استأذنه في السفر إلى قالبقوط على أمل السفر إلى الصين ، فأذن له .

وعاد أدراجه مارًّا بالمدن التي ذكرناها حتى قالبقوط .

ثم زار مدينة تسمى الشاليات ، تصنعن بها الثياب المنسوبة إليها . ويقول هامتون جب : إن هذه المدينة سماها البرتغاليون شاليات Chiliete أوشال Chalè واسمها اليوم بايپور Beypore على عشرة كيلو متراً جنوب قالبقوط ، وقال : إن النسيج الذي كان يصنع فيها ربما كان هو أصل الأغطية الصوفية المعروفة بالشيلان ومفردها شال ، وقد أخذنا نحن اللفظ عن الفرنسية Chale وهو بالإنجليزية Shawl ، ثم عاد إلى قالبقوط .

وإليها وصل غلامان لابن بطوطة كانوا في الككم ، فأخبراه بموت جارية له كانت عزيزة عليه ، وأن صاحب الجواة - أى سومطرة - قد أخذ سائر الجواري ، واستولت الأيدي على المئاع ، وتفرق أصحابي إلى الصين والجاوة وبنجالة » ، فادركه اليأس وعاد إلى هنّور ، ثم إلى سندابور فوصلها في ربيع الآخر ربما سنة ٧٣٥ هـ / نوفمبر ١٣٣٤ م .

ولازمه سوء الطالع ، فعاد الهندوس ، فطردوا المسلمين من سندابور وحاصروههم ، فانصرف ابن بطوطة إلى قالبقوط ، وقد استقر عزمه على أن يبحث لنفسه عن بلاد أخرى يعيش فيها ، ورأى أن يذهب إلى جزر ذيبة المهل ، وهي الملديف . وأسرع فتفقد مانحظر بياله ، قال : « وكنت أسمع بأبحارها » ، ووصلها بعد عشرة أيام في البحر . وبوصوله إلى ذيبة المهل يدخل ابن بطوطة في مرحلة جديدة وبالغة الطرفية من رحلته وحياته أيضاً .

## في جزر ذيبة المهل (المدحيف)

تعتبر الفصول التي أدارها ابن بطوطة على زيارته لجزر ذيبة المهل ، وهي المدحيف من أمنع فصول رحلته وأكثرها طرافه وأهمية : فهي من الناحية العلمية أول وصف لهذه الجزر وتفصيل لأحوالها ونظام الحياة فيها وعادات أهلها وشئون الاقتصاد فيها ، فهذا الوصف وثيقة علمية ذات أهمية أكبر بالنسبة لبلد إسلامي صغير غريب في تكوينه ونظام حياته .

ثم إن ابن بطوطة وجد أهل الجزر آمنين مسلمين صغار الأجسام فاستضعفهم ، وكانوا يعظمون أهل الفقه والعلم ، وكانت للعرب في قلوبهم محبة ، فاستقبلوا ابن بطوطة استقبلاً حنباً ، وألوسغوه كرامة ، فأغراه هذا بالمزيد من الاستخفاف بالناس ، فأساء التصرف ، وأكثر من الزواج والطلاق ، وتغير خلقه حتى أصبح لا يشبه في شيء ابن بطوطة السياح التي ورثه الذي عرفناه !

ثم ولوه القضاء فما أحسن القيام ولا يعرف كيف يتصرف ؟ وووقد العداوة بينه وبين نفر من كبار البلاد ، فنفروا منه وودوا لورحل عنهم ، فرحل إلى جزيرة سرنديب وفي نفسه أن يستعدى عليهم ملكها ، وكانت تربطه به صلة نسب نتيجة إحدى زيجاته في الجزر ، فلم يوفق فيها طلب ، وعاد إلى الجزر ليصنف بعض شئونه ، ثم رحل إلى بنغالة وهي بلاد البنغال ، وهي اليوم جزء من جمهورية بنجلادش أي وطن البنغال .

والصورة التي يعطينا إياها عن الجزر طريقة ممتعة ومشعرة أيضاً ، أما صورة حياته هو هناك فلا إشراق فيها قط ، بل هي حديث ممل حافل بالزيجات والطلاقات والاستيلاء على الأموال والخزيرات دون حق أحياناً ثم منافرات وعداوات .

ويكفي أن نقول : إن فترة مقامه في جزر المهل هي أسوأ فترات رحلته كلها .

حياة جديدة  
لابن بطوطة

وكانت مدتها عاماً ونصف العام . وعلى عادته لم يحدد لنا تاريخ دخوله أو خروجه ، وإنما هو كان بها في سنة ١٣٤٥ هـ / ١٩٦٥ م ، فقد ذكر لنا هذا التاريخ عرضاً في ثانياً الحديث .

وجزر المليفي مجموعة من الجزر المرجانية المتقاربة يبلغ عددها نحو الألفين - ابن بطوطة يعطي هذا الرقم أيضاً - وهي موزعة إلى مجموعات كل مجموعة منها في هيئة دائرة ، وهي تبعد ٦٤٥ كيلومتر شرق سيلان ، وتبلغ مساحتها الكلية ٢٩٨ كيلومتر مربع .

وبين مجموعات الجزائر مرات مائة ، ولكل مجموعة اسم ، مثل سافاديوا وأدو Addu وفوا Fua . والمسكون من هذا العدد الكبير من الجزائر ٢٠ جزيرة ، ويبلغ عدد السكان اليوم نحو مائة ألف . وعاصمة البلاد تسمى مال ، وهي جمهورية مستقلة عضو في هيئة الأمم . والغالبية العظمى من سكانها مسلمون ، وقد دخل الإسلام الجزائري في القرن الميلادي الثاني عشر - أى قبل مجىء ابن بطوطة بقرونين - على يد رجل مغربي اسمه أبو البركات البربرى كما يقول ابن بطوطة .

و واضح أن الاسم العربي لجزيرة ذيبة المهل إنما هو مقلوب اسمها المعروف اليوم ، فهو مليفي (مال - ديب ) ، ومال أو مهل هي عاصمة الجزر ، والجزر كلها منسوبة إليها .

وعندما يذكر ابن بطوطة أقاليمها يذكر منها إقليماً يسمى إقليم المهل ، ويقول : إن معظم الجزائر لا زرع فيها ، وإنهم يزرعون في بعض الجزائر حبوباً تشبه الدخن وهي الذرة الصغيرة ، واعتماد أهلها في الطعام على السمك ، وأشهره نوع يقول ابن بطوطة إنه يشبه الليرون يسمونه قلب الماس ، يسمى اليوم باسم سمك المليفي ، وهو نوعان : واحد يسمى البوينتو والآخر هو التونة . وجدير بالذكر أن سمك التونة يسمى في الإسبانية أيضاً البوينتو .

وهم يحففون السمك ثم يدخلونه ويصدروننه . وعندهم كذلك الكثير منأشجار النارجيل أو جوز الهند ، وهم يصنعون أصنافاً خاصة من المسوجات يصدرون بعضها .

التارجيل

ويقول ابن بطوطة : إنهم يستخرجون من التارجيل الحليب والزيت والعسل . يقول ابن بطوطة : « ولسمك الذى يغذون به قوة عظيمة فى الباءة لا نظير لها ، وأهل هذه الجزيرة عجب فى ذلك ، ولقد كان لى بها أربع نسوة وجوار سواهن ، فكنت أطوف على جميعهن كل يوم ، وأبيت عند من تكون ليلتها ، وأقت بها سنة ونصف السنة على هذه الحالة » (ص ٥٦٣) .

ويقول : إن من أشجارها الجمُون والأترج والليمون والقلقاس ( يكتبه بالصاد ) ، والجمُون فاكهة استوائية تعرف اليوم بالجمبُو ، والأترج هو الذى نسميه اليوم بالجريب فروت ، وقد بيّن اللفظ فى الإسبانية فقال له Toronja ، وهم يصفون القلقاس ويصنعون منه دقيقاً يطبعونه مع اللبن الحلو الذى يكون فى التارجيل .

ويطرب ابن بطوطة فى مدح أهل هذه الجزر ، فهم « أهل صلاح وديانة وإيمان صحيح ونية صادقة ، أكلهم حلال ودعاؤهم مجاب » (ص ٥٦٣) . ويبلغ من صلاحهم أن سلامتهم الدعاء ، فإذا قصدتهم عدو دعوا الله أن يرده عنهم فيستجيب لهم ، فإذا طرق بلادهم لصوص البحر لم يلبثوا أن تصيبهم مصيبة ، وهذا قل عدون الناس عليهم وعاشوا فى أمان .

أهل للديف

وفي كل جزيرة من جزرهم المساجد الحسنة ، وأكثر عمارتهم بالخشب ، وهم أهل نظافة وتنزه عن الأقذار ، وأكثراهم يغسلون فى اليوم مرتين لشدة الحر بها وكثرة العرق ، ويكونون من الأدھان العطرية كالصندلية وغيرها ، ويتلطخون بالغالية الجلوبية من مقدشو .

نساء ذيبة

المهل

وابن بطوطة معجب جداً بنساء ذيبة المهل لطاعتهن المطلقة للرجال وبذلن أقصى الجهد فى مرضاطهن واحتفالهن بيعولهن ، حتى إن الرجل منهم إذا تزوج ومضى إلى دار زوجته بسطت له ثياب القطن من باب دارها إلى باب البيت . ولباسهم الفوط ، يشدونها على أوساطهم فتستر نصف أجسادهم مما هو دون السرة ، أما أعلى ذلك فلا يلبسون عليه شيئاً .

وقد يجعلون على ظهورهم أحاريم - والمفرد حرام - وبعضهم يتعمم - وبعضهم يجعل على رأسه منديلأً صغيراً عوضاً عنها كما نرى اليوم عند أهل بورما وكمبوديا .

وجميعهم حفاة الأقدام من رفيع ووضعية ، وأزقهم مكنوسة نقية تظللها الأشجار ، فالماشي بها كأنه في بستان ، ومع ذلك فلا بد لكل داخل في الدار أن يغسل رجليه بالماء الذى في الخابية ويمسحها بمحصير غليظ من الليف يكون هناك ثم يدخل بيته ، وكذلك يفعل كل داخل في المسجد .

**الحكومة**  
الملديف  
معلوماً بشمن تحدهه ، ثم يبيعه الوالي ، فتكون للبندر من ذلك فائدة ، أى مكسب وهو دخلها .

وتعاملهم بالودع وهو المخار الصغير ، ويسمون المائة منه (سياه) ولكل عدد من ذلك الودع اسم كأنه عملة مقررة ، فائمة الألف منه تسمى بستو ، والبستات الأربع منه بدينار ، أى أنه لكي تحصل على دينار ينبغي أن تقدم مليون محارة أو وعدة . ويقول ابن بطوطة : إن الودع أيضاً صرف بلاد بنغالة وصرف السودان ، «رأيته ياع بمالى وجوجو بحساب ألف ومائة وخمسين للدينار الذهبي»

**سلطانة**  
الملديف  
ثم يقول : « ومن عجائبها أن سلطانتها امرأة وهي خديجة بنت السلطان جلال الدين عمر بن السلطان صلاح الدين صالح البنجالي . وكانت هذه السلطانة متزوجة من وزير لها يسمى جمال الدين ، ثم مات عنها مختلفاً بنتاً . فلما عرف أهل الجزيرة أن ابن بطوطة فقيه وقاضٍ أكرمه وأفاضوا عليه المدايا ، ثم عرض عليه الوزير جمال الدين قبل موته أن يزوجه ابنته ، فاعتذر ابن بطوطة .

يقول : « ونخت من شؤمها ، فقد مات تحتها زوجان قبل الدخول » . ثم أراد بعد ذلك أن يتزوج بنت وزير آخر يسمى سليمان ماناتك ، فرفضت البنت ، فزوجوه عوضاً عنها ريبة للسلطان وتم ذلك فعلاً .

**القضاء**  
الملك  
بصاهر البيت  
الملوك  
وارتفع مقام ابن بطوطة إذ أصبح صهراً للبيت المالك ، فولوه القضاء . ويحكى ابن بطوطة عن نفسه قاضياً حدثنا يدل على أنه لم يكن ذا علم بالفقه ولم يحسن ولاية القضاء ، فكره الناس ولايته .

ثم وقعت النفرة بينه وبين الوزير عبد الله بن محمد الحضرمي ، وزاد الأمر سوءاً أن ابن بطوطة لم يحسن الحكم في قضية تتصل بهذا الوزير . وانتهى الأمر بأن قال له هذا

الوزير : « إنما غرضك السفر ، فأعطي صدقات النساء وديون الناس وانصرف إذا شئت ! ». .

ويقول ابن بطوطة : إن ذلك الوزير لم يستطع أذاه ، لأنـه - أى ابن بطوطة - كان لا يزال سفير سلطان الهند والناس يهابونه . وبـلغ الأمر أن تـمنى ابن بـطـوـطـة أن يـنـقـطـعـ للـعـبـادـةـ فـيـ إـحـدـىـ الـجـزـرـ الصـغـيرـةـ ، ويـخـرـجـ عنـ الدـنـيـاـ إـلـىـ أـنـ يـأـتـيـهـ الـيقـينـ . وـاـنـتـهـىـ الـأـمـرـ بـخـرـوجـ اـبـنـ بـطـوـطـةـ مـنـ جـزـائـرـ الـمـهـلـ متـوجـهـاـ إـلـىـ الـمـعـبـرـ ، وـهـوـ سـاحـلـ الـهـنـدـ الشـرـقـ الـمـعـرـوفـ باـسـمـ كـرـوـمـانـدـلـ ، مـارـأـ بـجزـيرـةـ سـرـنـدـيـبـ ، وـكـانـ ذـلـكـ فـيـ رـبـيعـ الـآـخـرـةـ ٧٤٥ـ هـ دـأـغـسـطـسـ ١٣٤٤ـ مـ .

فـ سـرـنـدـيـبـ زـارـ جـبـلـهاـ الـذـىـ يـقـولـ : إـنـهـ أـعـلـىـ جـبـالـ الدـنـيـاـ ، وـفـيـ أـعـلـاهـ أـثـرـ قـدـمـ آـدـمـ عـلـيـهـ السـلـامـ ؛ إـذـ يـقـالـ : إـنـهـ نـزـلـ هـنـاكـ عـنـدـمـاـ هـبـطـ مـنـ الـجـنـةـ . وـإـلـىـ جـانـبـ أـثـرـ قـدـمـ آـدـمـ عـلـيـهـ السـلـامـ مـغـارـةـ الـخـضـرـ ، ذـلـكـ النـبـيـ الـخـالـدـ الـجـوـالـ كـمـ تـقـولـ التـفـاسـيرـ . ثـمـ بـارـحـ سـيـلـانـ إـلـىـ سـاحـلـ الـمـعـبـرـ ، وـهـوـ سـاحـلـ كـرـوـمـانـدـلـ ، وـكـانـ تـابـعـاـ لـلـسـلـطـانـ مـحـمـدـ تـغلـقـ ، وـحـكـمـهاـ بـيـدـ سـلـطـانـ مـحـلـ يـسـمـيـ غـيـاثـ الدـيـنـ الدـامـغـانـيـ . وـهـكـذـاـ خـرـجـ اـبـنـ بـطـوـطـةـ مـطـرـوـدـاـ مـنـ تـلـكـ الـجـزـرـ الـتـىـ أـطـبـ فـيـ وـصـفـهـ حـتـىـ جـعـلـهـاـ وـكـأنـهـ قـطـعـةـ مـنـ الـجـنـةـ .

وـمـاـ يـمـتـدـحـ عـلـيـهـ اـبـنـ بـطـوـطـةـ صـراـحتـهـ وـصـدـقـهـ ؛ فـقـدـ كـانـ مـسـتـطـيـعـاـ أـنـ يـلـقـيـ التـبـعـةـ فـ فـشـلـهـ فـيـ جـزـرـ ذـيـةـ الـمـهـلـ عـلـىـ غـيرـهـ ، وـلـكـنـهـ لـاـ يـخـفـيـ شـيـئـاـ وـلـاـ يـدـعـيـ شـيـئـاـ ؛ إـنـاـ هـوـ يـقـولـ الـحـقـ وـهـذـاـ حـسـبـهـ . وـقـدـ خـسـرـ اـبـنـ بـطـوـطـةـ بـخـرـوجـهـ عـنـ هـذـهـ الـجـزـرـ ، فـقـدـ سـعـدـ بـالـعـيشـ هـنـاكـ ، وـلـكـنـهـ لـمـ يـخـسـنـ مـعـاـمـلـةـ النـاسـ . ثـمـ إـنـهـ فـيـاـ يـيـدـوـ أـسـرـفـ فـيـ مـسـائـلـ الـرـواـجـ وـالـطـلـاقـ وـدـخـلـ فـيـ إـشـكـالـاتـ وـمـتـاعـبـ وـخـصـومـاتـ مـاـكـانـ أـغـنـاهـ عـنـهـ ، وـاضـطـرـ لـذـلـكـ إـلـىـ مـبـارـحةـ هـذـهـ الـجـزـرـ .

وـلـمـ يـكـنـ لـهـ مـفـرـ عـلـىـ أـىـ حـالـ مـنـ مـغـادـرـةـ ذـيـةـ الـمـهـلـ ، فـهـوـ رـجـلـ سـيـاحـ جـوـالـ ، وـلـاـ قـرـارـ لـهـ فـيـ مـكـانـ أـبـداـ . وـهـذـاـ مـنـ حـسـنـ حـظـنـاـ ، فـإـنـ خـرـوجـهـ مـنـ ذـيـةـ الـمـهـلـ قـادـهـ فـيـ النـهـاـيـةـ إـلـىـ جـنـوبـ شـرـقـ آـسـياـ وـالـصـينـ ، وـهـيـ نـهـاـيـةـ الدـنـيـاـ فـيـ أـيـامـهـ ، وـهـيـ أـيـضاـ آـخـرـ ماـ وـصـلـ إـلـيـهـ مـنـ الـأـخـطـارـ شـرـقاـ .

## زيارته الثانية لجزائر المهل وبنجالة

ومن جزائر ذيبة المهل توجه ابن بطوطة إلى سرندليب . وكانت نية ابن بطوطة حين خرج من سرندليب أن يذهب إلى بنجالة ومنها يقلع إلى الصين ، ولكن كان في نفسه شيء من أهل ملديف الذين أخرجوه ، وكان يعتز عليهم بـ صهر زعمه مع السلطان محمد تغلق ، فقد قال : إنه تزوج وهو بدھلی من بنت الأمير الشريف جلال الدين صهر السلطان .

فما وصل إلى ساحل العبر - وهو كروماندل - لقي سلطانه غياث الدين الدامغاني ، فطلب منه أن يعد جيشاً لغزو جزر ذيبة المهل ، فوافق على ذلك ، وأصدر أمره بإعداد الحملة ، ولكنه مات وخلفه ابن أخيه ناصر الدين ، وتولى وزارته خواجة سرور قائد الأسطول الذي كان قد أعد لغزو الجزر .

ثم أصيب ابن بطوطة بما يسميه الحمى القاتلة ، قال : « فظننت أنها القاتلة ، وألهمني الله إلى التر الهندي ، وهو هنالك كثير ، فأخذت نحو رطل منه ، وجعلته في الماء ثم شربته ، فأسهلني ثلاثة أيام ، وعافاني الله من مرضي ، فكرهت تلك المدينة ، وطلبت الإذن في السفر » (ص ٥٩٨) . والمدينة المقصودة هي متره ، فبارحها في البحر ، ووصل إلى كولم على شاطئ ميليار ، وقد تحدثنا عنها .

ثم ركب البحر مرة أخرى ليعود إلى هنور وسلطانها جمال الدين صاحبه ، فلما كانوا بإزاء جزيرة صغيرة على أربعين كيلومتر جنوب هنور - يذهب السير هنري يول - إلى أنها جزيرة الحمام Pigeon Island خرج علينا الكفار في اثنى عشر مركباً حربياً ، وقاتلوا قتالاً شديداً ، وتغلبوا علينا ، فأخذوا جميع ما عندي مما كنت أدخله للشدائدين ،

وأخذوا الجوادر واليواقيت التي أعطانيها ملك سيلان ، وأخذوا ثيابي والزيادات التي كانت عندي مما أعطانيه الصالحون والأولياء ، ولم يتركوا لي ساتراً خلا السراويل ، وأخذوا ما كان لجميع الناس ، وأنزلونا بالساحل ، فرجعت إلى قاليقوط ، فدخلت بعض المدارس ، فبعث إلى أحد الفقهاء بثوب ، وبعث القاضى بعامة ، وبعث بعض التجار بثوب آخر (٥٩٨) .

وهكذا فقد الرحالة المسكين كل شيء ولم يبق له مما ملك غير سروال ، ولم يستر بفقد كل شيء جسده إلا بثوب وعامة تصدق عليه بهما بعض ذوى الرحمة من الناس . ومع ذلك فإن الرجل لا يشكو ذلك ولا يصيحه يأس ، بل لا نحس في حديثه حزناً على ما ضاع منه ، بل يضى لطبيته صابرًا محتسباً متقبلاً ما وقع له بثبات الرجل الوعى الذى يعلم أن الأيام دول ، وأن الأيام تجرى بالشرك كما تجرى بالخير . وهو أول الأمر وآخره رجل رحلة وتطلع وتشوف إلى المجهول ، وما هو بجامع أموالٍ أو جواهر أو يواقيت .

وكنا نتوقع وقد حل به ما حل ، وهبط البر على رغمه نحو الأربعين كيلومتر جنوب بلد صاحبه وراعيه السلطان جمال الدين محمد بن حسن صاحب هنور وهي اليوم أونور Onore كنا نتوقع أن يتبع السير على البر حتى يصل البلد ، ويلقى سلطانه ويحصل منه على ما يعرض خسارته ، ولكن ابن بطوطة رجل فريد في تفكيره ، فدأبجه بيصره إلى جزر ذيبة المهل ، وكأنما أراد أن يصلح خطأه ويستعيد بها ما عرفه فيها من عز ، وربما يكون قد فكر في الانخلال عن الدنيا في جزيرة ينفرد فيها ، ويتعبد إلى أن تنتهي أيامه !

وفيها هو يدير فكره في ذلك إذ بلغه خبر موت صديقه الوزير جمال الدين زوج السلطانة خديجة سلطانة ذيبة المهل وولاية الوزير عبد الله بن محمد الحضرمي وتزوجه من السلطانة ، وكان بينه وبين هذا الوزير عداء . وهو الذى سعى في إخراجه من الجزء ، فاستخار المصحف فخرجت له في أول الصفحة الآية الثلاثون من سورة فصلت وهي الحادية والأربعون من سور القرآن : (تنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة ) فقوى عزمه وركب البحر إلى جزائر المهل .

ولا يعنيها من أمر زيارته الأخيرة هذه إلا أشياء قليلة منها حادث يكشف لنا حقيقة عودته إلى ذيبة المهل

شعور ابن بطوطة نحو أولاده الذين كان ينجههم على الطريق ، وقد سبق أن قلنا : إنه أراد أن يحمل معه ابنًا له كان قد ولد بعد رحيله وبلغ من العمر ستين ، قال : « ومر بعض أهل الجزيرة إلى الوزير عبد الله فأعلموه بقدومي ، فسأل عن حالى وعمن قدم معى ، وأخبر بأنى جئت برسم حمل ولدى ، وكانت سنّه نحو عامين ، وأتهى أمه تشكو ذلك ، فقال لها : أنا لا أمنعه من حمل ولده » .

قال ابن بطوطة :

« وصادفى في دخول الجزيرة ، وأنزلنى في دار تقابل برج قصره ليتطلع على حالى ، وبعث إلى بكسوة كاملة وبالتبول وماء الورد على عادتهم ، وجشت بشوى حرير للرمى عند السلام ، فأخذوها ، ولم يخرج الوزير إلى ذلك اليوم ، وأتى إلى بولدى ، فظهر لي أن إقامته معهم خير له ، فرددته إليهم ، وأقت خمسة أيام » (ص ٥٩٩) . وهكذا نرى أن ابن بطوطة اتخذ رؤية ولده تعلة للصلح مع الوزير والإقامة في الجزء على أمل العودة إلى العز الذي كان فيه ، فلما رأى من الوزير اعتراضًا أحسن أنه شخص غير مرغوب فيه هناك ، فزهد في الولد ورده إلى أهله ، وعجل بعد ذلك بالرحيل من جزائر المهل .

أخذ ابن بطوطة مركبًا حمله إلى البنغالة وهي جزء من بنجلادش الحالية ، وأنفق في الرحلة ثلاثة وأربعين يوماً .

ونحن نتساءل الآن : إذا كان لصوص البحر قد جردوه من كل ما كان معه عند جزيرة الحمام جنوب هنور فلم يبق معه إلا عشرة دنانير - فمن أين أنفق على الرحلة إلى بنغالة وهي رحلة طويلة غير يسيرة التكاليف ؟

كانت بلاد بنغالة - أو البنغال - في ذلك العصر بلاداً إسلامية ، فقد فتحها بلاد البنغال المسلمين سنة ١٢٠٤ ميلادية ، واتخذ المسلمون مدينة جُور Gawr الحالية قاعدة لهم ، وكانت إذ ذاك تسمى لكتُوتى كما يقول ابن بطوطة ، وهو تحريف يسير لاسمها وهو Lakshmanawate واعتبرت بلاد البنغال ولاية من ولايات سلاطين دهلي ، ولكن ولاتها كانوا كثيراً ما يتمردون على السلاطين ويستقلون بنغالة ، فتقوم الحرب بينهم وبين دهلي .

وكانت بنجالة عندما دخلها ابن بطوطة مستقلة عن سلطان دهلي يحكمها سلطان يسمى فخر الدين الملقب بفخر أو فخيرة ، وقد حكى ابن بطوطة خبر هذا الرجل وكيف ولى السلطنة وقال : إن سلطان دهلي كان يصل إلى جور أو لكتون في حين اعتصم فخر الدين بيده بنجالة ، ولم تقطع الحرب قط بين بنجالة وقوات دهلي في لكتون .

ولم تعجب البنجالة ابن بطوطة ، فقال : « وهى بلاد متعددة كثيرة الأرز ، ولم أرف الدنيا أسعاراً أرخص منها ، ولكنها مظلمة ، وأهل خراسان يسمونها : دوزخت يور نعمة ، معناه جهنم ملأى بالنعم ! (ص ٦٠٠) ثم يضرب أمثلة لهذا الرخص .

وقد أوغل ابن بطوطة داخل بلاد بنجالة فوصل إلى مدينة يسمى سد كاوان وهي مدينة درست اليوم كان اسمها ساتجاون Satgaon أو على نهر هوجلى أحد نهيرات الكنج . وذهب السير هنرى يول إلى أن المراد بها شيئاً كونج الحالية في بنجلادش Chittagong وقد حمل أمرها حيناً في أثناء الغزو البرتغالي ، ثم استعادت حياتها بعد ذلك .

ثم أوغل أكثر من ذلك حتى بلغ جبال كامرو على مسيرة شهر من سد كاوان ، وقد حقق « يول » هذه الناحية التي وصل إليها ابن بطوطة وقال : إنها سيلهت حيث لا يزال قبر الشيخ جلال الدين يزار ، أما جبال كامرو فهي كامروب أو Kamrub أو Kamarupa وهي منطقة أسام على وجه التقريب ، يقول عنها ابن بطوطة :

« وهى جبال متعددة متصلة بالصين ، وتتصل أيضاً ببلاد التبت ، وهى التبت حيث غزلان المسك . وأهل هذا الجبل يشبهون الترك ، وهم قوة على الخدمة ، والغلام منهم يساوى أضعاف ما يساويه الغلام من غيرهم . وهم مشهورون بمعاناة السحر والاستعمال به ، وكان قصداً بالمسير إلى هذه الجبال لقاء ولی من الأولياء بها وهو الشيخ جلال الدين التبريزى » (ص ٦٠٤)

فكأن ابن بطوطة وصل إلى مشارف التبت وصعد إلى سقف الدنيا كما تسمى .

ثم استرسل في المسير ، فوصل إلى مدينة يسمى بها حبنق على نهر يسمى النهر الأزرق فأما حبنق فهي هابنج Habang اسم تل في شمال أسام إلى شمال مدينة هابيجان Meghna والنهر الأزرق هو المجننا Habigan .

وآخر مدينة وصلها هناك هي سد كاوان وهي سونارجاون Sonargaon أو Sunarganw على خمسة وعشرين كيلومتر جنوب شرق دكا عاصمة بنجلادش ، وكانت إحدى عواصم البنغال أيام الحكم الإسلامي . وهو يصف أهل الناحية بأنهم همج « ورجاهم على مثل صورنا إلا أن أفواههم كأفواه الكلاب ، أما نساؤهم فلسن كذلك ، ولهن جمال بارع ». .

واكتفى ابن بطوطة من البنجالية بهذا القدر ، فقد زار الشيخ جلال الدين التبريزى واطمأن قلبه ، فمضى يضرب فى بلاد الله فى اتجاه آخر ، فقصد جاوة ويريد بها سومطرة ، فوصلها بعد رحلة خمسة وعشرين يوماً .

وأمثال هذه التفاصيل هي التي تزيد في قيمة رحلة ابن بطوطة ، فها هو ذا يزور إقليماً إسلامياً لم يتحدث عنه أى مسلم آخر ، بل كان القليل من المسلمين يعرفون أنها إسلامية ولكن هذا الرجل وصلها مدفوعاً بهذا التطلع الدافع الذى كان يستحثه دائماً على المسير وركوب المخاطر .

وقد رأينا أن كل بلد زاره أو موضع ذكره هناك استطعنا تحقيقه ومعرفته على وجه الدقة ؛ مما يؤكّد أن الرجل كان صادقاً فيها قال عن زياراته ، وما الذي يدفعه إلى ابتكار الحديث عن بلد مثل البنغال أو البنغال ؟ ولم تعجب رجال بنجالية ابن بطوطة بل استبعش خلقهم ، ولكن نساءهم أعتبرنه وهذا مستغرب ؛ إذ كيف يكون الرجال بهذا القبح ثم تكون النساء غاية في الجمال ؟ ولكن ابن بطوطة كان يرى النساء كلهن حسنات فما كان يدقق في ملامح أو يتكلف الاختيار !

أما السير هنرى يول Henry Yule فعلامة محقق إنجليزى له دراسة قيمة مفصلة عن رحلة ماركو بولو للهند والصين ، وقد حقق كل ما ورد ذكره فيها من أسماء أعلام ، ثم حقق بعد ذلك جزء ابن بطوطة الخاص بهذه البلاد وترجمه إلى الإنجليزية . وقد اعتمد على عمله السير هامiltonon جيب في دراسته المتمعة لرحلة ابن بطوطة ومتاراته التي

ترجمتها إلى الإنجليزية منها . وهذا الكتاب الأخير من أحسن ما لدينا عن رحلة ابن بطوطة في اللغات الأوربية ، وهناك كذلك ترجمة الأستاذ فرانشس코 جيريلى الإيطالية ، وهى ترجمة دقيقة فاخرة الطباعة ، وقد قارن الرجل كلام ابن بطوطة إلى كلام ماركتو بولو في أجزاء كثيرة من كتابه ، وقد اعتمدنا عليه وأخذنا منه كثيراً .

## فِي بَلَادِ الْمَلَائِكَةِ

لا تفرق كتب الجغرافيا العربية بشكل حاسم بين بلاد جاوة وبلاط الملايو ، فاللفظان بلاد الملايو كانوا يطلقان بغير تدقيق كبير أول الأمر على شبه جزيرة ملقا والمجموع العظيم من الجزائر الذي تتكون منه اليوم إندونيسيا أو هدونيسيا بتعبير أدق . ثم أطلق لفظ بلاد الملايو على شبه جزيرة ملقا ، واقتصر لفظ سومطرة ، وجاوة الكبرى على جزيرة جاوة .

أما اسم سومطرة فجاء من اسم مدينة كانت في شمالها تسمى سُمُطْرَة أو سَمُدْرَة ثم حررت إلى سومطرة ، وأطلقت على الجزيرة كلها .

وعندما دخل ابن بطوطة جاوة ، والمراد هنا سومطرة – كان أول نزوله بها سنة ٧٤٥ هـ / ١٣٤٤ م على وجه التقريب ، وكان عمر الإسلام فيها طويلاً ، فقد وصلها شيئاً فشيئاً على أيدي الحضارة والعمانيين وتجار المسلمين من جنوب الهند .

ولكن غلبة الإسلام عليها ترجع إلى القرن الثاني عشر ، أى قبل وصول ابن بطوطة بقرينين ، فقد كثُر دخول دعوة الإسلام في سومطرة ، وهم خليط من العرب والفرس والهنود ، وبعد بعضهم من أجل دعوة الإسلام بالفعل ، فنشأت للإسلام قواعد في أتشيه وسمودرة في شمال سومطرة ، وقامت دول إسلامية محلية أسرعت بإسلام الجزيرة ونقلته إلى جاوة وبقية الجزر في خبر طويل أجمله السير توماس آرنولد في كتابه الجيد عن انتشار الإسلام الذي ترجم باسم الدعوة إلى الإسلام .

دخل ابن بطوطة إذن بلاداً إسلامية ، ولهذا فقد استقبل استقبلاً حفياً ؛ إذ كان أهل الجزيرة يرجحون بأنّى داخل مسلم ، وخاصة إذا كان من أهل الفقه والعلم ، أو كان من الصوفية وأهل الزهادة والتبتل .

وكان ابن بطوطة - برغم ماجرى عليه - لا يزال يتثبت بأنه رسول سلطان الهند إلى سلطان الصين . ومن هنا كان إكرامه واحترامه ، وهذا يقول بعد الكلام على نزوله البر في «البندر» وهي قرية كبيرة على البحر ، بها دور يسمونها السّرحي وبينها وبين البلد أربعة أميال <sup>(١)</sup> .

والبندر يراد بها العاصمة ، والغالب أنها مدينة سُمُدْرَة في شمال الجزيرة . ثم يستطرد قائلاً : « ثم كتب بهروز نائب صاحب البحر إلى السلطان فعرفه بقدومى ، فأمر الأمير دولة بقدومى » (ص ٦٠٧) .

ويقول ابن بطوطة إن سلطان جاوة الصغرى ، وهي سومطرة ، عند دخوله كان السلطان الظاهر ، وليس هذا اسمًا ، وإنما كان لقباً يطلق على سلاطين سومطرة ، وليس لدينا سجل بأسماء ملوك هذه النواحي قبل القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، وهذا فتحن لا نستطيع تحديد المراد بهذا السلطان .

ويثنى عليه ابن بطوطة قائلاً : « إنه من فضلاء الملوك وكرامهم ، محب في الفقهاء يحضرون مجالسه للقراءة والمذاكرة ، وهو كثير الجهاد والغزو ، ومتواضع يأتم صلاة الجمعة ماشياً على قدميه ، وأهل بلده شافعية محبون في الجهاد يخرجون معه طوعاً ، وهم غالبون على من يليهم من الكفار ، والكافار يعطونهم الجزية على الصالح » (ص ٦٠٦) .

وقد لقى ابن بطوطة إكراماً زائداً من سلطان سومطرة ، فأعطاه هدية من الفوط مختلفة النسيج ، وملابس داخلية يسميها التحتانيات ، وأثواباً وعاءماً وجاريتين وخادمين ثم لقيه السلطان وتحدث معه ملياً .

ثم يصف لنا ابن بطوطة هيئة ركوب السلطان على الفيل ، يحلف به خمسون فيلاً عن يمين وأخرى مثلها عن يسار ، ثم مائة فرس في كل جانب « وأتى بخييل مجللة بالحرير لها خلاخيل ذهب ، وأرسان حرير مزركشة ، فرققت الحيل بين يديه ، فعجبت من شأنها ، وكنت رأيت مثل ذلك عند ملك الهند » (ص ٦١٠) .

(١) يذهب هامتون جيب في تعليقاته (ص ٣٦٧ رقم ٥) إلى أن الغالب أن السرحي اسم مدينة .

وعلى عادة ابن بطوطة لا يفوته أن يصف لنا بكل تدقيق كل صنف جديد يلقاه من النبات والحيوان ، وهو هنا يصف شجرة اللبن وشجر الكافور والعود الهندي ، والقرنفل .

ثم يحدثنا ابن بطوطة بعد ذلك عن سلطان بلد يسمى مل جاوة وقد تغير الدارسون مل جاوة والشراح في أمر هذا البلد : فذهب بعضهم إلى أن المراد به جزيرة جاوة نفسها ، ولكن أرجح الآراء هو ما ذهب إليه السير هنري يول من أن المراد به شبه جزيرة ملقا<sup>(١)</sup> ومعنى هذا أن ابن بطوطة غادر جزيرة سومطرة في طريقه إلى الصين في الغالب دون أن يتبينه إلى ذلك .

إذا صدق تقدير الباحثين من أن مل جاوة هي ملقا فإنه يصف الآن بلدًا جديداً هو ملقا ، ويقول : إن سلطانها كان كافراً . وقد سمع هذا السلطان بأمر ابن بطوطة فاستدعاه ، فلما جاءه حياء ابن بطوطة بقوله : السلام على من اتبع المهدى ؛ لأن ذلك السلطان كان كافراً ولا يجوز تحية المسلمين .

ثم يقول : إن السلطان دعاه إلى الجلوس معه فجلس ، وسألني عن السلطان (محمد تغلق) فأوجز في جوابه ، وقال لي : تقيم في الضيافة عندنا ثلاثة أيام ، وعندئذ يكون انصرافك .

وفي سياق ذلك يصل إلى بلد يسمى قاقلة ، وأغلب الظن أنه بلد على الشاطئ الشرقي لشبه جزيرة الملابوأى ملقا ، وهو على مقربة من كيلانتان Kelantan الحالية .

ومن هناك ركب ابن بطوطة السفينة التي حملته إلى الصين ، وهو لا يذكر أنه خرج إلى الصين ، ولكننا نستنتج ذلك من السياق ، فقد وصل بعد رحلة أربعة وثلاثين يوماً في البحر إلى البحر الكاهم ، وهو يصفه بقوله : « وهو الراكد وفيه حمرة زعموا أنها من تربة أرض تجاوره ولا ريح فيه ولا موج ولا حرفة مع اتساعه . ولأجل هذا البحر

E. Delaurier, in Journal Asiatique  
(Fevrier, Mars 1847); Gabriel Ferrnd:  
Textes, Arabes relatifs à l'Extrême Orient  
11 (Paris 1914) PP. 436-455; H.Gibb-Op. cit.P.367.n.s.

(١)

تبغ كل جنك من جنوك الصين ثلاثة مراكب كما ذكرنا ، تجذف فيه فتجره ، ويكون في الجنك مع ذلك نحو عشرين مجاذفًا كباراً كالصوارى « يجتمع على المجداف منها ثلاثون رجلاً أو نحوها » (٦١٤) :

والبحر الكاهل كلمة مركبة من لفظين : عربي وهو البحر والكافل فارسي معناه الراكد . وقد سماه بعض الرحالة المسلمين بالبحر الرفتى وبحر الظلمة ، ووصفوه بأنه في أقصى المشرق ؛ كما أن بحر الظلامات فى أقصى المغرب . ومن هنا فالغالب أن المراد به بحر الصين ، وكان لابد لابن بطوطة من أن يمر به فى طريقه إلى الصين .

بلاد طوالسى وقد قضت السفينة فى هذا البحر سبعة وثلاثين يوماً وصلت بعدها إلى بلاد طوالسى « وهو اسم ملك هذه البلاد ، وهى بلاد عريضة ، وملكتها يضاهى ملك الصين ، وله الجنوک الكثيرة يقاتل بها أهل الصين حتى يصلحوه على شيء !

وقد تخير الباحثون فى أمر بلاد طوالسى هذه ، فقالوا : إن المراد بها جزيرة سليبيس أو تونكين أو كمبوديا أو كوشن صين أو ولاية كوان سى أو جزر الفلبين أو أرخبيل سولو (أو خولو) وقد غالب على رأى سير هنرى يول أن المراد بذلك أرخبيل سولو من جزر الفلبين ؛ لأن خط السير يؤدى إليها .

وهو يقول : إن أهل هذه البلاد عبدة أوثان حسان الصورة ، أشباه الناس بالترك ، والغالب على ألوانهم الحمرة ، و لهم شجاعة ونجدة ، ونساؤهم يركبن الخيل ويسعن الرماية ، ويقاتلن كالرجال سواء . وأرسينا من مراسيمهم مدينة كلويكري » (ص ٦١٤) .

وما دمنا لا نعرف على وجه التحقيق أين نحن فلامعنى لمحاولة تحقيق مدينة كلوي - كري هذه . ولكن الذى يستوقف النظر هنا قوله : إن أهل هذه البلاد يشبهون الترك مع أنها فى بلاد يسودها الجنس الأصفر بلا مخالفة المعروفة ، ولكن الغالب أنه يريد مغول القفقاق ، فقد كانوا عنده أتراكاً ، مع أن ملامحهم مغولية .

ثم يعزز كلامه بالقول بأن على هذه البلدة سلطانة لا سلطان ، واسمها تركى هو أردوجا ، وقد سبق لابن بطوطة أن أعطى الخاتون الرابعة من زوجات السلطان محمد أوزبك خان اسمها شبها بذلك . وقد ذهب يول وفون مجيك إلى أن اسم هذه الملكة

اختلط على ابن بطوطة ، وأن صحة اسم السلطانة الباسلة التي لقيها هو إيماروك وهو اسم الخاتون التي ذكرناها .

وكانت بالفعل امرأة ذات قوة وجلد وطاً جيش من النساء يشبه جيش الرجال الذي كان عند أردوجا . ومن الممكن أن نبدأ هذه السلطانة التركية قد ذاع حتى وصل إلى هذه النواحي وسمعه ابن بطوطة من كان يصاحبهم من أهل البحر ، فغلب على ظنه أنها السلطانة التي رآها في بلدة كليوكري .

وتجدر بالذكر هنا أن هناك بالفعل في جنوب شرق الهند ميناء يسمى كابيلوكري وقد سبق أن ذكره ابن بطوطة نفسه وقال : إن سلطانها يسمى طيالسي ومن هنا سافر ابن بطوطة بالبحر حتى وصل ساحل الصين ، وهي منتهي مطافه شرقاً . ويبدو أن التعب حل به بعد هذا السفر الطويل ، فاختلطت عليه الأسماء والأماكن وتتشابه البقر علينا معه . وغريب أمر ابن بطوطة مع البحر : فإنه لا يهاب أبداً ، ولم يركب مرة متى الأمواج وأبدى خوفاً أو تحدث عن تعب إلا مرة أو مرتين .

أما ماعدا ذلك - وهذا الرجل ركب بخار الدنيا المعروفة كلها - فما هاب الأمواج مرة ، ولقد أحصيت رحلته فوجدت أن نصفها كان بالبحر . وقد قام في بعض الأحيان برحلات هائلة في البحر مثل انتقاله من سفالقة على الشاطئ الشرقي لأفريقيا في موزمبيق الحالية إلى ظفار على الساحل الجنوبي لشبة الجزيرة العربية ، وهي رحلة تزيد على الشهر ولم يذكر لنا كيف قام بهذه الرحلة المخوفة ، ونحن لا نشك في أنه قام بها ، ولكن العجب أنه لا يشير إليها .

والحقيقة أن ذلك الرجل رزق بدنًا عفياً قادرًا على تحمل الشدائـد والصبر على المكاره دون تعب ، فقد رأينا ماعناناه من عناء رحلات البر . ويكون مالاقاه من المتابع في الهند ، وماقاسي من الشدائـد هناك . أما البحر فيبدو أن ابن بطوطة كان يستروح السفر فيه ، ولا تخيفه أمواجه ، فقارن هذا بما نجد عند ابن جبير من الشكوى المرة من البحر ، وقد رکبه في حياته مرتين فحسبُ وقال :

البحر صعب المرام جداً لا جعلت حاجة إليه  
اليس ماء ونحن طين؟ فما عسى صبرنا عليه!

## الصين

حاول نفر من العلماء أن يلقوا ظللاً من الشك على إمكان وصول ابن بطوطة إلى الصين ودخوله أراضيها ، ولكننا عند الدرس الدقيق لكلام الرجل عن زيارته للصين ومارآه زراناً أميل إلى تصديقه ؛ لأن كلامه يتضمن الكثير من الحقائق التي تؤيدها معلوماتنا عن البلاد في ذلك العصر ، وتؤيدها كذلك أقوال ماركوبولو الذي زار الصين قبل ذلك بقليل .

وابن بطوطة في جملته رجل صادق غير متكلف أو مدعٍ مالبس له ، وفي أحاديثه الكثير من الأشياء التي لا تزيد قدره ، ومع ذلك فقد ذكرها على علاتها ، أما الأخطاء التي وقع فيها في كلامه عن الصين فأخذطاء معقوله ومفهومه كما سرى .

يقول ابن بطوطة بعد دخوله الصين دون أن يحدد مدخله إليها : « وإن لم يقل الصين متسع كثيرة الخيرات والفوائد والزرع والذهب والفضة ، لا يضاف إليه في ذلك إلا قيم من أقاليم الأرض ، ويخترق النهر المعروف بآب حياة معنى ذلك ماء الحياة ، ويسمى أيضاً نهر السبر (السررو) كاسم النهر الذي بالهند ، ومنبعه من جبال بقرب مدينة خان بالق (بكين) تسمى كوه بوزنه معناه جبل القروود ، ويرتفع في وسط الصين مسيرة ستة أشهر إلى أن ينتهي إلى صين الصين (كانتون) ، تكتنفه القرى والمزارع والبساتين والأسواق كثيل مصر ، إلا أن هذا أكثر عمارة وعليه التواعير الكثيرة » (ص ٦١٦)

نهر الحياة  
ونحن لا نعرف في الصين نهرًا كهذا يجري من عند بكين في الشهال إلى كانتون في الجنوب ، وقد اعتمد على هذا الزعم الواضح الخطأ الكثيرون من العلماء ؛ ليقولوا بأن ابن بطوطة لم يصل إلى الصين ، أو وصل إلى ساحلها ، ولم يدخلها ؛ وقد علق على ذلك هاملتون حبيب بقوله : « ينبغي أن نذكر أنه لم يعرف من الصين إلا الشريط

شكوك حول  
دخوله  
ابن بطوطة  
أرض الصين

وصفه العام  
للصين

الساحل الصغير ، الذى زاره مضيفاً إلى ذلك ما عسى أن يكون قد جمعه من المعلومات من أفواه الناس ( ولم تكن تلك الأقوال مما يعتمد عليه ولا شك ) .  
وابن بطوطة في هذه العبارة لم يكن إلا مردداً لآراء أهل عصره . قال جيب : « ونهر الحياة الوارد هنا إنما في جزئه الأول القناة الكبيرة التي كانت تجري بين بكين ونهر اليانج - تسي ، وقد كان تجاري الساحل ( ومنهم أخذ ابن بطوطة هذه المعلومات ) يعرفون بصورة يشوبها الإبهام الشبكة المائية الداخلية التي كانت تتصل هانج - تشاو واليانج تسي بالنهر الغربى وكانتون ربما عن طريق سيانج كيانج .

ونتيجة لذلك اعتبروا مصب باى - كيانج مصباً لكل الشبكة المائية<sup>(١)</sup> .  
هذا وما زالت أجزاء من القناة الكبرى الممتدة من بكين إلى اليانج - تسي باقية إلى اليوم .

ويضيف جيب ملاحظة لها وجاهتها يقول فيها : إن هناك صعوبة أكبر من هذه تتعلق بما أراده ابن بطوطة من قوله إن زيتون (تسوان - تشاو - فو زيتارة Ts'wan-chew-fu كانت تتصل بكل من كانتون وهانشو Hang Chow بمجاري مائية ابن بطوطة للصين لأن المفروض أنه يتكلم عن مشاهدة شخصية ، فلم يكن من المتظر أن يقع في هذا الخطأ .

ويقول جيب هنا إن ابن بطوطة يحمل ذكر المسافات كما فعل في كلامه عن الرحلة من قاليقوط إلى كولم متبرراً هذا أمراً ذا أهمية ثانوية ، أو ربما يكون قد أنسى ذكرها خلال السنوات العشر التي انقضت بين زيارته للصين وكتابته نص الرحلة .

ويقول : « وجدير باللاحظة أن الكتاب الآخرين - بما فيهم بعض الصينيين أنفسهم - يقولون إن زيتون على شبكة القنوات التي تقع عليها نفسها هانشو ( وهي التي يسميها ابن بطوطة الخنسا وعند رحالة الأوربيين كينسي Quincy )<sup>(٢)</sup> .

ويتحدث ابن بطوطة عن فخار الصين المشهور فيقول إنه لا يصنع إلا بمدينة الزيتون

H.A.R. Gibb, Ibn Battuta. Travels in Asia and Africa, P. 368, n. I (١)

(٢) انظر بالإضافة إلى بوك وفون جيك مقال ر. هارلان في مجلة الإسلام الألمانية Der Islam, IV, 434.

تسوان - تشاو - فو إلى الشمال قليلاً من فوتشو<sup>(١)</sup> الحالية ، وبصين - كلان التي يراد بها الصين الجنوبية . ويصف طريقة صنعه والمواد المستخدمة في ذلك . وقد لاحظ بعض العلماء العارفين بصناعة الخزف أن ابن بطوطة أخطأ في وصف طريقة الصنع والمواد المستعملة فيه ، ولكنه يقرر أن ذلك الفخار الصيني «يحمل إلى الهند وسائر الأقاليم حتى يصل إلى بلادنا بالغرب ، وهو أبدع أنواع الفخار» (ص ٦٦٧) . ويقول ابن بطوطة : إن دجاج الصين وديوكها ضخمة جداً ، ويضيف : «ولقد اشترينا دجاجة وأردنا طبخها ، فلم يسع لحمها في برمة واحدة ، فجعلناه في برمتين » ، أما الإوز عندهم فلا ضخامة فيه ، وقد تحدث عن ضخامة ديكة الصين رحالة إيطالي هو القس أودوريك دى بوردينوني Odoric di Pordemone إذ قال إنها أضخم ديكة في الدنيا ، ولكنه يقول إن إوز كانوا أيضاً كبير الحجم : « وهو أكبر حجماً وأطعم مذاقاً وأرخص ثمناً مما في أي مكان في الدنيا»<sup>(٢)</sup> .

ويقول ابن بطوطة : « وأهل الصين كفار يعبدون الأصنام ويحرقون موتاهم ، كما تفعل الهند وملك الصين ترى من ذرية جنكيزخان وفي كل مدينة من مدن الصين مدينة لل المسلمين ينفردون بسكنهاهم ، ولهن فيها المساجد لإقامة الجمعة وسواها ، وهم منظمون محترمون» (ص ٦٦٧) .

وكلام ابن بطوطة هنا صحيح تؤيده وقائع التاريخ ، فقد كانت تحكم الصين أيام دخلها أسرة يوان Yuan وكان جنكيزخان قد غزا شمالي الصين وجعلها جزءاً من امبراطوريته يحكمها من قراقرم وهي عاصمتها ، وبعد وفاته في سنة ١٢٢٧ م واصل خلفاؤه غزو الصين فقضوا على دولة تشين Chin ثم نفذوا إلى شيسوان .

وفي سنة ١٢٦٠ م أنشأ قوبلاي خان حفيض جنكيزخان أسرة يوان ، واستمر يحارب حتى وحد الصين كلها تحت رايته سنة ١٢٨٠ م ، وجعل بكين عاصمة ، وأعيد إنشاء القناة الكبرى التي تجري الآن من هانشو Hang Chow إلى أحواز بكين ، وكذلك أعيد تنظيم قنوات الري في إقليم Kanu وقاعدته هانشو التي يسمىها ابن بطوطة خنسا

Chuan-Chow-fu

Cathay, 11,181-185.

(١) وتسمى الآن تسوان - شاو - فو

(٢) قال ذلك أيضاً ماركو بولو وفيه شلت انظر

وكانت تسمى في الماضي Quinsay .

وشقت الطرق ونظم البريد ونشطت البحريات والتجارة الخارجية ، وأنشئ ديوان التجار في شوان شو Chüan-Chou سنة ١٢٧٧ م . ثم بعد ذلك في ننجبو Ningpo وشغهاي وغيرها من الموانئ وعلى تلك المناطق من الساحل نزل ماركو بولو ثم ابن بطوطه من بعده ، وقد تعاصر الرجالان بعض الوقت ، فقد توفي ماركو بولو سنة ١٣٢٤ م أى في السنة التي بدأ فيها ابن بطوطة رحلاته وعمره اثنتان وعشرون سنة . وقام ابن بطوطة بعد ذلك برحلاته وعمره إلى سنة ١٣٧٨ م . وفي أيام قوبلاي خان عظم أمر المسلمين في البلاد حتى قامت في ناتان شان في مقاطعة يونان الحالية (إلى الشمال من الفيتنام) مملكة إسلامية . وانتشر المسلمون في جنوب الصين وساحلها الشرقي . ودخلها من الغرب في إقليم سنكيانج جاليات عظيمة من صينيين أسلموا وعرب وفرس وترك وهنود .

وكان يحكم خاتمة فارس والعراق التي تناхض حدودها الشرقية حدود الصين الغربية - سلطان آخر من حفدة جنكيزخان هو هولاكو المشهور في تاريخنا ، ثم خلفه أولاده وأهلهم عندنا قازان الذي أسلم وفتح أبواب مملكة يوان للمسلمين فدخل يوان - وهي الصين الجوبية علماء مسلمون كثيرون قاموا على أكتافهم حضارة الصين في عصر أسرة يوان ، ثم ضعف أمر هذه الدولة بعد أيام قوبلاي خان وحفته ، وفي هذه الفترة دخل الصين ابن بطوطة .

وما يؤيد دخوله فيها ومعرفته بأهلها وأحوالها معرفة مباشرة كلامه عن استعمال العملة الورقية في الصين ، قال : «أهل الصين لا يتباينون بدينار ولا درهم ، وجميع ما يحصل بيلادهم من ذلك يسكنونه قطعاً كما ذكرناه ، وإنما يبعهم وشراؤهم بقطع كاغدي ، كل قطعة منه بقدر الكف مطبوعة بطايع السلطان ، وتسمى الخمس والعشرون قطعه منها بالشت ، وهو يعني الدينار عندنا ، وإذا تمزقت تلك الكواغد في يد إنسان حملها إلى دار كدار السكة عندنا ، فأخذ عوضها جدداً ووضع تلك ولا يعطي على ذلك أجراً ولا سواها ، لأن الذين يتولون عملها لهم الأرزاق الجارية من قبل السلطان

ويعتبر ذيوع العملة الورقية دليلاً على الهبوط الاقتصادي . فقد تسرب الذهب والفضة إلى الخارج ، وفي أوقات التدهور السياسي واضطراب الأمن يؤثر الناس الاحتفاظ بما لديهم من ذهب وفضة ، وقد أشار ابن بطوطة صراحة إلى ذلك عندما قال « وجميع ما يحصل ببلادهم من ذلك يسبكونه قطعاً كما ذكرناه ». وهذا يؤيد مقاله من قبل .

« وجميع أهل الصين إنما يحتفلون في أولى الذهب والفضة » وهذا الاحتفال معناه الاهتمام والإدخار ، ويقول في ذلك : « وعاداتهم أن يسبك التجار ما يكون عنده من الذهب والفضة قطعاً تكون القطعة منها من قنطار فما فوقه وما دونه ، ويجعل ذلك على باب داره .

ولأنه لأئم يجتمعونها على الباب بل يودعونها ككهوف المخابئ . وقد استمر التدهور المالي حتى فقدت عملة الكاغذ قيمتها تماماً وأوقف طبعها سنة ١٣٥٦ م . وفي سنة ١٣٦٨ م ، انتهى حكم المغول وقامت أسرة يينج ( ١٣٦٨ - ١٦٤٤ م ) ، وفي عهد هذه الأسرة اضطهد المسلمين وتضليل أمرهم في البلاد بسبب استبداد أباطرها وتعصيمهم المطلق .

فكأن ابن بطوطة كان آخر رحلة مسلم زار الجاليات الإسلامية في الصين في أوائل أيام أسرة يوان . وهذا وحده كفيل بأن يعطي ابن بطوطة مكاناً بين كبار أهل الفكر والعلم من المسلمين . فمعظم معلوماتنا عن الإسلام في الصين يرجع إلى ملاحظات وتفاصيل نجدتها في مروج الذهب للمسعودي ، وهي مع ذلك تحدثنا عن دخول الإسلام الأول أرض الصين . ومعظم كلامه عن جالية المسلمين في كانتون وهي التي يسميه ابن بطوطة صين كلان ، وهي في رأيه قاعدة النصف الجنوبي من الصين المسمى بصين الصين ، أي الصين الحقيقة ، أما الصين الشمالية فهي عند ابن بطوطة بلاد الخطأ ، والخطأ من المغول ، ومن هنا جاء الاسم القديم لبلاد الصين وهو كاتاي Cathay

ومن كلام ابن بطوطة نفهم أن المسلمين كانوا في عهد أسرة يوان وهم خلفاء قبلاء خان ذوى شأن عظيم ، فقد كانت لهم الأحياء الخاصة بهم في المدن ، وكانوا يعيشون

في أحياهم مكرمين آمنين . وكانوا على درجة كبيرة من الغنى وعلو الشأن ، ثم انحدر أمرهم عندما زالت دولة يوان وجاءت دولة بنج ، وهى دولة صينية صرفة ارتدت بالصين إلى الوراء وأقفلت أبوابها دون أى تأثير أجنبي . ولهذا طارد ملوك أسرة بنج كل الأجانب المسلمين وغير المسلمين .

ويستوقف نظرنا كلامه عن فخار الصين وامتيازه ورقته ودقة صنعه . وهذا يفسر لنا تسميتنا لكل آنية فخارية دقيقة الجدار بدعة الرسم باسم الصيني ، ولا يقتصر الأمر علينا ، فأوروبا هي الأخرى تسمى آنية المائدة والزينة من الفخار الأبيض المطل بالميناء ،  
China      China Ware      أو

العملة الورقة  
والبالشت  
(السافانا)

٣٨

## صورة الصين عند ابن بطوطة

ذكر ابن بطوطة في الصين دراهم الكاغد ، وقال إن الخمسة والعشرين منها تسمى بالشت ، والبالشت أو البالش كان عملة متداولة خلال القرن الثالث عشر في مناطق الحشائش الطويلة (السافانا) المتعددة شهاب البحر الأسود وبحر قزوين وأورال - وهو بحر خوارزم - وشرق الصين ، وكانت قطعة من المعدن تزن أربعة أرطال إنجليزية ونصف الرطل أى كيلو جرامين وربع الكيلو على وجه التقرير . وربما يكون المغول هم الذين أدخلوا هذه العملة واسماها بلاد الصين وقد ذكر ماركوبولو « دراهم الكاغد » أيضاً<sup>(١)</sup> .

ويستوقف نظرنا أن ابن بطوطة يقول مثلاً : « وجميع أهل الصين والخطا إنما فحّمهم تراب عندهم منعقد كالطفل عندنا » ، فكأن الصين والخطا عنده شيئاً مختلفان ، وهذا صحيح في زمان ابن بطوطة إلى القرن السادس عشر فيقولون بلاد الخطأ أو الخطاي ويريدون بذلك الجزء الشمالي من الصين .

والخطا أو الخطاي فريق من الترك غلبوا على شهالي الصين وأنشئوا فيه دولة حكمت بكين خلال القرنين العاشر والحادي عشر وهي أسرة لياو ، وقد ظل الاسم ملازمـاً لشهالي الصين فسماه العرب بلاد الخطـا ، وعنـهم أخذـه الأوروبيـون فـسمـوا الصين بلادـ كاتـاي Kathay كما قـلـنا .

أصل اسم  
الصين

أما لفظ الصين أو الشين فقد أخذـ من اسـم أسرـة تشـين Tsin التي حـكمـت جـنـوـيـ الصينـ فيهاـ بيـنـ سـنـتـيـ ٢٥٥ـ وـ ٢٠٩ـ قـبـلـ المـيـلـادـ ، فـلـازـمـ الـاسـمـ جـنـوـيـ الصـينـ بـعـدـ ذـلـكـ ، ثـمـ غـلـبـ عـلـىـ الـبـلـادـ كـلـهـ فـيـاـ بـعـدـ .

(١) انظر الترجمة الإنجليزية لرحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٤٢٣ وما بعدها .

وتجدر بالذكر أن البرتقال ، وأصله البعيد من الصين يسمى إلى الآن في المغرب لتشين وهو اختصار وتحريف لاسمي القديم : تفاح الشين أو تفاح الصين ، فكأن لفظ الشين استعمل للدلالة على الصين في المغرب .

ويستوقف النظر أن هذا هو اسم البرتقال في الألمانية الأصلية فيقولون Appelsienen أي تفاح الصين أو السين ، حتى غلت اللفظة الأخرى عليها وهي orangen بالألمانية وهي أيضاً كلمة شرقية ، فأصلها فارسي هو النارنج ، وتحت هذا الاسم نقل المسلمون البرتقال إلى أوروبا عن طريق إسبانيا ، فسمى البرتقال ولايزال يسمى نارنجا naranja وعن الإسبانأخذ الأوروبيون اللفظ محرفاً فقالوا

. Orange

ويقرر ابن بطوطة ما اشتهرت به الصين عند العرب في العصور الوسطى من إتقان الصناعات والمهارة في الرسم ، وهو يقول في ذلك : « وأهل الصين أعظم الأمم إحكاماً للصناعات وأشدّهم إتقاناً فيها ، وذلك مشهور من حالمهم فيها .

وقد وصفه الناس فأطربوا فيه . وأما التصوير فلا يحاجرون أحد في إحكامه من الروم ولا من سواهم ؛ فإن لهم فيه اقتداراً عظيماً ، ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك أنى مادخلت قط مدينة من مدنهم ثم عدت إليها إلا رأيت صورى وصور أصحابي منقوشة في الحيطان والكواجد ، موضوعة في الأسواق » (ص ٦١٨) .

ويروى ابن بطوطة الكثير من نظم الصين وعادات أهلها مما يهم المؤرخ ، ومن ذلك رقابة الحكومة الشديدة على سفر الصينيين إلى الخارج ، فهم يقيدون اسم كل خارج من البلاد ، ويعتبرون صاحب الجنك مسؤولاً عن عودته ، ويحرضون على سلامة التجار الأجانب وأموالهم سواء أنزلاوا ضيوفاً على تجار من أصحابهم أو نزلوا في الفنادق ؟ وهو يثنى ثناء عظيماً على الأمن في البلاد وحرص الحكومة على سلامة المسافرين على الطرقات .

ثم يرسم لنا خط سيره في البلاد ويقول إنه أرسى في مدينة زيتون ويقول : « وهذه المدينة ليس بها زيتون ، ولا يجتمع أهل الصين والمند ، ولكنه اسم وضع عليها » ، ويقول إنها : ميناء عظيم ، ومرساها من أعظم مراسى الدنيا أو هو أعظمها ، رأيت به

نحو مائة جنلٍ<sup>١</sup> كبارٍ ، وأما الصغار فلا تخصى كثرة ، وهو خور كبير من البحر يدخل في البر حتى يخالط بالنهر الأعظم ، والمراد بالخور هنا هو فم المصب الواسع الذي يسمى بالإنجليزية estuary.

ثم يذكر كيف لقى الأمير الصيني الذي وفد إلى ملك الهند ، ثم رافقه بعد ذلك في بداية رحلته إلى الصين ثم غرق به الجنك ، وقدمه إلى « صاحب الديوان ». والغالب أن المراد بالديوان هنا الإدارة المسئولة عن تجارة الأجانب والتجارة الأجنبية في الموانئ ، وقد عرفت مواني مصر والمغرب ديوان المرسي الذي كان يقوم بهذه المهمة ، ويراقب جاليات التجار الأجانب .

ويذهب حبيب إلى أن هذا النظام انتقل إلى المواني الأوروبية في البحر الأبيض ، ومن هنا جاء لفظ douane الفرنسي و dogana الإيطالي و aduana الإسباني بمعنى الإدارة الخاصة بمراقبة الداخلين إلى الموانئ ومراقبة الحداود والخروج منها وفي العصور الوسطى كان الديوان يرتب شؤون الإقامة والمبيت للتجار الأجانب كوسيلة من وسائل الرقابة عليهم وفيهم من الوثائق أن صاحب الديوان كان يعتبر من كبار موظفي الدولة نظراً لأهمية وظيفته<sup>(١)</sup>.

وقد رحب به تجارة المسلمين في المدينة ، وقال إن هذا شأنهم مع من يفد عليهم من تجارة المسلمين ، وأنهم يعطون التاجر الغريب زكوات أموالهم ، فيعود كواحد منهم ، وهنا نرى مثلاً آخر على تطبيق المسلمين لأحكام القرآن الكريم الخاصة ببابن السبيل . ويدرك ابن بطوطة أن قاضي المسلمين في زيتون كان يسمى تاج الدين الأردويلى ، وأن شيخ الإسلام كان يسمى كمال الدين عبد الله الأصفهانى .

وأضاف أن صاحب الديوان كتب في شأنه إلى « القان » فأمر هذا برسالة إليه والقان أو القاءان هو الخان الكبير أو ملك المغول ، وهو لقب الخاقان التركي نفسه . ثم يذكر أنه سافر في النهر سبعة وعشرين يوماً ، وفي كل يوم « نرسو عند الزوال بقرية نشترى بها ما نحتاج إليه ، ونصلى الظهر ، ثم ننزل بالعشى إلى أخرى ، وهكذا

ابن بطوطة  
يلتقي هو ونفر  
من وفد  
سلطان الهند  
إلى ملك  
الصين

ديوان المرسي

ابن بطوطة  
ومختار المسلمين

رحلاته للقاء  
خان الصين

(١) انظر :

إلى أن وصلنا إلى مدينة صين كلان وهي مدينة الصين ، وبها يصنع الفخار ، وبالزيتون أيضاً ، وهناك يصب نهر آب حياة في البحر ، ويسمونه جمع البحرين ، وهي من أكبر المدن وأحسنها أسوافا » (ص ٦٢٣) .

وصين كلان هي الصورة العربية لاسم الفارسي شين كلان ، والسينكريتي ماهاسينا ومعناه الصين الكبيرة ، والمراد من كلامه أنه وصل إلى مدينة الصين الكبيرة وهي صين كلان أو كانتون ، وهي عاصمة صين الصين أى إقليم الصين الحقيقي ، ويراد به نصف الصين الجنوبي ، في حين أن بلاد الخطا كانت الصين الشمالية ، وقاعدة الصين الجنوبية أو صين الصين هي كانتون وهي المعنية بلفظ سين كلان هنا .

والطريق النهرى الذى سار فيه ابن بطوطة من زيتون وهى تسوان - شاو - فو إلى كانتون غير واضح ، أو هو كما وصفه - معقد طويل في حين أن ابن بطوطة كان يستطيع كما يقول هامتون جيب - أن يصل إلى كانتون عن طريق نهرى مائى وتونج إذا كانت الملاحة فيها ميسورة .

وبعد أن يصف ضخامة هذه المدينة وأحيائها وأبراجها يقول : « وفي بعض جهات هذه المدينة بلدة المسلمين ، ولهم بها المسجد الجامع والزاوية والسوق ، ولهم قاض وشيخ ، ولا بد في كل بلد من بلاد الإسلام من شيخ إسلام ، تكون أمور المسلمين كلها راجعة إليه ، وقاض يقضى بينهم .

وكان نزولى عند أحد الدين السنجاري ، وهو أحد الفضلاء الأكابر ذوى الأموال الطائلة ، وأقت عنده أربعة عشر يوماً ، وتحف القاضى وسائر المسلمين تتواتى علىّ ، وكل يوم يصنعون دعوة جديدة ، ويأتون إليها بالعشرين الحسان والمعنى » (ص ٦٢٣) .

ولم أنهما المراد بلفظ العشارين ، ولكننى أستنتاج من معانى صور أخرى للفظ عشار أن المراد بذلك فتيات أو فتيان ذوو عشرة حسنة .

ويقول : « وليس وراء هذه المدينة مدينة ، لا للكافر ولا للمسلمين » . وابن بطوطة يتحدث هنا عن شيء سمعه لاعن شيء رأه ، وربما كانت الجهات التي تلى كانتون في الشمال والشرق في تلك العصور مجاهل خالية .

ويضيف : « وبينها وبين سد يأجوج و Majjūj ستون يوماً فيها ذكرى ، يسكنها كفار زحالة يأكلون لحم بنى آدم إذا ظفروا بهم . ولذلك لا تسلك بلا دهم ، ولا يسافر إليها ، ولم أر تلك البلاد من رأى السد ولا من رأى من رأه » (ص ٦٢٣) والأغلب أن المراد هنا سور الصين العظيم ، ولم يكن يصل إلى كاتنون ، وهذا يقول ابن بطوطة : إنه لم يره . أما آكلة لحوم البشر الذين يذكرون فقد ذكرهم ماركوبولو أيضاً .

ثم وصل ابن بطوطة إلى زيتون ، أى تسوان تشاو فو ، فوجد أن أمر القان قد وصل برسالة إليه ، فأركبوا مركبًا في النهر واتجه إلى خان بالق ، وفي الطريق وقف بمدينة قنجنفو ، وهو يثنى على جمالها وكثرة زروعها ، فكأنها « غوطة دمشق » كما قال . وقد حق أمرها السير هنري يول وقال : إن الغالب أنها مدينة كيان - تشانج - فو على نهر فو - هو Kien-Chang-Fu في مقاطعة كيانج - سى - Si - Fuchow Fuchow Gabriel Ferrand فيرى أن المراد بها Kenjanfu التي ذكرها ماركوبولو باسمها اليوم سى - آن - فو .

وتنتهي مناقشة جيب لخالق الآراء حول حقيقة هذا البلد قائلًا إن الإسلام أن نقول إن قنجنفو هي مدينة فوشو التي ذكرها الكثيرون من المسلمين ، أو أن ابن بطوطة خلط بين اسم هذه المدينة ومدينة أخرى (١) .

وعندما نقرأ مناقشات أولئك العلماء الأجلاء ونقارنها بما نجد من دراسات ابن بطوطة عندها نشعر بشيء من التجل لأأن الدارسين عندنا يستسردون الأمور ويفضلون أن ينطلقوا مع أحاديث العجائب والغرائب ، غير متكتفين جداً ولا تعباً معتقدين أن تمجيدهم للتابعين من أهل هذه الأمة يغنى عن بذل المجهود .

## وصوله إلى خان بالق وهي بكين

استقبلت الجالية الإسلامية في قنجنفو ابن بوططة استقبلاً حفياً ، فخرج لاستقباله قاضى وشيخ الإسلام والتجار ومعهم الأعلام والطلبو والأباق والأنفار - جمع نفير يهضون بابن بوططة وأهل الطرف ، «أتوا بالخيل وركبنا ومشوا بين أيدينا» (ص ٦٠٥) ولا غرابة في ذلك فقد كان الرجل سفيراً لملك الهند .

وفي قنجنفو لقي مواطناً من مواطنيه المغاربة يسمى قوام الدين السبيق ، ففرح للقاء حتى بكى ، وكان هذا الرجل طائل الثراء .

ثم يقول ابن بوططة : «وببلاد الصين - على ما فيها من الحسن - لم تكن تعجبني ، بل كان خاطرى شديد التغير بسبب غلبة الكفر عليها ، فتى خرجت من منزل رأيت المناكير الكثيرة ، فأقلقنى ذلك حتى كت ألزم المنزل ، فلا أخرج إلا لضرورة ، وكانت إذا رأيت المسلمين بها فكأنى لقيت أهلى وأقاربي». (ص ٦٢٦) .

ومن قنجنفو انتقل ابن بوططة إلى مدينة الخنسا ، وهي كنساى Quinsay مدينة الخنسا ، وقد ذكرها ماركوبولو باسم Kinsay ، وأثنى عليها ثناء يعادل ما يقوله ابن بوططة عنها ، فهو عنده أكبر مدينة في الدنيا ، و يؤيد هامilton جيب ذلك فيقول : إن كنساى كانت أكبر مدينة في الدنيا في القرن الرابع عشر الميلادي . ولقي ابن بوططة في هذا البلد استقبلاً حافلاً ، وهو يقول إنه مكون من ست مدن ، المدينة الثالثة منها يسكنها المسلمون ، ثم يقول : «ومدينتهم حسنة وأسواقهم مرتبة كرتبيها في بلاد الإسلام ، وبها المساجد والمؤذنون . سمعناهم يؤذنون بالظهر عند دخولنا ، ونزلنا منها بدار أولاد عثمان بن عفان المصري ، وكان أحد التجار الكبار ،

استحسن هذه المدينة فاستوطنها ، وعرفت بالنسبة إليه ، وأورث عقبه بها الجاه والحرمة ، وهم على ما كان عليه أبوهم من الإيثار على الفقراء والإعانة للمحتاجين ، ولم يزأدية تعرف بالعمانية حسنة العماره ولها أوقاف كثيرة ، وبها طائفة من الصوفية ، وبنى عثمان المسجد الجامع بهذه المدينة ، ووقف عليه وعلى الزاوية أوقافاً عظيمة . وعدد المسلمين بهذه المدينة كثير . وكانت إقامتنا عندهم خمسة عشر يوماً » (ص ٦٢٩) .

وبعد أن زار ابن بطوطة المدينة السادسة من مدن الخنسا وهي مدينة الحاكم وهو الأمير قرطى - زوده هذا الأمير بما يحتاج إليه للسفر إلى خان بالق ، وهي بكين وقنجهفو في رأيه هي آخر أعمال الصين .

وبعد خروجه منها دخل بلاد الخطأ ، وهي الصين الشمالية ، « وهي أحسن بلاد الدنيا عماره ، ولا يكون في جميعها موضع غير معمور . والرحلة من الخنسا إلى خان بالق تستغرق أربعة وستين يوماً . وقد وصل إليها ابن بطوطة ، وإن كان السير هنرى يول يرى أن ابن بطوطة لا يمكن أن يكون قد تعدى هانشو Hang Chow في رحلته . وهانشو قرية من شنجهاء ، وهي على الساحل أيضاً إلى جنوبها الغربى .

يقول ابن بطوطة : إن خان بالق تسمى أيضاً خانقو ، ولا ينطأ في ذلك ، لأن اسم خان بالق مغولى ، والمغول هم الذين أطلقوا على بكين ، ومعناه مدينة الخان ، وقد حرف هذا الاسم كتاب الغرب فكتبه Cambaluc أو Cambuluc أما خانقو فمعناه الثانية أى مدينة الخان . أما اسم البلد الأصلى Pei-ching فهو الأصل الذى جاء منه اسم بكين ، وهي كانت دائمًا عاصمة الصين الشمالية ، وهذا هو معنى الاسم الصيني .

ويقرر ابن بطوطة أن خان بالق هي حضرة القان ، والقان هو سلطانهم الأعظم الذى مملكته بلاد الصين والخطأ ، « وهي من أعظم مدن الدنيا ، وليس على ترتيب بلاد الصين فى كون البيوتين داخلاها ، وإنما هي كسائر البلدان ، والبيوتين بخارجها ، ومدينة السلطان بوسطها كالقصبة » (ص ٦٣١) .

وكان ملك الصين فى ذلك الحين هو توجون - تيمور - Togon Timur

(١٣٧١-٥٣٣١م) ، وهو آخر أباطرة أسرة يوان المغولية ، وخلفتها أسرة يينج وهى أسرة صينية أسسها تشويوان تشاو تسمى بعد ذلك باسم هونج Hung-Wu وعلى يدي هذه الأسرة (١٣٦٨-١٦٤٤م) انتهى عصر سيادة المغول في الصين ، وانتهى بذلك عصر رخاء جاليات المسلمين في الصين ، فكان ابن بطوطة رأى الحاليات الإسلامية الساحلية في أوجها ، وبعد ذلك أخذت تتلاشى ، ولكن الإسلام في الصين ظل ممثلاً – إلى يومنا هذا – في ولايات يونان وسنكيانج حيث دخلها من الغرب ، وهنا لانجد جاليات تجاري ، وإنما مسلمين صينيين ، أى مسلمين من أهل البلاد .

ويرى ابن بطوطة أنه ليس للكافار على وجه الأرض مملكة أعظم من مملكة قان الصين وهو يصف قصره وصفاً مطولاً لا يصدر إلا عن مشاهدة شخصية . ويستوقف نظرنا أنه يسمى أصحاب الوظائف في القصر السلطاني بأسماء تركية أو فارسية ، كأنه كان يستوضح ما يرى من دليل له فارسي أو تركي ، فهو يذكر الماليك البرد – دارية وهم – بحسب كلامه – حفاظ باب القصر ، والإصباھية وهم الرماة ، والتزدارية وهم أصحاب الرماح ، والتندارية وهم أصحاب السيوف والترس . وفي أحيان أخرى يسقط الاسم الرسمي للوظيفة ويدركها بعملها كقوله سقيةة كاتب السر ، وسقيةة كاتب الرسائل ، وسقيةة الوزير ، وسقيةة كتاب الأشغال وما إلى ذلك .

**موت قان الصين** ثم يذكر ابن بطوطة حرباً جرت بين القان وابن عم له خرج عليه اسمه فيروز ، وانتهى الأمر بمقتل القان وانتصار فيروز . وهنا يحكي ابن بطوطة من عادات ملوك الصين عند الموت أشياء بشعة مثل «دفهم القان المقتول ومعه أربع من الجواري وستة من خواص الماليك وأغلق عليهم القبر» . ويضيف أنه بعد مقتل القان وولاية فيروز اختار هذا لأن ينقل العاصمة إلى قراقرم «لقربها من بلادبني عمه ملوك تركستان وماوراء النهر» .

ويعلق على ذلك جيب بقوله : إن بلدة قراقرم كانت أول عاصمة للمغول ، وموضعها الآن يحدد دير قائم يسمى إردنـى – تسو ، وهي على الشاطئ الأيمن لنهر

أرخون Orkhon على نحو ٣٦٠ كيلو متر جنوب غرب أورجا Urga في منغوليا

### الخارجية Outer mongolia

أما عن مراسم دفن القان المتوفى فيقول جيب إنها مراسيم دفن رؤساء التتر ، ولا يمكن أن تكون مراسيم دفن قان الصين ؛ مما يحمل على الظن بأن ابن بطوطة لا يروى هنا عن مشاهدة مباشرة .

أما عن نقل فิروز للعاصمة إلى قراقرم فيقع موقع الغرابة من هاماتون جيب الذي يقول : « ولما كان فیروز هذا يبدو أنه غير معروف تماماً ، ولما كان مقر المملكة لم ينقل إلى قرة قورم إلا بعد وفاة توجون تیمور (إذا كانت التواریخ الصينیة صحيحة ) فإن ورود هذا الحادث الذي تم سنة ١٣٧١ م في كتاب لدينا منه نسخة كتبت في سنة ١٣٥٦ م - مشكلة تغيير العقل <sup>(١)</sup> .

يقول ابن بطوطة بعد ذلك : « ولما وقع الخلاف وتسعرت الفتنة أشار على الشیخ برهان الدين - واسمہ الكامل صدر الجھاد برهان الدين الصاغرجی ، وكان شیخ الإسلام في مملکة الصين ، أن أعود إلى الصين قبل تمكن الفتنة » أي أنه نصحه برک بلاد الخطأ وهي شمالي الصين والعودة إلى صين الصين وهي الصين الجنوبيّة ، فعاد أدراجها معتبراً أن رحلته إلى الصين قد انتهت .

سلك ابن بطوطة في العودة طريق الذهاب نفسه : عاد إلى الخنسا ثم قنچنفو ثم مدينة الزيتون ، وهناك سُنحت له فرصة وجود جنْك للملك الظاهر صاحب جاوة سافر إلى الهند ، فركبه إلى جاوة ، وكانت الرياح طيبة مواتية أول الأمر ، ثم تغيرت عندما قاربت بلاد طوالس ، « وأظلم الجو وأقينا عشرة أيام لانزى الشمس ، ثم دخلنا بحراً لأنعرفه ، وخاف أهل الجنْك ، فأرادوا الرجوع إلى الصين ، فلم يتمكن ذلك ، وأقينا اثنين وأربعين يوماً لا نعرف في أي البحار نحن؟ » .

وفي اليوم الثالث والأربعين من هذه الرحلة الحافلة بالمخاطر رأوا جبالاً ضخماً لم يسبق لأحد من أهل السفينة أن رأوه مع معرفتهم التامة بهذه البحار ، ثم إذا بهذا الجبل يرتفع في الجو ، فعرفوا أنه الرخ .

وقع الفتنة  
وعودة  
ابن بطوطة

هل رأى  
إلا في ألف ليلة ، وقال هاملتون جيب الذى يميل إلى تصديق ابن بطوطة : إن الأمر  
قد يكون خداع رؤية ، وقد يكون وهماً ، ومن يدرى ؟ فربما كان هناك حقاً طائر  
ضخم الحجم دون أن يصل إلى الأحجام المبالغة التي ترد عن ابن بطوطة وف  
قصص السنديباد ولكن في حجم الفيل مثلاً . وإذا كانت هناك حيوانات بهذا  
الحجم وأسماك بأضعافه ، فلماذا يتمنع ذلك في عالم الطير ؟ ثم ، ألم يثبت العلماء أن  
العصور السحيقة في القديم عرفت طيوراً هائلة الأحجام إلى جانب الديناصور  
والماستودن وغيرها ؟

وبعد شهرين من ذلك وصل ابن بطوطة إلى جاوة وبهذا يكون قد خرج من الصين  
وبحارها .

ولقد حاول الكثيرون من العلماء تكذيب ابن بطوطة فيما ذكر عن الصين كله ،  
ولكتنا نؤيده كما أيده جيب ويول . لقد أعطانا الرجل أحسن صورة بين أيدينا للصين  
في القرن الرابع عشر الميلادي ، ثم - وهذا هو الأهم - أهدى لنا صورة تعتبر وثيقة  
لوجود الإسلام الظاهر على شواطئ الصين الجنوبية والشرقية ، وهذا في ذاته فضل له  
لا ينكر .

وقد نسي ابن بطوطة في سياق حديثه هذا أن يذكر لنا إن كان قد قدم الهندية إلى  
القان أم لم يفعل . وقد كان قد أخبرنا أنه لقى في الصين بعض أصحابه من أعضاء  
السفارة ومعهم شيء من الهندية ، ولكنه لم يعد إلى الحديث عن هذا الموضوع بعد  
ذلك .

وهذه وغيرها من صفحات القلق واضطراب الرواية عند ابن بطوطة كانت سبب  
الكثيرين من الباحثين إلى الشك في حديثه عن الصين خاصة . ولكنني كما قلت مرة بعد  
مرة إن الرجل لم يختلف من عنده شيئاً كثيراً ، حقيقة أنها نحس في بعض الأحيان أنه  
لا يتحدث عن رؤيا مباشرة ، ولكن هذا أمر لا ضير فيه ، ومعظم الرحالة يفعلون  
هذا .

وملهم لدينا أن الرجل زار الصين فعلاً وأعطانا صورة عنها وعن المسلمين فيها

خاصة ، وذلك حسبه ولا معنى لمحاسبته والتعجل في اتهامه .  
ثم إن ابن بطوطة كتب حديث رحلته تلك بعد أكثر من عشر سنوات من نهايتها ،  
وخلال سنوات عشر ينسى الإنسان الكثير ، وينخلط بين الأشياء أو يأخذ الوهم على أنه  
حقيقة كما حدث له عندما حكى حكاية طائر الرخ .

## العودة من الشرق

أقام ابن بطوطة في جاوة ، والمراد بها هنا سومطرة ، شهرين وصف لنا خلالها مشهد زفاف ابن الملك الظاهر صاحب الجزيرة وصفاً ممتعاً ، ثم أعطاه الملك الكثير من العود والكافور وزوده ب الطعام كثير ، ثم رحل عنه فوصل إلى كولوم بعد أربعين يوماً ، توصلها في رمضان سنة ٧٤٨ هـ / أكتوبر ١٣٤٧ م ، وهذا هو أول تاريخ يذكره ابن بطوطة منذ زمن طويل .

واراد العودة إلى دهلي ولكنه خاف ذلك ، فركب البحر ووصل إلى ظفار بعد رحلة ثمان وعشرين ليلة ، وذلك في الحرم سنة ٧٤٨ هـ / أبريل ١٣٤٧ م . قال : « ووجدت سلطانها في هذه الكرة الملك الناصر بن الملك المغيث الذي كان ملكاً بها حين وصولي إليها فيها تقدم ، ونائبه سيف الدين عمر أمير جندار التركي الأصل ، وأنزلني هذا السلطان وأكرمني » .

والغالب أن الملك المغيث هذا وأباه الناصر كانوا من بني نهان الذين بدعوا حكمهم في عمان سنة ٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م ، وكانت عاصمتهم مقنيات وبهلي ، وقد استمر بونيهان يحكمون عمان إلى سنة ٨٣٩ هـ / ١٤٥٣ م حتى حل محلهم بنو عامر الأزديون . ومن هناك سار إلى مسقط ثم مرسي القرىات إلى الجنوب الغربي من مسقط ورأس الخيرات ، ثم إلى مرسي شبة ثم إلى مرسي كلبة - ولم أجدهما فيما بين يدي من المراجع ، ثم إلى قلهات وما زالت باقية إلى اليوم ، وقد ذكرها ماركو بولو باسم calatu ثم يقول « وهذه البلاد كلها من عمالة هرمز ، وهي محسوبة من بلاد عمان ، ومن المعروف أن عمان في الداخل ، وعمالتها وسلطان أمتها كان يقتصر في الغالب على الداخل ، في حين أن بلاد السواحل تبع عمالة هرمز في ذلك العصر كما رأينا .

مورده في إيران ومن هناك إلى هرمز ، ثم سافر بالبر إلى كورستان - ويغلب أنها خورستان - على الطريق الرئيسي بين بسأ - وهي فسا - وشيراز . وهكذا نرى ابن بطوطة يسير نحو بغداد على الطريق الذي سار فيه نفسه عندما نزل هذه البلاد أول مرة : أى عبر أقاليم فارس والأهواز والجبال إذ لم يكن هناك طريق داخل الجزيرة من عمان إلى ساحل الخليج إلى البصرة مثلاً .

وفي هذا الطريق مر بمدن صغيرة كثيرة حتى وصل إلى أصفهان ثم إلى تستر ثم إلى الحويزا فالبصرة ، وهناك زار قبور نفر من الصحابة رضوان الله عليهم .

ففي العراق ومن البصرة انتقل إلى مشهد على بن أبي طالب في النجف ، ثم إلى الحلة حيث مشهد صاحب الزمان ، والغالب أنه المسجد المسمى بالسهلة بين الكوفة والحلة ، وصاحب الزمان هو الإمام المنتظر الذي سيخرج في زمانه يعْلَمُ الدنيا عدلاً ، وهناك في هذه المنطقة جامع يسمى مشهد صاحب الزمان .

ومن هناك إلى صَرَصَر ثم إلى بغداد ، فوصلها في شوال سنة ٧٤٨ هـ / مايو ١٣٤٧ م ، وهنا يقول : « ولقيت بها بعض المغاربة ، فعرفني بكائن طريف ، واستيلاء الروم على الجزيرة الخضراء جَبَرَ الله صَدْعَ الإسلام في ذلك » (ص ٦٣٧) .

هذا وقد كانت معركة طريف المعروفة في التصوص الإسبانية باسم Rio Salado يوم الاثنين ٧ جمادى الآخرة سنة ٧٤٠ هـ / ٢٨ من نوفمبر ١٣٤٠ م بين السلطانين أبي الحسن المربي سلطان المغرب والسلطان يوسف بن إسماعيل بن الأحمر سلطان غرناطة من ناحية ، وألفونسو الحادى عشر ملك قشتالة تعاونه البرتغال من ناحية أخرى . ثم سقطت الجزيرة الخضراء في الأندلس بعد ذلك بأربع سنوات سنة ٧٤٣ هـ / ٢٧ مارس ١٣٤٤ م .

ففي بغداد دخل ابن بطوطة بغداد ، فوجد أن أحوالها تغيرت : فقد انقضت أيام صاحبه السلطان أبي سعيد بهادر سلطان إيلخانية فارس من أولاد هولاكو (٧١٦ - ٧٣٦ هـ / ١٣١٦ - ١٣٣٦ م ) ، وخلفه ابن عمته حسن كوجاك جوباتي ، وولى على العراق نواباً عنه فيما بين سنتي ٧٣٩ هـ و ٧٥٤ هـ / ١٣٣٨ - ١٣٥٣ م .

ثم صعد في العراق ، فر بالأنبار ثم هيئت ثم الحديث ثم عانة ، ودخل الشام عند

الرحبة إلى تدمر ثم دخل دمشق بعد غياب عشرين سنة كاملة .  
وكان قد خلف فيها ولدًا له ، طفلاً أنجبه له امرأة من أهل مكناة كان أهلهما قد  
هاجروا إلى العراق ، فلما استفسر عن أمر الولد وجد أنه مات من اثنى عشرة سنة .  
ثم علم أن فقيها من أهل طنجة يسكن بالمدرسة الظاهرية ، فذهب إليه يسأله عن أخبار  
آله في المغرب ، فأبلغه أن أباه عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتيطنجي قد مات من  
خمس عشرة سنة ، ولكن أمه مازالت على قيد الحياة .

ويحكي ابن بطوطة أن الغلاء كان شديداً في الشام إذ ذاك ، وكان يحكمها أرغون  
شاه نائب السلطنة للسلطان الناصر ناصر الدين الحسن بن الناصر في ولايته الأولى .  
ثم مضى إلى حمص فجاء فمرة العغان فسرمين ثم حلب ، وهناك فاجأه الوباء الكبير  
الكبير الذي كان يحتاج أوروبا وشرق آسيا وبلاد البحر الأبيض المتوسط إذ ذاك . وبلغه  
الخبر في أوائل ربيع الأول سنة ٧٤٩ هـ / يونيو ١٣٤٨ م ، وكان الوباء قد وصل إلى غزة  
وبلغ عدد المرضى منه فيها ألف شخص في اليوم ، فارتدى إلى حمص ، فوجد الوباء قد  
ادركتها ، وأسرع إلى حماة ثم عجلون ثم بيت المقدس ، وهنا وجد أن الوباء قد خفت  
وطأته برَّكة دعاء خطيبها عز الدين بن جماعة وهو ابن عز الدين بن جماعة قاضي القضاء  
بمصر .

وقد وجد ابن بطوطة معظم معارفه القدامى في الشام ، قد ماتوا أو اختفوا ، ثم  
سافر إلى مدينة الخليل في صحبة الحدث شرف الدين سليمان الملياني ، وهو مغربي وشيخ  
المغاربة بالقدس الصوفى الفاضل طلحة العبد الوادى .

ثم انتقل إلى غزة ، ومنها دخل مصر للمرة ( الثانية ) من ناحية دمياط . ثم ذهب  
إلى فارسكور ثم سهوند ثم أبي صير حيث نزل في زاوية لبعض المصريين بها ، ثم الحلة  
الكبرى ثم النحريرية - ويسمى بها النحريرية - ثم أبيار ثم دمنهور فالإسكندرية حيث  
وجد الوباء قد خفت بها بعد أن كان عدد المرضى منه في اليوم ألفاً وثمانين إنساناً .  
ثم وصل القاهرة وقد ارتفع الوباء عنها بعض الشى ، قال : « وبلغنى أن عدد  
المرضى أيام الوباء انتهى فيها إلى واحد وعشرين ألفاً في اليوم ، ووُجدت جميع من كان  
بها من المشايخ قد ماتوا رحمهم الله تعالى » ( ص ٦٤١ ) .

وكان السلطان بها هو الملك الناصر حسن بن الملك الناصر محمد بن قلاوون على ماذكرناه .

فضاء العمرة ثم هبط الصعيد عند عيذاب ، ثم عبر البحر الأحمر إلى جدة ، ثم إلى مكة فاعتبر مرات كثيرة فيها بين شعبان وذى الحجة ٧٤٩هـ / أكتوبر ١٣٤٨م - ديسمبر ١٣٥٠م ثم صعد في الحجاز إلى العلا وتبوك ، ثم زار بيت المقدس ومدينة الخليل ثم إلى غزة وهناك ودع الشام للمرة الأخيرة ومضى إلى القاهرة .

تقرير العودة إلى المغرب وهناك تملكه الحنين للعودة إلى بلاده ، وأن للغريب النازح أن يعود إلى بلاده ، وقد عبر عن ذلك تعبيراً سياسياً فزعم أن أخبار توفيق السلطان أبي عنان المتوكل المريني ابن السلطان أبي الحسن (١٣٤٨ - ١٣٥٨م) «قد صنع الله به نشر الدولة المرينية<sup>(١)</sup> ، وشقى ببركه بعد إشقاها البلاد المغربية»<sup>(٢)</sup> وهي عبارة فيها مخالفة من الواقع الشيء الكثير ، لأن المتوكل أبو عفان بعد أن حارب أبوه أبي الحسن وأشقاءه وخليفه بدأ عصر التفكك في تاريخ بنى مرین ، ثم قال بعد ذلك : «مع ما شاقني من تذكرة الأوطان والحنين إلى الأهل والخلان ، والمحبة إلى بلادي التي لها الفضل عندي على البلدان :

بلاد بها نيطت على تماهى وأول أرض مس جلدى ترابها

(ص ٦٤٢)

وفي صفر سنة ٧٥٠هـ / أبريل ١٣٤٩م ركب البحر في قرقرة . لبعض التونسيين ، والقرقرة والقرقر نوع من كبار السفن كما سبق أن قلناه ، فوصل إلى جزيرة جربة . ثم انتقل إلى قابس ومنها إلى مدينة تونس ، وكانت بلاد تونس تحت حكم الحفصيين . وكان سلطانهم قبل دخول ابن بطوطة وهو في طريق العودة هو أبو حفص عمر الثاني (سنة ٧٥٠هـ) ، ثم خلفه أبو العباس أحمد الفضل المتوكل (٧٥١هـ) ، ولكن بلاد الدولة الحفصية كانت في ذلك الحين ضحية أطاع بنى مرین الذين نزعوا إلى تقليد الموحدین في توحيد المغرب ، فغزا تونس واحتلها لفترة قصيرة السلطان أبو الحسن ، ثم

(١) يريد أن الله جعل على يده بعث الدولة المرينية .

(٢) يريد بعد أن . . . على الملائكة .

ابنه أبو عنان الموكل ، الذى سيغنى بأمر ابن بطوطه في المغرب .

وقد تصادف دخول ابن بطوطة تونس عندما كانت خاصة للسلطان أبي الحسن المربي ، بل كان هو نفسه في تونس ، ولقيه ابن بطوطة هناك ، ولهذا نراه يسرف في مدح أبي الحسن (والد أبي عنان الموكل) .

ثم سافر من تونس إلى المغرب في سفينة أحد القطلنيين ، ومر بسردانة ونزل بميناء كلياري Cagliari ، وكانت سردانة في ذلك الحين في حكم مملكة أرغون . ثم بارحها إلى تنس في الجزائر الحالية ، بعد أن خلصه الله من أسر القطلنيين .

ثم مضى إلى المغرب ، فربما سعى ثم تلمسان ، ومن هناك قصد زيارة قبر العودة إلى أبي مدين قطب صوفية المغرب في مدينة العباد على بضعة كيلو مترات شرق تلمسان وفي الطريق إلى المغرب وفي أثناء مروره بمنازل قبيلة أزغنغان - أو أرجنجان - بين مصب الملوية ومدينة مليلة كاد يقع قتال بين جماعته وأهل هذه القبيلة . ثم مر في مرتازا ، ودخل بذلك بلاد المغرب الأقصى وهناك بلغه خبر وفاة أمه بالوباء من حين قريب .

وفي أواخر شعبان ١٣٤٩ / نوفمبر ٧٥٠ دخل فاس ، وأن للغريب النازح أن يعود إلى وطنه بعد أطول رحلة قام بها عربي من التاريخ الوسيط .

## أسلوب ابن بطوطة في الكلام يتغير

عاد الغريب إلى وطنه بعد طول غياب ، ودخل مدينة فاس يوم الجمعة من أوائل شعبان سنة ١٣٤٩ هـ / نوفمبر ٧٥٠ م .

وهنا نلمح تغيراً حاسماً في أسلوب كلامه ونظرته إلى الأمور : فقد رأيناه إلى الآن ناقداً لكل مارأى من الأشياء أو من لقى من الملوك والرؤساء ، والنقد هنا هو تقدير الشيء قدره العادل ، وذكر المحسن والمساوي ولكنه منذ دخول المغرب مات النقد على شفتيه ، فلم يعد يذكر إلا المحسن في مبالغة غير مستحسنة . فسلطان المغرب أبو عنان المتوكل المريني هو « مولانا الأعظم والإمام الأكرم ، أمير المؤمنين المتوكل عن رب العالمين أبي عنان وصل الله علوه وبكت عدوه » ، فأنسنتي هيئته هيبة سلطان العراق ، وحسنها حسن ملك الهند ، وحسن أخلاقه حسن أخلاق ملك اليمن . . إلى آخر هذا الإطناب في المديح » (ص ٦٤٤) .

والحق أن أبو عنان فارس المتوكل كان سلطاناً لا بأس به (جاء في الآخرة ٧٤٩ - ذوالحججة ١٣٤٨ هـ / يوليو ١٣٥٧ م) ، فقد اجتهد في توسيع رقعة مملكته حتى شملت بعض الوقت كل الشمال الأفريقي ، وبين مدرستين عظيمتين هما المدرسة العنانية بفاس ، ومدرسة حومة بن حسين في سلا .

أبو عنان  
فارس المتوكل

ولكن إدارته - مثل إدارات كل الدول الزناتية في المغرب - كانت مضطربة تسودها الفوضى ، وقد انحلت عرماً المملكة من بعده ، فلا محل لهذا الإسراف في مدحه ، ولكن لم يكن لابن بطوطة مفر من ذلك ؛ لأنه عاد إلى بلاده بعد سفر طويل ، فكان فيها أشبه بالغريب ، ولم يكن له مال يعيش عليه ، وفي تلك العصور لم يكن هناك سبيل إلى المال للشيوخ وأهل العلم إلا الدولة والسلطان ، ولا سبيل للدولة

أو السلطان إلا بالمدح والتقرب .

ثم إن ابن بطوطة عاش على رفد أمة الإسلام خارج المغرب ؛ لأنه غريب وابن سبيل ، فكان ينزل في المدارس والزوايا والتوكايات ويستضيفه الفقهاء والقضاة ويكرمه السلاطين ، أما في المغرب فهو لا يستطيع العيش على هذه الصورة ، فهو فقيه معروف لا يستطيع النزول في الزوايا ، ولا يمكنه العيش على رفد القضاة والفقهاء .

ثم إنه كان يريد أن يحدث الناس برحلته ويجعل منها سبيلاً إلى الشهرة ومعاشاً ، ولا سهل إلى ذلك إلا عن طريق السلطان ، وكان أبو عنان فارس المتوكل رجلاً تقىاً كريماً ب رغم أن مافعله بأبيه أبي الحسن لم يكن فيه أى كرم ، ولكنه على أى حال كان بباب الرزق الوحيد المتاح لابن بطوطة ، ومن ثم فقد سعى للتقرب من السلطان عن طريق المدح والإلعام بأطراف من حديث رحلته ، وما زال حتى استرعى نظر السلطان ، ودخل في حواشيه عن طريق ابن جزى ، وقد استطرفة السلطان ، وأحب حديثه ، وأعجب برحلته فأمر ابن جزى باستكتابها ، وأصبح ابن بطوطة من حواشيه .

وما إن اطمأن ابن بطوطة إلى مكانه ومصدر عيشه ، حتى فكر في أن يستكمل رحلاته بزيارة الأندلس أولاً ثم بلاد السودان الأطلسية آخرأ ، قال ابن بطوطة :

« ولما حصلت لي مشاهدة هذا المقام الكريم ، وعمني فضل إحسانه العظيم -  
الرحالة إلى الأندلس  
قصدت زيارة قبر الوالدة فوصلت إلى بلدة طنجة وزرتها ، وتوجهت إلى مدينة سبتة فأفاقت بها أشهراً ، وأصابني بها المرض ثلاثة أشهر ، ثم عافاني الله ، فأردت أن يكون لي حظ من الجهاد والرباط ، فركبت البحر من سبتة في شطى<sup>(١)</sup> لأصل أصيلاً ، فوصلت بلاد الأندلس حيث الأجر موفر للساكن ، والثواب مدخول للمقيم والظاعن .

وكان ذلك إثر موت طاغية الروم ألفونس (الحادي عشر) وحصاره الجبل عشرة أشهر ، وظن أنه يستولي على ما بقي من بلاد الأندلس ، فأخذنه الله من حيث لم يحتسب ، ومات بالوباء الذي كان أشد الناس خوفاً منه » (ص ٦٥١).

(١) الشطى مركب صغير ذو شراعين ، واسمه معرب من اللاتينية Sagitta بمعنى السهم ، وفي الإيطالية Saettia . انظر ملحق القواميس لدوزي ، ص ٧٥٦/١ .

وجميل من ابن بطوطة ، وكانت سنه إذ ذاك خمساً وخمسين سنة على التقرير -  
أن تترع نفسه إلى زيارة البعض الباقي من الأندلس في أيامه ، وكانت الرحلة إلى  
الأندلس في ذلك الحين مخاطرة لا شك فيها .

وكانت حرب ممالك النصرانية مع بقية الأندلس إذ ذاك على أشدّها ، وكان  
ألفونسو العاشر يحاول جهده أن يستولى على جبل طارق ، ليقطع كل صلة للأندلس  
بالمغرب ، ولكنه توفي سنة ١٣٥٠ م وهي السنة التي دخل ابن بطوطة فيها الأندلس ،  
وخلقه بدره الأول ، ولم يكن له اجتهد في حرب غرناطة ، فتنفس محنق الأندلسيين  
حتى وفاته سنة ١٣٦٩ م في حياة ابن بطوطة .

ملكة غرناطة  
عندما زارها  
ابن بطوطة

دخل ابن بطوطة الأندلس من ناحية جبل الفتح ، وشاهد التحصينات الكبيرة  
التي أنشأها فيه أبو الحسن المربي ثم ابنه أبو عنان فارس المتكفل ، وكانت مدينة جبل  
طارق مدينة كبيرة زاهرة منذ اهتم بأمرها عبد المؤمن بن علي أول خلفاء الموحدين ثم  
بنوه من بعده . وكان النصارى قد استولوا عليه قبل ولادة أبي الحسن ، فاستعاده هذا  
مِنْهُمْ وحصنه سنة ١٣٣٣ هـ / ١٧٣٣ م ، وهو الذي بني القلعة الصغيرة التي ما زالت على  
قائمة الجبل .

مدينة جبل  
طارق

ومن جبل طارق ذهب إلى رندة ، قال : « وهى من أمنع معاقل المسلمين وأجملها  
وضعاً . وكان قائدها إذ ذاك الشيخ أبو الريبع سليمان بن داود العسكري ، وقضى بها  
ابن عمى الفقيه أبو القاسم محمد بن يحيى بن بطوطة ، ولقيت بها القاضى والأديب  
أبا الحاج يوسف بن المنشافرى ، وأضافى بمنزله » (ص ٦٥٤) ، وهو منسوب إلى  
منشافر Monte Sacro ، وهو تل كبير مشهور في غرناطة يقابل تل البياسين ، وفيه  
اليوم كهوف الغجر في أحواز غرناطة وهي من مقاصد السائحين .

في رندة

وأقام ابن بطوطة خمسة أيام في رندة ، ثم صعد مع الساحل فزار مَرْبَلَة Marbella  
التي متبع السياحة المشهور ، وأراد التوجه إلى مالقة في صحبة نفر من  
الفرسان ، ولكنه تختلف عنهم ، وكان ذلك من حسن حظه ، لأنهم عندما وصلوا إلى  
مدينة سُهَيْل (وهي اليوم فويثيرولا Fuengirola على ساحل مالقة) هاجمهم

الطريق إلى  
مالقة

العدو ، فقتل واحداً وفر واحد وأُسِرَ الباقيون ! ثم وصل ابن بطوطة بعد ذلك إلى  
مالقة . . .

ويذكر ابن بطوطة الكثير مما تفرد به مالقة مثل الرمان الياقوتي والتين واللوز  
المالقين ، وبهذه المناسبة يذكر عملية يسمى الدرهم الصغير ، وذكر كذلك الفخار  
العجبب ، ولم يذكره أحد من الجغرافيين قبله ، وذكر أيضاً مسجدها وقال عنه :  
«كبير المساحة شهير البركة ، وصحته لاظنير له في الحسن ، فيه أشجار النارنج  
البعيدة<sup>(١)</sup>» .

ثم انقل إلى بلش وهي Velez Malaga وكانت من مدن مملكة غرناطة الكبيرة ،  
ومنها إلى الحمة Alhama وهي الشهيرة في قصص الصراع بين الغرناطيين والنصارى ،  
ثم وصل إلى غرناطة ووصفها وصفاً موجزاً لا يقارن بما لدينا من أوصاف غرناطة في  
ذلك العصر مما كتبه ابن الخطيب .

ومن غرائب الصدف أن ابن خلدون وابن الخطيب وابن بطوطة ، وهم من أعاظم  
من أئدب الغرب الإسلامي ، تعاصرت معاً وتلاقي منهم اثنان في غرناطة ، وهما  
ابن الخطيب وابن خلدون ، وفات ابن بطوطة هذا اللقاء ، وأضاف ابن بطوطة :  
« ومن عجيب مواضعها عين الدمع وهو جبل فيه الرياض والبساتين ، ولا مثيل له  
بسواها » وهي قرية بمرج غرناطة قريباً منها واسمها الآن<sup>(٢)</sup> Ainadamar  
وما ينفرد ابن بطوطة بذلك عن غرناطة : « وبغرناطة جملة من فقراء العجم  
استوطنوها لشبهها ببلادهم ، منهم الحاج أبو عبد الله السمرقندى وال الحاج أحمد

(١) كذلك في الأصل ، ويغلب على الظن أنه تحرير للفظ البدعة ،

(٢) ذكر جيب في تعليقته (ص ٣٧٦ تعليق رقم ٤) أن عين الدمع تسمى اليوم Dinamar أو  
أختاداً على ما ذكره جايا نجوس في ترجمته الإنجليزية للجزئين الأولين من نفح الطيب .

Pascual de Gayangos, History of the Muhammedan Dynasties in Spain. I, 349.

وما ذكرناه نحن أصح ، وقد اعتمدنا فيه على تحقیقات لويس سيكودي لوثينا في كتابه : وثائق عربية غرناطية  
من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي (مشورات معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ص ١٩٦١ ،  
انظر الفهرس ص ١٨٠ تحت لفظ عين الدمع) .

التبذري وال حاج ابراهيم القوندي وال حاج حسن الخراساني وال حاجان على ورشيد الهنديان  
وسواهم » (ص ٦٥٦).

ولابد أن هؤلاء الفقراء قد وفدوا على غرناطة للجهاد فيها في عصر الحنة التي كانت تجتازها.

ثم عاد ابن بطوطه أدراجه فر بالحمة ثم بش ثم مالقة ثم حصن ذكوان ثم زندة إلى قرية بنى رياح : « فأنزلني شيخها أبو الحسن علي بن سليمان الرياحي ، وهو أحد كرماء الرجال وفضلاء الأعيان » (ص ٦٥٧). وهذه أول مرة نقرأ فيها عن قرية أندلسية في ذلك العصر (القرن الرابع عشر الميلادي) يحتلها فريق من عرب بنى رياح من بنى هلال الذين هاجروا إلى الأندلس .

ثم عاد إلى المغرب عن طريق جبل الفتح ثم أصيلا ، ثم اتجه إلى مراكش رأساً حيث كان السلطان أبو عنان فارس المتوكل .

ولقي السلطان ، وركب معه إلى سلا ثم إلى مكناسه ثم فاس ، وهنا يقول : « فودعت بها مولانا أいで الله وتوجهت برسم السفر إلى بلاد السودان » (ص ٦٥٨). وهكذا لا ينتهي هذا الرجل من رحلة حتى يشرع في أخرى . ومن الواضح أنه قرر أن يزور كل بلد فيه إسلام ، ونفذ ما عزم عليه ، فاستحق بذلك لقب رحالة الإسلام .

\* \* \*

وقد سمع ابن خلدون بأمر ابن بطوطة وحديث رحلته بعد عودة ابن بطوطة إلى بلده ، وقال في المقدمة : « ورد بالغرب لعهد السلطان أبي عنان من ملوك بنى مدین رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة ، رحل منذ عشرين سنة قبلها إلى المشرق ، وتقلب في بلاد العراق واليمن والهند ودخل مدينة دهلي حاضرة ملك الهند ، وهو السلطان محمد شاه ، وكان له منه مكان ، واستعملمه في خطة القضاة بمذهب المالكية في عمله ، ثم انقلب إلى المغرب واتصل بالسلطان أبي عنان وكان يحدث عن شأن رحلته ، وما رأى من العجائب بملك الأرض ، وكان يحدث عن دولة صاحب الهند ، ويتأقى من أحواله بما يستغرب به السامعون ، مثل أن ملك الهند إذا خرج إلى السفر أحصى أهل مدنته من الرجال والنساء ، والولدان ، وفرض لهم رزق ستة أشهر

موقف ابن  
خلدون من  
ابن بطوطة

يُعطونها من عطائه وأنه عند رجوعه يدخل في يوم مشهود ، يبرز فيه الناس إلى صحراء البلد ، ويطوفون به . وينصب أمامه في ذلك الحفل منجنينقات ترمى بها شكائر الدراهم والدنانير على الناس إلى أن يدخل إيوانه . وأمثال هذه الحكايات . تتناجي الناس بتكذيبه » .

وليس في ذلك الكلام تكذيب من ابن خلدون لابن بطوطة ، ولكنه يقول ماسمه من الناس . غير أنه يقول بعد ذلك .

« ولقيت أنا يومئذ في بعض الأيام وزير السلطان ، ففاضته في هذا الشأن . وأربته إنكار أخبار ذلك الرحيل لما استفاض الناس في تكذيبه ، فقال الوزير : إياك أن تستنكر هذا من أحوال الدول بما أنك لم تره ، فتكون كابن الوزير الناشيء في السجن . وذلك أن وزيراً اعتقله سلطانه . فكث في السجن ستين ربي فيها ابنه في ذلك المحبس ، فلما أدرك وعقل سأله عن اللحمان التي كان يتغدى بها ، فإذا قال أبوه : هذا لحم الغنم يقول : وما الغنم ؟ فيصفها له أبوه بثيامتها ونعمتها ، فيقول : يأكلت تراها مثل الفأر ، فيذكر عليه ويقول : وأين الغنم من الفأر ؟ وكذا في لحم البقر والإبل ؛ إذ لم يعاين في محبسه إلا الفأر ، فيحيبها كلها من جنس الفأر !

وغرير أن يكون هذا موقف ابن خلدون من ابن بطوطة . أما كان أجدى به أن يضفي هو بنفسه إليه ويتحدث معه ليستجل حقيقة أمره ؟ ولكن ابن خلدون كان سريعاً إلى سوء الظن ، سريعاً إلى النيل من الناس . وله أمثال هذه في مصر وغيرها أخبار كثيرة

## الرحلة السودانية

تعتبر رحلة ابن بطوطة الأخيرة ، وكانت وجهتها السودان الأطلسي – من أمعن رحلاته وأكثراها فائدة ودقة ، وقد اهتم بدراستها والتعليق عليها نفر من العلماء الإنجليز والفرنسيين في القرن الماضي وأوائل هذا القرن ، ولكن معلوماتنا عن أفريقيا المدارية والاستوائية الإسلامية قد اتسعت الآن ، فأصبحنا أقدر على تحقيق نص ابن بطوطة وأعرف بقدره العلمي<sup>(١)</sup> .

وأول بلد نزله ابن بطوطة من السودان الأطلسي كان سجلاسة ، وكانت في ذلك الحين من أكبر المراكز التجارية على الحدود الجنوبية للمغرب ، ومنها كانت القوافل تدخل صحراء الرمال وتقضى شهراً حتى تصل إلى أوادعشت ، وهي أول سوق تجارية كبيرة يلقاها المسافر من المغرب الأقصى إلى أفريقيا الغربية المدارية .

وسجلاسة تاريخ طويل في حولياتنا الإسلامية ، ولكنها تدهورت اليوم ، وأطلالها اليوم على مجاري وادي زيز على نحو ثمانية كيلو مترات من تافلالت الحالية ، وهو يعجب بتمورها بصورة خاصة ويقول : إنها أحسن من تمور البصرة ، ثم يقول : «ونزلت بها عند الفقيه محمد البشري ، وهو الذي لقيت أخاه بمدينة قنجهفو من بلاد الصين ،

(١) انظر :

W.D. Coaleg. The Negroeland Of The Arabs London 1841.

وهو كتاب قديم فيه أخطاء كثيرة ، ولا بد من الحذر عند استعماله .

De slane, Le voyage d'Ibn Battuta au Sudan Journal Asiatique Mars 1843.

M. De La Fasse, Haut Sénegal. Niger Paris 1912.

ويتضمن بين محتوياته ترجمة فرنسية ودراسة لرحلة ابن بطوطة هذه ج ٢ ص ١٩٤ - ٢٠٣ .

J. Marquart, Die Benin-Samm lung in Leiden. Leiden 1913.

Pierre Bertiaux, L'Afrique de la Prehistoire a l'époque contemporaine  
Collection Bordas. Paris 1973.

فيما شد ما تباعدا ! فأكرمني غاية الإكرام ، واشترت بها الجبال ، وعلقها أربعة أشهر» . (ص ٦٥٨)

وفي الأول من المحرم هـ ٧٥٣ / ١٨ فبراير ١٣٥٢ م دخل ابن بطوطة الصحراء في رفقة مُقدمها أبو محمد يندـكان المسوف ، فوصلنا بعد خمسة وعشرين يوماً إلى تغازى ، يقول : « وهي قرية لا خير فيها . ومن عجائبها أن بناء بيوها ومسجدها من حجارة الملح ، وسقفها من جلود الجبال ، ولا شجر بها إنما هي رمل فيه معدن الملح ، يحفر عليه في الأرض فيوجد منه الواح ضخامة ، متراكبة كأنها قد نحتت ووضعت تحت الأرض ، يحمل الجمل منها لوحين .

ولا يسكنها إلا عبيد مسوفة الذين يخرون على الملح ويتعيشون بما يجلب إليهم من تمر درعية وسجلابة ، ومن حوم الجبال ومن أتلى المخلوب من بلاد السودان ، ويصل السودان من بلادهم فيحملون منها الملح ، وبيع الحمل منه بأيولاتان<sup>(١)</sup> بعشرة مثاقيل إلى ثمانية ، وبمدينة مالى بثلاثين مثاقلاً إلى عشرين ، وربما انتهى إلى أربعين مثاقلاً » . ص (٦٥٨) .

وتغازى التي يشير إليها مازالت باقية إلى اليوم ، وهى إلى الشمال الغربى من تاوديني ، وقد أحطأ ابن بطوطة عندما قال : إنها قرية لا خير فيها ، لأن الملح في تلك الأعصر كان مادة اقتصادية عظيمة القيمة ، فقد كان الناس يتناولون منه مقدار كبيرة في كل بلاد أفريقيا المدارية والاستوائية ، لأنه يحفظ الماء في الجسم ، فلا يبخر كله نتيجة الحر الشديد وكذلك الحال بالنسبة للحيوان ، فكان الناس يقبلون عليه ويدفعون فيه الثمن الغالي ، وعلى موارد الملح وتبر الأنهار قامت ثروات الدول الإسلامية التي نشأت هناك وأهمها مالى وغانا وصنتى .

أما عبيد مسوفة الذين لقيهم في تغازى فهم بقايا قبيلة مسوفة العظيمة التي أقامت مع أحواتها لمدونة وجزولة وغيرها من صنهاجة الجيل الثاني دولة المرابطين ، وقد استهلك المسوفيون أنفسهم في إقامة الدولة المرابطية وفي حروبها في المغرب والأندلس .. ومن كلام ابن بطوطة نفهم أن بقايا المسوفين هؤلاء كانوا يعمرون الصحراء من

(١) تكتب أيضاً أيولاتان .

تغازي إلى تمبكتو ، وكانت منازلهم تمتد شرقاً حتى منطقى الواحات في بلاد غير الهممَار التي تعرف في النصوص الأوربية باسم Ahoggar جنوب جمهورية الجزائر الحالية . والأولى صنف من الحبوب الصغيرة يشبه الدخن ، وهو النزرة الصغيرة ، وكانوا يصنعون منه الدقيق والخبز .

وأبوالاتان نسبة إلى ولاته وهو اسم قبيل مازال في شرق السنغال الحالية . وفي خرائطنا اليوم قريتان باسم أبوالاتان هناك ، وابن بطوطة يقصد الشرقية منها ، وهي على خط عرض ١٧,٠٢ شمالاً وخط طول ٦,٤٤ غرباً .

ويذهب هاملتون جيب إلى أن أبوالاتان هذه حلت محل مدينة غانة القديمة ، وهي آخر محطات القوافل العابرة للصحراء في القرن الثالث عشر . وهذا في رأينا خطأ ؛ لأن مدينة غانة دُرِّت ثم حلت محلها مدينة كومي صالح إلى جنوب بلدة ولاته المذكورة آنفاً ، وهي إلى الغرب من تمبكتو ، وينحطُّ جيب مرة أخرى عندما يقول : إن ولاته حلت محل أودغشت ؛ لأن هذه الأخيرة ظلت قائمة إلى شمال نهر السنغال .

ويقول ابن بطوطة : إن الناس في السودان يتصرفون - أى يتعاملون - بالملح ؛ كما يتصرف الناس بالذهب والفضة بعد أن يقطعنوه قطعاً . ويضيف « وقرية تغازي - على حقارتها - يُعامل فيها بالقناطير المقطرة من التبر ، والذي يُغضنه فيها هو كثرة الذباب في أرضها ، وكذلك ماوها فقد كان زعاقاً . وبعد تغازي تدخل القوافل صحراء لا ماء فيها يقطعنونها في عشرة أيام ، وهذا فهم يحملون الماء من هذه القرية . ويقص علينا ابن بطوطة بعد ذلك شيئاً من أخطار هذه الصحراء ، وكثرة من يملكون فيها إذا فرغ منهم الماء أو إذا ضلوا الطريق .

ثم تصل القافلة إلى موضع يسميه « تاسر هلا » استعصى علينا تحقيقه ، وهذا أمر غير مستغرب ؛ لأن هذه الموضع تقوم على آبار تكتشف في مواضعها ، فإذا نضبت البئر زال الموضع جملة ، وفي الكثير من نواحي الصحراء الكبرى أمثلة كثيرة على ذلك .

وقد يتجمع الماء بعد زمن طويل في البئر نفسها فتقوم قرية جديدة باسم جديد ، وهذه ناحية من نواحي الصعوبة في الدراسات الجغرافية في الأقاليم الصحراوية .

وهنا يتحدث ابن بطوطة عن التكشيف ، وهو الكشاف بتعبرنا اليوم ، وهو الرجل من مسوفة يكتريه أهل القافلة ، فيتقدم إلى أيوالاتان يكتب الناس إلى أصحابهم بها ليكتروا لهم الدور ، وينزحوا للقائهم بالماء مسيرة أربع ، ومن لم يكن له صاحب بأيوالاتان كتب إلى من شهر بالفضل من التجار بها فيشاركه في ذلك ، وربما هلك التكشيف في هذه الصحراء ، فلا يعلم أهل أيوالاتان بالقافلة ، فيهلك أهل القافلة أو الكثير منهم (ص ٦٥٩) .

ويبدو أن المراد بالمسوفين هنا هم الطوارق وأصلهم من هذا الفريق من قبائل صناعة الصحراء التي أقامت دولة المراطين ، والغالب عندنا أن الطوارق ينحدرون من قبيلة « تارجا أخت مسوفة » والسبة إليها تارجي التي عربت إلى طارق ثم جمعت على طوارق ، وها نحن أولاء نرى هنا أنهم يسمون المسوفين .

ثم يقول : إن هذه الصحراء « كثيرة الشياطين ، فإن كان التكشيف منفرداً لعبت به واستهواه حتى يصل عن قصده فيهلك » ، وهذه إشارة إلى ما يصيب الكثيرين من الناس في الصحراء من أوهام ومخاوف وحالات نفسية إذا ضلوا الطريق أو حسبوا أنهم ضلواه ، وخاصة إذا كان المسافر منفرداً .

ولقد دفعت رفقة ابن بطوطة لتكشيفها - أى دليلها المسوف - مائة مثقال من الذهب فقادهم بمهارة إلى أيوالاتان في سبعة أيام ، وفي الأول من ربيع الأول ٧٥٣ هـ وصل ابن بطوطة إلى أيوالاتان .

وفي أيوالاتان كان لا بد لهم من أن يلقوا نائب السلطان ، ولقبه الفربا واسميه حسين ولم يسعد ابن بطوطة بلقاء فربا حسين لما رأى من تعاظمه واستكباره ، فقد كان يكلم الناس بترجان احتقاراً لهم . يقول ابن بطوطة : « فعند ذلك ندمت على قدومي إلى بلادهم لسوء أدبهم واحتقارهم للأبيض .. (ص ٦٦١) .

وكان لا بد لهم من أن يحضرروا طعام الفربا هذا وهو جريش ألن مخلوطاً بيسير عسل ولين ، قد وضعوه في نصف قرعة صيروه شبه الجفنة ، فشرب الحاضرون وانصرفوا ، فقلت لهم : لهذا دعانا الأسود؟ قالوا : نعم ! وهي الضيافة الكبيرة عندهم ، فأيقتن حيئذ أن لا خير يرجي منهم . وأردت أن أسافر مع حاجج أيوالاتان -

عائداً إلى المغرب - ثم ظهر لي أن أتوجه لمشاهدة حضرة ملكهم » (ص ٦٦١) . وهكذا نرى كيف أن ابن بطوطة الذي عرف الإكرام والتسليل في رحلاته السابقة يدركه الضجر ؛ لأنه لقى ماتصور أنه سوء معاملة مرة ، ويشكوا من تواضع ما قدم إليه من طعام ، وهو الذي تعود الطعام الوافر المستجاد ، أوربا تكون هي السن وطول الرحلات قد أثرت فيه ، فالت به إلى الضجر . وكانت سن ابن بطوطة الآن اثنين وخمسين سنة ، فقد ولد ستة ثلاث وبسبعين ونحن اليوم في سنة ٧٥٣ هـ ١٣٥٢ م . وما فوق الخمسين كانت سنّاً عالية في تقدير أهل تلك العصور الذين كانوا يصفون ابن الأربعين بأنه كهل ، وهو في عرفاً اليوم في عنفوان الشباب !

ولم يرض ابن بطوطة عن المسؤولين الساكدين في أيوالاتن قط بسبب تساهليهم في مسائل العلاقات مع النساء ؛ فإن رجالهم لا غيرية فيهم ، ولا يتسبب أحدهم إلى أبيه ، بل إلى حاله ، ولا يرى الرجل إلا أبناء أخته دون بنيه ، يقول : « وذلك شيء مارأيته إلا عند سكان المليبار من الهنود ، وأما هؤلاء فهم مسلمون محافظون على الصلوات وتعلم الفقه وحفظ القرآن ! » .

وهكذا نرى أن ابن بطوطة لا تعجبه بلاد أفريقيا المدارية ولا يرضى عن أهلها فهي في نظره بلاد فقيرة وابن بطوطة برغم أنه خرج من بلده بدنانير قليلة تعود إلى الآن أن يجد السعة حيث نزل . حقاً إنه في بلاد مثل تونس ومصر لم يكن يجد إلا المأوى والطعام البسيط ، ولكن هذا الطعام كان وافراً مع بساطته ، فيما الإنسان بطنه يزيد أو فول أو عدس ولا يشعر بعد ذلك بالجوع ، ثم إنه كان يجد الأنس في تلك البلاد في صحبة الشيوخ وأهل الفقه والعلم ، ويجد كذلك المتعة في لقاء الأولياء وزيارة المزارات والمشاهد ، أما هنا في بلاد أفريقيا المدارية فطعم قليل ونوعه لا يعجب ابن بطوطة . ثم إنه لا يجد علماء أو فقهاء أو قضاة يأنس إليهم أو أولياء يتبرك بهم .

فسميت نفسه ومال إلى العودة من حيث أتي ، ولكن حب الرحلة دفع به إلى مواصلة السفر حتى يلقى سلطان البلاد .

ويبدو كذلك أن ابن بطوطة لم يستطع رياضة نفسه على التعامل مع السود وفهمهم ، فإن ماتصوره من كبراء الغرباً حسين إنما كان مظهراً من مظاهر خوف أهل

هذه البلاد من الأجانب الذين كانوا كثيراً ما يغدون على بلادهم ، ويخطفون نساعهم وأولادهم !

ومما زاد في سأم ابن بطوطة شدة الحر وهو بالفعل أمر مرهق بالنسبة لأمثاله ؛ فإن التعود على البرد ميسور ، أما الحر فمن العسير التعود عليه وخاصة إذا اتصل يوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر !

## في مملكة مالي

ويضى ابن بطوطة في التعبير عن استيائه من أهل أيوالاتن فيقول : إن نساءهم لا يختشمن من الرجال ولا يمتعجن مع مواطنين على الصلوات « والنساء هناك يكون لهن الأصدقاء والأصحاب من الرجال الأجانب ، وكذلك للرجال صواحب من النساء ، ويدخل أحدهم داره فيجد امرأته ومعها صاحبها فلا ينكر ذلك ! » (ص ٦٦٢). وهذا الكلام - إذا صدق - فإنه من بقايا طور سيادة المرأة في الأسرة أو ما يسمى بالماترياركتات Matriarcats وهو دور مرت فيه أم كثيرة ؟ لأن الرجل في الجماعات الإنسانية الأولى كان يقوم بالصيد وال الحرب فحياته معرضة للخطر . والعنصر الثابت في الزوجية هي الأم .

ولهذا فقد كانت هي المسئولة عن الأولاد ، وفي حالة موت الأب ، وكان كثير الحدوث ، حل الحال محل الأب .

وما توهمه ابن بطوطة قلة الأزواج إنما هو مظهر من هذا الطور الاجتماعي ؛ لأن الزوجة مادامت تحمل معظم المسؤوليات فقد كانت تتمنع بحرية واسعة ، وظاهر أن أولئك القوم كانوا حديثي عهد بالإسلام .

وعلى أي حال فقد نفر ابن بطوطة من أولئك القوم نفوراً شديداً ، فقرر الخروج إلى مالي ، وبينها وبين أيوالاتن أربعة وعشرون يوماً ، فخرج في نفر قليل من صحبته ومعهم دليل من غير مسوقة .

وهو يصف الطريق بأنه كثير الحضرة والأشجار ، ومن بين هذه الأشجار « شجرة قد استأنس داخلها واستنقع فيه ماء المطر فكأنها بئر ، ويشرب الناس الماء الذي فيها » (ص ٦٣٣) ، والمراد بذلك شجرة الياباب واسمها العلمي (Adansonia Digitate)

النساء في مالي

غائب من  
الأشجار

وهي شجرة سريعة الفو تخزن الماء في جذعها ، فيحضر الناس في الجذع ليأخذوا الماء ، وتحل الشجرة بذلك محل البئر . وقد نقل الإنجليز إلى منطقة كردفان الكثير من هذه الأشجار لتوفير مورد ماء دائم للشرب في تلك المنطقة .

### أشجار غريبة أخرى

ويذكر ابن بطوطة أشجاراً أخرى منها واحدة يغلب أنها شجرة التابيوكا التي تخرج ثمراً في هيئة الكثري إذا طاب انفلق عن دقيق يطبخ ويستعمل للغذاء ، وكذلك يذكر القرع الضخم الذي يفرغ ما في داخله إذا طاب ويحلف الغلاف ويستعمل إناء ، وهذا هو أصل « القرعة » وهو إناء معروف كان مستعملاً في مصر والسودان ، ويدرك نباتاً يسمى القونى « وهو كحب الخردل يصنع منه الكُسْكُسُ » وهو الطعام المغربي المشهور .

وبعد مسيرة عشرة أيام وصل ابن بطوطة إلى زاغزى ، وقد حرقها دى لافوسى (Delafosse) وقال إنها دبورا وسماها بارت Barth توري سَنَا ، يسكنها فيها يقول ابن بطوطة تجارة السودان ويسمون وَنْجَرَاتَة ، ويسكن معهم جماعة من البيضان يذهبون مذهب الأباضية من الخوارج ويسمون صنفون والسيون الملاليون يسمون عندهم توري ، « ومن هذه القرية يجلب ألى إلى أيوالاتن » (ص ٦٦٤) .

والونجراته هم الونجارة أو الوانقورى ، وهو الاسم الذى أطلقه شعب الغولا وصُنْفُنْ على شعب السويفتى والمالانكى ، وهو شعب يغلب على الظن أنه هاجر من المغرب إلى بلاد السودان ، وأخذ الطابع السودانى ، وعلى أكتاف هؤلاء قامت دولة صُنْفُنْ . ومن هناك وصل إلى نهر النيل ويسمي النهر الأعظم وهو النيل ، وكلامه يدل على أنه كان يعتقد أنه فرع من نيل مصر ، فهو ينحدر إلى بلاد النوبة ، ويقول : إنهم « على دين النصرانية » ثم إلى دنقلا ، وهى أكبر بلادهم ، وسلطانهم يدعى بابن كتر الدين أسلم على أيام الملك الناصر .

ثم ينحدر إلى جنادة ، وهى آخر عمالة السودان وأول عمالة أسوان من صعيد مصر (ص ٦٦٤) .

وفيها عدا ما يقوله عن اتصال النيل بالكونغو - كل ما ذكره ابن بطوطة عن السودان النيلى وأهله صحيح ، ولكن كتر الدين هو كتر الدولة الذى ينسب إلى بيته عرب الكنوز ، وهم كانوا الطليعة التى قبضت على دول النصرانية فى شمال السودان .

ثم وصل إلى تمبكتو ودهش لرؤيه التساح في ماء النيلجر ، ثم استرسل في المسير حتى وصل «مدينة مالي حضرة ملك السودان فنزلت عند مقبرتها» ومن هناك اتصل بمعارفه ومن كان كتب إليهم من الفقهاء والقضاة ، فأكرموا وفادته .

ويذكر ابن بطوطه أنه لقى سلطان مالي ويسميه «منسي سليمان» وهذا صحيح . وهنا يجدر بنا أن نذكر أن مالي لم يكن اسم بلد ، بل اسم ثانية المالك الأفريقية السودانية الكبرى التي قامت في غرب أفريقيا ، وقد أنشأها في أوائل القرن الحادى عشر زعيم يسمى كاتيا في منطقة الفتاجالون ، ثم توسيعها حتى شملت حوض النيلجر الأعلى كلها ، ودخلت في حوزتها تمبكتو وجاو ورسجو وغيرها من المدن الكبرى هناك . وكانت عاصمتها كنجابي (Kingabe) على الجري الأعلى لنهر النيلجر عند منبعه ، وتلك هي المدينة التي دخلها ابن بطوطة وسمها مدينة مالي ، وفي أوائل القرن الثالث عشر تولى أمر هذه المملكة (ماري ويانة) المعروف عند مؤرخينا باسم ماري جاطة وهو من أعظم ملوك مالي ، وتوفي سنة ١٢٥٥ م وخلفه ابنه منسي أولى ، وهو أول من حج إلى مكة المكرمة عن طريق مصر .

وفي سنة ١٣٣٧ م تولى الملك أبو بكر الثاني المسمى بكنكان موسى أو منسي موسى ، وهو أعظم ملوك مالي على الإطلاق ، وقد حج حجة مشهورة ومر بالقاهرة وأفضل على الناس هدايا الذهب ، مما أذاع في الدنيا شهرة مالي بالثروة ، وتوفي سنة ١٣٤١ م .

وخلفه ابنه منجان الأول ، ولكن عمه سليمان ورث الملك بعد وفاته وحكم فيها بين سنى ١٣٤١ م و ١٣٦٠ م ويصفه ابن بطوطة بأنه بخييل ، ثم قال بعد انصرافه من لقائه : «ولا انصرفت بعث إلى بالضيافة ، فوجّهْتُ إلى دار القاضى ، وبعث بها القاضى مع رجاله إلى دار ابن الفقيه فخرج ابن الفقيه من داره مسرعاً حافى القدمين فدخل على وقال : قم ، قد جاءك قاش السلطان وهديته ، فقمت وظلت أنها الخلع والأموال ، فإذا هي ثلاثة أقراس من الخبز ، وقطعة لحم بقرى مقلو بالغربي ، وقرعة فيها لبن رائب ، فعندما رأيتها ضحكت وطال تعجبى من ضعف عقولهم ، وتعظيمهم للشيء الحقير» (ص ٦٦٦) .

وكان ابن بطوطة رجلاً جريئاً ، فأقام أربعة أشهر يتردد على مجلس السلطان عساى يظفر منه بهدية ، فلما عيل صبره تحدث إلى الترجان في ذلك فقال له الترجان : قل للسلطان ماتريد وأنا أترجمه عنك .

قال ابن بطوطة : « فجلس في أوائل رمضان وقت بين يديه وقلت له : إني سافرت في بلاد الدنيا ولقيت ملوكها ، ولـي ببلادك أربعة أشهر ولم تُضفي ولا أعطيني شيئاً ، فإذا أقول عنك عند السلاطين ؟ » فقال : إني لم أرك ولا علمت بك ! » (ص ٦٦)

إكرام ملك سليمان  
فذكره الفقيه والقاضي بأنه رأه بالفعل وأرسل له طعاماً ، وهذا تغير موقف إكرام ملك سليمان ، فأمر له بدار يسكنها ونفقة تجرى عليه . وفي ليلة السابع والعشرين من رمضان فرق السلطان الركبة « وأعطاني معهم ثلاثة وثلاثين مثقالاً ، وأحسن إلىّ عند سفرى بمائة مثقال ذهباً ». وبهذا قررت عين ابن بطوطة ورضي عن مالى وملك مالى منسى سليمان ، ومنسى معناه الأمير أو الرئيس .

ويقدم لنا ابن بطوطة تفاصيل غاية في الطرافـة والأهمية عن مملكة مالى أيام منسى سليمان أى في أوج قوتها ، ووصفه يدل على مُلُكٍ ثابت ونظام حكومى بدائي ولكنه واف بالغرض ، وإن كان لا يكاد يجد فرصة للتندـر بالسلطان وأهله إلا ابتدـرها .

ما زالت معاشرته في بلادهم  
عندما يقترب موعد مغادرته البلاد يعقد فصلاً يذكر فيه ما استحسنه من أفعال السودان وماستقبـحـه منها ، ونذكر هنا ما استحسنه وهو العدل وقلة الظلم : « فهم أبعد الناس عن الظلم وسلطانـهم لا يسامح أحداً في شيء منه ، ومنـها شمول الأمـن في بلادـهم ، فلا يخاف المسـافـر فيها ولا المـقـيم من سـارـق ولا غـاصـب ، ومنـها عدم تعرضـهم لـمـال من يـمـوت بـبلـادـهـمـ منـ البيـضـان . . . ومنـها موـاظـبـتـهمـ للصلـواتـ والتـزـامـهـمـ لهاـ في الجـمـاعـاتـ وضرـبـهـمـ أـولـادـهـمـ عـلـيـهاـ ، وإـذـاـ كانـ يـومـ الجـمـعـةـ وـلـمـ يـكـرـ الإـنـسـانـ إـلـىـ المسـجـدـ لمـ يـجـدـ أـينـ يـصـلـىـ لـكـثـرـ الرـحـامـ ؟ » (ص ٦٧٢)

وأما مالم يستحسنه فيتركـ كلـهـ علىـ خـروـجـ النـسـاءـ عـارـيـاتـ ، وهوـ شـيءـ طـبـيعـيـ في تلكـ الـبـلـادـ ، فإذاـ نـحـنـ اـسـتـشـيـنـاهـ وـجـدـنـاـ صـورـةـ مـشـرـقـةـ لـدـوـلـةـ مـالـىـ الإـسـلـامـةـ وـلـأـثـرـ الإـسـلـامـ فـيـ نـفـوسـ النـاسـ وـإـخـرـاجـهـمـ مـنـ الـظـلـامـ إـلـىـ النـورـ .

دخل ابن بطوطة مالي في ١٤ من جمادى الأولى سنة ٧٥٣ هـ وبارحها في ٢٢ من  
محرم سنة ٧٥٤ هـ / ٢٨ يونيو ١٣٥٢ م - ٢٧ فبراير ١٣٥٣ م ، وفي طريق عودته عند  
بلدة تسمى ميمة رأى فرس البحر وتعجب من هيئته ، ووصل تمبكتو ولم يصفها ،  
ومنها إلى كوكو وهي جاو الحالية على شاطئ النيجر وتسمى أيضاً جاو جاو .

صنفى

وكانت هذه البلدة عاصمة مملكة صنفى الإسلامية ، وقد بلغت أوجها في عهد  
سلطانها سُى - على (١٤٦٥ - ١٤٩٢ م) وقد قبض على مملكة سلطان المغرب أحمد  
المنصور الذهبي سنة ١٤٩١ م ، ومن هناك أخذ ابن بطوطة طريق المغرب إلى تكدا مع  
قافلة من الفدامسيين ، وتكدة هي تجادا أو تكادا ، وكانت أكبر مركز من مراكز  
الطوارق سادة الصحراء وحراس طرقها<sup>(١)</sup> .

---

(١) انظر عنها تعليق جيب في كتابه الأنف الذكر ، ص ٣٨٢ تعليق ٣٥ .

## العودة وكتابة الرحلة

فرغ ابن بطوطة من زيارته للسودان الأطلسي الإسلامي ، واستكمل بذلك العمل طریق العودة الذي فرضه على نفسه من زيارة عالم الإسلام كله في عصره ، وأخذ طريق العودة فوصل إلى تكدا ، وهي كما قلنا تجداً أو تكداً ، وهي على قول الرحالة الألماني بارت تجداً أیت تيزمت على نحو ١٨٠ كيلو متراً من أغادس الحالية إلى الشمال الغربي منها . ولكن الشيء الحیر هو معدن النحاس أو مناجمه التي يقول ابن بطوطة : إنه رأها هناك ، مما حدا بأحد الباحثين وهو (F.R.Rodd)<sup>(١)</sup> إلى القول : بأن موقع هذا البلد لا بد أن يكون إلى جانب أغادس الحالية .

وإذا كان معنى لفظ تجدا هو الوحدة الصغيرة التي يتجمع فيها المطر فما أكثر التجادات على ذلك ! ويدھب جیب إلى أن تجدا هذه كانت أكبر مراكز الطوارق في الصحراء .

وقد ذهب ابن بطوطة لرؤیة ملك تكدا ، وكان قد خرج لحاربة عدو له ، في بلاد فاستصحب ابن بطوطة القاضي والخطيب ولقي الملك . وكان يسمى إزاراً ويصفه بأنه بربى أى من البربر ، وعلى هذا فهو في الغالب من الطوارق كما يقول جیب . وقد رضى ابن بطوطة عن هذا الملك ، لأنّه أكرمه بالطعام الطيب الذي يحبه ابن بطوطة ، وهو رأس غنم مشوى في السفود ، وأعطاه عشرة مثاقيل من الذهب ، وهذا

Cautier et chudeau, Mission du Sahara, II, 257.  
F.R. Rodd, People of the Veil, 452-456.  
Delafosse, Hought-Sinègal-Niger, Paris 1912.  
II, 193.  
H.A.R. Cibb, Op. Cit P. 382. n. 36.

(١) انظر :

شيء آخر يحبه ابن بطوطه ويطلق لسانه بالمديح .

وعندما عاد إلى تكدا وجد رسولاً من السلطان أبي عنان فارس المتكل المريني يستدعيه للعودة إلى فاس للقاء السلطان ، فسر ابن بطوطة بذلك وامثل للأمر على الفور .

والغالب أن السلطان المريني كان مشوقاً إلى معرفة هذه البلاد السودانية التي يأتي منها القدر الوافر من التبر .

وأخذ ابن بطوطة الطريق إلى توات ، قال : « ورفعت زاد سبعين ليلة ، إذ لا يوجد الطعام بين تكدا وتوات ». بلاد التبر

فخرج من تكدا في الحادى والعشرين من شوال ١٣٥٤ هـ / ١١ من سبتمبر ١٣٥٣ م ، ووصل إلى كاهر « من بلاد السلطان الكركدي » كما قال ، وكاهر هي كوير أو جوبر ، وجابر اسم إقليم واسع تابع لبلاد الموسا وعاصمته سوكوتون إلى الغرب من تشاد . وهو يصفها بأنها بلاد أعشاب ، وبعد مسيرة ثمانية عشر يوماً في برية لاعماره فيها ولا ماء إلا في جزئها الأخير وصل إلى الموضع الذي يفترق فيه الطريق .

فاما الذاهب إلى مصر فيأخذ طريق غات ، وأما الذاهب إلى الغرب فيأخذ طريق توات ، فأخذ طريق هذه الأخيرة ووصل إلى بلاد الهكار ، وهي مركز كبير من مراكز الطوارق المسلمين .

وهو يصفهم بأنهم لآخر عندهم ، ولكنه وصل إلى بلادهم في شهر رمضان وهم يمتنعون فيه عن الغارة على أي قافلة أو العدوان على أحد .

قد قطعوا أرض الهكار في شهر ، ثم وصلوا إلى بودا وهي من أرض توات ، وكانت إذ ذاك باباً من أبواب المغرب وأكل أهلها التمر والجراد « وهو كثير عندهم ، يختزنونه كما يخزنون التمر ويقتاتون به ». .

وفي أواسط ذى القعدة ١٣٥٤ هـ / ديسمبر ١٣٥٣ م وصلوا سجلاسة ، أي دخلوا أرض المغرب ، وكان الوقت شتاء والبرد قارساً والأرض مغطاة بالثلوج في هضبة الأطلسي التي احترقها في طريقه إلى فاس « فوصلت إلى فاس ، حضره مولانا أمير المؤمنين أيده الله ، فقبلت يده الكريمة ، وتيمنت برؤية وجهه المبارك ، وأفقت في كنف إحسانه بعد

طول الرحلة ، والله تعالى يشكر على ما أولاً نيه من جزيل إحسانه وسأبلغ امتنانه ،  
ويندم أيامه ، ويتعظ المسلمين بطول بقائه» .

«وها هنا – يقول النص – كان خاتم الرحلة المسماة تحفة الناظار في غرائب الأمصار  
وعجائب الأمصار ، وكان الفراغ من تقييدها في ثالث ذى الحجة عام ستة وخمسين  
وسبعينه . والحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفني» ، وهو التاسع من ديسمبر  
١٣٥٥ م .

وقد ختم الرحلة ابن جزى بعبارة لطيفة قال فيها : «انتهى ما لخصته من تقييد  
الشيخ أبي عبد الله محمد بن بطوطة ، أكرمه الله ولا يخفى على ذى عقل أن هذا الشيخ  
هو رحال العصر ، ومن قال رحال هذه الملة لم يبعد» .  
وكان فراغ ابن جزى من كتابة تلخيصه في شهر صفر ٧٥٧ هـ / فبراير ١٣٥٦ م .

\* \* \*

ونفهم من هاتين الخاتمتين أن ابن بطوطة لم يُعملْ حديث الرحلة على ابن جزى كما  
يظن ، بل قام بتقييد رحلته بنفسه ، ثم تولى ابن جزى اختصار هذا التقييد ووضعه في  
أسلوب جيد ، لأن ابن بطوطة ربما يكون قد أطال في ذكر التفاصيل ، فكان لابد من  
اختصار كلامه .

والغالب أيضاً أنه لم يكن بصاحب أسلوب حسن ، فاحتاج الأمر إلى من يصوغ  
الرحلة في أسلوب أدبي ، وهذا هو الذي فعله ابن جزى ، وهو عمل ليس باليسير .  
وكان يقوم بالعمل أولاً فأولاً ، وهذا يفسر لنا قصر المهلة بين فراغ ابن بطوطة من  
التقييد وفراغ عبد الله بن جزى من التحرير .

\* \* \*

وقد حرصت في أثناء عرض الرحلة مرحلة التعليق عليها وتحليلها وتحقيق  
مواضعها وماورد فيها من تفاصيل – على بيان أهمية كل مرحلة وكل حقيقة أوردها  
مما يغنى الآن عن تعليق شامل مفصل ، وإنما الذي لابد منه – كلمة ختامية توجز فضل  
هذه الرحلة وقدر صاحبها ، فنقول :  
هذا رجل ندب نفسه للقيام بعمل لا تقوم به إلا هيئة من العلماء يؤيدوها مال كثير

رحلة ابن  
بسطوطة  
استطلاع للعلم  
الإسلامي في  
عصره

وتأييد سياسي كبير ، وهو اكتشاف عالم الإسلام الواسع أو استطلاع أحواله بتعبير آخر وزيارة بقاعة أهله وحكامه والتعرف عليهم . وقد قام ابن بطوطة بهذا العمل بصورة كاملة تستوقف النظر ، وقد رأينا بعد أن كشف عالم الإسلام حتى الصين ، وعاد إلى وطنه - نهض مرة أخرى فزار ماتبقى للإسلام من الأندلس ، ثم زار أفريقيا الأطلسية والخدر حتى تمبكتو وجادو ، ثم اخترق الصحراء الكبرى عن طريق تكدا وتوات وسجلهاة ، وذلك لكي يستكمل عمله ويوف على غايته ، وهذا يدل على عزم ثابت ونفس قوية وقوة حركة كامنة في تلك النفس .

وقد دفعت ابن بطوطة إلى ذلك حواجز قوية من دينه في المكان الأول ، ثم من تعطشه إلى المعرفة في المكان الثاني ، ثم من حب للمغامرة وجرأة على ركوب المصاعب والتعرض للمخاطر في المكان الثالث .

وهذه كلها دوافع نبيلة تكشف لنا عن إنسان نبيل طموح جدير بكل تقدير وإجلال ، وهو بهذا العمل الذي قام به وبالدowافع الشريفة التي حفظته عليه - يعد بحق من عظماء أمّة العروبة والإسلام ، وهو دون شك أيضاً من عظماء التاريخ العالمي كلّه .

فتحن إذاً كما نتظر بأنّه أعطانا صورة للعالم الإسلامي في النصف الأول من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي - فإن تاريخ العلم يذكر اسمه كواحد من طلائع عصر الكشوف الجغرافية .

ولا عجب والحقيقة هذه أن نجد أهل الغرب قد عنوا بهذه الرحلة أكثر مما عنينا بها ، وما من فصل من فصولها إلا تتعاقب على درسه الثلاثة والأربعة وأكثر منهم . وهم لم يقنعوا مثلاً بطبع الرحلة (دون مقدمة !) أو بتأليف كتب قليلة عنها ، بل درسوا وحققوا أسماء الأماكن والمسافات وفحصوا كلّ حقيقة ذكرها فحصاً دقيقاً .

ويرى القارئ في ثبت المراجع أنني اعتمدت في هذه الدراسة على عشرات من الأبحاث الجليلة قام بها نفر من أجيال علماء الغرب ، وفي الغرب يعرفون أقدار الرجال أكثر مما نعرف !

وقد رأيت اجتهد ابن بطوطة في القيام بمهنته التي كلف نفسه القيام بها :

ولاحظت استقصاءه لكل شيء وإجهاده نفسه في مشاهدة كل شيء بنفسه ، ونسترجع النظر هنا إلى القيمة الحضارية لهذه الرحلة ، فإن هذا الرجل عنى عناية تامة بكل ما يدخل في نطاق الحضارة !

فهو لا يدخل بلدًا إلا وصف منازله ودوره ومواد بنائها ، ولا يفوته أن يصف الهيئة العامة للبلد من ضيق في الشوارع أو اتساع ، ومن نظافة أو قلة عناية ، وهو حريص كذلك على أن يصف كل طعام أكله في كل بقعة زارها ، وهو لا يكتفى بالذكر بل يصف لنا كيف يصنع هذا الصنف أو ذاك ، ومم يصنع ؟ وكيف يقدم ؟ .

ويضيف إلى ذلك معلومات ضافية عن الزروع والمنتجات والأشجار والثمار ، يذكر ذلك بكل دقة ، ولا يبرأ فاكهة أو ثمرة غريبة إلا وصفها وذكر لونها وطعمها وسعيرها في كثير من الأحيان .

ولو أحصينا أصناف الطعام الذي وصفه في كتابه لكان لدinya خريطة غذائية أو ما يسمى بالفرنسية (Carte Gastronomique) للعالم الإسلامي من طراز فريد . ومثل ذلك يفعله بملابس ، فهو يصف ملابس الناس في كل قطر ، ويبلغ به الأمر أن يصف ملابس كل صنف من أصناف الناس رجالاً ونساء ، ويدخل هنا تفاصيل غاية في الدقة تدل على أنها أمام رجل حضاري يعرف قيم الحضارة المادية والمعنية ويزنها وزنها الصحيح .

ولنضيف إلى ذلك اهتمامه بالعملة والأسعار وسعر الصرف في كل مكان ، ومقابلة ذلك بما يساويه من العملة المغربية على أيامه ، وكانت عملة صحيحة تصلح أن تكون معياراً للقياس ، وهنا أيضاً مجال بحث واسع يستطيع الإنسان أن يكتب فيه دراسة ذات قيمة .

ثم إن الرجل كان معانياً باللغات ، ففي تطوافه أتقن التركية والفارسية ، وعلى طول رحلته يذكر المصطلحات والأسماء ويترجمها إلى العربية ، بل هو في بعض الأحيان - يورد جملًا بالفارسية أو التركية ويترجمها . وفي مرة من المرات ذكر أبياتاً من الشعر الفارسي ثم ترجمتها إلى العربية .

ومع أن مطلبـه من الرجال كان الأولياء والشيوخ والقضاة وأصحاب الكرامـات -

فإنه لم يغفل ذكر من عرفهم في رحلته من أهل العلم والفكر ، فذكر السعدي وجلال الدين الرومي الشاعرين الفارسيين . وذكر ابن تيمية وأطال الحديث عنه ، وذكر من لقى من أقطاب شيوخ الصوفية ووصف حلقات ذكرهم .

ولم يشغله ذلك عن لقاء السلاطين والأمراء والتحدث إليهم وعهم . وما من أثر ذي أهمية إلا وصفه ، سواء أكان بناء إسلامياً أو معبداً هندوسياً أو بوذياً ، وهو هنا يصف ما يرى وصف رجل آثار يقرر ما يرى ويعطيه حقه من الوصف التفصيل !

وابن بطوطة - بعد ذلك كله - صادق الحديث في جملته : فهو لا يبالغ ولا يكذب ، ولا يحاول أن يعطي نفسه أكثر من قدره ، بل هو يحكي أحياناً حكايات تشينه بعض الشيء : مثل حكاية رفض ابنة الوزير في ملديف الزواج منه ، وحكاياته مع سلطان مالي عندما أراد أن يسترعى نظره إلى أهميته ، فقال له السلطان : مارأيتك وما سمعت بوجودك ! وما إلى ذلك مما روينا بعضه في هذه الفصول .

وهذا الصدق من أكبر مميزات هذا الرجل ، وقد ثبتت الأبحاث والدراسات أن الرجل صادق في معظم ما قال ، حتى في الحالات التي زعم فيها أنه ذهب إلى مكان ما لاستكمال الحديث وروى ما سمعه عنه دون أن يراه . وهي حالات قليلة جداً . حتى في الحالات التي نراه يتحرى الصدق ، ولا يسترسل مع أحاديث الخرافات ولا يقبلها ، حتى حديثه عن طائر الرخ يمكن أن يكون صادقاً إذا نحن نزعننا من أذهاننا صورة رخ السنديباد ، واستبدلنا به صورة طائر ضخم من مخلفات العصور البائدة .

ثم إن الرجل مرتب ومنهجي ، وحديثه عن كل قطر يدخله يسير على منهج : فهو يذكر البلد ويصفه ويعين حدوده ويدرك ما شاهده فيه ، ويرى ما عرفه من عادات أهله ونظام حياتهم وأكلهم ومشربهم وملابسهم ، ثم يتحدث عن سلطان البلد وكيف راه ؟ وماذا جرى بينه وبينه ؟ ، وقد يعقب بذلك شيء من التاريخ .

ورواياته التاريخية - في الغالب دقيقة ، وأسماء الأعلام عنده مضبوطة ، أو هو يتحرى الضبط فيها ، فيذكر نطق كل اسم علم ، فيقول مثلاً : إن ذيبة المهل على وزن ذيب مع إضافة تاء التأنيث ، وقد يخطئ أحياناً في هذا الضبط كقوله مثلاً : إن

القطيف على وزن مصغر قطف ، وهو خطأ ، وقد لا يكون الخطأ خطأ . وتقديراته للمسافات صحيحة إلى حد كبير .

ومن هنا فتحن أمام عمل علمي من الطراز الأول ، كتبه رجل عالم ومكتشف لا يقل عن عظاماء المكتشفين في التاريخ ، ولو وعي معاصروه ومن جاء بعدهم قدره لكان لهذا الكتاب شأن عظيم في تقدم هذه الأمة . كما كان الحال مع ماركو بولو في تاريخ العلم الأوروبي .

ولكن هذا شأننا أبداً مع رجال العلم عندنا وأعماهم : فهذا ابن خلدون مثلاً دخل بعلم التاريخ في عصر جديد بمقدمته ، وهي بداية رائعة لعصر جديد من الفكر العلمي ، ولكنها ظلت بداية ، ولم يواصل السير بفكرة ابن خلدون أحد من جاء بعده ، بل ارتدنا سيرتنا الأولى في كتابة التاريخ ، وهذا هو الإدريسي الذي قفز بالعلم الجغرافي من القرن العاشر الميلادي . إلى السابع عشر ، فماذا صنعنا بجغرافيته ؟ ثم هذا هو ابن بطوطة : فتح لنا آفاق الدنيا بكشوفه ، فاستمعنا لحديثه ، ثم توسلنا الفراش على عهدها - وواصلنا النعاس !

ولقد قيل عن كتاب رحلات ماركو بولو : إنه « واحد من أعظم الكتب على مر العصور » وتواتت طبعاته والدراسات حوله حتى أصبحت هناك مكتبة تسمى مكتبة ماركو بولو ، وأفادت أوروبا من كتاب رحلاته فوائد أكبر فيما يتعلق بعلاقتها مع المغول أو مع الصين وآسيا . وعلى أساسه رسمت سياسات وخطط بعضها يتصل بالتجارة ، وبعضها يتصل بالسياسة ، لأن ماركو بولو وعميه نيكولو ومايتو اخترقوا عالم الإسلام ، وتسللوا إلى بلاد المغول ، وحاولوا أن يكسبوا قبلاً خان للنصرانية ، وبدلوا في ذلك جهداً كبيراً واصله الأوروبيون - والبابوية خاصة - من بعده .

فماذا أفادنا نحن من كتاب ابن بطوطة ؟ بل أين عنايتها به ، وليس لدينا طبعة واحدة محققة لرحلاته ؟ وقد صوبت وأنا أقوم بهذه الدراسة - عشرات الأخطاء في الطبعة الباريسية التي صدرت في بيروت سنة ١٩٦٨ ، ومع ذلك فهي أحسن ما لدينا ، ومن العجب أن ناشرها لم تسمح نفسه بأن يطلب إلى واحد من أهل العلم أن يكتب له مقدمة حرصاً على المال !

لقد تعاصر ماركوبولو وابن بطوطة بعض الوقت ، فقد عاش ماركوبولو فيما بين سنى ١٢٥٤ و ١٣٢٤ ، وعاش ابن بطوطة فيما بين سنى ١٣٠٤ و ١٣٧٨ .

وقد بدأ ابن بطوطة رحلته في ١٤ من يونيو ١٣٢٥ أي بعد موت ماركوبولو بستة ونصف السنة تقريباً ، فقد توفى هذا في البندقية في الثامن من يناير ١٣٢٤ - وفي رحلتهما زارا المواقع نفسها وسلكا في كثير من الأحيان الطريق نفسه ، كما هي الحال في رحلة الاثنين في الصين والعودة من هناك إلى الغرب ، ولكن شأن ما بين الاثنين في الدقة وتفتح الذهن ويقظة القلب ودقة الكلام وصدقه ، وما أكثر ما كذب ماركوبولو ! وما أقل ما بالغ ابن بطوطة !

فانظر - هداك الله - بعد ذلك كله إلى مقام الرجلين في التاريخ المعتمد للحضارة العالمية .

ويكفي أن تعلم أنهم هناك رسماوا مئات الخرائط لرحلة هذا الرجل ، أما رحلة ابن بطوطة فأول خريطة شاملة لرحلته وضعها عربي هي هذه التي تجدوها في كتابنا هذا .

\* \* \*

وبعد ، فهذا أوان الفراغ من هذا الكتاب ، فهو في مجموعه مقدمة ليس إلا ، مقدمة وفتح باب للدارسين من أهل الجغرافية وتاريخ الفكر الجغرافي وأصحاب العلم في كل فن .

وهي - في الوقت نفسه - تحية لرجل من أعظم من أنجبتهم هذه الأمة ، وصفحة عتاب لهذه الأمة التي أفضل عليها الله سبحانه بكل حيز قلم تتسع إلا بالقليل منه ، وآثرت اللهو حيناً والبكاء على الأطلال حيناً ، واللهو لا يصنع أمة ، والبكاء على الأطلال يضيع حرمة الأطلال ، ويحيط بأقدار الباكين !

أبعدنا الله وإياكم عن اللهو ، ووقانا هوان البكاء على مافات ، ورزقنا القوة على أن نفتح في حائط الجهل شقاً يسيراً يدخل منه شعاع من النور ، كهذا الذي صنعه الحسن بن الهيثم في حجرة السجن الذي كان فيه ، فأنشأ بهذا الشعاع المفرد علماً خالداً هو علم البصريات ، والله سبحانه الفضل والمنة ، وهو على كل خير مستعان .

القاهرة - مايو ١٩٧٩ م .

# الفهارس



## الأعلام

- أَحْمَدُ الْمُنْصُورُ الذهِيْ: ١٣٩ ، ٢٢٤  
 أَحْمَدُ بْنُ النَّاصِرِ قَلَّاوُنْ: ١١٤  
 الْأَحْمَدِيَّةُ [طَائِفَة]: ٨١  
 الْأَحْمَدِيَّةُ الرَّفَاعِيَّةُ: ١٢٨  
 أَدْرَارُ: ٣٢  
 الْإِدْرِيسِيُّ [الشَّرِيف]: ١٧ ، ٤٦ ، ٥٢ ، ٥٢  
 أَدْفُو: ٤٦ ، ٤٧ ، ١١٤  
 آدَمُ [عَلَيْهِ السَّلَام]: ١٨٤  
 آدُو: ١٨١  
 الْأَرَاضِيُّ الْمَقْدُسَةُ: ١٢ ، ٥٠ ، ٥٩ ، ٦٢  
 آرَتَا [أَمِير]: ١٢٧  
 أَرْخِيلُ سُولُ: ١٩٤  
 إِرْدَنِي - تُسُو [دِير]: ٢٠٩  
 أَرْدُوْجَا [سُلْطَانَة]: ١٩٥  
 أَرْزَنُ الرُّومُ: ٤٩  
 أَرْزِنْجَانُ: ١٢٧  
 أَرْسِيْنا: ١٩٤  
 أَرْشَقُولُ: ٣٢  
 أَرْغُونُ شَاه [الْأَمِير]: ٥٤ ، ٥٥ ، ٢١٥  
 أَرْمَنْتُ: ٤٦  
 أَرْمِينِيَا الصَّفْرِيَّةُ: ١١٦  
 أَزَارُ [مَلْك]: ٢٣٥
- (١)  
 الْإِيَاضِيَّةُ: ١٠٤ ، ١٠٥ ، ٢٣١  
 إِبْرَاهِيمُ (شَاهُ بَنْدر): ١٧٣  
 إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمُ (زَاهِد): ٥٣  
 إِبْرَاهِيمُ الْقُونْدِيُّ (الْحَاجُ): ٢٢٢  
 أَبِيَارُ: ٣٩ ، ٢١٥  
 الْأَنَانُ (قَرْيَة): ٢٢٦ ، ٢٢٥  
 الْأَتَّاَدُ السُّوْفِيَّيُّ: ١٣٥  
 أَنْشِيَّةُ: ١٩١  
 الْأَثَارُ الْبَاقِيَّةُ عَنِ الْقَرْوَنِ الْخَالِيَّةُ [كِتَاب]: ٦٣  
 أَثِيرُ الدِّينُ أَبُو حِيَانُ الْعَرَنَاطِيُّ: ٤٣  
 أَجَاثُوْمِيْكِيُّ [مَدِيْنَة]: ١٤٥  
 أَجْرَدِيرُ - جُولُ [بَعِيرَة]: ١٢٣  
 أَجِينُ: ١٦٨  
 الأَحَمِيْسُ: ٦٤  
 أَحْرَضَانُ [سُوق]: ١٦  
 الْأَحْقَافُ: ١٠٢  
 الْأَحْكَامُ الْمُلْوَكِيَّةُ وَالضَّوَابِطُ النَّامُوسِيَّةُ فِي فَنَنِ  
 الْقَتَالِ فِي الْبَحْرِ [كِتَاب]: ١١٦  
 أَحْمَدُ التَّبَرِيزِيُّ (الْحَاجُ): ٢٢٢  
 أَحْمَدُ بْنُ الْحَسِينِ [إِمامُ الزَّيْدِيَّة]: ٩٧  
 أَحْمَدُ بْنُ الْعَجَيْلِ: ٩٧  
 أَحْمَدُ الْعَوَامِرِيُّ [الشَّيْخُ]: ٨١  
 أَحْمَدُ كُوْجُوكُ [الشَّيْخُ]: ٨٠ ، ٨١

- أزاق [أزوف] : ١٣٨  
 أزدجان : ١٠٧  
 الأزرق (مؤرخ) : ٦٨  
 أرغنغان - أرجنجان [قبيلة] : ٢١٧  
 أزمير : ١٢٨ ، ١٤٠  
 أسام [منطقة] : ١٨٨  
 أسامة بن منقذ : ٥٠  
 الأسبان : ٣٣ ، ٢٩  
 أسبانيا : ٢٠٣ ، ٥٢  
 أسبانيا النصرانية : ٢٧  
 أستراخان [مدينة] : ١٤٤ ، ١٤٣ ، ١٣٩  
 ابن إسحاق : ٨٦  
 إسحاق بن الدندابيك : ١٢٦  
 أبو إسحاق بن محمد شاه : ٨٥  
 أسد الدين رميثة بن أبي نعى : ٦٩  
 إسطنبول : ١٤٧ ، ١٤٦  
 الإسكندرية : ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٣٩  
 ٢١٥ ، ١١٧  
 أسككي شهر : ١٢٩  
 الاسماعيلية : ٥٢  
 إسنا : ٤٧ ، ٤٤  
 أسوان : ٩٣ ، ٢٣١  
 الإسلام : ١٧ ، ١٧ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٤ ، ٢٣ ، ٢٢ ، ٢٧ ، ٢٦  
 آق ريدور : ١٢٣  
 آقشهر : ١٢٣  
 الأقصر : ٤٧ ، ٤٦  
 أقصرا (آق سرای) : ١٢٧  
 أكريدور : ١٢٦ ، ١٢٥  
 أكلك [مدينة] : ١٤٤  
 أكوشهر : ١٢٣
- إسلامبول [انظر : إسطنبول]  
 آسيا : ١٣ ، ٢٣ ، ٢٩ ، ٣٧ ، ٧٦  
 آسيا الصغرى : ٢٣ ، ٢٩ ، ٣٦ ، ٥٨ ، ٧٤  
 ١١٥ ، ١١٦ ، ١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٢٧  
 ١٥٢ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٤٠  
 أشمون الرمان : ٤٠  
 أشهب بن عبد العزيز : ٤٢  
 أصفهان : ٨٤ ، ١٢٢ ، ٢١٤  
 أصيلا : ٢١٩ ، ٢٢٢  
 أضاليا : ١١٥ ، ١١٧ ، ١١٨  
 أطراد : ١٥٠  
 الأعاجم [انظر : العجم]  
 أغادس : ٢٣٥  
 الإفرنج : ٣٨ ، ٣٩ ، ٥٣  
 أفريقيا : ٢٩ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٩٩  
 ٢٢٥ ، ٢٢٤ ، ١٧٧ ، ١٤٠ ، ١٣٥  
 ٢٣٢ ، ٢٢٨  
 أفريقية الأطلسية : ٢٣٨  
 أفريقية المدارية : ٣٢  
 الأفغان : ١٥٣  
 آق ريدور : ١٢٣  
 آقشهر : ١٢٣  
 الأقصر : ٤٧ ، ٤٦  
 أقصرا (آق سرای) : ١٢٧  
 أكريدور : ١٢٦ ، ١٢٥  
 أكلك [مدينة] : ١٤٤  
 أكوشهر : ١٢٣

- أسطاليا : ١٢٥  
 أهل السنة : ١١٨ ، ١٠٥  
 الأهواز : ٨٢  
 أوال : ١١٣  
 أوایل [سلطان] : ١٥٢  
 أوحد الدين السنجاري : ٢٠٥  
 أودريك دی بورد ینوف [القس روحالة إيطالي] : ١٩٨  
 أود غشت : ٢٢٦ ، ٢٢٤  
 أورال انظر : بحر خوارزم  
 أورجا : ٢١٠  
 أورخان بك [أمير] : ١٢٩ ، ١٢٨ ، ١٢٧  
 أوروبا : ٣٢ ، ٣٧ ، ٥٢ ، ١٣٧ ، ٢٠١ ، ٢١٥ ، ٢٠٣  
 الأوروبيون : ١١٧ ، ٢٠٢  
 أوزبكستان السوفيتية [جمهورية] : ١٤٩  
 أوzon أوغل : ١٥٠  
 أوشار [آفشار] : ١٢٣  
 أوبلجا تيوخندا بندة : ٧٧ ، ٧٣  
 أوكلك : ١٤٤  
 أوليج : ٧٤  
 أوتور [انظر : هنور]  
 أولان باطور : ٧٦  
 الأمة الأزردية : ١٠٧  
 (أيا) صوفيا : ١٤٧  
 إيجاروك [انظر : أردوجا]  
 أيدمير [الأمير] : ٩١  
 إيران : ٢٣ ، ٧٧ ، ٧٦ ، ٧٤ ، ٧٣ ، ٢٩ ، ٧٧ ، ٧٦ ، ٧٤ ، ٧٣ ، ٢٩ ، ١١٠ ، ٨٩ ، ٨٤  
 إيران في العصور الوسطى [كتاب] : ١٠٩
- الفونسو الحادى عشر : ٢١٩ ، ٢١٤ ، ٢١١ ، ١٧٦  
 الفونسو السادس : ٢٧  
 الفونسو العاشر : ٢٢٠  
 إلياس : ٨١  
 ألياسة [الساق-كتاب المغول] : ١٥٠ ، ١٤٩  
 أم عبيدة [قرية] : ٨٠  
 إمارة انتاكية : ١٢٣  
 إمارة زناتية : ٣١  
 إمارة الغزا : ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٥ ، ١٢٥  
 إمارة قرمان : ١٢٦ ، ١١٨  
 أهمية : ١٢٨ ، ١٢٧  
 أنجري [مدينة] : ١٥٦  
 آمل : ٧٦  
 الأمة الإسلامية : ٨  
 أمواى (بلد) : ١٦٨  
 بنو أمية : ٢٦  
 الأنصول : ١٤٠ ، ١١٦  
 الأنباء (بلد) : ٢١٤  
 الإنجيل : ١٣ ، ١١ ، ١١ ، ١٧٠ ، ٢٢٤ ، ٢٣١  
 أندرونيكس الثالث : ١٤٥ ، ١٤٣  
 أندرونيكس الثاني : ١٤٥  
 أندرونيكس كومين : ١٤٥  
 الأندلس : ١٢ ، ١٧ ، ١٧ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٨ ، ٢٩  
 إندونيسيا : ٢٢ ، ٢٢ ، ١٩١  
 إنطاكيه : ٥٢

- ١٤٤
- البحر الأسود : ١٢ ، ١٢٥ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣  
 بحر إيجي : ١٣٣  
 بحر الجزء : ١٣٧  
 بحر خوارزم : ٢٠٢  
 بحر الصين : ٨٥  
 بحر قزوين : ١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٣ ، ٢٠٢ ، ١٤٩  
 بحر القلزم [ انظر : البحر الأحمر ]  
 البحر الكاھل : ١٩٤ ، ١٩٣  
 بحر مرمرة : ١١٦  
 البحرين : ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٣ ، ١٧٣  
 بحيرة بيکال : ٧٦  
 بخارى : ٧٤ ، ٧٦ ، ١٤٨ ، ١٥٦  
 بخة [ جارية ] : ١٠٢  
 بدرا : ٦٧  
 بدرا الدين عبد الله المنوف : ٤٣  
 بدرا الدين بن قرمان : ١٢٦  
 البرابرة : ٩٩  
 البراهمة : ١٥٧  
 البربر : ٢٣٥  
 بربة : ٩٨  
 البرتغال : ٢١٤  
 البرتغاليون : ١١٠ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١٧٤ ، ١٧٧ ، ١٧٧  
 برج بورة : ١٦٧  
 برجي ( برگی ) : ١٤٠ ، ١٢٨ ، ١٢٧ ، ١٢٥  
 بردود : ١٢٣  
 برصا - بروسة - بورسّة : ١٢٩ ، ١٢٥ ، ١٣٣

- إيطاليا : ٥٢  
 الإيطاليون : ١٣ ، ١٤٤  
 إيلخانية فارس : ٨٨ : ٨٤  
 إيلخانية المغول : ١٤٨ ، ٨٤ ، ٧٧  
 أبو الأنان : ٢٢٧ ، ٢٣٠ ، ٢٣١  
 الأبيبيون : ٩٧

## (ب)

- الباب الأخضر : ٣٧  
 باب البحر : ٣٧  
 باب الخضراء بالنجف : ٧٩  
 باب رشيد : ٣٧  
 باب سدرا : ٣٧  
 باب السلام : ٦٢  
 باب الشيشكة ( باب العمرة ) : ٦٨  
 باب المسفل : ٦٨  
 باب المعل : ٦٨  
 بابور : ١٧٩  
 بارت توري سفنا : ٢٣١ ، ٢٣١  
 بارسيان ( السلطان ) : ١٢٩  
 الباكستان : ١٦٩  
 باي - كيانج : ١٩٧  
 الجاجة : ٤٧ ، ٤٨ ، ٩٤ ، ٩٣ ، ١١٤  
 بجاية : ٤٣ ، ٣٤ ، ٦٥  
 البحر الأبيض : ١١٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٢٩  
 ١٣٣ ، ١٤١ ، ٢٠٤ ، ٢١٥  
 البحر الأحمر : ١٤ ، ١٤ ، ٩٣ ، ٩٢ ، ٤٧ ، ٣٨ ، ١٤  
 ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٨ ، ٢١٦  
 بحر آزال : ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٦  
 بحر آزوف : ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٨ ، ١٣٨

- ٢١٤
- برغامة : ١٢٥ ، ١٢٩  
برفق بن أنس العماني [السلطان الظاهر سيف الدين] : ٤٢  
بركة الحاج : ٥٨  
بركة خليف : ٦٨  
بركة تزيرة : ٥٩  
أبو البركات البربرى : ١٨١  
أبو بكر الثاني ، كنكان موسى [انظر منسى موسى] :  
أبو بكر بن الشيخ عمر : ٩٩  
أبو بكر الصديق : ١٠٤  
البرنس : ٣٩  
برهان الدين الصاغرجي [الشيخ] : ٢١٠  
برهان الدين الصفاقسي : ٤٣  
بروان : ١٦٨  
بروسة [انظر : برصا] :  
بزنيق [إذنيق] : ١٣٠  
بسما [فيسا] : ٢١٤  
البشرارية : ٩٣ ، ٤٧  
بشاور : ١٥٣  
بشير (شيخ) : ١٦٥  
البصرة : ٨١ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٢٢٤ ، ٢١٤ ، ١٠٨  
بصري : ٥٩ ، ٥٨  
بطن مر : ٧٥ ، ٦٩  
البعثة النبوية : ٧٩  
البعشين : ٣٧  
بعلبك : ٥٣  
بغداد : ٨ ، ٨٠ ، ٧٣ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ١٢٣ ، ١٢٢ ، ١٢١ ، ٨٩ ، ٨٨ ، ٨٧  
بولي كسرى : ١٢٩  
البغدادى : ١٠٥  
بقاع العزيز : ٥٠  
بكتمر الساقى : ١١٤  
بكين : ٢٢ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٦  
بكى كسرى : ١٢٥  
بليس : ٤٨ ، ١١٤  
بلغخ : ١٤٨ ، ١٥١  
بلسن : ٢٢٢ ، ٢٢١  
البلغر - [البلغار] : ١٤٠ ، ١١٨ ، ٧٦ ، ١٢  
البلقان : ٢٩  
بمر تلمين : ١١٥  
البنادقة : ١٤٧ ، ٣٧  
بنجع (دولة) : ٢٠١  
البنجاح : ١٥٧ ، ١٥٤  
بنجالة : ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٨٨  
بنجلادش : ١٨١ ، ١٨٧ ، ١٨٩  
بندر عباس : ١١٠  
البنغال : ١٨٩  
بنغالة : ١٨٣  
البيهان محمد الحويج : ٩٠ ، ٧٥ ، ٧٣ ، ٧٢  
البيهسا : ٥٢  
بودا : ٢٣٦  
البوديون : ١٧١  
بورصة : ١٢٩  
بورما : ١٨٢  
بوسن : ٤٤  
بولى كسرى : ١٢٩

بونة : ٣٤

بلاد الأرمن : ٩٠

بلاد الإسلام : ٤٣ ، ١٦

بلاد الإفريقي : ٤٩

بلاد أفريقيا الغربية الإسلامية : ١٢٩

بلاد الترك : ١٠٧ ، ٧٦

بلاد التركستان : ١٣٧

بلاد التركمانية الرومانية : ١٢٠

بلاد جاوة [ انظر : إندونيسيا ]

بلاد الجبال : ٨٢

بلاد الجريد : ٧٠

بلاد الخطأ [ انظر : الصين الشمالية ]

بلاد الروم : ٨١ ، ٨٤ ، ١١٥ ، ١١٦

١٣٠ ، ١٢٩ ، ١٢٥ ، ١٢٢ ، ١١٧

بلاد الزنوج : ٩٩

بلاد الساحل : ٢١٣ ، ٩٩

بلاد السودان الأطلسية : ٢١٩

بلاد طوانسي [ انظر جزر الفلبين ]

بلاد الظلمة : ١٤٢

بلاد العرب : ١٣ ، ١٢

بلاد غير : ٢٢٦

بلاد الفلفل : ١٧٢

بلاد القرم : ١١٨ ، ١٢٥ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣١

١٣٣ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٤

بلاد القفقاق : ١٣١ ، ١٣٨ ، ١٤٥

بلاد القرقاز : ١٣٧

بلاد ما وراء النهر : ٥٨ ، ٧٤ ، ١٥٢

بلاد مغول القفقاق : ١٣١ ، ١٣٦

بلاد النوبة : ٤٦

بلاد المغار : ٢٢٦

بيبرس الجاشكير : ٥٩

بيبي مررم : ١٠٤

بيت الله الحرام : ٤٧

بيت كرتس : ١٥١

بيت المقدس : ٢١٦ ، ٢١٥

بيروت : ٥٠

البيزنطيون : ١١٦ ، ١١٧

بيسن داغ (بلدة) : ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٦

بيششهر : ٢٢٣

بين القصرين : ٤١

بينج [ أسرة ] : ٢٠٨ ، ٢٠٠

بئر حجر ثمود : ٦٠

## (ت)

تاجة [ مدينة ] : ١٤٤

تاج الدين الأردوبيل : ٢٠٤

تاج الدين بن حنا [ الصاحب ] : ٤٣

تاج الدين الرفاعي : ٤٩

تارجا [ قبيلة ] : ٢٢٧

تاريخ الطبرى : ١٢١

تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية [ كتاب ] :

١٥٨

تاسر هلا : ٢٢٦

أبو تاشطين عبد الرحمن بن موسى بن يغماس :

٣١

تافلالت : ٢٢٤

تاهرت : ٣٣

تاوديني : ٢٢٥

تاويرت : ٣٢

التبت : ١٨٨

- نبى الدين عبد الحسن الواسطى : ٨٠  
 تكدا : ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨  
 تكريت : ٨٩  
 تكفور بن جرجيس : ١٤٥  
 تلكلتمور [حاكم] : ١٣٥  
 تل البياسين : ٢٢٠  
 تلكلتمور (قاض) : ١٣٨  
 تلمسان : ٢٩ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٢٩٧  
 تمبكتو : ٣٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٢ ، ٢٣٤ ، ٢٣٨  
 التبغون : ١٨٧  
 تنس : ٢١٧  
 تنكرخان [انظر جنكيرخان]  
 التسعم : ٦٨  
 تهامة : ٩٤  
 توات : ٢٣٦ ، ٢٣٨  
 تووزر : ١١٥  
 توفيق أبو عنان الموكل المربي : ٢١٦  
 توماس ارنولد [السير] : ١٩١  
 تونتسروس : ١٤٥  
 تونس : ٢٤ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٣٩ ، ٢٢٨ ، ٢١٧ ، ٢١٦ ، ١١٥ ، ٧٠  
 التونسيون : ٢١٦  
 النجفانية (طريقة) : ٢٤  
 تبرة [مدينة] : ١٢٨  
 ابن تيمية : ٢٤٠
- تبريز : ٧٣ ، ٨٨ ، ٨٤ ، ٨٩  
 تبروك : ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٢١٦  
 التتر [التار] : ٨٤ ، ١٤٣ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥١  
 تجادا [تكادا] : ٢٣٤  
 تحفة الألباب [كتاب] : ١٩  
 تدمر : ٢١٥  
 تراقيا : ١٤٥  
 تربى - حيدرى [مدينة] : ١٥٢  
 ترس : ١٦٦  
 الترك : ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٣ ، ٢٣ ، ٣٧ ، ٥٣ ، ٧٦ ، ٣٧ ، ٢٣ ، ٨٤ ، ١٢٥ ، ١٢٢ ، ١١٧ ، ٨٩ ، ١٣٠ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٤٥ ، ١٥١ ، ١٥٠ ، ١٩٩ ، ١٩٨ ، ١٩٢ ، ٢٠٢ ، ١٩٩ ، ١٩٨ ، ١٩٧ ، ١٥٤  
 الترك الغوريون : ١٥٧  
 تركستان : ١٤٠ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ٢٠٩  
 تركيا : ١٢٩  
 تركيا الحديثة : ١١٧  
 ترمذ : ٧٦ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١  
 تروج [انظر: تاجا]  
 تستر : ٨٤ ، ٨٢ ، ٢١٤  
 تسوان - تشاو - فو : ١٩٧ ، ٢٠٥  
 تشاد : ٢٣٦  
 تشين : ١٩٨ ، ٢٠٢  
 تعز : ٩٧  
 تغازى : ٢٢٦ ، ٢٢٥  
 آل نغلق : ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٨  
 تغلق أباد : ١٥٨  
 تقي الدين بن تيمية : ٥٤ ، ٥٣
- (ج)
- الملاحظ : ١٢٤  
 جادو : ٢٣٨  
 الحاليات الإسلامية : ٢٢

- الجام [مدينة] : ١٥٢  
 الجام الأزهر : ٤٣  
 الجام الأموي : ٥٣  
 جامع الخليفة المنصور بغداد : ٨٧  
 جامع عمرو بالقاهرة : ٤١  
 جامع منفلوط : ٤٤  
 الجامعة الأزهرية : ٤٢  
 جامعة بغداد : ٨  
 جاو جاو : ٢٣٤  
 جاوة : ١٧٣ ، ١٨٩ ، ١٩١ ، ٢١٠ ، ٢٣٤ ، ٢٣٢ ، ٢١٣  
 جاوة الصغرى [انظر : سومطرة]  
 جب يوسف : ٥٠  
 الجبال : ١٤٨  
 جبال سليمان : ١٥٢ ، ١٤٨  
 جبال كامرو : ١٨٨  
 جبلة الكوفة : ٨٦  
 جبريل [عليه السلام] : ٦٣  
 الجبل الأخضر : ١٠٧ ، ١٠٥  
 جبل آرات : ٩٠  
 جبل الجودى : ٩٠  
 جبل دللى : ١٧٣  
 جبل طارق : ٢٢٠  
 جبل الفتح : ٢٢٢ ، ٢٢٠  
 جبل لبنان : ٥٣  
 جبل معلان : ١٠٣  
 جبلة : ٥٢  
 ابن جبير [أبو الحسين أحمد] : ١٢ ، ٥٦  
 أبو جعفر بن الظاهر [المستنصر بالله] : ٨٨  
 جفتائى بن جنكيز خان : ١٤٨  
 الجفار : ٧٩

- جلال الدين الأرنجاني [القاضي] : ١١٨  
 جلال الدين التبريزى : ١٨٩ ، ١٨٨  
 جلال الدين التركانى : ١٠٩  
 جلال الدين الرومى [الشاعر] : ٢٤٠ ، ١٢٦  
 جلال الدين منكورى : ١٤٨  
 جلال [بلدة] : ١٦٦

## (ح)

- الجاج ترخان : [انظر: أستراخان]  
 الحاجز : ٧٩  
 الحارضة : ١٠٥  
 أبو حامد الغناطى : ١٣٥ ، ١٩ ، ١٩  
 أبو حامد الغزالى : ١٥٢  
 حبتن [مدينة] : ١٨٩ ، ١٨٨  
 أبو الحجاج الأقصري : ٤٦  
 الحجاج بن يوسف : ١٥٥  
 أبو الحجاج يوسف بن المتساوقى : ٢٢٠  
 الحجاز : ١٢ ، ٣٤ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٥٠ ، ٥١  
 ، ١١٠ ، ٩٩ ، ٩١ ، ٥٩ ، ٥٧ ، ٥١  
 ، ٢١٦ ، ١٣٢ ، ١١٤ ، ١١١ ، ١٠٦  
 الحجر الأسود : ٦٩ ، ٦٤  
 الحديث [بلد] : ٢١٤  
 ابن حديدة [تاجر جزائى] : ٣٤  
 بونحرام : ٩٥  
 الحرب العالمية الأولى : ١٢٩  
 الحرم الشريف : ٧٠  
 الحروب الصليبية : ٥٩ ، ٥٨  
 الحسا : ١١٣  
 حسن الفراسانى [الجاج] : ٢٢٢  
 أبو الحسن الزيلعى : ٩٧

- جننجى [فنى] : ١٣٨  
 الجكطى [انظر: جفتاى بن جنكىزخان]  
 جل حصار : ١٢٣  
 آل جماز بن نمى : ١٠٠ ، ٩٣  
 جمال الدين [وزير] : ١٨٦ ، ١٨٣  
 جمال الدين المساوى [الشيخ] : ٣٩  
 جمال الدين بن اللوكى : ٨١  
 جمال الدين بن حسن : ١٧٢ ، ١٧٨ ، ١٨٥ ، ١٨٦  
 جمال الدين المغرى : ٦٥  
 جمال الملك ألك [لص] : ١٠٩  
 الجمهوريات التجارية الإيطالية : ٣٧  
 جمهورية الجزائر : ٢٢٦  
 جمهورية قازاكستان : ١٣٥  
 الجمهورية الليبية : ٣٦  
 جنادة : ٢٣١ ، ١٠٠  
 جنافى [مدينة] : ١٥٦ ، ١٥٥  
 جندهار [انظر: قندهار]  
 جنكىزخان : ٧٣ ، ٧٤ ، ٨٩ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٩٩ ، ١٩٨ ، ١٩٧  
 جنوب شرق آسيا : ١٨٤  
 جنوب شرق الهند : ١٩٥  
 جنة : ١٣٢  
 الجنوبيون : ١٤٧ ، ٣٧ ، ١١٥ ، ١٣٤ ، ١٣٨ ، ١٣٤  
 جهة [عرب] : ٩٤  
 جواليلور [كاليلور] : ١٦٨  
 جور : ١٨٧  
 جوزيف [مدينة] : ١٤٩  
 جوجو : ١٨٣  
 جولستان [ديوان شعر فارسى] : ٨٥

- حلب : ٢١٥ ، ٥٢  
 حلوان : ٤٣  
 الحلة : ٢١٤  
 حلى [مبنياء] : ٩٥  
 حة : ٢١٥ ، ٥١  
 بنو حمادة : ٣٣  
 حمص : ٢١٥ ، ٥١  
 الحمة : ٢٢٢ ، ٢٢١  
 حمير : ١٠٢  
 حميرا : ٣٨  
 أبو حنيفة : ١١٨  
 بنو حنيفة : ١١٣  
 حوران : ٥٨  
 حوض النيل الأعلى : ٢٣٢  
 الحويزا : ٢١٤  
 بنو حيون : ٧٠
- (خ)
- خالد بن الوليد : ٦٨ ، ٥١  
 خان بالق [أنظر : بكين]  
 خدا وند زاده ضياء الدين : ١٦٣ ، ١٦٢ ، ١٦٢  
 خديجية [السيدة رضى الله عنها] : ٥٩  
 خراتشسکو جابریلی : ٨  
 خراسان : ٥٨ ، ٧٣ ، ١٠٨ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٥٣ ، ١٨٨ ، ١٥٢ ، ١٥٣  
 الخروبة : ٤٨٠  
 الخصيب : ٤٤  
 الخضر [عليه السلام] : ٢٨ ، ٥٩ ، ٨١  
 خضر [فقيه هندي] : ١٠٤  
 خضر بك سليمان . ١٢٦
- حسن الساعاتي [الدكتور] : ١٥٨  
 أبو الحسن الشاذلي : ٣٨  
 أبو الحسن علي بن سليمان الرياحي : ٢٢٢  
 أبو الحسن التوكل : ٢١٩  
 أبو الحسن المريني [السلطان] : ٢١٦ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢١٧  
 حسن كوجاك جوباتي : ٢١٤  
 الحسن بن محمد بن قلاون الناصر : ٢١٦ ، ٢٥  
 حسين المغرا [نائب السلطان] : ٢٢٧ ، ٢٢٨  
 حسين بن غياث الدين الغوري : ١٥١  
 الحشاشين [انظر : الفداوية] : ١٥٦  
 حصن أبي بكر : ٥١  
 حصن الأكراد : ٢٢٢  
 حصن ذكوان : ٥٢  
 حصن العليبة : ٥٢  
 حصن القلموسى : ٥٢  
 حصن الكرك : ٥٩  
 حصن الكهف : ٥٢  
 حصن المرقب : ٥٣  
 حصن مسلمة بن عبد الملك : ١٤٥  
 حصن مصياف : ٥٢  
 حصن مهنوی : ١٤٥  
 حصن الميقة : ٥٢  
 الحضارمة : ١٩١  
 حضرموت : ١٠١  
 أبو حفص عمر الثاني : ٢١٦  
 أبو حفص عمر بن على القزويني : ٨٨  
 الحفصيون : ٢٩ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ١٠٥ ، ٢١٦  
 الحكومة المغربية : ١٧  
 الحكومة المملوکية : ٥٤

- دار الوضوء : ٦٢  
درعة : ٢٢٥  
دشت قفجق : ١٣٤ ، ١٣٥  
دغم [قبيلة] : ٤٦  
دفرمري [مستشرق] : ١٢٣  
دكا : ١٨٩  
الدكـن : ١٥٥ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ، ٥٨ ، ٥٦ ، ٥٥ ، ٥٤ ، ٤٩  
دمشق : ٥٣ ، ٩٣ ، ٨٨ ، ٥٩  
دـمـهـورـ: ٢٨ ، ٣٩ ، ١٦٧ ، ٢١٥  
دمياط : ٢١٥ ، ٣٩  
دقـلـةـ: ٢٣١  
دـهـلـيـ: ٨١ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩  
دوـزـخـتـ يـوـزـ نـعـمـةـ [بلـدـ]: ١٨٨  
دولـتـ أـبـادـ [بلـدـ]: ١٥٥ ، ١٥٨ ، ١٦٨  
دولـةـ الـصـلـقـلـيـةـ: ١٣٣  
دولـةـ الـإـلـخـانـاتـ: ٧٤  
دولـةـ إـلـخـانـاتـ القـفـاجـاقـ: ١٣٣  
دولـةـ الـبـيزـنـطـيـةـ: ١٤٥ ، ١٢٩ ، ١٢٩ ، ١٣٣ ، ٢٩  
دولـةـ الـحـفـصـيـةـ: ٢١٦ ، ٣٢ ، ٣٤  
دولـةـ الـرـوـسـيـةـ الصـلـقـلـيـةـ: ١٣٣  
دولـةـ صـنـغـيـ: ٢٣١  
دولـةـ الـعـاـسـيـةـ: ١٢٣  
دولـةـ العـاـنـيـةـ: ٧٣ ، ١١٧ ، ١١٦ ، ١٢٥  
دولـةـ الـقـطـيـعـ النـهـيـ: ١٣٢  
حضرـ بكـ بنـ محمدـ بنـ آيدـينـ: ١٢٨  
حضرـ بكـ يـونـسـ: ١٢٣  
المـطاـ: ٢٠٢  
ابـنـ الطـحـيـبـ لـسانـ الدـيـنـ: ٢٢١  
ابـنـ خـلـدـونـ: ٢٢١ ، ٢٤١  
الـخـلـافـهـ الرـاشـدـونـ: ٧٩  
الـخـلـيجـ الـعـرـقـ: ١١١ ، ١٠٦  
الـخـلـيجـيـونـ: ١٥٥ ، ١٥٨  
خلـصـ: ٦٨  
خـلـيـفـةـ [الـشـيخـ]: ٣٨  
الـخـلـيلـ [بلـدـ]: ٤٨  
خلـيلـ اللهـ بنـ يـاسـادـارـ: ١٥٠  
خـنـجـبـالـ: ١٠٩ ، ١٠٨ ، ١٠٦  
الـخـنـسـاـ: ١٩٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٧ ، ١٩٨  
الـخـوارـجـ: ٢٣١ ، ١٠٦  
خـواـجـةـ سـرـرـوـرـ [قـائـدـ]: ١٨٥  
خـواـزـمـ: ١١٨ ، ١٣٦ ، ١٤٦ ، ١٤٨  
خـورـ: ١٤٩  
خـورـ، ١٠٧  
خـوزـسـتـانـ: ١٤٨ ، ١٠٩ ، ٢١٤  
الـخـلـافـهـ العـاـسـيـهـ: ٢٧  
خـيرـ الدـيـنـ بـرـبـروـسـ: ٣٣  
خـيـوـيـهـ [بلـدـ]: ١٤٩  
(٥)  
دارـ التـرـاثـ فـيـ بـيـرـوـتـ: ٩٥  
دارـ الـخـلـافـهـ [سـيـرـىـ]: ١٥٨  
دارـ السـلـامـ [انـظـرـ: دـيـرـ الطـيـنـ]:  
دارـ الـعـلـمـ: ٨  
دارـ اـبـنـ لـقـاهـ: ٣٢

- رحلات في فارس [كتاب] : ١٠٨  
 رسجو : ٢٣٢  
 بنو رسول : ٩٧  
 الرسول ﷺ : ٢٣ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٧  
 الرشيد : ١٥٢  
 الرفاعة [طريقة] : ٢٤ ، ٨٠ ، ١٣٩  
 ركب الحاج المصري : ٥٨  
 ركن أباد [نهر] : ٨٥  
 ركن الدين بيبرس الجاشنكير : ٢٨ ، ٧٣  
 ركن الدين القويغ التونسي : ٤٣  
 الربلة : ٤٩  
 رمية بن نمي : ٩٤  
 زندة [مدينة] : ١٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢  
 الروافض : ١١٣  
 روبيل : ٥٠  
 الروحاء : ٦٧  
 روري : ١٥٥  
 الروس : ١٤٤ ، ١٤٢ ، ١٣٣  
 روسيا : ١٣٣ ، ١٣٦  
 الروم : ٧٤ ، ١١٨ ، ١٢٥ ، ١٣٩ ، ١٢٦ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٥٢ ، ١٥٣  
 الروم الأتراك : ١٥٢  
 بنور باح [قرية] : ٢٢٢  
 ريحنا لردى شاتيون : ٥٩  
 أبو ريحان البيروفى : ٦٣
- (ز)  
 زاده الأخلاطى [الشيخ] : ١٢٨
- دولة المرابطين : ٢٢٧ ، ٢٢٥  
 الدولة الموحدية : ٣٧  
 الدولة المرينة : ٢١٦  
 الدولة المملوكية : ٦١ ، ٦٠ ، ٣٧ ، ٢٩ ، ٢٢  
 أبو دلف محمد [زاده] : ١٠٩  
 دى لانوسى : ٢٣١  
 ديار بكر : ٨٩  
 ديا موبليس : ١٤٥  
 الديبيل : ١٥٦  
 دير الطين : ٤٣ ، ٤٤  
 ديوجيري : ١٦٩  
 دبورا : ٢٣١
- (ذ)  
 ذات حج : ٥٩  
 ذيبة المهل [انظر المدحيف]
- (ر)  
 رابع : ٦٧ ، ٦٨  
 رئيس أبي محمد : ١١٤  
 رئيس الخليج : ١١٢  
 رئيس الخيرات : ٢١٣  
 رئيس دواير : ١٤ ، ٩٣ ، ١١٤  
 رافر : ٨٢  
 رباط ككلالة : ٧٠  
 أبو الريبع سليمان بن دواد العسكري [قائد] : ٢٢٠  
 الرحمة : ٢١٥  
 رحلة ابن بطوطة [كتاب] : ٨٠  
 رحلة مع ابن بطوطة [كتاب] : ٨

- السامري جنكا : ١٧٦  
 السامريون : ١٧٤  
 بنو سالم : ٤٨  
 سبطة : ٢١٩ ، ١٧ ، ٢١٩  
 سيرتا : ١٢٣  
 ستاري كرم : ١٤٥  
 سجستان : ١٤٨  
 سجلةة : ٣٢ ، ٢٣٨ ، ٢٢٥ ، ٢٢٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨  
 سد كاوان : ١٨٩ ، ١٨٨  
 سد ياجوج وماجوج : ٢٠٦  
 السرا [مدينة] : ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٤٩  
 سراج الدين عمر المصري [خطيب] : ٦٤  
 سرت [مدينة] : ٣٦  
 السرجي : ١٩٢  
 سرخس : ١٥٢  
 سردانية : ٢١٧  
 سرعين : ٥١ ، ٥٢ ، ٢١٥  
 سرتديب : ١٨٤ ، ١٨٠  
 أبو سرور : ١٧٢ ، ١٧٣  
 السعدي : [الشيخ الشاعر] : ٨٥ ، ٢٤٠  
 السعديون : ١٣٩  
 أبو سعيد بهادر خان : ٨٩ ، ١١٠ ، ٢١٤  
 أبو سعيد خدابنده السلطان : ٧٧ ، ٧٥ ، ٧٣ ، ٨٤  
 سعيد المندى [الشيخ] : ٧٠  
 سفاللة [مدينة] : ١٠٠  
 سفاللة : ٩٧ ، ١٤٠ ، ١٩٥  
 السكوق : ٧٨  
 سلطانية [بلدة] : ٧٣  
 سلطوق أو سردادق أو سوداق : ١٤٥  
 زاد المال [جارية] : ١٠٢  
 زاعزى [بلد] : ٢٣١  
 زامون : ١٧٤  
 زاوية : ١٥٢  
 زاوية الشيخ أبي اسحاق : ٨٥  
 زاوية الشيخ أبي عبد الله المرشدى : ٣٩  
 زاوية حبيب النجار : ٥٢  
 زيد : ٩٧ ، ٩٥  
 زبيدة بنت جعفر : ٧٩  
 زرعة (بلدة) : ٥٨  
 ابن زريق البغدادى [شاعر] : ١٤  
 زكا [مدينة] : ١٠٧  
 الزنج : ١٠٤  
 زغم : ٦٩  
 زنجبار : ١٠٠  
 الزنوج : ١٠٠  
 بنوزيان : ٣١ ، ٢٩  
 الزيتون [مدينة] : ١٧٤ ، ١٩٧ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٤  
 زيد بن نحي : ٩٤  
 الزيدية : ٩٧  
 بنوزيرى بن مناد : ٣٣  
 زيلع : ٩٨ ، ٧٠ ، ٩٣ ، ٩٧ ، ٩٤  
 (س)  
 سارروف : ١٤٤  
 سافادينا : ١٨١  
 سالزبورج : ١٠٨  
 ساما : ١٥٥ ، ٨٩  
 السامری [سلطان] : ١٧٣ ، ١٧٤

- سوق البقالين بالنجف : ٧٩  
 سوق الثلاثاء : ٨٨  
 سوق الجوهريين : ٨٩  
 سوق العنبر والمسك : ٨٩  
 سوكتو : ٢٣٦  
 سومطرة : ٢٢ ، ١٧٩ ، ١٨٩ ، ١٩١ ، ٢١٣ ، ١٩٣ ، ١٩٤  
 سونس [ بلدة ] : ١٢٧  
 السونيكي [ شعب ] . ٢٣١  
 السويس : ٦٤ ، ٣٧  
 بنى سويف : ٤٤  
 سلا : ٢٢٢ ، ٢١٨  
 السلاجقة : ٢٧  
 سلاجقة الروم : ٢٩ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢١ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٠ ، ١٥٤  
 سى - آن - فو : ٢٠٦  
 سيانج كيانج : ١٩٧  
 سيبيريا : ١٤٢  
 سيراف : ١٠٦ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢  
 سيري [ مدينة ] : ١٥٨  
 سيف الدين الجربان : ٥٨  
 سيف الدين سلار : ٥٩  
 سيف الدين عطيفة بن أبي نعى : ٦٩  
 سيف الدين عمر [ نائب الملك ] : ٢١٣  
 سيلهت : ١٨٨  
 سيناء : ٤٧  
 سينوب : ١٣١ ، ١٢٥ ، ١٢٩  
 سيواس : ١٢٨ ، ١٢٧  
 سيلان : ١٧٣ ، ١٨١ ، ١٨٤ ، ١٨٦
- سلیمان الصدقی الشامی : ١٧٦  
 سلیمان بن محمد آیدین : ١٢٧  
 سلیمان ماتايك [ وزير ] : ١٨٣  
 سمدرة : ١٩٢ ، ١٩١ ، ١٤٨ ، ٧٦ ، ٧٤ ، ١٥٠  
 سمرقند : ٢١٥ ، ٤١  
 سمند : ٦٥ ، ٦٢  
 سمهل [ موضع ] : ١٦٥  
 السمهودی : ٦٥  
 سنبل [ ملك ] : ١٧٧  
 سنجار : ٩٠  
 السند : ٣٨ ، ١٠٨ ، ١٣٨ ، ١٤٨ ، ١٥٤ ، ١٥٥  
 سنديبور : ١١٥ ، ١٧٢ ، ١٧٨ ، ١٧٩  
 السنديباد : ١٦٩ ، ١٧٦ ، ٢١١ ، ٢٤٠  
 سنديمور [ أمير ] : ٥١  
 السنغالة : ٢٢٦  
 سفكيانج : [ إقليم ] : ١٩٩ ، ١٩٩ ، ٢٠٩  
 سنى - على [ سلطان ] : ٢٣٤  
 سهل بدر : ٦٧  
 سهيل - فوينخيرولا : ٢٢٠  
 السوداء : ٤٨  
 سواكن : ١٤ ، ٤٧ ، ٩٤ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٥ ، ١١٤  
 السودان : ١٤ ، ٩٣ ، ١١٤ ، ٩٣ ، ١٣٠ ، ١٨٣ ، ٢٢٢  
 سيلهت : ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٦ ، ٢٢٦ ، ٢٢٦  
 السودان الأطلسي : ١٣٩ ، ٢٢٤ ، ٢٣٥  
 السودان الشمالي : ٩٤  
 سور الصين : ٢٠٦  
 السوس : ٣٢

- (ش)
- الشاذلية [طريقة] : ٣٨ ، ٢٤ ،  
شاردان : ١١٢ ، ١٠٨  
شاكر خصبك [الدكتور] : ٨  
شالوجات : ١٧٢  
الشاليات [مدينة] : ١٧٩  
الشام : ٣٩ ، ١٩ ، ٢٨ ، ٢٧ ، ٢٩ ،  
٥٤ ، ٥١ ، ٥٠ ، ٤٩ ، ٤٨ ،  
٦١ ، ٥٩ ، ٥٨ ، ٥٧ ، ٥٦ ، ٥٥  
، ٦٤ ، ٧٣ ، ٧٠ ، ٦٨ ، ٧٦ ، ١١٤ ،  
، ١٢٩ ، ١٢٧ ، ١٢٦ ، ١١٧ ، ١١٥ ،  
١٤٠ ، ١٥٥ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦  
الشام المملوكية : ٢٩  
شبا : ١٠٧  
شبه الجزيرة العربية : ١٩٥  
شبه جزيرة القرم : ١٤٤  
شبه جزيرة الكوجرات : ١٦٩  
شبه جزيرة ملقا : ١٩٣ ، ١٩١  
شبه جزيرة المودة : ١٣٣  
شبة جزيرة الملايو [انظر: شبه جزيرة ملقا]  
ابن الشحنة [شهاب الدين أحمد بن أبي طالب] : ٥٧  
شرف الدين سليمان الملياني [محدث] : ٢١٥  
الشرفاء السعديون : ٣٠ ، ٢٩ ،  
الشرق الإسلامي : ٧٨ ، ٧٣  
شرق آسيا : ٢١٥  
شسوان : ١٩٨  
شعب (النبي) : ٥٠  
شارتس : ١٠٩  
آل شختاى : ٧٤
- (ص)
- صالح بن المنصور [سلطان] ماردين : ٩٠  
صالح بن الناصر [الملك الصالح صلاح الدين] : ٤٣  
صالح النبي [عليه السلام] : ٦٠  
الصالحة : ٤٨  
الصحابية [رضوان الله عليهم] : ٤٢ ، ٢٣ ، ٤٢  
صالح : ٢١٤  
صحار : ١٠٧  
صرصر : ٢١٤  
صعيدي مصر : ٤١ ، ٤٣ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٩١ ، ٤٨  
صعيدي مصر الأعلى : ٤٦ ، ١١٤

- الصين الصين : ١٥٠ ، ٢٠٠  
الصين الشمالية : ٢٠٨ ، ٢٠٥ ، ٢٠٢ ، ٢٠٠  
الصين الغربية : ١٩٩  
الصين كلان : ٢١٠ ، ٢٠٥ ، ١٧٤  
الصينيون : ٢٠٣ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ، ١٩٧
- الصينا : ٩٠ ، ٦٩ ، ٦٣  
صفاقس : ٣٦  
لصيغاء : ٦٧  
صفنغو : ٢٣١  
الصنفيون : ٢٩
- صنف الدين الطبرى (قاضى القضاة) : ٩٧  
الصقالبة الروس : ١٣٧
- صقلية : ٥٩  
الصلبيون : ٥٨ ، ٥١ ، ٤٧ ، ٢٧  
صناعة : ٩٨ ، ٩٧ ، ٩٥  
صنفى : ٢٣٤ ، ٢٣١ ، ٢٢٥  
الصنمين (قرية) : ٥٨  
صهاجة : ٢٢٧ ، ٢٢٥ ، ١٠٢  
صنوب : ١٣١  
صور : ١٠٤ ، ٥٠ ، ٤٩  
الصومال : ١٤  
الصوماليون : ٩٨  
صلاح الدين الأيوبي : ٢٨ ، ٥٠ ، ٥٩ ، ٧٣  
صيدا : ٥٠  
أبوصير : ٢١٥  
الصين : ١٣ ، ١٢ ، ٢٢ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٢٨ ، ٢٢ ، ٨٥  
، ٨٩ ، ١٣٠ ، ١٣٥ ، ١٤٠ ، ١٤٠ ، ١٦٥  
، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٤ ، ١٧٥  
، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٧٩ ، ١٨٤  
، ١٨٥ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٣  
، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٨  
، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤  
، ٢٠٧ ، ٢١١ ، ٢١٠ ، ٢٠٩ ، ٢٠٨ ، ٢٠٧  
، ٢٤١ ، ٢٢٤ ، ٢٣٨ ، ٢٢٤  
الصين الجنزيرية : ١٩٨ ، ١٩٩ ، ١٩٩ ، ٢١٠ ، ٢١١
- (ط)
- طاهرى : ١٠٩  
الطائف : ٦٩  
طبرية : ٥٠  
طرازاون : ١١٦  
طرابلس : ٥١ ، ٣٦  
طريشرين : ١٥٠ ، ١٥١  
الطريقة الشاذية : ٤٤  
طفى خاتون : ١٢٧  
طغيمور (ملك) : ١٥١  
طفيل بن غامض : ١١٤  
طلحة العبد الوادى : ٢١٥  
طليطلة : ٧٧  
طنجة : ٨ ، ١٦ ، ١٧ ، ٣١ ، ١٨ ، ٩١ ، ٩١  
، ٢٢٢ ، ٢١٩ ، ٢١٥  
الطوارق (قبيلة) : ٢٢٧ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٥  
، ٢٣٦  
طوالسى (ملك) : ١٩٤  
طوس : ١٥٢  
طوغان (رسول) : ٣٩  
طياكسى (سلطان) : ١٩٥
- (ظ)
- الظاهر (ملك) : ٢١٣

- الظاهر بيبرس : ٥٢ ، ٥١  
 ظفار : ١٣ ، ٩٧ ، ١٠١ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٣  
 ظهار : ١٦٨  
 ظهير العين (زميل ابن بطوطة) : ١٧٧  
 ظهير العين الزنجاني : ١٦٦
- (ع)
- عاد : ١٠٢  
 العالم الإسلامي : ٧ ، ٧ ، ٩ ، ١٣ ، ١١ ، ٢٢ ، ٤٤  
 بنو عامر الأزديون : ٢١٣  
 عاته : ٢١٤  
 العباد [مدينة] : ٢١٧  
 عبادان : ٨٢ ، ٨١  
 عباس [الشاه] : ١١٠  
 أبو العباس أحمد الرفاعي : ١٢٧ ، ٨٠  
 أبو العباس أحمد الفضل المتكلم : ٢١٦  
 أبو العباس مزوق : ٦٥ ، ٦٤  
 أبو العباس المرسي : ٣٨  
 عبد الله بن أبي بكر بن الفرجان التورزي : ١١٥  
 عبد الله التونسي : ١١٤  
 عبد الله الحسيني [الشيخ] أبو محمد : ٤٤  
 أبو عبد الله الزبيدي [تاجر] : ٣٥ ، ٣٤  
 أبو عبد الله السمرقندى [الحاج] : ٢٢١  
 أبو عبد الله الفاسى : ٣٨  
 أبو عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتى : ٥٦  
 عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتى الطنجى : ٢١٥ ، ١٦
- عبد الله بن محمد الحضرمى [وزير] : ١٨٣ ، ١٨٦  
 أبو عبد الله محمد بن زكريا [المستنصر] : ٣٢  
 أبو عبد الله محمد بن سيد الناس [ال حاجب] : ٣٤  
 أبو عبد الله محمد بن الفقيه بن زيد  
 عبد الرحمن : ٧٠  
 أبو عبد الله النفاوى : ٣٥  
 عبد الله المرشدى : ١٦٧  
 عبد الله المصرى [الشيخ] : ١٢٩  
 ابن عبد الحكم : ٤٢  
 عبد الحميد العجمى : ٦٤  
 عبد الرحمن بن القاسم العتى : ٤٢  
 عبد الرحيم عبد الرحمن بن مصطفى : ٤٩  
 عبد المؤمن بن على : ٢٢٠  
 العبدري : ٧٥  
 بنو عبد الواد [انظر بنو زيان]  
 أبو عبيد البكري : ٧٨  
 عبيد مسوقة : ٢٢٥  
 أبو عبيدة بن الجراح : ٤٩  
 بنو عثمان [انظر: العثمانيون]  
 عثمان بن عفان : ٤٣ ، ١٠٥  
 عثمان بن عفان المصرى : ٢٠٧  
 العثمانيون : ٢٩ ، ١٢٧ ، ١١٩ ، ١٢٩ ، ١٣٣ ، ١٩١ ، ١٥٠ ، ١٦٧  
 العثمانية [زاوية] : ٢٠٨  
 العجارة [طائفة من العرب] : ٥٨  
 العجم : ٤٢ ، ٢٢١ ، ٧٥ ، ٧٠  
 عجلون : ٤٩ ، ٢١٥  
 عجلان بن رميثة : ٩٣

- عقبة السوبق : ٦٨  
 عقبة الصوان : ٥٩  
 عكا : ٤٩  
 علي بن أبي طالب : ١٠٥ ، ١٢٣ ، ١٢٦  
 علي بن إدريس المصري : ١٠٣  
 علي بن حجر : ٦٥  
 علي شاه [وزير جيلان] : ٨٩  
 علي بن موسى الرضا : ٨٧ ، ١٥٢  
 عاد الدين الكندي [القاضي] : ٣٨  
 العامة : ٩٩  
 عمان : ١٣ ، ١٣ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٤ ، ١٠٣ ، ١٠١ ، ١٠٤  
 ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٧ ، ١١٣ ، ١١٣ ، ١٤٠ ، ٢١٣  
 ، ٢١٤ ، ٢١٣  
 عمر بن الخطاب : ١٠٤  
 عمر بن عبد العزيز : ٥١  
 عمر بن محمد بن آيدين [الأمير] : ١٢٨  
 عمود السوارى : ٣٨  
 عويم : ١١٣  
 علاء الدين [الشيخ القاضى] : ١٢٩  
 علاء الدين بن الأثير : ٨١  
 علاء الدين الأقر : ٦٣  
 علاء الدين خداوند : ١٥  
 علاء الدين طرشيرين : ١٤٩  
 علاء الدين على بن شمس الدين [الأمير حيدر] : ٩٠  
 علاء الدين كيقباذ : ١١٧  
 العلا : ٦٠ ، ٢١٦  
 العلاق [طريق] : ٤٦  
 العلايا : ١١٥ ، ١١٧ ، ١١٨  
 عيذاب : ١٤ ، ٣٨ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٤
- عدن : ٩٨ : ١٠١  
 العراق : ٧٢ ، ٧٠ ، ٥٨ ، ٥٢ ، ٢٨ ، ٢٦ ، ٨٤ ، ٧٩ ، ٧٦ ، ٧٥ ، ٧٣ ، ١٢٤ ، ١٠٦ ، ٩٧ ، ٨٩ ، ٨٨ ، ٨٧ ، ١٥١ ، ١٤٨ ، ١٤٠ ، ١٢٩ ، ١٢٧ ، ٢١٨ ، ٢١٥ ، ١٩٩ ، ١٥٤ ، ١٥٢  
 ٢٢٢  
 عراق العجم : ٨٢  
 عراق العرب : ٧٨  
 العرب : ٢٣ ، ٤٨ ، ٥٢ ، ٧٩ ، ٩٤ ، ١٣٩ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١١٣  
 ، ١٢٤ ، ١٠٣ ، ١٧٤ ، ١٨٠ ، ١٩١ ، ١٩٩ ، ١٥٦ ، ٢٠٣ ، ٢٠٢  
 ٤٧  
 عرب رفاعة : ٤٧  
 عرب الكنوز : ٢٣١  
 العريان : ٥٨  
 العريش : ٤٨  
 عزاوان [الشيخ] : ١٥١  
 عز الدين أحمد الرفاعي [الشيخ] : ١٢٧  
 ١٢٨  
 عز الدين بن جماعة : ٢١٥  
 عسير : ٩٤  
 عسقلان : ٤٩ ، ٢٧  
 العسلية [ماء] : ٧٩  
 العصور الإسلامية : ٤٣  
 العطوانى [بلدة] : ١١٤ ، ٤٦  
 عطيفه بن نبي [الأمير] : ٩٤ ، ٧٠  
 أبو عفان فارس الموكول : ١١ ، ٢١٧ ، ٢١٦ ، ٢٣٦ ، ٢٢٢ ، ٢٢٠  
 ، ٢١٩  
 لعقبة : ٥٩ ، ٤٧

- ٢٦٣
- ١٥٢ ، ١٤٨ ، ١١١ ، ١١٠ ، ١٠٩ ، ١١٤ ، ٩٣ ، ٤٨ ، ٤٧ ، ٤٦ ، ٤٥ ، ١١٤ ، ٩٣ ، ٤٨ ، ٤٧ ، ٤٦ ، ٤٥
- ٢١٤ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٩٩ ، ٢١٤ ، ١٥٤
- فارسکور : ٢١٥ ، ٣٩
- فاس : ٣٦ ، ٢٢٢ ، ٢٢٢ ، ٢١٨ ، ٢١٧ ، ٢٣٦
- الطاپمیون : ٣٣ ، ٢٧
- فاکرور : ١٧٢
- فاکنور : ١٧٣
- فخر الدین (سلطان) : ١٨٨
- فخر الدین جوونه آلغ خان (أنظر: محمد تغلق)
- فخر الدین عثمان (قاض) : ١٧٣
- الفدماپیون : ٢٣٤
- الفداویة : ٥٢
- فران : ٢٠٦
- فرانشیسکو جبیریلی : ١٩٠
- الفرنج : ٣٧
- الفرس : ٧٩ ، ١٣٩ ، ١٣٦ ، ١٣٩ ، ١٥٣ ، ١٩١
- فرعون : ٤١
- فرنسا : ٥٢
- الفرنسیون : ١٣ ، ١٤٧ ، ٢٢٤
- الفسطاط : ٥٨ ، ٦٤ ، ١١٤
- فلسطين : ٤٧
- الفلقة (قسم من القسطنطینیة) : ١٤٦
- فندارایة : ١٧٢
- الفنیکة (مدينة) : ١٤٥
- فوا : ١٨١
- الفوتاچالون (منطقة) : ٢٣٢
- فوتشو : ١٩٨
- فون بجیک (مستشرق) : ١٩٧ ، ١٩٤ ، ١٥٥
- الفونسو الثامن (ملك) : ٥٩
- عیسی بن علی : ١٠٢
- عن الدمع [جبل] : ٢٢١
- عن الماء : ٥٩
- (غ)
- غات : ٢٣٦
- غار حراء : ٦٩
- غازان خان : ٧٣ ، ٧٧
- غازی تغلق : ١٦٠
- غانة : ٢٢٦ ، ٢٢٥
- الغرب المسيحي : ١٧٢
- غرناطة : ٢٩ ، ٦٥ ، ٢١٤ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢١ ، ٢٢٢
- الغرناطیون : ٢٢١
- غزنة : ١٤٨ ، ١٥٧
- الغزنیویون : ٦٣ ، ١٥٧ ، ١٦٠
- غزة : ٤٨ ، ٢١٢ ، ٢١٦
- غضقان : ٦٨
- الغور : ٤٩
- الغوریون : ٢٩
- غوطة دمشق : ٢٠٦
- الغولا : ٢٣١
- غياث الدین تغلق : ١٥٥
- غياث الدین الدامغاني : ١٨٤ ، ١٨٥
- غياث الدین محمد بن عبد القادر العباسی (الأمير) : ١٥١
- (ف)
- فارس : ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٤ ، ٨٩ ، ٨٤ ، ١٠٨

قثم بن العباس بن عبد المطلب : ١٥٠  
 القدس الشريف : ٤٨ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٩٩ ،  
 ٢١٥  
 قرافات مصر : ٤٢  
 قفارورم : ١٩٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠  
 قرطى (أمير) : ٢٠٨  
 القرم : ٧٤ ، ١٣٥ ، ١٣٨  
 قرمان (مدينة) : ١١٨  
 القريات : ١٠٧  
 قزل أجاتش : ١٤٥  
 قزوين : ١٣٦  
 القسطنطينية : ٧٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٣٦ ،  
 ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ،  
 ١٥٢  
 قسطيلية : ١١٥  
 قسطنطينية : ٣٤  
 قشتالة : ٢٧ ، ٥٠ ، ٢١٤  
 قصر الزعافية : ٣٦  
 القصر الكبير : ٩١  
 قصر الجاز : ٩١  
 قصصمونى : ١٢٥  
 قصصمونية : ١٢٩  
 قطب الدين أيك (قائد) : ١٥٧ ، ١٦٠  
 قطب الدين تمدن به طورانشاه : ١٠٧ ، ١٠٤  
 قطب الدين حيدرى : ١٥٢  
 قطب منارا (مئذنة) : ١٥٧ ، ١٦٠  
 القطلونيون : ١٤٤ ، ٢١٧  
 قطليا : ٤٨  
 القطيف : ١٠٦ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ،  
 ٢٤١

فوة : ٣٩  
 الفيتنام : ١٩٩  
 فيروز تغلق : ١٦٠  
 فيودسيا (أنظر: الكفا)  
 (ق)  
 قابس : ٢١٦  
 القادرية (طريقة) : ٢٤  
 القادسية : ٧٩  
 قارش : ١٢٥ ، ١٣١ ، ١٣٣  
 القارورة (ماء) : ٧٩  
 قازان : ١٩٩  
 أبو القاسم محمد بن الفقيه أبي الحسن بن سهل  
 (وزير غرناطي) : ٦٥  
 قاقلة (بلد) : ١٩٣  
 قالبيقط (مرسى بالهند) : ٣٧ ، ١٠٠ ،  
 ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ،  
 ١٩٧ ، ١٨٦ ، ١٧٩ ، ١٧٧  
 القاهرة : ٨ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٠ ، ٤٣ ،  
 ٥٥ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٣٢ ، ٢٣٢ ، ٨٨  
 قبر أبو مدین : ٢١٧  
 قبر الجواد : ٨٧  
 قبر الرسول ﷺ : ٤٥ ، ١٨ ، ١٨  
 قبر السيدة فاطمة بنت الحسين : ٤٩  
 قبر علي بن أبي طالب : ٧٩  
 قبرص : ١١٨  
 قبولة الهندى (زاهد) : ٩٥  
 قبلى خان (امبراطور) : ٨٩  
 بنو قنادة : ٦٩  
 قتيبة بن مسلم : ١٣٣

- القنجاق : ١٣٢ ، ١٥٠ ، ١٥٤  
 قل حصار : ١٢٥ ، ١٢٦  
 القلزم : ٣٧  
 ابن قلم شاه (قاض) : ١٢٦  
 قلهات : ١٠٤ ، ٢١٣  
 قليلة (ميناء) : ٣٢  
 قناة راهو : ١٥٦  
 فنجلفو (مدينة) : ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٢٤ ، ٢١٠  
 قندهار : ١٦٩ ، ١٧١ ، ١٧٢  
 قنوج : ١٦٨  
 قواص الدين السبي : ٢٠٧  
 قواص الدين الكرمانى : ٤٣  
 قوبلاى : ١٩٨ ، ١٩٩  
 قوص : ٤٧ ، ٤٦ ، ٤٥ ، ٤٣ ، ٣٨  
 القوقاز : ١٣٢  
 قوقة : ١٧٢  
 قونية : ١٢٥ ، ١٢١ ، ١١٨ ، ١١٧ ، ١١٦  
 قلاوون (السلطان سيف الدين المنصور) : ٢٨  
 القيادة : ٩٠ ، ٨٠  
 قيس (كيس) : ١١٠ ، ١٠٩  
 قيسارية : ١٣٠  
 قيصرية : ١٢٧ ، ١٢٨  
 كشف الغمة الجامع لأنباء الأمة (كتاب) : ١٠٥  
 الحكمة : ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٩  
 الكتفا (مدينة) : ١٣٤  
 كنالى قراس : ١٤٥  
 كقولى (جمبولى) : ١٤٥  
 (ك)  
 كابل : ١٤٨ ، ١٥٢  
 كاتيا (زعم) : ٢٣٢  
 كاثاياوا : ١٦٩

(ل)

- اللجنون : ٥٩  
 لسان العرب (معجم) : ١١٥  
 اللغة السواحلية : ٩٩  
 لكتوقى : ١٨٧  
 لئونة (قبيلة) : ٢٢٥ ، ١٠٢  
 هارى (لاري بوتدر) : ١٥٦  
 اللور (بلد) : ٨٢  
 لورستان : ٨٢  
 لوكاتشى : ١٤٤  
 لويس التاسع (الملك الفرنسي) : ٣٢  
 لياو (أسرة) : ٢٠٢  
 الليميون : ١٠٠  
 ليون : ٢٧

(م)

- ماجر [بلدة] : ١٤٦ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٠  
 ماجول [بلدة] : ٨٢  
 ماردين : ٩٠  
 ماركور بولو : ١٤٤ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٦ ، ١٩٦ ، ١٩٦  
 مال : ٢٤١  
 ماري ديانة [ماري جاطه] : ٢٣٢  
 مال [عاصمة] : ١٨١  
 مالق : ١٥٠  
 مالقة : ٢٢٢ ، ٢٢١ ، ٢٢٠  
 المالنكي : ٢٣١  
 مالى : ١٢٩ ، ١٨٣ ، ٢٣٠ ، ٢٢٥ ، ٢٣٢ ، ٢٣٢ ، ٢٣٢  
 المالكية : ٧٠

- كلب (مدينة) : ١٠٧  
 كلوة : ٩٧ ، ٩٩ ، ٩٩ ، ١٠٠  
 كليارى (ميناء) : ٢١٧  
 كلوبوكى : ١٩٥ ، ١٩٤  
 كمال الدين عبد الله الأصفهانى : ٢٠٤  
 كمبوديا : ١٨٢  
 كمس (بلاد) : ١٢٧  
 بنوكتانة : ٩٥  
 كينارية : ١٦٩  
 كنجالى : ٢٣٢  
 كنجهام (مستشرق) : ١٥٦  
 ابن كثر الدولة (سلطان) : ٢٣١  
 كهوف الفجر : ٢٢٠  
 كوتاهية : ١٣٠  
 كورستان (أنظر : خوزستان)  
 كوريا موريا : ١٠٣  
 الكوفة : ٨٠ ، ٨٦ ، ٢١٤  
 كوكو : ٢٣٤  
 كول : ١٦٦ ، ١٦٧  
 كولم (مرسى بالمند) : ٣٧ ، ١٧٢ ، ١٧٧ ، ١٧٧ ، ٢١٣ ، ١٩٧ ، ١٧٨  
 كولم الملايو : ١٧٧  
 كومى صالح : ٢٢٦  
 الكونغو : ٢٣١  
 كيان - تشانج - فو : ٢٠٦  
 كيانج (مقاطعة) : ٢٠٦  
 كيريل جول (بحيرة) : ١٢٣  
 كيلانثان : ١٩٣  
 كيف : ١٣٢ ، ١٣٣

- ابن بهرام : ٨٨  
 أبو محمد عبد الواحد بن أبي محمد السهتاني :  
 ٣٤  
 محمد بن علي [الشيخ] : ٥٢  
 محمد الغوري : ١٥٧  
 محمد الفاتح [السلطان] : ١١٧  
 محمد بن فتح الله بن محمد البيلوبي : ٧  
 محمد بن فخر الدين [الشيخ] : ٨  
 محمد بن القاسم : ١٥٥  
 أبو محمد القاسم البرزالي [علم الدين] : ٥٧  
 محمد بن قلاونون [السلطان الناصر] : ، ٣٩ ،  
 ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٤ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٨ ،  
 ٥٩ ، ٩١ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٣ ، ٧٣ ، ٧٣  
 ١١٤ ، ٢٣١  
 محمد الناصر بن أبي يعقوب : ٥٠  
 أبو محمد بهان : ١٠٧  
 محمد الهروي [أمير] : ١٦٦  
 أبو محمد بن دكان المسوني : ٢٢٥  
 محلة باب البصرة : ٨٧  
 محلة بنى حرام : ٨١  
 محلة الشارع : ٨٧  
 محلة العجم : ٨١  
 محللة الكبرى : ٢١٥ ، ٣٩  
 محللة هزيل : ٨١  
 محمود الشرقاوى : ٨  
 المختار بن أبي عبيد : ٨٦  
 الخدومة جهان : ١٦٢  
 بنو مدین : ٢٢٢  
 مدائن صالح : ٦٠  
 مدرسة تجويد القرآن بواسط : ٨٠
- الماليار : ١٧١  
 المؤمن بن الرشيد : ٤٤ ، ٤٤ ، ١٥٢  
 ما وراء النهر : ٧٣ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ١٣٣ ،  
 ١٤٨ ، ١٤٨ ، ٢٠٩  
 مبارك بن عطية : ٩١  
 مبرك ناقة النبي صالح عليه السلام : ٦٠ ، ٥٩  
 مبرك ناقة النبي عليه السلام : ٦٧  
 مبررة [مدينة] : ١٨٥  
 المتوكل أبو عفان : ٢١٦  
 مثقال [ربان] : ١٧٤  
 المشتوى [كتاب] : ١٢٧  
 أبو الجاهد محمد شاه بن غيث الدين تغلق [انظر  
 محمد بن تغلق]  
 محمد الدين اسماعيل بن محمد بن حداد : ٨٤٠  
 محمد أحمد جاد الملول [الشيخ] : ٨  
 محمد أوزبك خان [السلطان] : ١٣٢ ،  
 ١٣٥ ، ١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٤٦  
 ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٠  
 محمد آيدين : ١٢٧  
 محمد البشري [فقيه] : ٢٢٤  
 محمد تغلق : ١٥٥ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٢ ،  
 ١٦٦ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٦٩ ، ١٧٦ ،  
 ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٧  
 محمد جلي : ١٢٦  
 محمد خدابنده [السلطان] : ٨٩  
 محمد خواجة الحوارزمي : ١٣٨  
 محمد بن رافع : ٥٨  
 محمد شاه [السلطان] : ٢٢٢  
 محمد بن عبد الله بن خفيف [الشيخ] : ٨٥  
 أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الفضل

- بنو مرين : ١١ ، ٢٩ ، ١٤٠ ، ١٣٩ ، ٢١٦  
 مستغانم : ٢١٧  
 بنو مزغنا [قبيلة] : ٣٣  
 المسجد الأعظم بدمشق : ٥٤  
 مسجد الأقدام : ٥٥  
 مسجد تلمسان الجامع : ٣١  
 المسجد الحرام : ٤٤ ، ٤٥ ، ٦٩  
 مسجد ذى الحليفة : ٦٧  
 المسجد النبوي : ٦٢ ، ٦٣  
 مسجد السهلة : ٢١٤  
 مسجد قرطبة الجامع : ٦٣  
 المسعودي : ١٩ ، ٩٤ ، ١٢٤ ، ٢٠٠  
 مسقط : ٢١٣ ، ١٠٧  
 المسلمين : ٢٢ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٤٥ ، ٤٨  
     ، ٤٥ ، ٢٨ ، ٢٧ ، ٧٣ ، ٥٦ ، ٥١ ، ٤٨  
     ، ٧٧ ، ٧٦ ، ٧٣ ، ١٢٠ ، ١١٦ ، ٨٣  
     ، ١٣٤ ، ١٣٣ ، ١٢٣ ، ١٣٥  
     ، ١٤٧ ، ١٥٧ ، ١٥١ ، ١٤٧  
     ، ١٦٨ ، ١٧٢ ، ١٧١ ، ١٧٠ ، ١٦٩  
     ، ١٧٧ ، ١٧٩ ، ١٧٨ ، ١٨٧  
     ، ١٩٩ ، ١٩٣ ، ١٩٨ ، ١٩٩  
     ، ٢٠٦ ، ٢٠٥ ، ٢٠٤ ، ٢٠٣ ، ٢٠١  
     ، ٢٢٠ ، ٢١١ ، ٢٠٩ ، ٢٠٨ ، ٢٠٧  
     ، ٢٣٧  
 مسوقة (قبيلة) : ٢٢٧ ، ١٠٢  
 المسوقيون : ٢٢٨ ، ٢٢٧ ، ٢٢٥  
 المسيحية : ٧٦  
 الشرق : ١٢  
 الشرق الإسلامي : ٧٣ ، ٢٨  
 شهيد : ١٥٢  
 مشهد الحسين رضى الله عنه : ٨٦
- مدرسة تقى الدين بن السراج : ٤٤  
 مدرسة حومة بن حسين : ٢١٨  
 مدرسة شرف الدين موسى : ٨٢  
 المدرسة الظاهرية بدمشق : ٢١٥  
 المدرسة العنانية بفاس : ٢١٨  
 المدرسة المستنصرية : ٨٨  
 المدرسة المظفرية : ٩١ ، ٧٠  
 المدرسة النظامية ببغداد : ٨٨  
 مدينة الخليل : ٢١٦ ، ٢١٥  
 المدينة المنورة : ٦٢ ، ١٢ ، ٤٥ ، ٥٧ ، ٦٠ ، ٦٢  
     ، ٦٨ ، ٦٧ ، ٦٥  
 المرابطون : ١٣٩ ، ٢٧ ، ٣٣ ، ١٠٢ ، ١٣٩  
 مراكش : ٢٢٢  
 مر الظهران : ٧٥  
 مرج غرباطة : ٢٢١  
 مرسى الأبواب : ٩٥  
 مرسى الحادث : ٩٥  
 مرسى حاسك : ١٠٣  
 مرسى الزيتون : ٣٧  
 مرسى شبه : ٢١٣  
 مرسى القرىات : ٢١٣  
 مرسى الكفار بسرادق : ٣٧  
 مرسى كلبة : ٢١٣  
 المرهها : ١٧٠  
 المرهها الهندوكية : ١٦٩ ، ١٧٠  
 المرهنة : ١٦٩  
 مروج الذهب (كتاب) : ١٩  
 المروة : ٩٠ ، ٦٩ ، ٦٣  
 آل مرين : ٢٩  
 مريلة : ٢٢٠

- المغاربة : ٢١٥ ، ٢١٤  
 مغاربة الخضر : ١٨٤  
 المغرب : ١٧ ، ١٨ ، ٢٢ ، ٣٣ ، ٣٧ ، ٤٧ ،  
 ، ٩١ ، ٩٥ ، ٧٩ ، ٦٧ ، ٥٥ ، ١٣٥ ، ١٣٩ ، ١٤٦ ، ١٥٦ ، ١٣٠ ، ٢١٤ ، ٢٠٤ ، ٢٠٣ ، ١٩٨ ، ١٦١ ، ٢١٩ ، ٢١٨ ، ٢١٧ ، ٢١٦ ، ٢١٥ ، ٢٢٨ ، ٢٢٥ ، ٢٢٤ ، ٢٢٢ ، ٢٢٠ ، ٢٣٦ ، ٢٣٤ ، ٢٣١  
 المغرب الأقصى : ٣٥ ، ٣٢ ، ٣١ ، ٢٩ ، ٢٢٤ ، ٢١٧  
 المغرب الأوسط : ٣٣ ، ٣١ ، ٢٩ ، ١٢٩ ، ١٢٥ ، ١٢٩  
 مغنيسيا : ١٧٢  
 مغور : ١٧٢  
 المغول : ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٥ ، ٢٥ ، ٢٣ ، ٨٤ ، ٧٧ ، ٧٦ ، ٧٥ ، ٨٦ ، ٨٩ ، ١٣٢ ، ١٣٦ ، ١٤٠ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٤ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢٠٩ ، ٢٤١  
 مغول القفقاق : ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٩٤  
 مغول الهندوكا : ٢٩ ، ٢٩ ، ١٧٣  
 المقام الخليلي : ٤٨  
 مقبرة قطب الدين : ١٦٣  
 مقبل بن جبار : ٦٥  
 المقدس : ٥٨ ، ١٨ ، ١٤٣  
 مقدشو : ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٨٢  
 المقرى التلمساني : ٥٦  
 مقنيات (عاصمة) : ٢١٣  
 مكتابة : ٢٢٢ ، ٢١٥ ، ٢٢٢  
 مكمة المكرمة : ١٢ ، ٤٠ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ،  
 مشهد صاحب الزمان : ٢١٤  
 مشهد علي بن أبي طالب : ٢١٤  
 المصامدة : ٣٥  
 مصر : ٨ ، ١٩ ، ٤٠ ، ٣٢ ، ٢٩ ، ٢٨ ، ٤٣ ، ٤٢ ، ٤١ ، ٤٧ ، ٤٦ ، ٤٤ ، ٥٢ ، ٤٩ ، ٤٨ ، ٦١ ، ٥٨ ، ٥٥ ، ٩١ ، ٧٣ ، ٧٠ ، ٦٨ ، ٦٧ ، ٦٤ ، ٩١ ، ١١٩ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٤ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٢٦ ، ١٢٠ ، ١٣٥ ، ١٢٩ ، ١٢٧ ، ١٦١ ، ١٦٧ ، ١٤٠ ، ١٣٨ ، ١٧٥ ، ٢٢٨ ، ٢٢٣ ، ٢١٥ ، ٢٠٤ ، ١٩٦ ، ٢٣٦ ، ٢٣٢ ، ٢٣١  
 مصر المملوکية : ١٣٧ ، ١٣٨  
 المصريون : ٩١ ، ١١٨ ، ٢١٥  
 مصطفى عبد الجيد صالح : ١٠  
 مصطفى كمال : ١١٧ ، ١١٩  
 مصلح الدين (الشيخ) : ١٢٩ ، ١٢٣  
 مطرح : ١٠٧  
 المطلب : ٤٨  
 أبو المظفر حسن (السلطان) : ١٠٠  
 معابد الكرنك : ٤٦  
 معاصر قصب السكر : ٤٤  
 معان : ٥٩  
 معبد بورذى : ١٦٥  
 العبر (أنظر : كروماندل) : ١٨٥  
 معركة طريف : ٢١٤  
 معروف الكرخى : ٨٧  
 معرة النهان : ٢١٥ ، ٥١  
 معز الدين حسين : ١٥٢ ، ١٥١  
 معز الدين بن سام (أنظر : محمد الغوري)

٢٧٠

- منجرمور : ١٧٢  
منسي أولي : ٢٣٢  
منسي سليمان : ٢٣٣ ، ٢٣٢  
منسي موسى : ٢٣٢  
منصور بن نحي (الشريف) : ٩٢  
المصورة (مدينة مصرية) : ٣٣  
ابن منظور : ١١٥  
منغوليا : ٢١٠  
المنفيث (سلطان ظفار) : ١٠٢  
منفلوط : ٤٤  
ابن منكلى : ١١٦  
مني : ٩٠  
المانيا (مدينة) : ٤٤  
منية ابن خصيب : ٤٤  
منية بني مرشد : ٣٩  
منية القائد : ٤٤  
مهذب رحلة ابن بطوطة (كتاب) : ٨  
مهرات : ١٤٨  
المهل (إقليم) : ١٨١  
الموحدون : ٣٣ ، ٣٤ ، ٥٠ ، ١٣٩ ، ٢١٦ ، ٢١٦  
٢٢٠  
موزميقي : ١٩٥  
موسى الكاظم بن جعفر الصادق : ٨٧  
موسى الكلم : ٥٠  
الموصل : ٩٠ ، ٨٩ ، ٨٨ ، ٨٠ ، ٧٢  
موضع القلب : ٦٧  
موغ استان : ١٠٨  
موقع الأرك : ٥٠  
المولوية (مصب) : ٢١٧  
الملايو : ١٩١
- ٧٨ ، ٧٢ ، ٧٠ ، ٦٩ ، ٦٨ ، ٦٧  
، ٢١٦ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٤ ، ٨٨  
٢٣٢  
الملتان : ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦  
مل جاوة : ١٩٣  
ابن ملجم : ١٠٥ ، ٨٦  
الملديف (جزر) : ١٠٧ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٦  
، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٤  
، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ٢٤٠  
ملوة : ١٦٩ ، ١٦٨  
ملوى : ٤٤  
 مليانة (مدينة) : ٣٣  
المليار : ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٨٥ ، ٢٢٨  
 مليلة : ٢١٧  
المالك الأفريقية السودانية : ٢٣٢  
ملك الطوائف : ٢٦  
ملك النصرانية : ٢٢٠  
المهاليك : ٢٨ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٩١  
المهاليك البحريه : ٢٨ ، ٤٢ ، ٧٣  
المهاليك البرجية : ٤٢  
مبسة : ٩٩  
مر تازا : ٢١٧  
مر خاوك : ١٥٢  
مر خيير : ١٤٨ ، ١٥٢ ، ١٥٣  
ملكة خانات المغول : ١٤٨  
منارة الأسكندرية : ٣٧  
منامات الوهاف (كتاب) : ٥٥  
مانجلور : ١٧٣  
منتشارق : ٢٢٠  
منجان الأول : ٢٣٢

- النكارية : ١٠٥  
 نكدة : ١٢٧  
 النسا : ١٠٨  
 ننجبو : ١٩٩  
 نهر آب حياة : ١٩٦ ، ٢٠٥  
 نهر آبي سياه : ١٦٧  
 نهر إيل (أنظر: نهر الفوجا)  
 نهر أرخون : ٢١٠  
 النهر الأزرق : ١٨٩ ، ١٨٨  
 نهر أموداريا (أنظر: نهر جيحون)  
 نهر أووال : ١٤٩  
 نهر إيسى : ١٤٩  
 نهر تونج : ٢٠٥ ، ١٤٥  
 نهر جيوجون : ١٤٩ ، ١٥١  
 نهر الدانوب : ١٤٥  
 نهر دجلة : ٨٧ ، ٨٦ ، ٨٠  
 نهر الدون : ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٧  
 نهر السير (أنظر: نهر آب حياة)  
 نهر السندي : ١٥٦ ، ١٥٤  
 نهر السنغال : ٢٢٦  
 نهر العاصى : ٥٢  
 نهر الفوجا : ٧٦ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٥  
 ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٤  
 نهر فو - هو : ٢٠٦  
 نهر الكالندي : (أنظر: نهر آبي سياه)  
 نهر كاما : ١٤٠  
 نهر الكنج : ١٨٨  
 نهر كوما : ١٣٩  
 نهر مای : ٢٠٥  
 نهر المولوية : ٣١
- ميمة (بلدة) : ٢٣٤  
 ميناء الدين بارثي (مؤرخ) : ١٥٩  
 مبور : ١٦٩  
 ملاس : ١٢٥
- (ن)
- ناير (مدينة) : ١١٥  
 نابلس : ٤٩  
 ناتان شان : ١٩٩  
 الناصر العباسى (الخليفة) : ١٢٣  
 الناصر بن علناس : ٣٣  
 ناصر الدين الفارى (تاجر) : ٩٨  
 ناصر الدين الدامغاني : ١٨٥  
 الناصر بن المغيث (الملك) : ٢١٣  
 بنويهان : ٢١٣ ، ١٠٧  
 نجد : ٧٨ ، ٧٩ ، ١٠٦ ، ١١١  
 النجف : ٢١٤ ، ٨٠ ، ٧٩  
 التحريرية : ٢١٥  
 نخل القليب : ٦٧  
 نزوة (مدينة) : ١٠٧ ، ١٠٥ ، ١٠٤  
 نسف : ١٥١  
 النصارى : ٢٧ ، ٥٥ ، ١١٨ ، ١١٦ ، ١٢٨ ، ١٢٨ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٣٩  
 ١٢١ ، ٢٢١ ، ٢٢٠  
 نصارى الروم : ١٢٦  
 النصرانية : ١٣ ، ١٢٠ ، ١٣٣ ، ٢٣١  
 نصيبين : ٩٠  
 نظام الدين أوليا (الشيخ) : ١٥٨  
 نظام الدين بن طورانشاه : ١٠٨  
 النقرة (ماء) : ٧٩

- هضبة الأطلس : ٢٣٦  
 المكار : ٢٣٦  
 بنو هلال [عرب] : ٢٢٢  
 المندكدة : ١٥٩  
 الهند : ١٣ ، ٣٨ ، ٣٧ ، ٢٩ ، ٢٣ ، ٢٨ ، ٩٥ ، ٨٥ ، ٨١ ، ٧٠ ، ٥٧ ، ٤٥ ، ١٠٨ ، ١٠٤ ، ١٠٢ ، ١٠٠ ، ٩٩ ، ١٣٨ ، ١١٨ ، ١١٥ ، ١١٤ ، ١٠٩ ، ١٥١ ، ١٤٩ ، ١٤٢ ، ١٤٠ ، ١٣٩ ، ١٥٨ ، ١٥٦ ، ١٥٥ ، ١٥٤ ، ١٥٣ ، ١٦٧ ، ١٦٥ ، ١٦٤ ، ١٦٣ ، ١٦١ ، ١٨٤ ، ١٧٧ ، ١٧٤ ، ١٧١ ، ١٧٩ ، ١٩٦ ، ١٩٥ ، ١٩٢ ، ١٩١ ، ١٨٩ ، ٢١٠ ، ٢٠٧ ، ٢٠٤ ، ٢٠٣ ، ١٩٨ ، ٢٢٢ ، ٢١٨  
 الهند الإسلامية : ٧٤ ، ١٥٨ ، ١٥٥ ، ١٦٠  
 الهندوس : ١٧٩ ، ١٧٣ ، ١٧١  
 الهندوكوش : ١٤٨  
 الهندوكية : ١٦٩ ، ١٧٣  
 الهندى دلشاد (الصوف) : ١٦٧  
 هنرى بول (السير) : ٨ ، ١٤٤ ، ١٨٥ ، ٢٠٦ ، ١٩٤ ، ١٨٩ ، ١٨٨ ، ٢٠٨  
 الهند : ٢٣ ، ١٩١ ، ١٧٠ ، ١٦٢ ، ١٠٧ ، ٢٢٨ ، ١٩٩ ، ١٩٨  
 هنور : ١٧٢ ، ١٧٩ ، ١٧٨ ، ١٨٥ ، ١٨٦  
 هو (مدينة) : ٤٤  
 هوتوجون - تيمور (ملك الصين) : ٢٠٨  
 هود بن عامر : ١٠٢  
 نهر الميوس : ١٤٤  
 نهر النiger : ٣٢ ، ٢٣١ ، ٢٣٢  
 نهر النيل : ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ١١٤ ، ١٩٦ ، ٢٣١  
 نهر هوجل : ١٨٨  
 نهر اليانج - تسى : ١٩٧  
 أبو نواس : ٤٤  
 النوبة : ١٤ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٢٣١  
 نوح عليه السلام : ٩٠  
 نور الدين (السلطان) : ٥٠  
 نيقية : ١٢٩  
 (٥)  
 هارون الرشيد : ١٥٢  
 هاملتون جيب : ٨ ، ١٤٣ ، ١١٣ ، ١٠٩ ، ١٤٤ ، ١٥٥ ، ١٦٩ ، ١٦٦ ، ١٨٩ ، ٢٠٩ ، ٢٠٧ ، ٢٠٤ ، ١٩٧ ، ١٩٦ ، ٢٣٥ ، ٢٢٦ ، ٢١١ ، ٢١٠  
 هانج - تشاو : ١٩٧  
 هانشو : ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨  
 هجر : ١١٣  
 أبو هر (بليدة) : ١٥٦  
 هدونيسيا : ١٩١  
 هرا : ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣  
 هرمز : ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١٠٧ ، ١٠٩  
 هرمز : ١١٠ ، ٢١٣ ، ٢١٤  
 هرمز الجديدة : ١٠٨  
 هزار أمروها (قرية) : ١٦٣  
 هزير الدين داود (السلطان المؤيد) : ٩٧  
 هشت بخار (شاش بخار) : ١٥٢

(لا)

- اللاتين : ٥٩  
 لاذق : ١٢٦ ، ١٢٥  
 اللاذقية : ٤٩ ، ١١٥ ، ١١٧  
 لار (مدينة) : ١٠٩  
 لارندة : ١٢٦ ، ١٢٥ ، ١٢٧  
 لاندراة : ١١٨

الموسا (بلاد) : ٢٣٦

هولاكرو : ٧٣ ، ٧٧ ، ١٩٩ ، ٢١٤

هلال (غلام) : ١٧٧

هيت : ٢١٤

هيلي : ١٧٢ ، ١٧٣

هيئة الأمم : ١٨١

(و)

(و)

- ياقوت الحشى : ٣٨  
 أبو يحيى بن أبي حربة بن اللحيفي : ٣٢  
 يزد : ٨٤ ، ٧٤  
 اليزيدية : ١٠٥  
 اليسور (أمير) : ١٥٠  
 أبو يعقوب السوس (أمير الجاح) : ٣٥  
 أبو يعقوب يوسف المتصور : ٥٠  
 اليقوط : ١٦٩  
 يتبع بك : ١٢٦  
 الياءمة : ١١٣  
 اليمن : ٣٧ ، ٤٧ ، ٩٢ ، ٩١ ، ٨٨ ، ٧٠ ، ٤٧ ، ٩٣  
 ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٦  
 ٢٢٢ ، ٢١٨ ، ١٧٤ ، ١٧٣ ، ١١٤  
 اليهود : ٤٨ ، ٥٤ ، ١١٨ ، ١٧٤  
 ٥٠ : يهوذا  
 يوان (أنظر: الصين الجنوبية)  
 يوحنا (القديس) : ١٢٨  
 يوسف (عليه السلام) : ٥٠  
 يوسف بن إسماعيل بن الأحرم : ٢١٤  
 يوسف بن تاشفين : ٣٣ ، ٣٢  
 يوسف بك بن قرمان : ١١٨

وادي حلفا : ٤٧

وادي زيز : ٢٢٤

وادي سلا : ١٤٦

وادي العروس : ٧٩

وادي العطاس : ٦٠

وادي العتيق : ٦٧

وادي العلاقى : ١١٤ ، ٤٥ ، ٤٧

وادي نخلة : ٦٩

واسط : ٨٠

الرانقوري (أنظر: الونجرة)

الورادة : ٤٨

وزارة المعارف المصرية : ٨

بنورطاس : ٣٠ ، ٢٩

وفاء الوفاء (كتاب) : ٦٢

الونجرة (الونجارة) : ٢٣١

الوهيبة : ١٠٥

وهران : ٣٢ ، ٣١

ولاته : ٢٢٦

ولايات الراجبوتانا : ١٦٩

الولايات المتحدة الأمريكية : ١٣٥

۴۷۸

بيان (أسرة) : ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٨

اليونان : ١٢٩

پونی (مذہب) : ۱۰۰

یول : ۱۹۷ ، ۲۱۱

يونان (مقاطعة) : ١٩٩ ، ٢٠٩

## الفاظ الحضارة

- (ا)
- |  |                                       |
|--|---------------------------------------|
| إمارة غزاة : ١١٧                         | الأبدال : ٢٨                          |
| الإمام : ١٠٥                             | أناورك : ١١٩                          |
| الإمام المتظر : ٢١٤                      | الأخرج : ١٨٢ ، ١١٢                    |
| إمام الموسم : ٧٠                         | الآتلى : ١٣٧                          |
| الأمناء : ٣٦                             | الإجازات الدراسية : ٥٧                |
| أموال النذور : ١٥١                       | إحرام بعلبکي : ١٢٦ ، ٣٤               |
| الأمير : ١٢٧                             | الأنجية : ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٧ ، ١٣٨ |
| أمير جندار : ٢١٣ ، ٩١                    | الأنجية الفتیان : ١٢٩ ، ١٢٢           |
| أمير الحاج : ٥٨                          | الإدام : ٩٩                           |
| أمير الطعام : ٥٩                         | الأرز المقلفل : ٨٢                    |
| الأنقار (أنظر: النقارة)                  | أرسال : ١٦٦                           |
| الأئل (صنف من الحبوب) : ٢٣١ ، ٢٢٦        | أراض (رافضة) : ٤٩                     |
| أهل الحرف : ١٢١ ، ٢٤ ، ٢٣                | الأرمين : ١٤٢                         |
| أهل السنة : ١٠٤                          | الإصباءية : ٢٠٩                       |
| أهل الطرق الصوفية : ٩ ، ٩ ، ٢٦ ، ٢٤ ، ٢٢ | أصحاب الدرك : ١٧٤                     |
| أهل المراقب : ٩٩ ، ٣٥                    | أصحاب الكرامات : ٢٦ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٥٤    |
| الأهورة (مركب) : ١٥٦                     | أصحاب المكاففات : ٣٨                  |
| أوتوريه : ٢٤                             | الأطر الاجتماعية : ٣٠                 |
| الأولياء : ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨                  | الأطر السياسية : ٣٠                   |
| الإيلخانية : ١١٠ ، ٨٩ ، ٨٥ ، ٢٩          | الاعمار : ٩١                          |
| الإيوان : ٨٨ ، ٨٥                        | أغا (لقب) : ١٧٧                       |
|  | الأقطاب : ٢٨                          |
|  | الأكاديش : ١٣٨                        |
| البابا : ١٤٧ ، ١٢٨                       | إمارة الحاج : ٧٣ ، ٧٢                 |
- (ب)

التوسيط (القطع بالسيف) : ٥١  
 القونة : ١٨١  
 التين : ٦٩  
 التين الماليق : ٢٢١

## (ث)

ثريات الرجال العراق : ١٢٢  
 الثريد : ١٤  
 ثياب السواد : ٨٨  
 الثياب العلبكية : ٥٣

## (ج)

الجالية الإسلامية : ١٤٦  
 جالية تجارة الإفريقي : ٣٩  
 جارة : ٢١١  
 جبال الملحق : ١٠٨  
 جبل القرود : ١٩٦  
 الجراية : ٤٣  
 الجرخية : ١٧٤  
 الجريب فروت : ١١٢  
 الجفن : ١٤٧  
 الجلبة (سفينة متوسطة) : ٩٢  
 الجكطي : ١٤٨  
 جلد الفرس (أنظر: الدبس)  
 جلود اللقط : ٣٢  
 جمادات المغاربين الدينيين : ١٢٠  
 الجمون (شجر) : ١٨٢  
 الجنك : ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ،  
 ٢١٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤  
 الجواسيس : ٤٨

البادهنج : ١٢٨  
 بابن بئر : ١٦٧  
 بالشت (عملة) : ٢٠٢ ، ١٩٩  
 البرتقال : ٢٠٣  
 البرمشت الرماة : ١٧٥  
 بستو (عملة) : ١٨٣  
 البسط الرومية : ١٢٢  
 البطيخ : ٦٩  
 بطة سمن : ٩٢  
 البقم : ١٧٧  
 البندر (الحكومة) : ١٩٢ ، ١٨٣  
 البوبيتو (سمك) : ١٨١  
 بيبي (معنى الحرة) : ١٠٤  
 بيسوس : ١٢٢

## (ت)

التايبوكا (شجرة) : ٢٣١  
 تاجافور : ١٤٥  
 التبر : ٣٢ ، ١٠٠ ، ٢٢٦  
 تبر السودان : ١٣٩  
 التحتانيات (ملابس داخلية) : ١٩٢  
 الترسة : ٢٠٩  
 التروش : ٩٤  
 التزدارية : ٢٠٩  
 التصعلك (أنظر: الصعلكة)  
 تكفور (لقب) : ١٤٥  
 التكشيف (أنظر: الكشاف)  
 التمر الهندي : ١٨٥  
 التنبول (أنظر: القات).  
 التندارية : ٢٠٩

- خدالوند زاد (وزير) : ١٦١  
 خديم السساط : ٨٢  
 الحرفة : ١٢٦  
 خرقة التصوف : ٤٩  
 الخلعة : ٢٣٢ ، ١٣٠ ، ١٤٣ ، ١٦٢ ،  
 خلولة اللحم : ٨٧  
 الخوخ : ٦٩  
 الخور : ٢٠٤  
 خوند عالم (سلطان الدنيا) : ١٦٢
- الجوافة : ١٥٦  
 الجور : ١٨٨  
 جوز الطيب : ١٠٣  
 جوزة نارجيل : ١٥٧  
 الجوكية (اليوجى) : ١٧٧ ، ١٦٨ ،  
 الجلاب : ١٢٨  
 الجلاس (غطاء مثقب من النحاس) : ١٢٢

## (ح)

- (٥)
- دار السيادة : ١٢٧  
 الدار صيني : ١٧٧  
 دار الطلبة : ٩٩  
 الديبس : ٥٣  
 دجاج الصين : ١٩٨  
 الدجاج المقللي : ٨٢  
 دخانة (معبد بوذى) : ١٦٠  
 الدخن : ٢٢٦ ، ١٨١  
 الدراعه : ٩٩  
 دراهم الكاغد : ٢٠٢  
 دراهم نقرة : ٩٢  
 الدراويش : ١٥٩ ، ١٥٨  
 دراويش الأتراك : ١٢٢  
 الدرفس : ٤٣  
 الدرهم الصغير : ٢٢١  
 الدسوت : ٧٥ ، ٥٣  
 الدشت (الصحراء) : ١٣٥ ، ١٣٤  
 دولي العنب : ١٧٣  
 دور الصيافة : ٢٣
- حال القنب : ٤٧  
 حجر المغناطيس : ٩٤ ، ٤٧  
 الحرام : ١٨٢  
 ابن الحرفة : ٩  
 الحريرة (بالمغرب) : ١٥٦  
 حزب البحر (دعاة) : ٣٨  
 حلوي الحروب : ٤٩  
 الحوت : ٩٩
- (خ)
- الخاتون (الخواتين) : ١٢٧ ، ١٤٠ ، ١٤٥ ،  
 ١٩٤ ، ١٥٤  
 الخاتون بيلون (زوجة السلطان) : ١٤٤ ، ١٤٣  
 المخاركاه (اللحيمة التركية) : ١٢٨  
 الخان (فندق) : ٤٨  
 الخان (لقب) (أنظر: القان)  
 الخانقاه (الخواتين) : ٧٩  
 خانوم (لقب في الشام) : ١٢٧  
 الخانية (السلطنة) : ١٥١  
 الخباء : ٣٤  
 خبز الأرز : ٨١

- رقصة الدراوיש : ١٢٢ ، ١٢١  
الركاز : ١١٢  
ركب الحاج : ٣١ ، ٣٥ ، ١٠٦  
ركب الحاج التونسي : ١٩ ، ٣٦  
ركب الحاج الشامي : ٤٧ ، ٥١ ، ٥٧  
ركب الحاج العراقي : ٧٧ ، ٧٨ ، ٩٠  
ركب الحاج المصري : ٤٧  
ركب الحاج المغربي : ١٨ ، ١٩  
الرمان الياقوتي : ٢٢١  
الرواق : ٨١ ، ٨٠ ، ١٢٧  
الروايا : ٦٠  
الروبلات (قوالب الفضة) : ١٤٤  
رئيس العشيرة : ٩  
رياح السموم : ٦٠ ، ١٠٨  
ريش النعام : ٣٢
- (ذ)
- الزليج : ٧٩  
الزمام : ٨٦  
الزو (الدو) : ١٧٤  
زيت التروع : ٤٧
- (س)
- السي : ١٦٢  
ابن السبيل (أنباء السبيل) : ٨ ، ٩ ، ٢٢  
، ٣٤ ، ٤٩ ، ٧٥ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ١٠٩  
، ١٢٢ ، ٢٠٤ ، ٢١٩  
سجادة الرفاعي : ١٢٧  
سراق (القراصنة ، اللصوص) : ٧٠  
السراويل : ١٢٦ ، ١٨٦
- الدوق (طعام) : ١٣٧  
دولة (المخفة) : ١٧٣  
ديار ثمود : ٦٠  
الدينار الذهبي : ١٨٣  
الدينار العربي : ١٣٩  
الدينار المراطي : ١٣٩  
دينار مغربي مربني : ١٣٩  
الدينار الموحدي : ١٣٩  
الدينصور : ٢١١  
الديوان : ٢٠٤  
ديوان التجار : ١٩٩  
ديوان المرسي : ٢٠٤

(ذ)

الذمار : ١٠٩ ، ١٢٣  
الذهب المغربي : ١٣٨

(ر)

الرابطة (بناء) : ١٠٣  
الرب (المربى) : ٤٩  
رب العنبر : ٨٢  
الرباط (الربط) : ٤٣ ، ٣١ ، ٢٣ ، ٢٢

، ٨٠ ، ٨٣  
رباط الفتح : ١٤٧  
رجل سفار : ٤٠  
رحلة كراماتية : ٤٠  
الرخ : ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢٤٠  
الرطب : ٦٩  
الرطل الهندي : ١٦١  
الرقاق : ٨٥

## (ص)

- الصابون الأجرى : ٥٢  
 الصابون النابسى : ٥٢  
 الصادر : ١٧٢ ، ٥٠ ، ١٠٤  
 الصداع : ٢٠  
 الصعلكة : ١٤  
 الصلصال : ٨٦ ، ٨٠  
 صنبوق : ١١٤  
 الصندلية : ١٨٢  
 الصهب (جال) : ٩٤  
 الصوفية : ٢٧ ، ٢٨ ، ٤٤ ، ٥٤ ، ١٢١  
 ٢٤٠ ، ١٩١ ، ١٢٦  
 الصوم (سبائك فضة) : ١٤٤  
 صومعة التوافيس : ١٣٤
- سراويل الفتوة : ١٢٣  
 السرج : ٢١ ، ٩٤ ، ١٢١  
 السردين : ١٠١  
 سرششى : ١٦١  
 السفاراة : ٥٠ ، ١٦٤ ، ١٧٦ ، ١٦٥ ، ٢١١  
 سقينة كاتب الرسائل : ٢٠٩  
 سقينة كاتب السر : ٢٠٩  
 سقينة كتاب الأشغال : ٢٠٩  
 سقينة الوزير : ٢٠٩  
 السلطنة : ١٨٨  
 السساط : ٨١  
 السمور : ١٤٢  
 سن الفيل : ٣٢  
 السنداس (الحام) : ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧  
 السلاطين : ١٢٥  
 سياه (معاملة) : ١٨٣

## (ط)

- الطاعون الأعظم : ٢١٥ ، ٥٥ ، ٥٤  
 الطحلب : ٨٠  
 الطرادة : ١٧٨  
 الطريقة الرفاعية : ٤٩  
 الطريقة القلندرية : ٧٢  
 الطفل (للغسيل) : ١٥١  
 الطلبة : ١٢٦ ، ٣٦ ، ٩٨ ، ٩٩  
 الطلة : ١٤٧ ، ١٢٤

## (ظ)

- الظاهر (لقب سلاطين جاوة وسمطرة) :  
 ٢١٠ ، ١٩٢

## (ش)

- الشال (الشيلان) : ١٧٩  
 الشب : ٢١  
 الشريدار : ١٦٦  
 الشرط : ١٢١ ، ١٢٠  
 الشرفاء : ١٢٧  
 الشطى (مركب صغير) : ٢١٩  
 الشقة : ٧٢  
 شيخ الخدام : ٦٤  
 شيخ العشيرة : ٢٤  
 الشيرج (زيت السمسم) : ١٥١  
 شيرماهى (نوع من السمك) : ١٠٣

## (ع)

- الفترة : ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٩٨ ، ٢٠١ ، ٢٠٥ ، ٢٢١ ،  
 الفتىان : ١٢٦  
 الفتىاني : ١٢٢  
 الفخار : ٢٠٥ ، ٢٢١  
 فخار الصين : ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠١  
 فخرة : ١٨٨  
 الفدية : ١٣٩  
 الفرجية : ٩٩  
 الفرو : ١٤٢  
 فرو سمور : ١٤٣  
 فرو السنجباب : ١٤٣  
 الفلل : ١٠٢ ، ١٧٢ ، ١٧٣  
 الفلل المصير (المخل) : ٩٩  
 الفوط : ٨٧ ، ٩٩ ، ١٨٢ ، ١٩٢  
 الفوفل : ٩٩ ، ١٠٣

## (ق)

- القات : ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٠٣  
 القار : ٨٧ ، ٨٦ ، ٨٠ ، ٩٠  
 القاشاني : ٧٩  
 قاضي دار الملك : ١٦٢  
 قاضي طريق : ٣٥  
 قاضي القضاة : ٢١٥  
 القائم (نوع من الفرو) : ١٤٢  
 القان : ١٤٩ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢١٠

- القالات : ٩٤ ، ٩٥  
 قبلة قطع : ٦٣  
 قرabis الركوب : ٣٢  
 القرعة : ٢٣١

## (غ)

- الغازى : ١١٧  
 الغالية : ١٨٢  
 الغراب (مركب) : ١٧٨  
 الغزارة : ١١٦  
 غزلان المسك : ١٨٨  
 الغيلم (السلحفاة) : ١١١

## (ف)

- فتنة الأتراك : ١٥٢  
 الفتوح (مايفتح الله به دون عمل) : ١٣٩

كفال (لقب) : ١٤٥

الكلكم : ١٧٤ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩

الكلس : ٢١

كلوريد الصوديوم : ١٠٨

الكتدر (شجر) : ١٠٣

الكوشان : ٩٩

الكلا (شاشة الرأس) : ٨٤

### (ل)

لباس الفتنة : ١٢٣

اللبان : ١٠٣

اللجم : ٢١

لكتونى : ١٨٨

اللوز المالقى : ٢٢١

اللؤلؤ : ١١١ ، ١١٢

ليلة الحيا (٢٧ من رجب) : ٨٠

الليريون : ١٨١

الليمون : ١٨٢

ليمون أصلانيا : ١١٨

الليمون المصبر : ٩٩

اللاعبين بالنار : ٨١

### (م)

الماترياركات : ٢٣٠

الماستردنت : ٢١١

المانجو : ١٥٦

المانسترات (دير) : ١٤٦

المقال : ٢٢٥

مجاشر (ضياع) : ١٦٢

المجاورة (المجاورين) : ٦٤ ، ٧٠ ، ٨٨ ،

القرفة : ١٧٧

قرقرة : ١١٥ ، ١١٦ ، ١٤٧

القرنفل : ١٩٣

قصصه رسول الله ﷺ : ٤٣

القطار (صفوف الجمال المتالية) : ٧٨

القطيع الأبيض : ١٣٢

القطيع الأزرق : ١٣٢

القطيع الذهبي : ١٤٣

القططان : ٧٠

قلب الماس (سلك) : ١٨١

القلقايس : ١٨٢

قر الدين : ١٢٠ ، ١٢٦

القمز (شراب البوزة) : ١٣٧

القبن : ٩٤

القبار : ٩٤

الكورولتاي (مجموع) : ١٤٩

القول (غناه بالعربي) : ١٣٨

القوف (نبات) : ٢٣١

قلانس زردخاني : ١٢٢

قلانس طوال : ١٢٦

### (ك)

الكارو : ١٣٥

كأس الفتنة : ١٢٣

الكافور : ٢١٣

الكريت : ٩٠

الكدية : ١٤

الكسكسو (طعام) : ٢٣١

الكشاف : ٢٢٧

الكشري : ١٥٦

## (ن)

- الناخوذة : ١٧٤ ، ١٧٧  
 التارجيل (شجر) : ٩٤ ، ١٠٢ ، ١٧٣ ، ١٧٣  
 ١٨١ ، ١٨١  
 التاريخ : ٢٢١ ، ٢٠٣  
 نائب السلطنة : ٥٤ ، ٥٥ ، ٢١٥  
 النقى : ١٧٦  
 الترل - التزالة : ٩٨ ، ٨٣  
 النطع : ٣٩  
 النفط : ٨٧ ، ١٧٤ ، ٩٠  
 القفاراة : ١٥٧  
 نقيب أهل الحرقفة : ٣٦  
 النواة : ٢٣  
 النواير : ٥١  
 النولون : ١١٦ ، ١١٥
- الحارات (الجبل الذى تحمل المحامل المزدوجة) : ١٦٤ ، ٩١  
 ٧٨  
 المحفات : ١٦١  
 المحلة (الحى) : ٨٧  
 المريد : ٤٩  
 مساجد سلاطين : ٢٨  
 المشاعل : ٧٨  
 المشمش الحموى : ١٢٠  
 المصاري (جمع مصرية وهى الجناح) : ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧  
 المعيد : ٨٨  
 معانى حلب : ٥٢  
 المقدم : ٢٢٥  
 المكاشفة : ٣٩  
 الملبن (أنظر : الدبس)  
 الملح الوارافى : ١٠٨  
 الملح النارافى : ١٠٨  
 ملك (أمير محل) : ١٥١  
 الملمع (غناء بالفارسى والتركى) : ١٣٨  
 الماليك - البرد : ٢٠٩  
 مماليك المند : ٧١  
 المنفق من الكون : ٣٩ ، ٤٥ ، ١٠٩  
 الملووية : ١٢٢  
 ملابس الإحرام : ٥٣  
 الملحف : ٩٤  
 ملاعق خشب : ٥٣  
 الميضاة : ٦٣

## (هـ)

- هانم (لقب فى مصر) : ١٢٧  
 الطريسة : ٨٥

## (و)

- الوارد : ٥٠ ، ٨٢ ، ٨٥ ، ١٠٤ ، ١٢٧ . ١٢٧  
 ١٧٢  
 الوارد والصادر : ٥٢ ، ١٢٢ ، ١٥١  
 الوالى : ١٨٣  
 الوباء الكبير (أنظر : الطاعون الأعظم)  
 الودع (معاملة) : ١٨٣  
 الوعول : ٣٢

## (ى)

- الباوباب (شجرة) : ٢٣٠  
 يوم الفتح : ٦٨

الميل : ٤٣  
 المينك : ١٤٢

## م الموضوعات الكتاب

### صفحة

٥ .....	إهداء
٧ .....	بين يدي الكتاب
١١ .....	مدخل
صعوبة دراسة الرحلة دراسة علمية ١٢ - صعوبات تحقيق الأعلام المغراوية ١٢	
١٦ .....	ابن بطوطة ودفافعه إلى الرحلة
مولد ابن بطوطة ونشأته ١٦ - وجوه تشابه بين ابن بطوطة والشريف الإدريسي ١٧ - الدافع الأول لابن بطوطة على الخروج للرحلة ١٨ - الشوق إلى رؤية الدنيا والناس ١٨ - قوة بدنه واحيائه ١٩ - معرفه بالطب والأعشاب ٢٠	
٢١ .....	كيف قام برحلاته كلها دون مال؟
أخطار الرحلات والأسفار في الماضي ٢١ - حقيقة تاريخية تزكيتها رحلة ابن بطوطة : وحدة عالم الإسلام ٢٢ - شبكة الروايا والمدارس والربط تعطى عالم الإسلام ٢٢ - ابن السبيل والروايات ٢٣ - تقسيم الناس إلى مراتب وأصناف ٢٣ - عالم الإسلام الأول ٢٤	
٢٦ .....	عصر ابن بطوطة
عصر الأولياء والصوفية ٢٦ - الأسباب التاريخية لشيوخ ظاهرة الأولياء ٢٦ - عصر ابن بطوطة عصر انتعاش سياسي ورخاء عمراني ٢٨	
٣١ .....	الطريق من طنجة إلى تونس - إقامته قاضيا
تلمسان وإمارة بنى زيان ٣١ - مدينة الجزائر ٣٣ - بجاية ٣٣	

- ٣٦ ..... من الإسكندرية إلى القاهرة .....  
 أول زيارات ابن بطوطة ٣٦ - لاصحة لما يقال عنه من أنه كان مزواجاً ٣٦  
 الإسكندرية ٣٦ - رخاء البلد في ذلك الحين ٣٧ - أبواب الإسكندرية ٣٧  
 منارة الإسكندرية ٣٧ - عمود السوارى ٣٧ - أضخم عامة رآها ٣٨ - أول من  
 لقى من الأولياء ٣٨ - حرص سلاطين المالك على سلامه تجاه الإفرنج ٣٨ - من  
 الإسكندرية إلى القاهرة عن طريق دمياط ٣٩ .
- ٤١ ..... القاهرة - الصعيد إلى عذاب .....  
 ملاحظات طريفة عن مصر وأهلها ٤١ - كثرة المدارس بمصر ، مارستان  
 قلاوون ٤١ - كثرة الروايا (المناقوات) في مصر ٤٢ - ابن بطوطة رأى مصر في  
 أوج ازدهارها في العصور الوسطى ٤٢ - رحلته في صعيد مصر ٤٣ - الآثار النبوية  
 في رباط ديرالطين ٤٣ - المنيا ٤٤ - منبر منفلوط ٤٤ .
- ٤٦ ..... بقية مصر وبلاد الشام .....  
 عذاب وأرض البجاء ٤٧ - سفن العبور إلى جدة ٤٧ - ابن بطوطة لا يحتج عن  
 طريق عذاب ويعود أدراجه ٤٨ - الحدود بين مصر والشام ٤٨ - غزة ٤٨  
 القدس الشريف ٤٩ - ابن بطوطة يلبس خرقه التصوف ٤٩ - عكا وصور ٤٩ .
- ٥١ ..... ابن بطوطة في الشام .....  
 مدینتا طرابلس ٥١ - حصن الأكراد ٥١ - حجا وحمص ومعرة النعان ٥١ -  
 صناعة الصابون عند العرب ٥٢ - حلب ٥٢ - أنطاكية ٥٢ - حصون الإسماعيلية  
 الفدوية واستخدام الناصر بن قلاوون لهم ٥٢ - جبلة وقبر إبراهيم بن  
 أدهم ٥٣ - حصن المرقب وجبل لبنان ، بعلبك ، الدبس ، الملن ، الثياں  
 البعلبكية ٥٣ - صناعة الصحاف والملاعق ٥٣ - دمشق ٥٣ - ابن تيمية ٥٣ -  
 خطأ ابن بطوطة في توقيت الحوادث ٥٤ - إجراءات مقاومة الوباء ٥٤ .

## صفحة

الطريق إلى المدينة المنورة ..... ٥٦

حب ابن بطوطة لبلاد الشام ٥٦ - مستوى علم ابن بطوطة بالفقه ٥٧ - خروج ابن بطوطة إلى الحجاز أول مرة ٥٧ - تنظيم ركب الحاج ٥٨ - طريق الحج من الشام إلى مكة ٥٨ - حصن الكرك ٥٩ - معان آخر بلاد الشام ٥٩ - ديار ثمود ٦٠ - مدائن صالح ٦٠

فالمدينة المنورة ..... ٦٢

أسفاره ٦٢ - المسجد النبوي ٦٢

الحديث الأول عن مكة ..... ٦٧

فضائل أهل مكة ٦٩ - نظافة أهل مكة ٦٩ - إمام الموسم ٧٠ - أهل مكة يأكلون مرة واحدة في اليوم ٧٠

ركب العراق ..... ٧٢

ركب الحاج العراقي ٧٢ - الشرق الإسلامي بعد غارة المغول ٧٣ - غازان خان ٧٣ - بغداد تفيق من كارثة المغول ٧٣ - عود الرخاء إلى بعض أقاليم إيران ٧٤ - دولة خانات شغناي في بلاد ماوراء النهر ٧٤ - اهتمام ابن بطوطة بالجانب المشرق من الحياة ٧٤ - تصوير ابن بطوطة لركب الحاج الذي سار فيه ٧٥

ابن بطوطة في ركب العراق ..... ٧٨

تنظيم ركبان الحجاج ٧٩ - النجف ٧٩ - واسط ٨٠ - مزار أبي العباس أحمد الرفاعي ورواق الرفاعية ٨٠ - البصرة ٨١ - مثال من دقة تنظيم بعض الزوایا وإكرام التزلاء فيها ٨٢ .

إيلخانات فارس ..... ٨٤

شيراز وكثرة الشرفاء فيها ٨٥ - الشاعر الفارسي السعدي ٨٥ - زاوية الشيخ أبي إسحاق في كازرون ٨٥ - قبر عبد الرحمن بن ملجم وقبة المختار بن أبي عبيد ٨٦ -

## صفحة

بغداد ٨٦ - النفط في العراق - حمامات بغداد ٨٧ - محلات بغداد ٨٧  
مشهد معروف الكرخي ومقامات بعض أئمة آل البيت ٨٧

٨٨ ..... بغداد

احتياط بغداد بجانب من مجدها العلمي القديم ٨٨ - إسحاق تبريز ٨٩ -  
سامرا ٨٩ - الموصل ٩٠ - جبل الجودي ٩٠ - حجته الثانية مرضه على  
الطريق ٩٠ - ابن بطوطة يجاور في مكة سنة ٩١

٩٢ ..... اليمن

العواصف تلقي بابن بطوطة على ساحل أفريقيا ٩٣ - البجاية ٩٣ - جزيرة  
سوakin ٩٤ - بحر القلزم ٩٤ - ميناء حل في اليمن ٩٥ - صنعاء ٩٥ - نساء  
اليمن ٩٥

٩٧ ..... بقية اليمن - زيلع - مقدشو - كلوة - سفاله - العبور إلى ظفار

- بنو رسول أصحاب تعز ٩٧ - تعز ٩٧ - عدن ٩٨ - زيلع ٩٨ - مقدشو ٩٨ -  
البربرة أو الصوماليون ٩٨ - سلطان مقدشو ٩٩ - دار الطلبة ٩٩ - بلاد  
السواحل ٩٩ - ميسة ٩٩ - كلوة ١٠٠ - ظفار ١٠٠

١٠١ ..... ظفار وعمان

- اهتمام أهل ظفار بالتجار القادمين إلى بلدتهم ١٠١ - قبر هود بن عامر ١٠٢ -  
التبول ١٠٢ - طعام الناس في تلك المنطقة التمر والسمك ١٠٣ - قلهات ١٠٤ -  
بلاد عمان ١٠٤ - تزوى ١٠٤

١٠٦ ..... مدخل الخليج العربي هرمز ولار وجزيرة قيس وسيراف

- الحج قرة عين ابن بطوطة ١٠٦ - رياح السموم ١٠٨ - لار ١٠٩ -  
خنجبال ١٠٩ - حديث ابن بطوطة عن اللؤلؤ في الخليج وصيده ١١١ -  
البحرين ١١٢ - عيون مياه عذبة تتفجر في قاع الخليج ١١٣ - القطيف ١١٣ -  
اليمامة ١١٣ - العشاريات ١١٤ - الصنوبق ١١٤

## صفحة

- بلاد الروم - آسيا الصغرى - العلايا - أضاليا ..... ١١٥  
إلى بلاد الروم : أى آسيا الصغرى ١١٥ - بر التركية ١١٥ - القرقرة ١١٥ -  
بلاد الأناضول ١١٦ - إمارات الغزاة ١١٦ - علايا ١١٧ - ابن بطوطه يمتدح  
أهل أضاليا ١١٧ - يوسف بك بن قرمان ١١٨ - أضاليا ١١٨
- في بلاد سلاجقة الروم وإمارات الغزاة ..... ١٢٠  
قر الدين ١٢٠ - الأخية ١٢٠ - جماعة الفترة ١٢٢ - إمارات الغزاة التي  
زارها ١٢٥ - عبر البحر الأسود إلى القرم ١٢٥ - الروم النصارى ١٢٦ -  
قونية ١٢٦ - جلال الدين الرومي الشاعر ١٢٦ - طغى خاتون ١٢٧ - زاوية أمير  
على ١٢٧ - دار السيادة ١٢٧ - أماصية أولاد أبي العباس أحمد الرفاعي ١٢٧ -  
أورخان جد سلاطين آل عثمان ١٢٧ - في إمارة الأتراك العثمانيين ١٢٨ -  
أمير ١٢٨
- في بلاد مغول القنجاق ..... ١٣١  
مواطن القنجاق ١٣١ - خانية مغول القنجاق واسعها ١٣٢ - مصير خانية  
مغول القنجاق ١٣٢ - إمارة كييف مهد الروسيا ١٣٣ - هل هذه أول مرة يسمع  
فيها نوقيس كنيسة ؟ ١٣٣ - بلدة كافا أو فيرسوسيا ١٣٤ - مغول القنجاق الأتراك  
في تلك التواحي ١٣٦ - بلاد القنجاق ميدان الصراع بين الأتراك  
والروس ١٣٧ - اهتمام ابن بطوطة بالحياة اليومية للناس ١٣٧ - مدينة  
آزاق ١٣٨ - دقة ملاحظة ابن بطوطة ١٣٨ - الأكاديش خيل المغول ١٣٨ -  
حرص ابن بطوطة على ذكر قيم العملات ١٣٩ - الدينار المغربي المربي أساس  
تقديراته ١٣٩ - ماجر وأسترانخان ١٣٩ - احترام القنجاق للنساء ١٤٠ - عظاماء  
السلاطين في عصره ١٤٠ - بلاد البلغار ١٤٠

## صفحة

- ١٤٢ ..... **بلاد الظلمة**  
 بلاد الظلمة روسيا أوسبيريا ١٤٢ - تجارة الفرو ١٤٢ - أستراخان ١٤٣ -  
 الذهاب إلى القسطنطينية ١٤٣ - ابن بطوطه في طريقه إلى الغنى ١٤٣ - وصوله  
 إلى بلاد الدولة البيزنطية ١٤٥ - المعسكر مدينة متنقلة ١٤٦
- ١٤٨ ..... **مغول شغتاي**  
 إلى خوارزم وخانية مغول شغتاي ١٤٨ - ابن بطوطه يلقي تبعة غزوة المغول على  
 خوارزم شاه ١٤٨ - مدينة السرا عاصمة محمد أوزيلك سلطان مغول القفقاقي  
 خوارزم ١٤٩ - نظم المغول ١٤٩ - عرضية اليساق أو إلياسة ١٥٠ -  
 سمرقند ١٥٠ - حفيد المستنصر بالله آخر خلفاء بنى العباس في بغداد ١٥١ - نسف  
 وترمذ ١٥١ - بلاد خراسان بيلخ ١٥١ - هرة ١٥١ - مدينة الجام ١٥٢ -  
 دخوله الهند ١٥٢
- ١٥٤ ..... **الهند**  
 ابن بطوطه يدخل الهند رجالاً غنياً ١٥٤ - ابن بطوطه والنساء ١٥٤ - ابن بطوطه  
 يعجب بالسلطان محمد تغلق ١٥٥ - مدينة جناني ١٥٥ - المليان ١٥٥ - فاكهة  
 الهند ١٥٦ - إحراق الأرمدة مع زوجها الميت ١٥٦ - دهلي ١٥٧ - بداية دولة  
 الغوريين بعد الفزنيين ١٥٧ - قطب الدين أيك ١٥٧
- ١٦٠ ..... **ابن بطوطة ينتقل إلى الغنى**  
 ابن بطوطة يصبح في عداد الأغنياء ١٦٠
- ١٦٥ ..... **الرحلة إلى الصين ومتاعبها**  
 السلطان يرسله سفيراً عنه إلى ملك الصين ١٦٥ - اضطراب الأمن في الهند أيام  
 محمد تغلق ١٦٧ - الجوكية السحرة ١٦٨ - في دولت أبياد ١٦٨ - دخوله جزائر  
 ذيبة المهل ١٧١ - رحلته بخداع ساحل ملييار ١٧٢ - سلطان هنور ١٧٢ - تعصب

## صفحة

المندوس ١٧٢ - مدن الساحل التي مر بها ١٧٣ - قاليقوط ١٧٣ - مراكب  
الصين ١٧٤

**مخاطر ومخاطر ..... ١٧٦**

ابن بطوطة يستأجر جناحا بمجام في سفينة ١٧٦ - الأمواج والرياح تذهب بالسفينة  
وأهله فيها ١٧٧ - سفره إلى كولم ١٧٧ - عودته إلى هنور ١٧٨ - الحملة على  
سنديبور ١٧٨

**في جزر ذيبة المهل (الملييف) ..... ١٨٠**

حياة جديدة لابن بطوطة ١٨٠ - قوام طعامهم السمك ١٨١ - النارجيل ١٨٢ -  
أهل الملييف ١٨٢ - نساء ذيبة المهل ١٨٢ - حكومة الملييف ١٨٣ - سلطنة  
الملييف ١٨٣ - يصاهر البيت المالك ١٨٣ - في سرنيب ١٨٤

**زيارته الثانية لجزائر المهل وبنجالة ..... ١٨٥**

إصابةه بالحمى ١٨٥ - يفقد كل شيء ١٨٦ - عودته إلى ذيبة المهل ١٨٦ - بلاد  
 البنغال ١٨٧ - مدينة سدكاوان ١٨٨ - أسام ١٨٨ - التبت ١٨٨

**في بلاد الملايو ..... ١٩١**

سلطان سومطرة ١٩٢ - مل جاوة ١٩٣ - الإبحار من ملقا إلى الصين ١٩٣ - بلاد  
طوالسي ١٩٤

**الصين ..... ١٩٧**

شكوك حول ابن بطوطة أرض الصين ١٩٦ - وصفه العام للصين ١٩٦ -  
نهر الحياة ١٩٦ - رأى علماء الغرب في زيارة ابن بطوطة للصين ١٩٧ - هناك  
مايبرر دخول ابن بطوطة الصين ١٩٩

## صفحة

- صورة الصين عند ابن بطوطة ..... ٢٠٢  
 العملة الورقية والبلاست ..... ٢٠٢ - المسافانا ..... ٢٠٢ - أصل اسم الصين ..... ٢٠٢ - مهارة  
 أهل الصين في الصناعات والتصوير ..... ٢٠٣ - ثناء ابن بطوطة على حكومة  
 الصين ..... ٢٠٣ - ابن بطوطة يلتقي هو وفرا من وفد سلطان الهند إلى ملك  
 الصين ..... ٢٠٤ - ديوان المرسى ..... ٢٠٤ - ابن بطوطة وتجار المسلمين ..... ٢٠٤ - رحلته  
 للقاء خان الصين ..... ٢٠٤ - مدينة المسلمين في زيتون ..... ٢٠٥
- وصوله إلى خان بالق وهي بكين ..... ٢٠٧  
 المسلمين في قنجنفو يهتفون باسم بطوطة ..... ٢٠٧ - نفوره من بلاد الصين ..... ٢٠٧ -  
 مدينة الخنسا ..... ٢٠٧ - موت قان الصين ..... ٢٠٩ - وقوع الفتنة وعدة  
 ابن بطوطة ..... ٢١٠ - هلرأى ابن بطوطة الرخ ..... ٢١١
- العودة من الشرق والرحلة إلى الأندلس ..... ٢١٣  
 من سومطرة إلى ظفار ..... ٢١٣ - مروره في إيران ..... ٢١٤ - في العراق ..... ٢١٤ - في  
 بغداد ..... ٢١٤ - في دمشق ..... ٢١٥ - الوباء الكبير ..... ٢١٥ - المرور بمصر ..... ٢١٥ -  
 القاهرة ..... ٢١٥ - قضاء العمرة ..... ٢١٦ - تقريره العودة إلى المغرب ..... ٢١٦ - العودة إلى  
 سبتة ..... ٢١٧ - أسلوب ابن بطوطة في الكلام يتغير ..... ٢١٨ - أبو عنان فارس  
 المتكفل ..... ٢١٨ - ابن بطوطة يدخل حاشية السلطان ..... ٢١٩ - الرحلة إلى  
 الأندلس ..... ٢١٩ - مملكة غرناطة عندما زارها ابن بطوطة ..... ٢٢٠ - مدينة جبل  
 طارق ..... ٢٢٠ - في رندة ..... ٢٢٠ - الطريق إلى مالقة ..... ٢٢٠ - تعاصر ثلاثة من  
 الأعلام ..... ٢٢١ - موقف ابن خلدون من ابن بطوطة ..... ٢٢٢
- الرحلة السودانية ..... ٢٢٤  
 في مملكة مالي ..... ٢٣٠  
 النساء في مالي ..... ٢٣٠ - غرائب من الأشجار ..... ٢٣٠ -أشجار غريبة أخرى ..... ٢٣١ -  
 إكرام ملك مالي إياتا ..... ٢٣٣ - ماذا أعجب ابن بطوطة في مالي؟ ..... ٢٣٣

٢٩١

صفحة

٢٣٥ ..... العودة وكتابه الرحلة

طريق العودة - ٢٣٥ - في بلاد الطوارق - ٢٣٥ - بلاد التبر - ٢٣٦ - نص الرحلة من

تفيد ابن بطوطة وتحرير ابن جزى ٢٣٧ - رحلة ابن بطوطة استطلاع للعلم

الإسلامي في عصره ٢٣٨

٢٤٣ ..... الفهارس



رقم الإيداع

١٩٨٠ / ٢٩٧٥

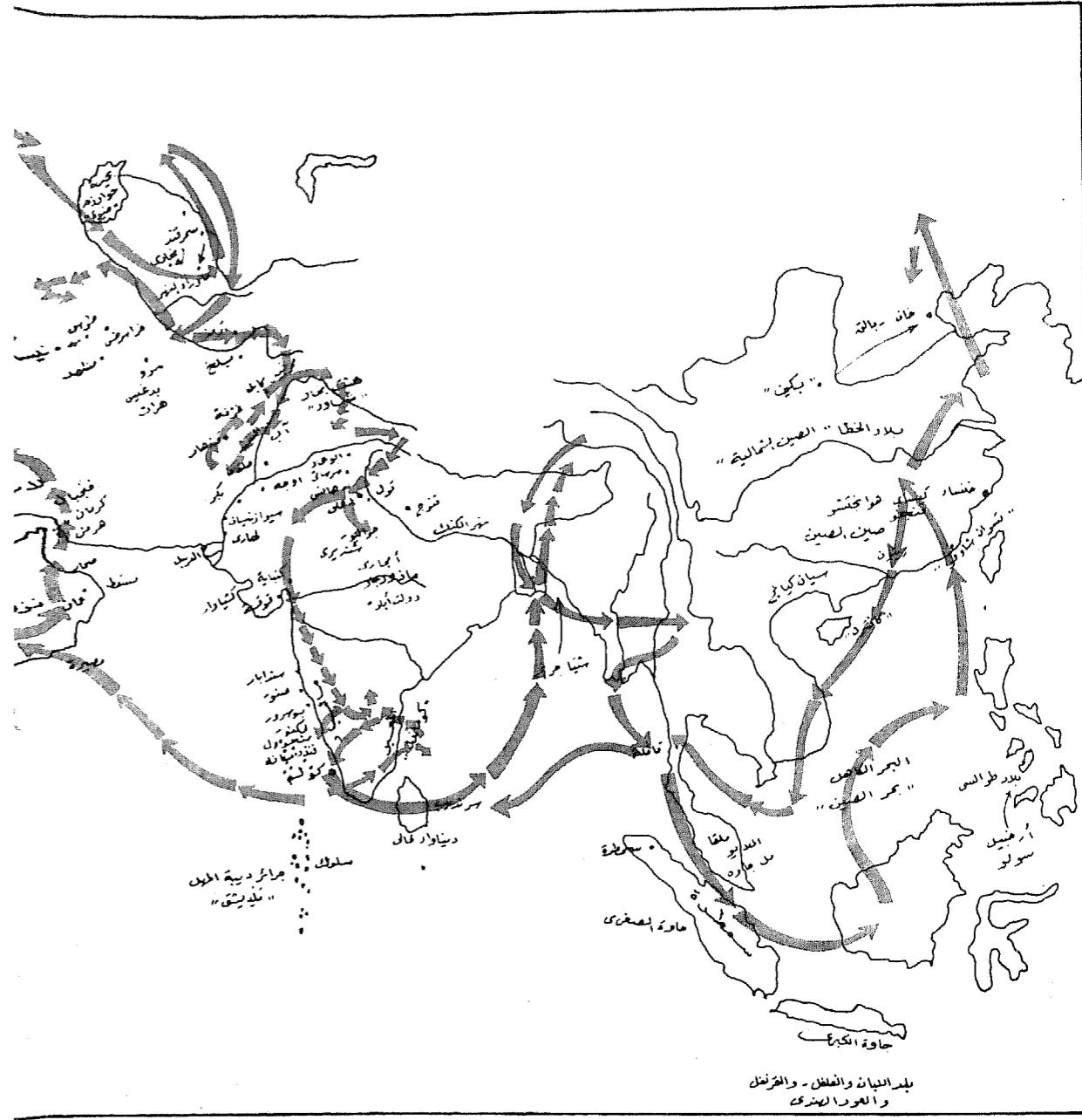
الترقيم الدولي ٩ - ١٨ - ٢٤٧ - ٧٣٣٠ - ISBN ٩٧٧

١ / ٧٩ / ٢٢٥

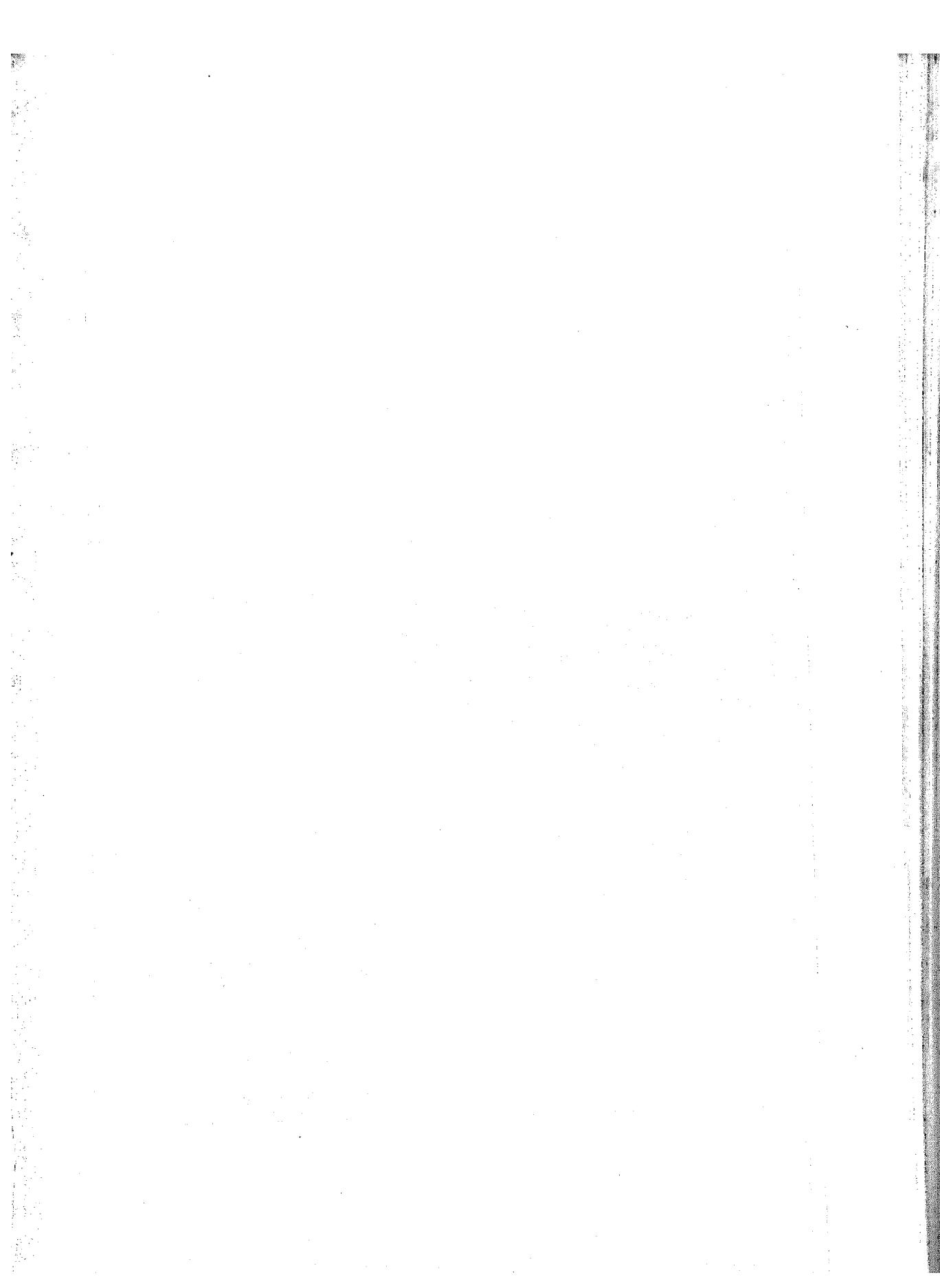
طبع بطباعي دار المعارف (ج. م. ع.)

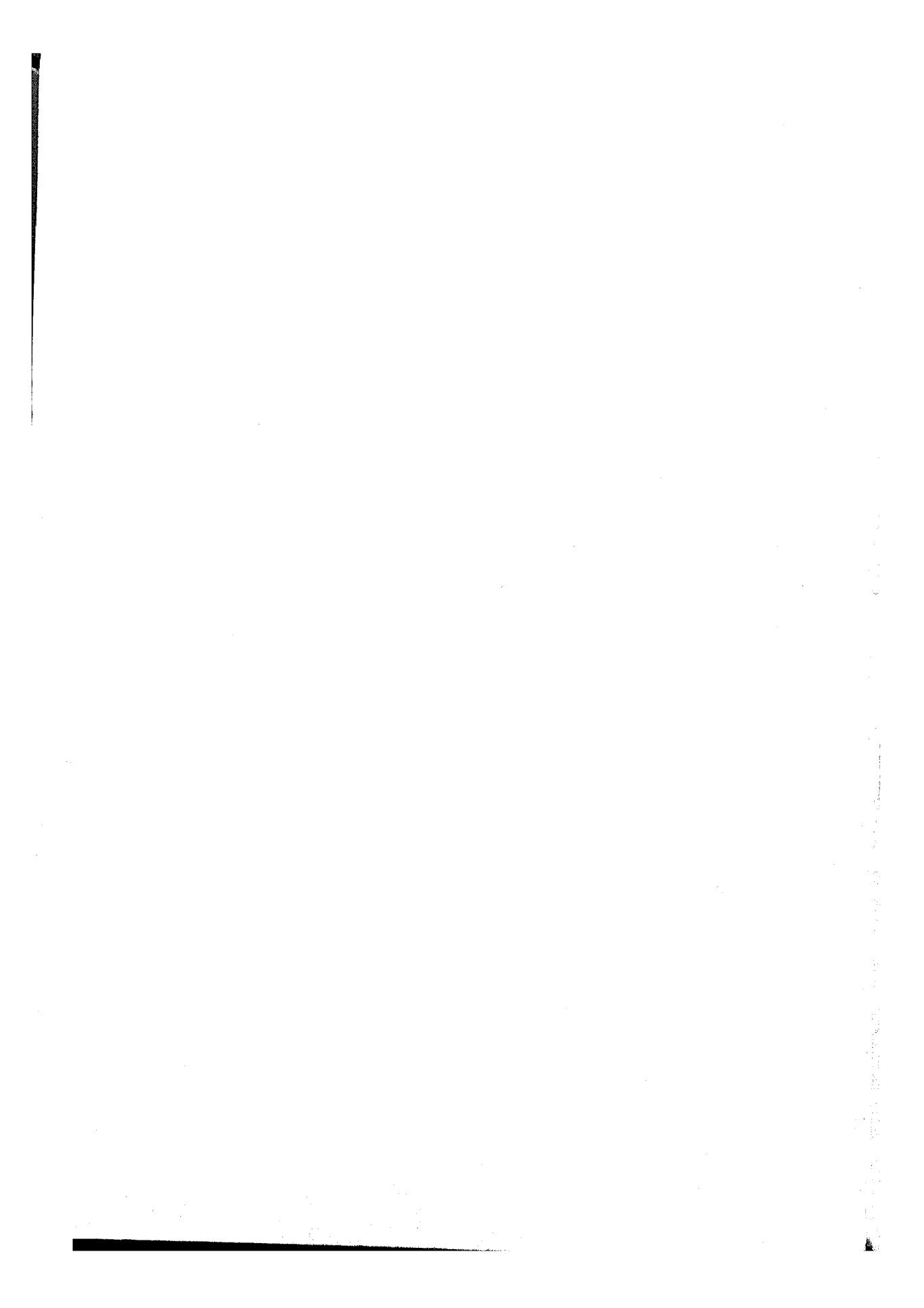
## رَحْلَاتِ ابْنِ بَطْوَطَةِ

٩ رجب ٧٩٥ / ١٤ يوليوز ١٣٥٥ - ذوالحججة ٧٥٤ / سبتمبر ١٣٥٣  
 ٢٢ سنتاً وسبعين شهرًا شهرياً مملاً دامت  
 ٧٥٠٠ ميل أنجليزي تقدر بـ



بلد البيان والعلفان - والقرفلان  
 والعمران العبران





## هذا الكتاب

كانت رحلات ابن بطوطة بمتابة «تقرير» عن أحوال الأمة الإسلامية خلال القرن الثامن الهجري - الرابع عشر الميلادي - وقد أقدم الكثيرون على عرض هذا التقرير بوجه متعددة ، فنهم من اختصره . . ونهم من هذبه . . ومنهم من انتقى منه ، وكل يؤكد لابن بطوطة فضله وقدرته . .

أما تحقيق هذه الرحلات ووضعها في إطارها الجغرافي والتاريخي من بدايتها إلى نهايتها ثم دراستها جملة واحدة ، وإظهار قيمتها لعلم الإسلام ، فأمر لم يقدم عليه أحد من قبل .  
وها هو ذا الدكتور القدير حسين مؤنس يقدم هذه الإضافة العلمية مذيلة بفهرس عامـة تأخذ بيد القارئ والدارس ، وتبين الإفادة الكاملة . .

Bibliotheca Alexandrina



0385653